الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- قسنطينة -
معهد الحضارة الإسلامية

الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع هجري

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة

إعداد
رابح دوب

إشراف
الدكتور حسيني علي رضوان

العام الجامعي 1994

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو
كان بعضهم لبعض ظهيرا »

الإسراء 88

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

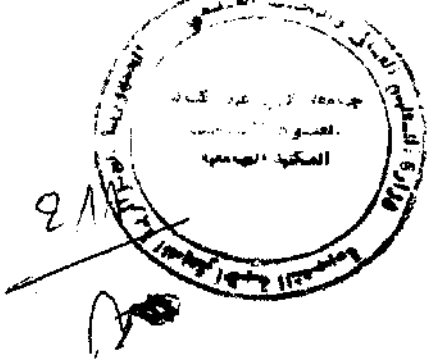

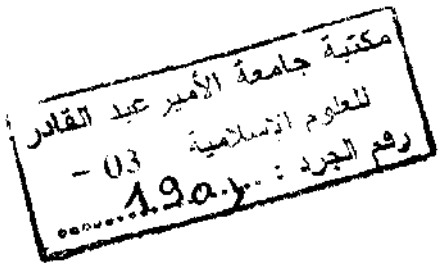

الإهداء

إلى أبي وأمي
أطال الله في عمرهما
وإلى عائلتي الصغيرة والكبيرة
عرفانا بالجميل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

موضوع هذه الرسالة : (**الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري**) موضوع جديد وحقل بِكر لم يتناوله أحد من قبل . وقد يندهش المهتمون بالدراسات البلاغية عندما يدركون أن المكتبة العربية قد خلت من هذا البحث الذي يسد فراغا كبيرا في إسهامات المفسرين في تأصيل الدرس البلاغي .

وترجع دوافع اختياري لهذا الموضوع إلى مرحلة الماجستير بالقاهرة عندما تحدث أحد أعضاء المناقشة عن كيفية تناولي لموضوع الصورة الفنية في رسالتي . إذ أثنى ثناء كبيرا وقال : (إنه موضوع رائع يحسب للباحث، وقد وُفق في التحليل البلاغي لأجزاء الصورة الشعرية إلى أقصى حد) .

وقد شاء المولى عز وجل أن أعيّن في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية لتسند إليّ تدريس مادة البلاغة وإعجاز القرآن ، من هنا بدأ اهتمامي المتزايد كلما تعمقت في تحضير مذكراتي . وقد كانت المناقشات الساخنة بيني وبين طلابي في المدرج حول البلاغة القرآنية هي الدافع الرئيسي لاختياري هذا الموضوع .

فالمفسرون هم أصحاب الفضل الأول في بيان ما غمض من المفردات وما خفي من المعاني ، لأن البلاغة والنحو وغيرهما من علوم اللسان إنما وجدوا من أجل فهم كتاب الله بعدما اتسعت مساحة الدولة الإسلامية ودخلت في الإسلام أجناس غير عربية لا تحسن استعمال ولا فهم لغة القرآن الكريم ، عندها هب علماء الإسلام يبحثون عن القواعد التي تحفظ اللغة العربية من تسرب اللحن ومن ثم المحافظة على سلامة أسلوب القرآن الكريم .

ومن هذا المنطلق فإننا نعدّ كل من تناول بضع آيات من الذكر الحكيم هو في الحقيقة مفسر لأنه ليس بالضرورة تناول كل القرآن الكريم بالتفسير . وقد رأينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو أول مفسر - لم يتناول القرآن الكريم كله بالبيان والشرح بدليل سؤال الصحابة بعضهم بعضا عن معنى آية أو عبارة أو لفظة في القرآن . وعندما لا يجدون لها مصدرا عند الرسول صلى الله عليه وسلم - بعد وفاته - يجتهدون برأيهم بناء على معرفتهم العميقة بلغة العرب وطرائقهم في التعبير وعاداتهم وقد مثل هذا النموذج عبد الله بن عباس في مواقف عديدة ذكرنا كثيرا منها في موضعه .

ومن هذا المنطلق كان سيبويه والفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة والمبرد والجاحظ وغيرهم من أوائل مفسري القرآن لأنهم تناولوا جميعا سورا وآيات وحللوها كل

حسب رؤيته واتجاهه . وقد ساهموا بذلك في تأصيل الدرس البلاغي من خلال تفسير القرآن الكريم .

وقد رسخ في أذهان بعض الباحثين عن نشأة البلاغة أن أبا عبيدة هو أول من تناولها بالحديث ، ولعل الذي أغراهم بهذا الاعتقاد هو كتابه المشهور (مجاز القرآن) الذي يحمل عنوانا بلاغيا واضحا ، ومن هنا أغفلوا الحديث عن الفترة التي سبقت أبا عبيدة ، فلم يتناولوا كتاب سيبويه بالدراسة الجدية التي تتلاءم مع قيمته البلاغية وأثره الكبير في تأصيل هذا العلم ، وقد وجدنا الباحثين تجاه سيبويه فريقين :

الفريق الأول كان من المهتمين بالدراسات البلاغية فنظر إلى سيبويه من خلال كتب عبد القاهر الجرجاني عندما يشير إليه في بعض المواضع من دلائل الإعجاز خاصة في معاني النحو . ويرون في هذه الإشارة أثرا من آثار سيبويه في البلاغة بصفة عامة وفي عبد القاهر بصفة خاصة دون أن يلجأوا إلى كتاب سيبويه لاستنباط ما فيه من لمحات بلاغية دقيقة .

والفريق الثاني كان من المهتمين بالدراسات النحوية ، فبحث الكتاب بحثا وافيا لاستنباط قواعد النحو والصرف واللغة دون أن يشير إلى آرائه البلاغية إشارة صريحة . ولهذا ظل كتاب سيبويه كتابا نحويا فقط ، في حين أنه زاخر بالإشارات البلاغية التي بنى عليها اللاحقون نظرياتهم في المعاني والبيان . ولهذا كان لزاما علينا أن نتتبع نشأة البلاغة منذ القرن الأول لأنها كانت تتطور من قرن إلى قرن حتى نهاية القرن الرابع الهجري حيث بدأت معالمها تتضح أكثر فأكثر خاصة على يد أبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين الذي وضع فيه اللبنة الأولى في بناء النظرية البلاغية .

وقد كانت مسيرة هذا البحث طويلة وشاقة تتطلب كثيرا من الصبر والتأني لأن المادة البلاغية كانت مبعثرة هنا وهناك ، تتطلب مجهودا جبارا لاستخراجها من بطون الكتب الضخمة ، خاصة إذا كان كتاب في مثل حجم جامع البيان للطبري حيث تستهوي الباحث تخريجاته الرائعة في القراءات وتصويباته الدقيقة لآراء الفقهاء والمحدثين وترجيحاته المقنعة المؤيدة بالحجة والبرهان لآراء نحاة البصرة والكوفة . كل هذا جعلني أطيل الوقوف عند الطبري ، واستغرق مني أكثر من ثلثي الوقت في جمع الإشارات البلاغية المبعثرة في ثلاثين جزءا تضم ثلاثة آلاف ورقة من الحجم الكبير . وقد كدت أن أتراخى لولا تشجيعات أساتذتي وعلى رأسهم الأستاذ المشرف . وقد كانت ثقتي بالله كبيرة وفوق كل شيء خاصة وأنا أبحث في

أقدس نص وأعز نص في الوجود وهو القرآن الكريم مما شد أزري وضاعف من عزيمتي وجعلني أتخطى كل الصعوبات والعوائق التي تعترض سبيل كل باحث جاد.

وقد تنوعت مصادر ومراجع هذا البحث ، فقد كان عمادها كتب التفسير والدراسات القرآنية وكتب الإعجاز البلاغي التي استخرجت منها الإشارات البلاغية، وقد تعمدت إغفال بعض المصادر وعدم تناولها لاقتناعي بأنها لم تضف شيئا جديدا بالنسبة إلى مثيلاتها، وعلى رأس هذه المصادر : معاني القرآن للأخفش ومعاني القرآن للنحاس ومعاني القرآن للنقاش ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج . فهذه الكتب جميعا لا تعدو أن تكون تكرارا لما قاله أبو عبيدة والفراء وابن قتيبة.

وقد استعنت بالمعاجم وكتب الطبقات وكتب البلاغة في هذا الموضوع الذي يتطلب الرجوع إلى المراجع المساعدة وهي كثيرة جدا أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

1 - أثر النحاة في البحث البلاغي حتى نهاية القرن الخامس للدكتور عبد القادر حسين . وقد أفدت منه إفادة كبيرة خاصة من حيث منهجية تناوله لطبقة النحاة وكيف بدأ بالأهم ثم المهم ، وقد تعرض في هذا الكتاب إلى أثر المفسرين في البحث البلاغي ولكن مع الأسف الشديد كان تناوله لهذا الموضوع الهام مقتضبا جدا ، إذ لم يتعد الأربع صفحات وهي عبارة عن وصف لبعض كتب التفسير دون التحليل العميق لإسهامات المفسرين في تأصيل الدرس البلاغي .

لكن هذا لن ينقص من قيمة الكتاب شيئا ويبقى تجربة رائدة في مجال البحث البلاغي في ضوء تفسير القرآن .

2 - النحو وكتب التفسير للدكتور إبراهيم عبد الله رفيدة وهذا الكتاب عبارة عن موسوعة علمية ضخمة يقع في مجلدين كبيرين وهو بحث نحوي قرآني تفسيري تناول فيه صاحبه صلة النحو بالقرآن الكريم وتفسيره وقراءاته منذ نشأة النحو إلى يومنا . وقد قرر أن هذه النشأة كانت في رحاب القرآن الكريم وبوحي من قدسيته ووجوب المحافظة عليه وصيانته من اللحن وفساد الألسنة وتكسرها .

وقد وقفت طويلا على هذا الكتاب واستفدت من منهجه الدقيق في بيان صلة النحو بالتفسير . لكنني لم أقف عند إشارة أو تلميح صريح من المؤلف إلى المباحث البلاغية باعتبارها صنو النحو ، إذ أنها في القرون الأولى كانت متداخلة مع بعضها . وعلى الرغم من هذا فإن الكتاب قد أضاف شيئا جديدا للمباحث القرآنية إذ لا يمكن بأية حال من الأحوال تجاوزه أو تجاهله أو عدم دراسته دراسة وافية .

3 - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري للدكتور جمال العمري . وقد تناول فيه نشأة قضية الإعجاز

وتطورها واتصال هذا التطور بنشأة علوم البلاغة وتطورها ، فقد بين أن البلاغة العربية في إطار قضية الإعجاز قد قطعت رحلة طولها ما يقرب من أربعة قرون ، منذ نشأت على نحو ساذج - مجرد ملاحظات أو إشارات - في بداية القرن الثالث الهجري على هامش العلوم الأخرى حتى استقرت على صورتها النهائية عند السكاكي ومدرسته ، وقد تابع الباحث مراحل البلاغة في ضوء قضية الإعجاز متابعة جدية ودقيقة ، مما جعلني أطيل الوقوف عنده خاصة عند جمع المادة المتعلقة بالباب الأخير من رسالتي . غير أن المؤلف اهتم كثيرا بقضية الإعجاز وخاصة الصراع بين المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وغيرهم فطغى الجانب العقلي النظري على الدرس التطبيقي . ومع هذا يبقى الكتاب من المباحث البلاغية الهامة لكل الباحثين والدارسين للإعجاز البلاغي .

4 - التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس للدكتور حمادي صمود . وهو عمل أكاديمي هادف استطاع المؤلف أن يجول في الأبعاد التاريخية للفكر البلاغي عند العرب حتى القرن السادس . وقد ركز في بحثه على الجاحظ تركيزا كبيرا حتى أنه قسمه إلى ثلاثة أقسام وكان محوره في هذا هو الجاحظ فجعل كتابه على النحو التالي :

- البلاغة قبل الجاحظ
- الحدث الجاحظي
- البلاغة بعد الجاحظ

وقد حاول الباحث جاهدا أن يتناول التراث من منطلق التفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتظمنها ، ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها اليوم للمساهمة بها في تغذية النقاش القائم حول هذه القضايا .

وفي الواقع أن غوص الباحث في مصطلحات الحداثة ومصطلحات السيمياء أبعدنا كثيرا عن تذوق حلاوة تحليلات الجاحظ البلاغية الراقية ، ناهيك أنه لم يشر إطلاقا إلى إسهامات الطوائف الأخرى في التفكير البلاغي . مثل المفسرين وأصحاب الدراسات الإعجازية . لكن هذا لا يجعلنا نتخطى البحث أو نغفله لأنه ضم في ثناياه تأريخا دقيقا لمراحل الدرس البلاغي وإن كان من منطلق واحد وهو المعاصرة .

وانطلاقا من هذه الملاحظات جميعا جاء بحث الدرس البلاغي عند المفسرين ليسد ما أمكن من ثغرات وليبرز إسهامات هذه الطائفة في بناء الصرح البلاغي الشاهق .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن نتتبع في دراستنا منهجا تكامليا يجمع بين الوصف والتأريخ وتحليل الظواهر البلاغية المبثوثة في ثنايا المصادر المتنوعة بعد جمعها وتبويبها لتسهل دراستها . وقد فرض علينا هذا الامتداد الزمني (أربعة قرون) وتناثر المادة البلاغية في مصادر عديدة (كتب التفسير وكتب النحو والمعاني وكتب الأدب ...) أن تشتمل الرسالة على تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

في التمهيد : تناولت مفهوم البلاغة والفصاحة في القرون الأربعة الأولى وبدأت بتقديم مفهوم البلاغة في اللغة والاصطلاح ثم مفهومها في العصر الأموي ثم في القرن الثاني حيث كانت ذات مفهوم واسع وفضفاض ، ثم تناولت مفهومها في القرن الثالث حيث بدت معالمها تتضح شيئا فشيئا حتى أصبحت محددة تقريبا في القرن الرابع الهجري . ثم تناولت مفهوم النقد الأدبي باعتباره يرتبط ارتباطا وثيقا بالبلاغة ثم بينت علاقة البلاغة به .

وفي الباب الأول : تناولت الدرس البلاغي من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نهاية القرن الثالث . وقد ضم أربعة فصول :

في الفصل الأول : تناولت الدرس البلاغي وإشاراته في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .

في المبحث الأول : تناولت الدرس البلاغي في عصر الرسالة وأوجه البيان في تفسيره صلى الله عليه وسلم .

وفي المبحث الثاني : تناولت الدرس البلاغي في تفسير الصحابة رضوان الله عليهم ، ثم وقفت على الإشارات البلاغية المتطورة في تفسير ابن عباس . ثم بينت أثر مدرسته في التفسير وقدمت أمثلة ونماذج من تفسير بعض التابعين أمثال مجاهد ابن جبير وعكرمة بن عبد الله المدني وعطاء بن أبي رباح .

وفي الفصل الثاني : تناولت الدرس البلاغي عند الدارسين للقرآن الكريم خلال القرن الثاني .

في المبحث الأول : تناولت الدرس البلاغي عند سيبويه وقد ركزت على المجاز والاستعارة التمثيلية .

وفي المبحث الثاني : تناولت الدرس البلاغي عند الفراء وبدأت بمعالجة الفراء لظاهرة خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي ثم إشاراته إلى المجاز العقلي والمجاز المرسل والاستعارة والتشبيه والكناية والتكرار .

وفي المبحث الثالث : تناولت الدرس البلاغي عند أبي عبيدة وبدأت بمعالجته لمسألة خروج الاستفهام عن معناه الأصلي باعتبار أن هذه المسألة هي أول انحراف

نحو المجاز ، ثم تحدثت عن إشاراته المتطورة جدا إلى المجاز المرسل والمجاز العقلي والمجاز الاستعاري ثم الكناية التي وضع يده على معناها الاصطلاحي في مواضع عديدة ثم تحدثت عن ملاحظاته للمجاز بالحذف والمشاكلة .

وفي المبحث الرابع : تناولت تفسير كتاب الله العزيز بين هود بن محكم الهواري ويحيى بن سلام البصري . وقد بدأت بالتعريف بالمفسرين خاصة هود بن محكم الهواري وهو المفسر الجزائري الوحيد في هذه الفترة الذي وصلتنا آثاره كاملة . وكذلك يحيى بن سلام المعروف بكتاب التصاريف . ثم تناولت منهج المفسرين وقدمت ثلاثة نماذج من تفسيريهما وحاولت أن أشير إلى الدرس البلاغي في تلك النماذج وهي إشارات خفيفة جدا لا تكاد تذكر .

وفي الفصل الثالث : تناولت الدرس البلاغي عند المفسرين ودارسي القرآن في القرن الثالث الهجري .

في المبحث الأول : تناولت الرؤية البلاغية لابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل القرآن ، فبدأت بالمجاز باعتباره إحدى القضايا الكبرى التي دافع عنها وبينت أحكام المجاز عنده على ضوء تفسيره . ثم تحدثت عن الاستعارة وأحكامها في نظره ثم عن المقلوب والإيجاز والإطناب ، والتكرار في القرآن في تصوره .

وفي المبحث الثاني : تناولت المبرد ورؤيته البلاغية وقد بدأت بتحديد الرؤية البلاغية عنده التي بدت متطورة جدا ، باعتباره أول من كتب مصنّفا صغير الحجم يحمل عنوان البلاغة ، ثم تناولت الإشارات البلاغية في كتابه الكامل مثل الالتفات والمجاز والكناية والاستعارة .

وفي الفصل الرابع تناولت الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة باعتبارهم من أهم الطوائف الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تطوير المباحث البلاغية . فتعرضت إلى علم البلاغة والمعتزلة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم ثم بينت المبدأ اللغوي في تفاسيرهم ثم تحدثت عن أبرز تفاسيرهم وخصائص الدرس البلاغي فيها ، ثم بينت كيف يرتبط الدرس البلاغي بعقائدهم ارتباطا وثيقا .

ثم أبرزت فروقا دقيقة بين ابن قتيبة السني والمعتزلة في موضوع المجاز وبينت مدى توسع المعتزلة في المجاز العقلي في تفاسيرهم ، ثم بينت رؤية القاضي عبد الجبار فيما ذهب إليه المرتضى في التفسير والإعجاز ، ثم وضحت الحقيقة والمجاز في التفسير بين ابن جني والمعتزلة ، وأخيرا تحدثت عن قدسية اللغة ومثالية الموروث من كلام العرب عند المعتزلة .

الباب الثاني : وهو الإمام الطبري وتفسيره وقد ضم أربعة فصول هي :

في الفصل الأول : تناولت تفسير جامع البيان باعتباره أضخم وأثرى تفسير وصلنا في تلك الفترة . وقد بدأت بتقديم لمحة مختصرة عن ذلك التفسير ثم تناولت مادته وبينت منهجه الذي يرتكز على :

1 - الاعتماد على المأثور الذي ثبتت صحته .
2 - التنحي عن التفسير بالرأي وماذا يعني بالرأي
3 - دقته في الإسناد
4 - الاعتماد على علوم اللغة
5 - الحديث النبوي الشريف
6 - الاستعانة والاستشهاد بالشعر
7 - تسجيل القراءات
8 - العناية بالإعراب
9 - مناقشة الآراء الفقهية
10 - تصويب رأي السلف
11 - الإدلاء برأيه
12 - التقليل من الأساطير

وفي الفصل الثاني : تناولت الدرس البلاغي في تفسير الطبري :

في المبحث الأول : تناولت موضوع الاستفهام باعتباره أول مشكلة تصادف المفسر في تحليله لصيغة الاستفهام التي ترد في بعض الآيات مما تطرح إشكالية كبرى ، هل يستخبر الله عز وجل - والله منزه عن هذا - ومن ثم يقتضي صرف الاستفهام عن معناه الحقيق فيخرج بذلك إلى المجاز . ثم تناولت قضية الأمر والنهي وبينت أن حكمهما هو حكم الاستفهام في ضرورة صرفهما عن الحقيقة إلى المجاز في بعض الآيات .

وفي المبحث الثاني : تناولت علم البيان في تفسير الطبري وقد لاحظت أن مصطلحات العلوم البلاغية الثلاثة متداخلة عنده لكن هذا التقسيم اقتضته الضرورة المنهجية . وأول ما بدأت به هو موضوع المجاز في تفسيره باعتباره أحد القضايا الكبرى التي ثار حولها جدل حاد لم تمح آثاره إلى يومنا . ثم وضحت رؤية الطبري للمجاز العقلي والمرسل والاستعارة والكناية والتعريض . وقد وقفت وقفة مطولة على فن التشبيه عند الطبري الذي أولاه عناية خاصة ، وبدأت بتحديد مفهومه عند البلاغيين ثم رؤية الطبري له . فقد تعرض في تفسيره إلى تشبيه المحسوس بالمحسوس والمعقول بالمعقول والمعقول بالمحسوس وتشبيه المحسوس بالمعقول ، ثم

تشبيه التمثيل وقد بدت رؤية الطبري البلاغية في هذا متطورة جدا .

وفي الفصل الثالث : تناولت علم المعاني والبديع في تفسير الطبري .

في المبحث الأول : تناولت علم المعاني وقدمت له بلمحة موجزة عن مفهومه عند البلاغيين . ثم تحدثت عن رؤية الطبري لعلم المعاني . وأول مسألة أثرتها هي مسألة الزائد في القرآن الكريم وكيف عالجها الطبري ثم تحدثت عن الحذف والذكر وأسرارهما البلاغية في تفسيره ، ثم عن أسلوب القصر وألوانه ثم أسلوب الفصل والوصل .

وفي المبحث الثاني : تناولت علم البديع في تفسير الطبري وبدأت بالطباق والجناس والمشاكلة والاستثناء والعكس .

وفي الفصل الرابع : الذي أعطيته عنوان (على درب الطبري) تناولت بحر العلوم للسمرقندي . ونظرا لأن هذا التفسير ظل مخطوطا ولم يحقق إلا مؤخرا وخرج إلى السوق في نهاية عام 1993 م فضلت الوقوف طويلا على التعريف بمؤلف هذا التفسير ثم تناولت منهجه الذي يعتمد على :

1 - وجوب التفسير عنده
2 - التفسير بالمأثور
3 - تفسير القرآن بالقرآن
4 - تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم
5 - تفسير الصحابة
6 - تفسير التابعين

ثم تناولت الإسرائيليات في تفسيره وتعرضت إلى أقسامها ثم بينت كثرتها في تفسيره . ثم تحدثت عن المنهج اللغوي في تفسيره . وأخيرا ركزت على الدرس البلاغي في تفسيره الذي بدا خافتا إذا ما قارناه بتفسير الطبري . ولهذا أدرجته ضمن باب الطبري لأن تفسيره يعد اختصارا لتفسير جامع البيان .

أما **الباب الثالث والأخير** : فهو الدرس البلاغي وقضايا الإعجاز القرآني . وقد اشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تناولت فيه الإعجاز القرآني وقضاياه . فبعد التمهيد تعرضت إلى أهم مؤلفات الإعجاز القرآني ثم تحدثت عن خصائص الدرس البلاغي في تلك الآثار . وميزت فيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : المحكم والمتشابه في القرآن الكريم

المسألة الثانية : رد الشبه والمطاعن عن القرآن الكريم . وتناولت فيها ظاهرة

الشكل والأسلوب وظاهرة التكرار .

المسألة الثالثة : قضية الإعجاز بين المتكلمين واللغويين . وتعرضت إلى المجاز اللغوي والتأثير النفسي ودراسة الجمال والذوق الأدبي .

وفي الفصل الثاني : تناولت الجاحظ ورؤيته في الدرس البلاغي على ضوء أساليب القرآن وإعجازه . فبدأت بالحديث عن الجاحظ واتجاهات التفسير في عصره ثم عن الدرس البلاغي ورؤية الجاحظ في إعجاز القرآن ثم إلى معالم الإعجاز البلاغي في دراساته وهي :

1 - المفردة القرآنية

2 - المجاز والاستعارة والتشبيه

3 - الإيجاز

4 - الكناية

5 - البديع أو النظم الموسيقي والوزن في القرآن أو السجع والفاصلة .

وفي الفصل الثالث : تناولت الباقلاني وجهوده في الإعجاز البلاغي . فتحدثت عن الباقلاني ونظرية إعجاز القرآن ثم عن رأيه في القول بالصرفة ثم عن دراساته في الإعجاز ثم عن تطبيق منهجه على نظم القرآن وأسلوبه ووقفت على تحليله لسورة النمل . وأخيرا بينت رؤيته في قضية تعادل النظم والبلاغة وكيف أنه أبعد مسألة التفاوت الفني في القرآن الكريم إذ أنه ساوى بين الحقيقة والمجاز في البلاغة.

أما الخاتمة فقد تعرضت فيها باختصار شديد - خشية الوقوع في التكرار - إلى أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

ثم قدمت ملخصا له باللغة الفرنسية لتعميم الفائدة أكثر.

ثم وضعت الفهارس العامة للرسالة : فهرس الآيات والأحاديث النبوية وفهرس الأشعار وفهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات .

وفي الأخير لا يفوتني أن أقدم شكري الحار للذين كان لهم الفضل في إخراج هذا البحث إلى الوجود . وعلى رأسهم أستاذي المشرف الدكتور حسيني علي رضوان الذي أخذ بيدي وكان عونا لي في كل المراحل التي قطعتها ، إذ كان يذلل الصعاب أمامي بتوجيهاته السديدة ويحمسني للعمل كلما تراخيت ويبشرني بقرب الانتهاء كلما يئست . فجزاه الله عني خير الجزاء، وأبقاه ذخرا لنا يستفيد طلاب العلم من منهله الغزير الصافي .

كما أوجه شكري إلى جامعة الأمير عبد القادر التي وفرت لي كل أسباب البحث

وأعانتني في هذا المشوار الشاق وخاصة مركز الحسابات الذي وقف بجانبي في أثناء طبع الرسالة ومراجعتها وتصحيحها . دون أن أنسى مكتبة الجامعة (الدكتور أحمد عروة) التي سهلت لي طريقة البحث ومكنتني من وضع يدي على كل ما أحتاج إليه من المراجع .

كما أوجه شكري لطلابي الذين كانت تشجيعاتهم لي خير العون ومناقشاتهم لي في المدرج خير الموجه . كما لا أنسى أن أشكر الأساتذة وغيرهم الذين قدموا لي يد العون بملاحظاتهم السديدة من أجل إخراج الرسالة على أحسن وجه .

وعلى الرغم من هذا فإنني أردد مقولة العماد الأصفهاني :

« إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غيّر هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر »

فنسأل المولى عز وجل أن يجعله خالصا لوجهه وأن يتقبل مني هذا العمل وأن يجعله نورا يسعى بين يدي في الدنيا والآخرة فهو عمل قصدت من ورائه خدمة كتاب الله ولغة أمتي .

إنه نعم المولى ونعم النصير .

التمهيد

مفهوم البلاغة والنقد الأدبي في القرون الأربعة الأولى

أولا : مفهوم البلاغة

- البلاغة في اللغة والاصطلاح
- البلاغة في العصر الأموي
- البلاغة في القرن الثاني الهجري
- مفهوم البلاغة في القرن الثالث الهجري
- مفهوم البلاغة في القرن الرابع الهجري

ثانيا : مفهوم النقد الأدبي

- النقد في اللغة والاصطلاح

ثالثا : بين البلاغة والنقد الأدبي

جامعة الأمير القادر للعلوم الإسلامية

أولا : مفهوم البلاغة :

لقد اهتم العربي بصناعة الكلام أكثر من صناعة خبزه ، فالكلمة عنده أقوى سلاح يشهره في وجوه أعدائه ، ومن ثم جاء اهتمامه الكبير بالبلاغة . وقبل أن نتتبع نشأة وتطور هذا الفن نحاول أن نقدم مفهومه .

البلاغة في اللغة والاصطلاح :

فالبلاغة -لغة- هي الانتهاء والوصول ، قال ابن منظور : « بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا وصل وانتهى ، تبلغ بالشيء وصل إلى مراده ، البلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب .

البلاغ الكفاية ، الإبلاغ الإيصال ، بلغت المكان بلوغا وصلت إليه وكذلك إذا شارفت عليه » (1).

كما أشار ابن منظور إلى المعنى الاصطلاحي إشارة خفيفة فقال : « البلاغة : الفصاحة ، والبَلْغُ والبِلْغُ : البليغ من الرجال ، ورجل بليغ وبَلْغٌ وبِلْغٌ : حسن الكلام فصيحه يبلغ بلسانه كنه ما في قلبه ، والجمع بلغاء . وقد بلغ بلاغة صار بليغا »(2).

وعندما نتفحص تعريف ابن منظور لانكاد نجد سوى المعنى العام للكلمة . فهي أولا الانتهاء والوصول إلى الغاية . وهي ثانيا الفصاحة . مما يدل على أن الكلمتين متقاربتان أو مترادفتان ولو بحثنا عن لفظة -بلاغة- لوجدناها قد وردت في القرآن الكريم على صيغة «فعيل» أي -بليغ- وذلك في قوله عز وجل: «**فأعرِضْ عنهم وعِظْهم وقُل لهُم في أنفُسِهِم قَولاً بلِيغًا**»(3) قال الراغب الأصفهاني في شرحها: «البلاغة تقال على وجهين: أحدهما أن يكون بذاته بليغا، وذلك أن يجمع ثلاثة أوصاف: صوابا في موضوع لغته، وطبقا للمعنى المقصود، وصدقا في نفسه، ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة .

والثاني أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له ، وهو أن يقصد القائل أمرا فيرده على وجه حقيق أن يقبله المقول له . وقوله تعالى -**وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا**- يصح حمله على المعنيين »(4).

---

(1) لسان العرب : ابن منظور ، مادة بلغ ج1 ص345

(2) المصدر نفسه ج1 ص346

(3) النساء 63

(4) المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني، ص 60

أما جار الله الزمخشري فقد ذهب في تفسير هذه الكلمة مذهبا نفسيا، وأشار إلى تأثيرها رمزا في قوله: « قل لهم قولا بليغا مؤثرا في قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا » (5) .

كما نجد في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ورود هذه الكلمة بالصيغة نفسها التي وردت بها في القرآن الكريم -بليغ- في قوله: « **إن الله يُبغِض البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلُّل الباقرة بلسانها** »(6) وقد ذهب بعض الشراح إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث عاب المتشادقين والثرثارين ولم يقصد صفة البليغ بذاتها مجردة بل قرنها بالتشادق والتقعر في الكلام مع الخيلاء والتباهي بهذه الميزة التي ميزه الله بها.

أما البلاغة عند الإمام عليّ كرم الله وجهه فهي الكشف عن المعنى وإيضاح الغامض وسهولة العبارة وذلك في قوله: « البلاغة إيضاح الملتبسات ، وكشف عوار الجهالات بأسهل ما يكون من العبارات »(7).

البلاغة في العصر الأموي :

لكن في العصر الأموي نجد تطورا ملحوظا في مفهوم البلاغة وذلك عندما أعجب معاوية بن أبي سفيان بفصاحة صحار بن عياش العبدي فقال له: «ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال صحار: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ ، وأن تقول فلا تخطئ »(8).

فمن خلال هذه القصة نلاحظ فعلا بداية تبلور مفهوم البلاغة ، بل إن صحارا نطق بالمعنى الاصطلاحي للكملة قبل غيره . وقد لخص معاني البلاغة في كلمة جامعة وهي «الإيجاز» وهذا التعريف مازال معتمدا إلى يومنا. وفي ذلك دلالة واضحة على نضج التفكير البلاغي عند العربي وعمق فهمه وشدة ارتباطه بلغته .

البلاغة في القرن الثاني الهجري :

كما أن لابن المقفع -ت146 هـ- أقوالا نافذة في البلاغة تدل على فهمه الجيد لهذا الفن منذ بداية القرن الثاني الهجري. وقد أشاد معاصروه بتعريفه لها، قال

---

(5) الكشاف : الزمخشري ، ج1 ص 407 -408

(6) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الأدب باب ما جاء في الفصاحة والبيان ج4 ص34

(7) الصناعتين : أبو هلال العسكري ، ص52

(8) البرهان في وجوه البيان : ابن وهب الكاتب ، ج1 ص96

إسحاق بن قوهي: «لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد ، سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها مايكون شعرا، ومنها مايكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائلا، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطن وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل والإطالة في غير إملال . وليكن في صدر كلامك دليل حاجتك كما أن خير أبيات الشعر الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته . كأنه يقول: فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التواهب . حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لا خير في كلام لايدل على معناك ، ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزعت . قال فقيل له: فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا ينال »(9).

وقد أوردنا هذا النص على طوله نظرا لأهميته البالغة في تحديد مفهوم البلاغة في القرن الثاني الهجري . فهي كما يبينه النص تختص بجوانب كثيرة في عملية «الاتصال». فقد تكون في الكلام ، وقد تكون في السكوت ، وقد تكون في الإصغاء ، وقد تكون في الإشارة... لكن ابن المقفع يعرفها بكلمة واحدة في قوله: «البلاغة هي الإيجاز» والإيجاز عنده هو أن تضع الكلام الموضع الذي يناسبه.

ويقول في موضع آخر: «البلاغة هي الإيجاز في موضعه والإطناب في المواضع التي تتطلبه ومطابقة الكلام لمقتضى الحال »(10).

وقد عرفها عمرو بن عبيد -ت 144هـ- عندما سأله سائل ما البلاغة؟ فأجابه قائلا: « ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل ليس هذا أريد. قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع . ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال السائل ليس هذا أريد.

---

(9) زهر الآداب وثمر الألباب : أبو إسحاق الحصري القيرواني، تحقيق زكي مبارك ج1 ص113

(10) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج1 ص116

قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا معشر الأنبياء بكاء» أي قليلو الكلام. قال السائل ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت »(11).

نلاحظ من خلال هذا النص تركيز عمرو بن عبيد على التفسير الديني لكلمة البلاغة . فعلى الرغم من عدم اقتناع السائل بهذا التعريف نجده يؤكد عليه بصيغ مختلفة كأنه يريد أن يقول: إن البلاغة هي الكلمة الطيبة مصداقا لقوله عز وجل: «**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**»(12)

أما الخليل بن أحمد الفراهيدي -ت 175هـ- فقد قدم للبلاغة تعريفات عديدة ، فقال: «كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا، وآخر كلامك لأوله مشابها، وموارده لمصادره موازنا فافعل»(13) ونستنتج من هذا التعريف اهتمام الخليل بحسن تركيب الكلام ، وذلك بإحكام ربط أجزاء القول بعضه ببعض لأن اهتماماته اللغوية والنحوية أثرت في مفهومه للبلاغة .

وعرفها أيضا بقوله: «البلاغة كلمة تكشف عن البقية»(14) وقال أيضا: «البلاغة هي ما قرب طرفاه وبعد منتهاه »(15) .

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات أن الخليل بن أحمد يركز على المعنى العام للبلاغة ولا يكاد يشير إلى المعنى الاصطلاحي . وكل هذا مرده إلى اهتماماته اللغوية وانشغاله الكبير باستنباط القواعد النحوية والصرفية .

أما كلثوم بن عمرو العتابي -ت 220 هـ- فقد عرفها بقوله: «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب؛ فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق »(16).

---

(11) عيون الأخبار : ابن قتيبة ، ج2 ص170

(12) إبراهيم 24

(13) الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ضمن رسائل البلغاء : أبو اليسير إبراهيم بن المدبر، ص 252

(14) العمدة : ابن رشيق القيرواني ، ج4 ص242

(15) العقد الفريد : ابن عبد ربه ، ج4 ص190

(16) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج1 ص106

والمقصود هنا من قوله -كل من أفهمك حاجته- إفهام العرب الحاجة على مجاري كلام العرب الفصحاء ، لا معاشر المولدين والبلديين ».(17)

ويعلق الجاحظ -ت 255هـ- على هذا النص بقوله: «لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه إنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه... وإنما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب »(18).

مفهوم البلاغة في القرن الثالث الهجري :

أما الجاحظ فقد كانت له وقفات مطولة ومشاركة واسعة في مسائل البلاغة . فهو بعد أن ذكر تعريفات سابقيه سواء عند الفرس أو اليونان أو الهند أو العرب ، اختار تعريفا يعجبه وهو: « وقال بعضهم- وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه- لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك »(19). ولا نجد في هذا التعريف ما يشير إلى المعنى الاصطلاحي، بل إن الدارس لكتاب البيان والتبيين خاصة ، يقف عند معان متعددة للبلاغة . فهي عنده قد تتصل بالخطابة وذلك في قوله: «إذا كان الخليفة بليغا والسيد خطيبا ، فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين: إما رجلا يعطي كلامهما من التعظيم والتفضيل والإكبار والتبجيل على قدر حالهما في نفسه وموقعهما من قلبه ، وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما والخوف من أن يكون تعظيمه لهما ويوهمه من صواب قولهما وبلاغة كلامهما ما ليس عندهما حتى يفرط في الإشفاق ويسرف في التهمة . فالأول يزيد في حقه للذي في نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ، ولا شفاقة من أن يكون مخدوعا في أمره. فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ ، فالبغض يعمي عن المحاسن. وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوي المنة ، الوثيق العقدة والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكبر »(20).

ندرك من خلال هذا النص أن الجاحظ قد جعل كلمة -البليغ مرادفة لكلمة

---

(17) البلاغة عند الجاحظ : أحمد مطلوب ، ص65

(18) البيان والتبيين : الجاحظ ، ج1 ص161

(19) المصدر نفسه ج1 ص115

(20) البيان والتبيين : الجاحظ ، ج1 ص90

الخطيب- في أثناء حديثه عن حكم الجمهور بين خطبتين ، ونراه عندما عقد باب أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء ، ذكر أسماء الخطباء من القبائل . وهذا يدل على أن الخطابة ترادف البلاغة . فعندما سأل معاوية -كما سبق- صحار العبدي عن البلاغة، وأجابه عنها قال رجل: «يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبسر والرطب أبصر منهم بالخطب »(21). فمعاوية بن أبي سفيان كان يقصد من وراء سؤاله معرفة البلاغة ، والرجل نفى عن قوم صحار الخطابة . وهذا يدل على أن الكلمتين مترادفتان.

كما تتصل البلاغة عند الجاحظ بالشعر وذلك في قوله: « وسنذكر بعض ما جاء في تفضيل الشعر والخوف منه ، ومن اللسان البليغ والمداراة له »(22).

كما تتصل بالنثر أيضا: « ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون »(23)، فالبليغ عند الجاحظ هو صاحب الكلام الموزون ، وهو أيضا صاحب الكلام المنثور. فالبلاغة في القرن الثالث الهجري ذات دلالة واسعة ، كما في قول الجاحظ: «ونحن -أبقاك الله- إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج. فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل»(24).

وهذه العبارة تدل دلالة قوية على المعنى الواسع ، فالبلاغة أنواع وأصناف: قصيد ورجز ، ونثر وسجع ، ومزدوج ومرسل . وهي بالإضافة إلى هذا كله وصف للكلام والمتكلم ، كما جاء في تعريفها الذي اختاره الجاحظ ووصفه بأنه « من أحسن ما اجتبيناه ودوناه » ولعل هذا المعنى هو الذي يأنس إليه الجاحظ ، أما المعاني الأخرى كالخطابة والشعر والنثر وفنون القول المختلفة فقد كانت مجرد مراحل اجتازتها كلمة البلاغة .

ثم صارت إلى ما وصلت إليه فيما بعد من تحديد دقيق للمعنى الاصطلاحي. وقد آثرنا الوقوف طويلا عند الجاحظ لأنه كان من أوائل الذين عرفوا البلاغة وأعطوها اهتماما كبيرا (25). وذلك للرد على خصوم العرب والمسلمين الذين حاولوا الطعن

---

(21) البيان والتبيين ج1 ص96

(22) المصدر نفسه ج4 ص34

(23)الحيوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج3 ص366

(24) البيان والتبيين : الجاحظ ج3 ص29.

(25) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ، ص 137

في القرآن الكريم ، وحاولوا جاهدين أن ينقصوا من الجانب الإعجازي فيه .

لكن هناك من يرى أن الجاحظ لم يضع بينها وبين الفصاحة حدا فاصلا، «وهما عنده البيان بمعناه الواسع قبل أن يقيده المتأخرون بالمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية»(26) غير أنه إذا أنعمنا النظر جيدا في كتابات الجاحظ، وتتبعنا معالجاته البلاغية بكل صبر وتأنٍّ لراجعنا كثيرا من الأحكام المبنية على التسرع وعدم التدقيق.

صحيح أن المتأخرين قد حددوا تلك المصطلحات ووضعوا لها ضوابط ومقاييس واضحة كل الوضوح، فالفصاحة عندهم ثلاثة أقسام: فصاحة المفرد وفصاحة الكلام وفصاحة المتكلم. ولكل هذه الأقسام تعريف خاص. ففصاحة المفرد هي خلوصه من عيوب ثلاثة: تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي.

أما فصاحة الكلام هي خلوصه أيضا من عيوب ثلاثة: تنافر الكلمات ، وضعف التأليف والتعقيد اللفظي والمعنوي، مع فصاحة كلماته المفردة.

وفصاحة المتكلم هي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح خال من عيوب النطق(27).

لقد جاءت هذه الضوابط التي تحدد مفهوم الفصاحة حسبما اقتضته ثقافة هؤلاء في عصرهم. وقد تعمدنا تقديم آراء المتأخرين على رأي الجاحظ الذي يمثل المحطة الرئيسية في القرون الأربعة الأولى، لنبين مدى استفادة وأخذ هؤلاء المتأخرين من كتبه أخذا يكاد يكون نسخا له أو تكرارا لما قاله .

وفي الواقع أن الجاحظ قد غمط جهده البلاغي قليلا، فعلى الرغم من أن هذه المصطلحات لم تكن قد أخذت سمة الضبط والتحديد، فإننا نراه يفرق في كتاباته بين لفظة البلاغة والفصاحة والبيان. والدليل على هذا أنه عقد بابا مستقلا سماه «باب البيان» ثم أتبعه بباب آخر سماه «باب البلاغة»(28).

ونجده عندما يتحدث عن الفصاحة يعني بها خلو الكلام من العيوب التي تخرجه من دائرة الكلام الحسن، ولا نكاد نعثر على نص يذكر فيه البلاغة مقترنة بالألفاظ المفردة، وفي المقابل نجده يجعل الفصاحة تختص بالألفاظ المفردة أو الألفاظ المجردة(29).

---

(26) البلاغة عند الجاحظ : أحمد مطلوب ، ص67

(27) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبين : فوزي السيد عبد ربه عيد ص67

(28) البيان والتبيين : الجاحظ ، ج1 ص202

(29) المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين : فوزي السيد ص171

وعلى هذا الأساس من التمييز والتفرقة بين مدلول هذه الألفاظ يمضي الجاحظ في إرساء مقاييس البلاغة والفصاحة ، وما ينضوي تحتهما من تفاصيل وجزئيات ، وعيوب في المفردة أو المفردات ، يلزم تجنبها كل من يتعرض لصناعة الكلام .

وانطلاقا من هذه التقسيمات استنبط المتأخرون أصول ضوابطهم وتعريفاتهم للبلاغة والفصاحة .

ومما لاشك فيه أن المتأخرين -الذين جاؤوا بعد الجاحظ- قد تأثروا به أيما تأثر، ونهلوا من آثاره الواسعة المعارف ، ولاسيما كتابه «البيان والتبيين» الذي هو أشهر كتبه وأكثرها تداولا وأعظمها نفعا، إذ تتلمذ عليه جمع كثير من الأدباء والنقاد وعلماء الإعجاز والكتاب ممن جاء بعده ، فاستقامت أذواقهم وأقلامهم على الطريقة الجيدة في الكتابة والتأليف واهتدوا إلى النظريات النقدية والبلاغية .

فكتاب البيان والتبيين يعد أهم ما ألف في النصف الأول من القرن الثالث الهجري من كتب تتصل بالنقد والبلاغة وسائر المعارف اللغوية والفكرية .

وبناء على هذا فإنه من الخطإ التقليل من الجهد الذي قدمه الرجل في هذا الكتاب الزاخر بالمعارف المتنوعة، وندعي بأن دراساته كانت مبعثرة ومسهبة بعيدة عن الضبط. فإذا تتبعنا الجهود البلاغية التي جاءت بعده مباشرة -في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري- ندرك بما لا يدع مجالا للشك أن كتاب البيان والتبيين ، قد أثر تأثيرا عميقا في مؤلفات هؤلاء العلماء خاصة في ميدان النقد والبلاغة . ويؤكد هذا الحكم ما ذكره ابن خلدون في مقدمته أنه سمع من شيوخه: «أن أصل هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها»(30).

فمن المؤكد أن «البيان والتبيين» هو أقدم هذه الكتب التي عدها ابن خلدون أصولا للأدب والبلاغة . ومن ثم فإن كتاب الجاحظ يعد أصلا لهذه الكتب . وجميع ما جاء بعده من المؤلفات في هذا الفن هي فروع له ، مع بعض الإضافات والترتيب الجيد.

ولعل أبرز الذين صنفوا في البلاغة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري هما: ابن قتيبة الدينوري-ت276هـ- والمبرد- ت285 هـ-

أما الأول فهو من العلماء الذين اشتهروا بكثرة التأليف الشامل لعدد كبير من

(30) مقدمة ابن خلدون ص 805

المعارف، كما اشتهر بتفانيه في الدفاع عن أهل السنة والجماعة، إذ كان إماما من أئمتهم البارزين حتى شبهت مكانته بينهم بمكانة الجاحظ بين المعتزلة(31).

والشيء الملاحظ في آثار ابن قتيبة هو أنه لم يترك كتابا مختصا بالمباحث البلاغية «شأنه في ذلك شأن الجاحظ، فنزعته الموسوعية ومشاركته بالتأليف في كثير من العلوم العربية الإسلامية جعلت آثاره لا تخلو من الإشارات البلاغية والأحكام الفنية التي تمس صنوف القول وأفانين التعبير»(32).

وهذه الإشارات البلاغية موزعة خاصة في كتاب «الشعر والشعراء» الذي اهتم فيه ابن قتيبة بالقضايا النقدية، فهو معلم من معالم النقد الأدبي بعد كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان للجاحظ في القرن الثالث الهجري .

أما كتاب «تأويل مشكل القرآن» فقد اهتم فيه اهتماما كبيرا بالبلاغة والسبب في هذا يرجع إلى الدفاع عن القرآن الكريم من الدخلاء والطاعنين الذين أرادوا النيل من أسلوب القرآن بمحاولات الدس والتشكيك ويقول ابن قتيبة معرفا كتابه: «فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب لأري به المعاند موضوع المجاز وطريق الإمكان، من غير أن أحكم فيه برأي أو أقضي عليه بتأويل »(33).

من خلال هذا النص نلاحظ أن ابن قتيبة اهتم بأمرين هامين جدا ولهما خطورة كبيرة وهما قضية التأويل والمجاز اللذان وجد فيهما الطاعنون ثغرة ، فحاولوا التسلل من خلالها إلى التعطيل والتشكيك . لذلك تصدى لهم ابن قتيبة ليسد أمامهم الطريق ويضع حدا لعبثهم اللغوي خاصة وأن الأمر يتعلق بالنص القرآني .

فالتأويل -على رأي ابن قتيبة- هو استخراج مجهول من معلوم يفرض الانطلاق من مقدمات تحمي التأويل من الزلل وتؤدي إلى نتائج سليمة ومستقيمة .

أما المجاز -عنده- فهو قاسم مشترك بين اللغات جميعا، لكن اللغة العربية انفردت بهذه الميزة: «وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب وما خص به لغتها دون جميع اللغات، فإنه

---

(31) يقول فيه ابن تيمية : « وهو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب أهل السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة » انظر تفسير سورة الإخلاص ص86 .

(32) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ، ص 318

(33) تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، ص23

ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجاز ما أوتيته العرب »(34).

ولإثبات هذا القول اضطر ابن قتيبة إلى البحث في تراث أسلافه عن مفهوم للمجاز يطابق غرضه المرسوم . وقد استعرض تلك المفاهيم ليؤكد أن التأويل الذي يقصده إنما هو مدعم بالحجج والبراهين التاريخية ، وقد وجد هذا فعلا عند من سبقوه من أبي عبيدة إلى الجاحظ . هؤلاء الذي اتخذوا من النص القرآني منطلقا أساسيا لمصنفاتهم ، فجاء مفهوم المجاز في كتابه قريبا من مفهوم أبي عبيدة له .

ويقول ابن قتيبة: « وللعرب المجازات في الكلام ومعناها: طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم والتأخير والحذف ، والتكرار والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الإثنين . والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة سنراها في أبواب المجاز إن شاء الله »(35).

ولعل الملاحظة الهامة التي نقف عندها في هذا النص هي أن ابن قتيبة على الرغم من تأخره نسبيا عن الجاحظ فإنه كان يتحدث عن المجاز بمعناه العام . إذ أدخل فيه مباحث عديدة ليست منه أصبحت فيما بعد تندرج ضمن علم المعاني، مثل: -التقديم والتأخير والحذف- وهذا راجع إلى أن الرجل كان مشغولا بقضية جوهرية لها أهمية كبيرة ، بل كانت هي الدافع من وراء تأليف هذا الكتاب ، وهي النتيجة النهائية التي يريد الوصول إليها وذلك في قوله: «وبكل هذه المذاهب نزل القرآن »(36). ومعنى هذا أن القرآن الكريم وإن خرج عن مألوف الكلام فهو ليس بخارج عن أساليب العرب في القول . وهذه المقولة نجدها عند السابقين خاصة أبا عبيدة عمرو بن المثنى -ت210 هـ- بل كانت هي الدافع من وراء تأليف كتابه المشهور «مجاز القرآن»(37).

---

(34) تأويل مشكل القرآن ص 20

(35) المصدر نفسه

(36)المصدر نفسه ص21

(37) يروى أن سبب تأليف هذا الكتاب هو أن أبا عبيدة سئل في مجلس الفضل بن الربيع من طرف يحيى الكاتب عن قوله تعالى: « **طلعُها كأنّه رُؤوسُ الشّيَاطين** » فقيل له إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف له مثل وهذا لم يعرف له مثل: فقال أبو عبيدة : لقدّ كلم الله العرب على قدر كلامهم، ألم تسمع قول امرئ القيس: =

وهذه القناعة تكاد تكون الركن الأساسي والقاسم المشترك بين جميع من ألفوا في إعجاز القرآن الكريم (38).

« فالوقوف على أساليب العرب وحصرها وتبويبها يوفر المرجع التاريخي الثابت الدال على أن القرآن مسبوك من المادة اللغوية المشتركة بين جميع العرب، ويجري على الأساليب التي جروا عليها »(39).

وبما أن همّ ابن قتيبة كان يتمثل في دراسة تلك الأساليب العربية التي جاء على نهجها القرآن الكريم، ليتمكن من رفع الإشكال الحاصل -عند بعض الناس- في النص القرآني، فإنه لم يكن يبحث كثيرا في إعجازه بقدر ما كان ينظر إلى طرق العرب في فن القول. وهذا ما نجده أيضا عند عبد القاهر الجرجاني فيما بعد(40).

من هذا المنطلق فإن الرابط بين كل الأبواب والمنظم لكتابه «التأويل» هو انتماؤها للمجاز ولهذا لم يفكر ابن قتيبة في تقسيم خاص وجزئي لكل أنواع البلاغة . لكن هذا لا ينطبق عليه هو وحده ، بل إن الدراسات اللاحقة لم تكن أكثر إحكاما في التبويب وفصل البلاغة وتقسيمها إلى أبوابها الثلاثة (41).

أما المبرّد فهو معاصر لابن قتيبة ، غلب على ثقافته الطابع اللغوي كما أنه شيخ من شيوخ النحو والعربية (42). والناظر في قائمة المصادر المنسوبة إليه يدرك بوضوح غلبة هذين الطابعين . لكن هذا لم يمنعه من المساهمة في علوم البلاغة سواء في كتاب الكامل، أو في «رسالته في البلاغة»(43) التي تعتبر أول كتاب يصلنا منذ القرن الثالث الهجري يحمل هذا الإسم الواضح العلاقة بالبلاغة . غير أن الذي يطلع على هذه الرسالة يشعر بخيبة أمل، لأنه كان يظن من خلال اسمها أنها ذات

= أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهل رأت العرب الغول وعرفته ؟

يقول أبو عبيدة : فلاقى هذا الجواب استحسانا عند السائل وعند الحاضرين، وعزمت منذ ذلك اليوم وضع كتاب في شبه هذا .

انظر وفيات الأعيان ابن خلكان ج2 ص138 .

(38) سيأتي بيان هذا في الباب الأخير .

(39) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ، ص330

(40) انظر دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .

(41) لم تعرف البلاغة التقسيم الحالي -البيان والمعاني والبديع- إلا في القرن السابع الهجري على يد السكاكي.

(42) وفيات الأعيان : ابن خلكان ، ج3 ص 441-445

(43) رسالة في البلاغة للمبرد ، تحقيق رمضان عبد التواب

شأن كبير وأنها فتح عظيم في مجال الفنون البلاغية إلا أنها في الواقع رسالة صغيرة جدا تحتوي على تسع صفحات متواضعة المحتوى. فكل ما تضمنته من معلومات عن بلاغة الشعر وبلاغة النثر أقل بكثير مما يعرف عن المبرد من اهتماماته البلاغية خاصة في كتابه «الكامل».

وعلى الرغم من هذا فإن الدارس لايمكن إغفالها في البحث عن تطور البلاغة.

أما الدافع إلى تأليفها فهي رسالة وردت عليه من بعض أولي الأمر يسأله فيها عن رأيه في «أي البلاغتين أبلغ: أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع»(44) ويتبين أن مصطلح البلاغة في هذه الرسالة مستعمل في معنى خاص يتصل بالمفاضلة بين لونين من ألوان الكتابة. «وهذا النوع من البحث بدأ في القرن الثاني مع بروز مشاهير الكتاب في الدواوين، وتبلور في القرن الثالث على أيدي الجاحظ وابن المدبر. وتركز في القرن الرابع على يدي أبي بكر الصولي، ولاسيما أبا حيان التوحيدي »(45).

فالرسالة لا تتناول علوم البلاغة بالدراسة والتحليل وإنما الذي يستوقفنا هو تعريفه للبلاغة في قوله: «حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقابلة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول »(46).

والذي ينعم النظر في هذا التعريف يلاحظ أن المبرد لم يبتدع أي شيء ولم يأت بجديد يذكر فجميع عناصر التعريف موجودة في المؤلفات السابقة وخاصة في البيان والتبيين، إلا أن اللافت للنظر هو أن المبرد قام بعملية تأليف وربط شيق بين مجموعة من التعريفات السابقة حتى يقدم حدا جامعا لأغلب المظاهر التي وقع التعرض إليها بصفة مفردة ، فلا نجد -حسب دراستنا- تعريفا يعادل تعريفه من حيث الشمول وإن كانت كل عناصره مبثوثة في الآثار السابقة .

فالرسالة -كما قلنا- لم يكن الغرض من تأليفها معالجة القضايا البلاغية ، لكنها تعد مشاركة هامة تثير جملة من المسائل البلاغية تتصل بجودة النص اعتمادا على بنائه اللغوي دون اللجوء إلى عناصر خارجة عن النص.

وعلى الرغم من هذه الأهمية فإن الرسالة لا ترقى إلى مستوى ما يشير إليه

---

(44) رسالة في البلاغة : المبرد ، تحقيق رمضان عبد التواب ص59

(45) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ، ص344

(46) رسالة في البلاغة ص59

عنوانها. بل إن المبرد له إسهامات أكثر أهمية في كتابه الكامل الذي يصعب علينا إدراجه ضمن فرع من فروع الاختصاصات اللغوية والأدبية . فهو يضم أشتاتا من العلوم والمعارف لا رابط بينها سوى وقوعها في حيز الأدب ، مثلما كان يفهمه العرب القدامى ومن ثم عدّوه من أصول الأدب. غير أن هذا الكتاب لم يخل من إشارات نقدية وبلاغية تكشف عن الجهد الذي بذله المبرد في المساهمة في تطوير مسائل هذا العلم .

وهذه الإشارات تتفاوت قيمتها من موضوع لآخر، فمنها قضايا نظرية عامة تتعلق بضبط خصائص النص الأدبي وإظهار خصائصه الجمالية ، ومنها إشارات تعليمية تدور حول بعض الأساليب البلاغية من جهة تحديدها وإبراز أقسامها ودورها في الخروج عن صيغة الاشتراك والعموم إلى صيغة مميزة معدولة عن النمط العادي في استخدام الكلام (47).

وكل هذه الملاحظات الهامة لم تقع وفق منهج موحد، بل جاءت بعض نظراته إلى تلك المسائل من وجهة نحوية حينا تغلب عليها النزعة الشكلية والحرص على تبرير حركات الإعراب ، بينما عالج حينا آخر تلك المسائل من زاوية أدبية اعتمد فيها على استقراء النماذج الشعرية .

فمن الطروحات النظرية العامة التي ساهم المبرد في بلورتها وفق صياغة واعية، مسألة طرائق الأداء اللغوي وأنماط التعابير الدالة . وقد حصرها في ثلاثة أركان: «والكلام يجري على ضروب ،فمنه ما يكون في الأصل لنفسه ، ومنه ما يكنى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلا فيكون أبلغ في الوصف »(48). وعلى الرغم من أن ما ذكره هنا لا يخرج عن دائرة التقسيم الثنائي المعروف قبل المبرد، وهو الحقيقة والمجاز، فإن المتتبع لأطوارالتفكير البلاغي يقف عند ملاحظة هامة تتدرج من المقدمة النظرية إلى المبحث التطبيقي وهو مبحث الكناية . وفي هذا دليل على أن الدرس البلاغي بدأ يخرج من طور التحسس الانطباعي الخالي من كل تجريد إلى طور أمكن فيه إدراج القضايا الفرعية ضمن قضايا كلية أعم منها. وهذه النزعة قد بلغت أوجها في القرن السادس على يد السكاكي، حيث نجد كل باب من أبواب البلاغة مسبوقا بمقدمة نظرية طويلة تجمع الكليات الضرورية للإحاطة بجوانب تلك الأبواب (49).

---

(47) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ، ص 350

(48) الكامل : المبرد ، ج2 ص5-6

(49) انظر : مفتاح العلوم السكاكي ، ج 3

بقي أن نشير إلى أن المبرد قد ساهم مثل غيره من اللغويين والأدباء والنقاد في تركيز أسس علم البلاغة وتطويرها. ولا يجب أن نهمل مجيئه بين مؤلفين حاسمين: «البيان والتبيين» من جهة وكتاب «البديع» من جهة أخرى. ومع هذا حوت مؤلفاته معلومات بلاغية هامة جدا.

بالإضافة إلى أنه أول من ذكر مصطلح البلاغة في عنوان رسالته -كما سبق- وهو أول من عقد مقارنة صريحة بين الشعر والقرآن مدت كتب الإعجاز بمنهج واضح في الدراسة. ولعل طرافة المبرد تكمن في علمه الدقيق بالشعر وبراعته في النحو واللغة، فكانت مؤلفاته محصلة من هذه النواحي أثرت وأثرت في معالجاته الأسلوبية ، فوجدناه يتطرق إلى ماتطرق إليه النحاة قبله ويضيف إليه ما استفاده من النقاد والبلاغيين .

أما عبد الله بن المعتز -ت 296 هـ- فيعد كتابه «البديع» نقطة تحول هامة في مسار الدراسات البلاغية وعلامة بارزة في مجال النظرية النقدية عند العرب.

«فمكانته في تاريخ البلاغة تشبه مكانة سيبويه في تاريخ البحوث اللغوية والنحوية»(50) فكتابه محاولة نادرة لإرساء أصول البلاغة على أسس عربية صريحة، كما أنه أول كتاب يتناول الأدب تناولا جماليا.

والمتتبع لأطوار البلاغة من البدايات الأولى إلى نهاية القرن الثالث الهجري، يتيقن بأن قيمة الكتاب لا تكمن في مضمونه ، لا من حيث عدد الوجوه التي اشتمل عليها ، ولا من حيث الصياغة النظرية لبعض تلك الوجوه وما يتعلق بها من تقسيم وتحديد . فالوجوه الخمسة للبديع التي ذكرها وهي: الاستعارة (51)، والتجنيس (52)، والمطابقة (53) ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها (54)، والمذهب الكلامي(55) نجد الذين سبقوه قد تحدثوا عنها، فقد أشار الفراء للاستعارة(56)، وتناولها كل من ابن قتيبة(57) وثعلب(58) بشيء من التفصيل.

---

(50) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود ، 372

(51)البديع : ابن المعتز ، ص3 - 24

(52) المصدر نفسه ص 25-35

(53) المصدر نفسه ص36-47

(54) المصدر نفسه ص47-53

(55) البديع : ص36

(56) معاني القرآن : الفراء ، ج1 ص239

(57) تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، ص135-138

(58) قواعد الشعر : ثعلب ، ص57

وللغويين الأوائل إسهامات كبيرة في بلورة باب التجنيس أثبتها ابن المعتز نفسه، فهو يشير إلى كتاب للأصمعي اسمه « الأجناس » وقد رتبه على ما يقع بين الكلمات من مجانسة وشبه في تأليف الحروف ، كما يورد للخليل بن أحمد رأيا متطورا جدا في تحديد الجناس والإشارة إلى بعض أقسامه .

أما المطابقة فإنه يعتمد فيها على الخليل بن أحمد في تقرير حدها، كما أشار إليها ثعلب من قبله وسماها مجاورة الأضداد(59).

وكذلك هو الشأن بالنسبة إلى النوع الخامس المسمى «المذهب الكلامي» فقد أشار ابن المعتز صراحة إلى أن الجاحظ هو صاحب المصطلح: «الباب الخامس من البديع وهو مذهب سماه الجاحظ المذهب الكلامي »(60). في حين أن الباب الرابع المسمى « رد أعجاز الكلام على ما تقدم » هو الباب الوحيد الذي قد يكون لابن المعتز ويحسب له في فضل صياغة هذا المصطلح. إذ لا نعثر عليه في الكتابات السابقة، وإن كان بعضهم قد أشار إلى شيء قريب منه يمكن أن يعد تمهيدا وإرهاصا أوليا لظهوره. فمن مقاييس جودة الشعر الواردة في كتاب البيان والتبيين نقلا عن ابن المقفع قوله: «وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر، البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته »(61).

وما تقدم ذكره في القسم الأول من الكتاب، ينطبق على القسم الثاني منه الذي خصصه لما سماه «محاسن الكلام والشعر» وهي: الالتفات، واعتراض كلام في كلام، والرجوع، وحسن الخروج من معنى إلى معنى، وتأكيد مدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف وهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، وحسن التشبيه، وإعنات الشاعر نفسه والإفراط في الصفة (62).

وقد رد عبد القادر حسين كل هذه الأنواع إلى أصولها الأولى في كتب اللغويين وعلماء البلاغة الذين سبقوا ابن المعتز(63).

وإذا أنعمنا النظر جيدا في كتاب البديع اتضح لنا أن ابن المعتز لم يكن حريصا على تجميع هذه الألوان وإحصائها بدقة، وإنما أتى ببعضها ليدل به على بعضها الآخر. ففي مقدمة القسم الثاني من الكتاب يصرح: «ونحن الآن نذكر بعض

---

(59) قواعد الشعر : ص62

(60) البديع ص 53

(61) البيان والتبيين ج1 ص116

(62) البديع ص 58-77

(63) أثر النحاة في البحث البلاغي : عبد القادر حسين ، ص 203-236

محاسن الكلام والشعر، ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم الإحاطة بها »(64).

ومن هنا نجده يؤكد على مصطلحات «التأديب» و«الجهل» و«المعرفة» ليبرهن على أنه لا يدعي ابتداع هذه الألوان وإنما هي علوم كانت جارية في عصره يمكن اكتسابها عن طريق الرواية والتعلم .

وما يمكن أن نقوله بصفة عامة حول كتاب البديع، هو أنه على الرغم من صغر حجمه وقلة ما أضافه لعلوم البلاغة فإنه يعد نقطة تحول هامة في التأليف البلاغي ومشاركة فعالة في تطوير هذا العلم ومحاولة جادة لتخليصه من تبعية العلوم الأخرى مثل علوم اللغة والنحو والصرف . إذ هو أول ما وصلنا من المصنفات المخصصة لجمع أساليب البلاغة بمنهجية واضحة المعالم . والكتاب بالإضافة إلى هذا علامة بارزة في تمازج اختصاصين هما النقد والبلاغة .

فابن المعتز بنى نقده وحلل النصوص الأدبية انطلاقا من البلاغة ، وذلك للتصدي لمن ظنوا أنهم أتوا بجديد لا يعرفه العرب . نجد هذا في قوله: «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة ، والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الإسم فأعرب ودل عليه »(65).

فالمنطلق إذن منطلق نقدي يكشف عن موقف صارم تجاه جماعة من الشعراء جلهم من أصل غير عربي، ركزوا عنايتهم على الجانب الشكلي في الشعر. ولم تخل نزعتهم من روح عدائية تجاه عمود الشعر أملتها خلفيات عرقية عرفت في التاريخ بالتيار الشعوبي فنتج عن هذا خلاف طويل وحاد لم تمح آثاره إلى يومنا هذا، يبدو في الظاهر أدبيا أطلقوا عليه «الصراع بين القدماء والمحدثين»(66) لكنه في حقيقة الأمر هو صراع فكري وحضاري أفرزته تركيبة المجتمع الإسلامي بعد الفتوحات الواسعة التي أثمرت دخول أجناس مختلفة من روم وفرس وهنود وغيرهم، أدخلوا معهم الرواسب الثقافية، ولم يقبلوا بسيادة العنصر العربي . من هنا بدأ الصراع والجدال، فعرفت البلاغة تطورا كبيرا.

---

(64) البديع ص58

(65) البديع ص1

(66) أبو بكر الصولي ناقدا : صبحي ناصر حسين ، ص8

مفهوم البلاغة في القرن الرابع الهجري :

أما أبو هلال العسكري -ت 395- فإن كتابه الصناعتين يعد البداية الجادة والواعية لاستقلال علوم البلاغة وتميزها عن سائر علوم العربية الأخرى. فالكتاب يضم عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، وهذه الأبواب هي: باب في البلاغة والفصاحة، وباب في تميز الكلام جيده من رديئه، وباب في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ، وباب عن حسن النظم وجودة الرصف، وباب في ذكر الإيجاز والإطناب، وباب في حسن الأخذ وحل المنظوم، وباب في التشبيه، وباب في ذكر الأسجاع والازدواج، وباب في شرح البديع، وباب في ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه . وينضوي تحت كل باب من هذه الأبواب فصول تتراوح ما بين فصلين إلى خمسة وثلاثين فصلا كما هو الحال في فصل البديع (67).

وقد استهل أبو هلال كتابه بمقدمة طويلة أشاد فيها بفضل علم البلاغة وأهميتها في الوصول إلى معرفة أسرار القرآن الكريم في التعبير. إذ بها تقع المعرفة بإعجاز القرآن الكريم وذلك في قوله: «إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ- بعد المعرفة بالله جل جلاله- علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين وأزالت شبهة الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها. وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف»(68). وبعد أن بين أبو هلال قيمة المعرفة البلاغية في الوقوف على الأسرار البيانية للقرآن الكريم يتحدث عن السبب الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب فيقول: «فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب «البيان والتبيين» لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه

---

(67) الصناعتين : ص266-430

(68) المصدر نفسه ص1

المختارة ونعوته المستحسنة. إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال »(69).

فالكتاب هو محاولة علمية أراد من خلاله أبو هلال أن يتجنب زلات ومآخذ من سبقوه في التأليف البلاغي، وقد أشار إلى أنه لم يؤلفه على طريقة المتكلمين وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الشعراء والكتاب (70).

والدارس لهذا الكتاب يدرك أن صاحبه قد ألم فيه تقريبا بكل ما عرف حتى عصره من مباحث علوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع ، على الرغم من تداخل تلك المباحث بعضها مع بعض، باستثناء علم البديع الذي تميز قليلا بحيث جعله في الباب التاسع في خمس وثلاثين فصلا(71). في حين أن مباحث البلاغة والفصاحة والمعاني والبيان قد جاءت في أبواب وفصول غير متصلة. وقد جعل أبو هلال الفصل الأول من الكتاب «في الإبانة عن موضع البلاغة في اللغة وما يجري من تصرف لفظها والقول في الفصاحة وما يتشعب منه»(72) وينقسم هذا الفصل إلى قسمين واضحين: في الأول يظهر الجهد الشخصي إذ ينطلق من دراسة الأصلين البلاغة والفصاحة فيقول معرفا البلاغة: «البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء : منتهاه ، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك إلى ما فوقها. وهي البلاغ أيضا. ويقال الدنيا بلاغ لأنها تؤديك إلى الآخرة... والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله عز وجل بأنه بليغ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام »(73). فهو يشير من خلال هذا التعريف إلى نقطة هامة، وهي وجوب إبعاد البلاغة عن الخوض في مسائل علم الكلام.

وبعد هذا يعرف الفصاحة بقوله: «أما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم

---

(69) الصناعتين ص3-4

(70) المصدر نفسه ص9

(71) المصدر نفسه ص266

(72) المصدر نفسه ص7

(73) المصدر نفسه ص6

أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر وفصح أيضا. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحان إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون خطإ»(74). وبعد هذا التعريف يستنتج أبو هلال مسألة هامة، وهي أن البلاغة والفصاحة لا فرق بينهما فيقول: «إن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له »(75).

في الأخير نقول : إن أبا هلال بكتاب الصناعتين قد وضع اللبنة الأولى في بناء النظرية البلاغية. فقد ضم كتابه كثيرا من معارف سابقيه وأضاف إليها كثيرا من جهوده كان لها تأثير كبير على من لحقه . كما يعلن الكتاب عن بدء مرحلة واعية في لم المادة البلاغية المشتتة في الكتب الأخرى، وجعلها في مصنف واحد يقوم على منهجية واضحة في عرض أبواب وفصول المادة . مما أنتج ترتيبا محكما وتنظيما جيدا. وبهذا يكون أبو هلال معلما شامخا في تاريخ البلاغة العربية .

(74) الصناعتين ص7

(75) المصدر نفسه

ثانيا: مفهوم النقد الأدبي :

قبل أن نتحدث عن علاقة البلاغة بالنقد الأدبي، لابد لنا من وقفة قصيرة على مفهوم النقد عند العرب، ففي لسان العرب لابن منظور نجد «النقد والتنقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها »(76). وقد استعمل هذا اللفظ قديما ليدل على هذا المعنى، أنشد سيبويه:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدنانير تنقاد الصياريف(77)

أما في معجم متن اللغة العربية نجد «نقد الشعر والكلام: نظر فيه وميز الجيد من الرديء . فهو ناقد، وجمعه نقاد ونقدة . ونقَد الكلام أبان ما فيه وأخرج زيفه »(78).

أما النقد بمعناه الاصطلاحي فهو: «تفسير العمل الأدبي للقارئ ومساعدته على فهمه وتذوقه وذلك عن طريق فحص طبيعته وعرض مافيه من قيم » (79).

بينما يرى محمد النويهي أن جوهر النقد الأدبي يقوم أولا على الكشف عن جوانب النضج الفني في النتاج الأدبي وتمييزها على سواها عن طريق الشرح والتحليل، ثم بعد ذلك الحكم عليها (80).

وعرفه آخرون بأنه دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها مما يشابهها أو يقابلها ثم إصدار الحكم عليها بتحديد مقدار قيمتها وبيان واقع درجتها . يجري هذا في الحسيات والمعنويات ، وفي العلوم والفنون وفي كل شيء متصل بالحياة (81).

وهذه التعريفات حتى ولو اختلفت في صيغتها فهي مأخوذة من قولهم نقدت الدراهم وانتقدتها أي أخرجت منها الزيف حيث يعتمد ذلك على الفحص والموازنة والتمييز والحكم .

ولم نجد للقدماء تعريفا للنقد على أنه علم منفصل، بل إن المفاهيم كانت متداخلة في أذهانهم كما سبق وأن ذكرنا في مفهوم البلاغة . فهذا عمرو بن العلاء يشير إلى صعوبة مهمة الناقد فيقول: «انتقاد الشعر أشد من نظمه واختيار الرجل الشعر

---

(76) لسان العرب : مادة نقد ج6 ص4517

(77) المصدر نفسه

(78) متن اللغة : أحمد رضا ، مادة نقد ج5 ص 525

(79) الأدب وفنونه : محمد مندور ، ص57

(80) النقد الأدبي الحديث : محمد النويهي ، ص11

(81) الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص7 الصاحب بن عباد ، تحقيق شيخ محمد حسن الياسين ص7.

قطعة من عقله»(82). فهذا القول يبين لنا بوضوح عظمة مهمة الناقد عند القدماء.

أما إذا نظرنا للبدايات الأولى للنقد فإننا لايمكن أن نجزم بأنه قد بدأ في مرحلة محددة، لكن في رأينا أن نواة النقد العربي الأولى هي عند الشعراء أنفسهم. خاصة المآخذ التي سجلوها على بعضهم . وهذا ما نجده عند النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له خيمة في سوق عكاظ ليحكم بين الشعراء . وطرفة بن العبد وما ينسب إليه من مآخذ على المتلمس عندما نعت البعير بنعوت النياق. وكذلك زهير بن أبي سلمى الذي كان يؤاخذ ابنه كعبا على قول الشعر وهو صغير. ويتعدى ذلك إلى حد ضربه ومنعه خوفا من إساءته للعائلة الشاعرة ، وغيرها من المواقف...(83)

وهناك شواهد كثيرة تدل على وجود الأحكام النقدية في العصر الجاهلي، وتدل على أن الشعر في أواخر هذا العصر يكاد يكون فنا يدرس، وأن فيه مذاهب أدبية متعددة . فمن الشعراء الجاهليين من كان له أساتذة ومرشدون يأخذ عنهم أصول الشعر وقواعده . وهو ما يعرف بالرواة في الشعر العربي. إذ كان لكل شاعر راوية يلازمه ويروي عنه، وبفضل هذا يصبح الراوي مع طول الممارسة شاعرا.

ولعل الجاحظ هو أول من لفت الانتباه إلى النقد الأدبي وذلك بقوله: «والشعر صياغة وضرب من التصوير »(84). فهو هنا قد ربط بين فنين هما: فن الشعر وفن التصوير. وهذه نظرة نقدية اختص بها الجاحظ دون غيره ممن سبقوه أو عاصروه، إذ كان يبني نقده على أساس بلاغي لأنه ينطلق من البيان، يقول بدوي طبانة معلقا على آراء الجاحظ النقدية: «إن الجاحظ كان زعيم مدرسة نقدية في تاريخ النقد العربي، وهي مدرسة تنتصر للصياغة والأسلوب، وتقدر الأدباء بمدى قدرتهم على تصوير المعاني وتجليتها والإبداع في أدائها. وترى أن ذلك الإبداع في تأليف العبارة خصوصية الفن الأدبي الذي تميزه من تعبير عامة أصحاب اللغة... وإذا أسلمنا جدلا بالإيجاب، وبأن هذه المدارس تنتصر للصياغة والأسلوب وكانت ترى أن جودة الأدب إنما تتوافر بمقدار قدرة الأديب على التصنيع الذي يعده الجاحظ ضرورة فنية يتميز بها الأدب عن سواه من ضروب التعبير، سلمنا أيضا أن الجاحظ كان صاحب نظرية معروفة »(85).

---

(82) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء : الراغب الأصفهاني ، ج1 ص93

(83) الموشح : المرزباني، ص 74 - وكتاب العمدة ج2 ص62

(84) الحيوان ج3 ص132

(85) قضايا النقد الأدبي : بدوي طبانة ، ص195-199

وما يمكن أن نلاحظه على هذا النص هو أن بدوي طبانة جعل الجاحظ من أنصار اللفظ لكن في الحقيقة أن هذا الحكم غير صحيح ومبني على نظرة جزئية مستعجلة. إذ أن الجاحظ أعطى هذا الحكم بناء على موقف خاص (86).

وهناك آراء نقدية ذكرها ابن سلام الجمحي على لسان خلف الأحمر: «قال قائل لخلف الأحمر: إن سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. فقال له: إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه رديء هل ينفعك استحسانك له»(87).

ويتضح من هذا أن معنى النقد كان قريبا جدا مما نصت عليه كتب اللغة من أن النقد هو تمييز الجيد من الرديء وإظهار الزيف. كما نلاحظ في هذا القول تلميحا إلى بعض خصائص النقد التي ينبغي على من مارس مهمة النقد الأدبي أن يأخذ بها. وابن سلام يؤكد على أن الدربة واجبة ليصبح النقد معتمدا على الذوق المهذب.

وحين نتتبع خلف الأحمر في أحكامه النقدية نتيقن بأنه أول من كشف تقريبا عن الأسس غير المحسوسة المعتمدة لدى النقاد في رد الشعر، ونلمس هذا في إجابته على من سأله: «بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروي؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لاخير فيه؟ قال نعم. قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال نعم. قال: فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت »(88).

كما يعد ابن سلام الجمحي صاحب نظرية نقدية استخلص قواعدها مما هو مبثوث في كتب اللغة والأدب والبلاغة وغيرها. وهو صاحب الفضل في استنباط الأحكام النقدية المبنية على التعليل كما أنه ضبط معايير وصفات من يقوم بهذه المهمة الدقيقة والشاقة وذلك في قوله: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا يعرف بصفة

---

(86) قصة الجاحظ مع أبي عمرو الشيباني عندما استجاد بيتين من أشعار المولدين وهما :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أشدّ من ذاك على كل حال

حيث كلف رجلا أحضر قرطاسا ودواة وكتبهما ، وكان إعجاب أبي عمرو بهذين البيتين لما اشتملا عليه من جليل المعنى، دون نظر إلى لفظهما.

انظر دلائل الإعجاز ص176 ، والبيان والتبيين ج4 ص24

(87)طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي ، ج1 ص7

(88) المصدر نفسه

ولاوزن دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتها بلون ولا مسمى ولا طراز ولا وسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها »(89).

وهذا النص يعد قفزة نوعية في تطور النقد الأدبي، إذ يركز فيه ابن سلام على ضرورة الممارسة المنتظمة التي تكون الذوق الجيد لصاحبها. ونشير إلى أن النقد الأوروبي استفاد أيما استفادة من هذه النظرية. ومن ثم نجد «لانسون» -LANSON- يقول: «وإذا كان النص الأدبي يختلف عن الوثيقة التاريخية بما يثير لدينا من استجابات فنية وعاطفية، فإنه يكون من الغرابة والتناقض أن ندل على هذا الفارق في تعريف الأدب ثم لانحسب له حسابا في المنهج، لن نعرف قط النبيذ بتحليله كيماويا أو بتقرير الخبراء له دون أن نذوقه بأنفسنا. وكذلك الأمر في الأدب، فلا يمكن أن يحل شيء محل التذوق »(90).

وقد ساعد الآمدي على بلورة هذه الحقيقة -الذوق والتعليل- . ففي كتابه الموازنة يبين كيف أنه سيعلل أحكامه ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأنه سيبقي «مالا يمكن إخراجه للبيان، ولا إظهاره للاحتجاج، وهو علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة. وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت تجربته وقلت دربته. بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الصناعة وامتزاج بها »(91).

وكتاب الموازنة يشهد للآمدي بأنه ناقد كبير، يعتمد الذوق الأدبي المعلل على شرط أن يكون في حدود الممكن، وليس الذوق الذي يتحدث عنه الفلاسفة (92) فالذوق الأدبي عنده يمكن لنا أن نستخلصه من خلال حكمه على أبيات أبي تمام عندما يصف امرأة بأنها ملطومة الخدين بالورد حيث يقول في هذا: «أساء كل الإساءة وقصر وقبح في صدر البيت »(93).

وخلاصة القول هي أن نشأة هذا الفن عند العرب كانت مبكرة ، إذ لازم الشعر وتطور مع تطور الأمة العربية بحسب العوامل التي أثرت في حياتها وعقليتها. وقد عرف النقد قديما عند اليونان، كما عرف عند العرب في جاهليتهم. ومثلما تخضع

---

(89)طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي ، ج1 ص5

(90) منهج البحث في الأدب واللغة : لانسون ، ترجمة محمد منذور ص26

(91) الموازنة : للآمدي ، ج1 ص 411

(92) نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين : ألفت كمال الروبي، ص40 وما بعدها .

(93) الموازنة ج1 ص415

الأشياء للتطور الزمني، فقد خضع النقد الأدبي له كذلك . فقد بدأ يقوى في القرنين الأول والثاني الهجريين بعد أن كان ساذجا في العصر الجاهلي . وفي القرن الثالث أصبح أكثر قوة وإحكاما على أيدي ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز وغيرهم .

أما في القرن الرابع الهجري فقد وصل النقد الأدبي على أيدي أبي هلال العسكري والقاضي الجرجاني وقدامة بن جعفر إلى ذروته . فهؤلاء النقاد وجدوا أشعار الأوائل قد ذللت لهم بفضل مجهودات أئمة اللغة ورواة الشعر والأخبار بالإضافة إلى ازدهار حركة التأليف والترجمة. وبهذا خرج النقد الأدبي من حدود الذاتية والإعجاب الشخصي إلى نقد مبني على أساس النظرة الفاحصة، والموازنة الموضوعية بين النصوص.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : بين البلاغة والنقد الأدبي :

لقد عاش النقد الأدبي والبلاغة متصلين منذ أقدم عصورهما، لأنهما وسيلة لتحقيق القوة والصدق والجمال في الأداء والتعبير. ومن ثم فإن موضوعهما وهدفهما واحد.

ومثلما برزت آثار النحويين واللغويين في بواعث نشوء النقد الأدبي عند العرب، برزت آثار البلاغيين، فكانت آراؤهم ثمرات من الأحكام الذوقية تساندها المعرفة بطبيعة الفن الشعري أو الخطابي، وما يعرف فيهما من عيوب: عيوب في التشبيهات والاستعارات والكنايات وفي فن البديع عامة. وما يلاحظ على تلك الأحكام البلاغية أنها أحكام مبنية على الذوق وتقوم على أساس الممارسة، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون في قوله: «حصول ملكة البلاغة للسان»(94).

إن الناقد يرى العمل الأدبي وحدة متكاملة، ويراه البلاغي عملا يحتاج إلى منهج التحليل في دراسة النصوص. وهذا لايعني أن البلاغي لا ينظر إلى العمل الأدبي إلا من خلال هذا المنظار ولكن كثيرا ما يسجل البلاغي ما تركه العمل الأدبي من أثر في نفسه كأن يذكر مثلا أن هذه الاستعارة أو تلك الكناية تعمل عمل السحر في النفوس.

من هذا المنطلق يمكن أن نقول إن البلاغة جزء من النقد، فهي لم تأخذ طابع الاستقلال إلا على يد السكاكي في القرن السابع الهجري.

بقي أن نتساءل عن جذور هذا التمازج وعن مدى أهمية البلاغة في تطور النقد عند العرب خاصة وأن عرب الجاهلية قد بلغوا مرتبة عالية من البلاغة والفصاحة. وقد صور لنا القرآن الكريم هذا في مواضع عديدة ، قال عز وجل: « **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُه في الحَيَاةِ الدُّنْيَا** »(95) كما بين المولى عز وجل ما كان عليه العرب من قوة كبيرة في المجادلة: « **وقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا ورُفَاتًا، أَإِنَّا لَمَبْعُوثُون خَلْقًا جَدِيدًا، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُم، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ** »(96). فهذا الأسلوب من الجدال وقوة الحجاج، يدل على أن هؤلاء كانوا يعرفون جيدا الأساليب البيانية التي تمكنهم من الأخذ والرد في القول. ومن ثم صورهم المولى عز وجل في

---

(94) مقدمة ابن خلدون ص562

(95) البقرة 204

(96) الإسراء 49-51

قمة العناد والجدل في قوله تعالى: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»(97) ويصورهم المولى عز وجل أيضا بقوله: «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ»(98).

فهذه الآيات الكريمات وغيرها تدل دلالة قاطعة على حذق هؤلاء في حسن البيان وبلاغة التعبير. وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ يقدم صورا من نظراتهم إلى الكلام ودقتهم في تمييز القول ونقده ووصفهم لخطبائهم بأنهم «مصاقع لسن» كما وصفوهم باللوذعية، ويصفون كلامهم في شعرهم وخطابتهم ببرود العصب الموشاة، وبالحلل والديباج والوشي، وأشباه ذلك (99).

وهذه الملاحظات البيانية تعد من صميم النقد الأدبي.

وإذا رجعنا إلى النقد الفطري في الجاهلية وصدر الإسلام، نجد أن الشعراء كانوا يسوقون أحيانا بعض الملاحظات والأحكام البيانية التي هي في الواقع نظرات نقدية. وقد أخذت هذه الملاحظات في النمو في صدر الإسلام بفضل القرآن الكريم، وبفضل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وما عرف عنه من البلاغة والفصاحة.

فقد كانت آيات القرآن الكريم تُتلى على الأسماع ليل نهار، فيعجب بها العربي وغير العربي وكان الحديث النبوي الشريف وخطبه صلى الله عليه وسلم تتردد على الألسنة فتلاقي صدى في النفوس والقلوب. فقد كان صلوات الله عليه وسلامه يعنى عناية خاصة بتخير الألفاظ من سهولة في المخرج وفصاحة في اللفظ وحلاوة في السماع. ولنستمع إليه وهو يعلم الصحابة رضوان الله عليهم طريقة التعبير السليم بقوله: «لايقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي »(100). ويعلق الجاحظ على هذا الحديث الشريف بقوله: «كأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه»(101) وهذا المنهج التربوي كان له الأثر الكبير في تهذيب النفوس والالتزام بالأخلاق الإسلامية السامية من فعل وقول. فالكلمة الطيبة تبني المجتمع، والكلمة الخبيثة تساهم في هدمه.

وهذا ما جعل الجاحظ يقول في الرسول صلى الله عليه وسلم : فلم ينطق إلا عن

---

(97) الزخرف 58

(98) الأحزاب 19

(99) البيان والتبيين ج1 ص159

(100) الحيوان ج1 ص 335

(101) المصدر نفسه

ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة... وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا، ولا أجل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم »(102).

وقد كان للخطابة في العصر الأموي دور فعال في ازدهار الحركة النقدية البلاغية باعتبارها أقوى سلاح يشهره العربي في وجه الآخرين، إما للإقناع وإما للإخضاع. وقد اشتهر في هذا العصر خطباء مفوهون، أجادوا في بلاغتهم واشتهر كل منهم في لون من ألوان الخطب. ففي الخطب السياسية اشتهر كثير من ولاة هذا العصر، خاصة زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي. ويقول الشعبي في زياد: «ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما »(103).

أما الحجاج فقد عرف ببلاغته وبيانه في خطبه، وفيه يقول مالك بن دينار: «ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج »(104).

كما اشتهر في هذا العصر من الخطباء سحبان وائل الذي يضرب المثل ببلاغته وبيانه، وقد خطب بين يدي الخليفة معاوية خطبة سميت -الشوهاء- لحسنها وبلاغتها(105).

وفي العصر العباسي توسعت الفتوحات الإسلامية ودخلت أجناس عديدة في الإسلام، فاشتد الصراع بين الفرق والتيارات الفكرية، فكان هذا من البواعث الهامة في تطور النقد والبلاغة خاصة حول مسألة إعجاز القرآن التي استقطبت معارك بلاغية كبيرة كان لها أثر كبير في تاريخ البلاغة والنقد الأدبي.

وقد كان للشعراء دور كبير في إثراء الحركة النقدية المبنية على أساس ملاحظات بلاغية. وحسبنا أن نرجع إلى كتاب الأغاني ومعجم الأدباء وغيرهما، لنسجل أن

---

(102) البيان والتبيين ج2 ص17-18
(103) المصدر نفسه ج2 ص65-66
(104) المصدر نفسه ج1 ص394
(105) المصدر نفسه ج1 ص348

بعض السامعين للشعراء كانوا كثيرا ما يتعرضون للشعراء وهم ينشدون فيبدون بعض ملاحظاتهم البيانية، ومن ذلك ما روي عن ذي الرمة أنه كان ينشد في سوق الكوفة قصيدته التي يقول فيها:

إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح(106)

وكان من بين الحاضرين عبد الله بن شبرمة (107) فصاح به: أراه قد برح. فعرف ذو الرمة أن ابن شبرمة لم يستسغ قوله «لم يكد».

ويروى أنه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة، فأنشدهما الكميت قصيدته التي مطلعها: « هل أنت عن طلب الإيفاع منقلب » حتى بلغ إلى قوله:

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب

عقد نصيب واحدة فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ قال: خطأك، فقد باعدت في القول، ما الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثاث وفي أسنانها شنب (108)

فقد أخذ نصيب على الكميت أنه باعد بين القرينة، أو بين الأشياء التي يجب أن يشاكل بعضها بعضا. وهذا ما سماه البلاغيون فيما بعد باسم «مراعاة النظير».

ومما يذكره الرواة أن الشاعر عمر بن لجأ (109) قال لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال الآخر: وبم ذلك؟ قال له: لأني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه (110).

وهذا الحكم يوضح لنا أن الشاعر عمر بن لجأ، قد وضع وحدة قياسية حدد من خلالها شاعريته وشاعرية نده . فهذه النظرات النقدية وغيرها كانت هي النواة الأولى لظهور علم جديد هو علم البلاغة .

وقد توسعت هذه الملاحظات كثيرا في العصر العباسي نظرا لتوسع المعارف الإنسانية وتطور فن الشعر والنثر على أيدي كثير من العرب وغير العرب من الفرس والموالي الذين أتقنوا اللغة العربية وحذقوا أساليبها وتعابيرها، وتكلموا في بلاغتها مرتكزين في ذلك على ثقافتهم المختلطة، الناتجة عن معرفتهم بلغاتهم

---

(106) الأغاني : أبو الفرج الإصبهاني، ج17 ص335

(107) هو عبد الله بن شبرمة الضبي فقيه الكوفة وقاضيها. كان ناسكا عفيفا صارما شاعرا ، توفي سنة 144هـ انظر ترجمته في كتاب شذرات الذهب ج1 ص215

(108) الأغاني : ج1 ص134

(109) المصدر نفسه

(110) هو الشاعر الأموي عمر بن لجأ التيمي اشتهر بهجائه خاصة لجرير

الأصلية وبرجوعهم إلى الأصول العربية الصرفة. فأعطانا هذا العصر مؤشرات كثيرة لأمثلة رائعة لكثير من الكتاب والشعراء الذين اعتنوا بصياغة النثر العربي وافتنوا في فن القول والشعر، وهذا ما جعل الجاحظ يقول: «أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا »(111).

وابتعاد هؤلاء الكتاب عن المتوعر والوحشي، والكلام الساقط السوقي مرده إلى ثقافتهم الواسعة ومعرفتهم بأصول اللغة العربية وعنايتهم الفائقة ببيانها وبلاغتها، فأصبحوا يحسنون اختيار ألفاظهم ومعانيهم، ويقول الجاحظ أيضا: «ورأيت عامتهم لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني. ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر »(112).

فالجاحظ لم يخص الكتاب بالعناية بالألفاظ وتخيرها وحدهم، بل أشاد أيضا بعناية النابهين من الشعراء في حسن انتقائهم للألفاظ ومطابقتها للمعاني.

وإذا دققنا النظر في الحركة الشعرية في العصر العباسي، ندرك أن الشعراء قد تطوروا تطورا كبيرا، فنتج عن هذا تياران مختلفان ومتصارعان. وهما تيار القديم الذي يحتفظ بالتقاليد القديمة الموروثة . وتيار الحديث الذي يساير التطور الزمني بكل ما فيه من تجديد . وقد كان لهذين التيارين دور هام في ازدهار الملاحظات البلاغية والنقدية ازدهارا كبيرا، لأن الشعراء أصبحوا يوازنون بين نتاجهم ونتاج القدماء ويسعون جاهدين ليثبتوا تفوقهم على أسلافهم، من حيث الألفاظ والمعاني، ومن حيث تشبيهاتهم ومجازاتهم وكناياتهم .

ويجسد لنا بشار بن برد هذا الموقف في قوله: مازلت أروي في بيت امرئ القيس حتى استطعت أن أصنع:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(113)

(111) البيان والتبيين ج1 ص137
(112) البيان والتبيين ج4 ص24
(113) الأغاني ج3 ص135

واما بيت امرئ القيس فهو:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي(114)

والبيت الأخير هو تشبه شيئين بشيئين ويسمى عند المتأخرين «بالتشبيه الملفوف»(115) أما تشبيه بشار فهو تشبه تمثيلي. من هنا ندرك أن بشارا قد تفوق فعلا على امرئ القيس. وهذا ما دفع ابن الشجري إلى القول: «إن بشارا في تشبيهه هذا قد بلغ الغاية»(116).

لقد سبق وأن ذكرنا أن كثيرا من الأحكام البلاغية تصدر عن تأثر ذوقي يرتفع فيه البلاغي إلى الحكم الإيجابي ويبتعد عن الاستغراق السلبي. وخير ما يمثل لنا هذا هو الباقلاني حينما عرض بيت البحتري الذي يقول فيه:

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل

قال الباقلاني: فهو عظيم الموقع في البهجة، وبديع المأخذ حسن الرواء، أنيق المنظر والمسمع يملأ القلب والفهم ويقرح الخطر وتسري بشاشته في العروق (117).

فحكم الباقلاني هنا هو حكم ذوقي وتأثري، مبني على الإثارة الوجدانية التي تركها هذا البيت في نفس هذا الناقد.

وكذلك هو الشأن بالنسبة إلى حكم القاضي عبد العزيز الجرجاني في أبيات أبي تمام الغزلية التي يقول فيها:

دعني وشرب الهوى ياشارب الكاس فإني للذي حسيته حاســـــي

لايوحشنك ما استعجمت من سقمي فإن منزله من أحسن النـــاس

من قطع ألفاظه توصيل مهلكتـــي ووصل ألحاظه تقطيع أنفاســـي

متى أعيش بتأميل الرجـــاء إذا ما كان قطع رجائي في يدي ياسي (118)

وقد علق الجرجاني على هذه الأبيات بقوله: «فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة طابق وجانس واستعار فأحسن. وهي معدودة في المختار من غزله وحق لها. فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن وأصنافا من البديع ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوة ماتراه»(119).

---

(114) ديوان امرئ القيس ص 145

(115) علم البيان : عبد العزيز عتيق ، ص115

(116) حماسة ابن الشجري ص234

(117)إعجاز القرآن : الباقلاني ، ص 335-336

(118) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ج4 ص385

(119) الوساطة بين المتنبي وخصومه : عبد العزيز الجرجاني ، ص32-33

وما يمكن أن نلاحظه على هذه الآراء النقدية وغيرها، هو أن تلك الآراء بحكم التطور الذي طرأ على الشعر والنثر، أخذت تعنى عناية فائقة بمعاني الشعراء وبصورهم البيانية والبديعية وبذلك اختلطت أبحاث النقد بالبلاغة، كما هو الحال في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا، وكتاب الموازنة للآمدي، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لعبد العزيز الجرجاني.

فهؤلاء جميعا بنوا أحكامهم النقدية على مقاييس بلاغية (120) ومن ثم حق لنا أن نطلق عليهم اسم النقاد البلاغيين .

فهذا الالتحام الذي لاحظناه في دراستنا للتراث الأدبي في القرون الأربعة الأولى الهجرية بين النقد والبلاغة باعتبارها الأساس النظري للنقد، يمكننا أن نقف عليه بكل وضوح في محاولات التأليف الأولى. فكتاب «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر، هو مناصفة بين القضايا النقدية والقضايا البلاغية. وكذلك هو الشأن بالنسبة إلى كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري على الرغم من أن الفارق الزمني بين الكاتبين يزيد عن نصف قرن (121).

نلاحظ أيضا عدم الفصل بين النقد والبلاغة في مرحلة النشأة والتطور، حينما نجد البلاغيين يهتمون بمسائل هي من صميم النقد الأدبي، مثل قضية السرقات الشعرية.

كما أن البلاغة اعتمدت على الذوق الخاص في مرحلة تداخلها مع النقد الأدبي. هذا الذوق الفني الذي نجده عند الآمدي في كتابه «الموازنة بين الطائيين» والقاضي الجرجاني في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» وأبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين إلى أن نصل إلى عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

وعبر هذا الخط الممتد من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري كانت البلاغة فصلا من فصول نقد الأدب، ومقياسا يحتكم إليه الشعراء والنقاد. «فامتزجت موضوعية المقياس الفني بالذوق العربي المدرك لخصائص الأسلوب العربي وطبيعة النفس العربية ومميزاتها. وما يكاد يطل القرن السادس الهجري حتى تضمحل المدرسة الذوقية وتظهر النزعة القاعدية الجافة . وحين يؤلف السكاكي في القرن السابع كتابه مفتاح العلوم، فإنه يسجل نصره الكامل على المدرسة الأدبية الذوقية،

---

(120) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : إحسان عباس ، ص 337 وما بعدها

(121) توفي قدامة بن جعفر سنة 337 هـ وأبو هلال العسكري سنة 395هـ

وتتحول البلاغة إلى قواعد جامدة في حدود علومها الثلاثة التي استقر أمرها إلى اليوم: المعاني والبيان والبديع »(122).

وهكذا تحولت البلاغة من الذائقة الفنية إلى الدقة العلمية، وأصبحت لها قواعد ثابتة في المتون يحفظها كل من أراد أن يدرس البلاغة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(122) مقدمة في النقد الأدبي : محمد حسن عبد الله ص66

أولا : الدرس البلاغي وإشاراته في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم :

عندما أشرقت شمس الإسلام على العقول استطاعت أن تزيل عنها الغشاوة وأن تبدد جاهليتها وأن تضيء حلكة ظلامها.

لقد نزل القرآن الكريم فخلب أسماع العرب، وهز أفئدتهم، وفاق بيانهم وبلاغتهم، وأطلعهم على لون من البيان لم يألفوه، فغير من نظرتهم لفن القول، وعمق أذواقهم في صناعة الكلام وأصبح لهم ذوق جديد مصطبغ بصبغة الدين والعقيدة الجديدة.

وسأحاول في هذا المبحث أن أكشف معالم الدرس البلاغي في تلك المرحلة وأعطي الأمثلة والنماذج القرآنية، وكيف أبان معالمها وفسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكيف ارتفع الحس البلاغي عند صحابته رضوان الله عليهم .

- عصر الرسالة :

لقد كان القرآن الكريم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقرأه على صحابته ويوضح لهم أحكامه . وكانوا يفهمون أكثر معانيه لأنه نزل بلغتهم وسلك سبيلهم في التعبير، إذا خفي عليهم شيء منه كان النبي صلوات الله عليه يبينه لهم مصداقا لقوله تعالى:« **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**»(1).

ولما كان القرآن الكريم أرفع أنماط البلاغة دون استثناء فقد تعرض الرسول الكريم في تفسيره إياه لتوضيح كثير من تشبيهاته وكناياته وذلك من البلاغة العلمية في الصميم(2).

جاء في صحيح البخاري: عن عدي بن حاتم قال: قلت يارسول الله: ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال: لابل هما سواد الليل وبياض النهار(3).

وفي صحيح البخاري أيضا عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية «**الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**»(4) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول

---

(1) النحل 44

(2) خطوات التفسير البياني : محمد رجب البيومي ، ص12

(3) صحيح البخاري ج3 ص104

(4) الأنعام 82

الباب الأول

الدرس البلاغي من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نهاية القرن الثالث

الفصل الأول
الدرس البلاغي وإشاراته في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .

الفصل الثاني
الدرس البلاغي عند الدارسين للقرآن خلال القرن الثاني الهجري

الفصل الثالث
الدرس البلاغي عند المفسرين في القرن الثالث الهجري

الفصل الرابع
الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقمان لابنه: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»(5).

وتفسير الظلم بأنه الشرك على سبيل المجاز(6)

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما كثير من الأحاديث التي تتعلق بتفسير القرآن، وبعضها ينحصر في ذكر فضائله، وتفسير بعض آياته تفسيرا مختصرا، يبين وجه التشريع أو الموعظة في الآية.

روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، فلا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرأوا إن شئتم «فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا»(7) وكتب السنة أفردت للتفسير بابا من الأبواب التي اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيرا من التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن عدي بن حبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين هم النصارى».

وما أخرجه مسلم وغيره عن عتبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا وإن القوة الرمي(8).

وما أخرجه الترمذي عن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال: يوم النحر.

وما أخرجه الترمذي وابن جرير عن أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم «وألزمهم كلمة التقوى» قال: لا إله إلا الله.

وما أخرجه أحمد ومسلم والبخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من نوقش الحساب عذب. قلت: أليس يقول الله: فسوف يحاسب حسابا يسيرا. قال: ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض(9)

وواضح في الكثير من هذه المرويات أن جانب الكناية بارز فيها، وكذلك بعض صور المجاز. وإن كان ذلك لم يكن بالمصطلح العلمي لأنه لم يعرف بعد.

هل تناول النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كله بالبيان؟

---

(5) صحيح البخاري ج3 ص173

(6) خطوات التفسير البياني : محمد رجب البيومي ص13

(7) صحيح البخاري ج3 ص175

(8) خطوات التفسير البياني : ص16

(9) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج2 ص191-205

الفصل الأول

الدرس البلاغي وإشاراته في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

الدرس البلاغي في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم :

- مقدمة
- الدرس البلاغي في عصر الرسالة
- أوجه البيان في تفسير الرسول عليه السلام

المبحث الثاني:

- الدرس البلاغي في تفسير الصحابة
- الدرس البلاغي في تفسير ابن عباس
- هل لابن عباس تفسير كامل مكتوب ؟
- أثر مدرسة ابن عباس
- أمثلة ونماذج من تفسير بعض التابعين
  - مجاهد بن جبير
  - عكرمة بن عبد الله المدني
  - عطاء بن أبي رباح .

قد يقول قائل: إن الله تعالى يقول في سورة النحل «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »(10) فهل بين رسول الله لأصحابه القرآن كله إفرادا أو تركيبا، وما يتبع ذلك من بيان الأحكام؟ أو أنه بيّن لهم بعضه، وسكت عن بعضه الآخر؟ ثم على أي وجه كان هذا البيان من الرسول عليه السلام لأصحابه؟

وقد ذكر الذهبي في معرض الإجابة عن هذه الأسئلة، أن العلماء اختلفوا في المقدار الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه، فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه(11). وعلى رأس هؤلاء الإمام ابن تيمية (12).

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل. وعلى رأس هؤلاء الخوبي والسيوطي(13).

وقد استدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة وبراهين قوية، ولكن الشيء الثابت والمؤكد هو أن النبي عليه صلوات الله وسلامه، قد بين من الذكر الحكيم ما يحتاج أصحابه والمسلمون إليه من ألوان البيان، من جهة المعاني أو من جهة الألفاظ. وإذا كان المصطلح البلاغي بالشكل الذي عرف في مرحلة تالية لم يكن مذكورا، إلا أن جوهره وحقيقته فيما أبانه الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره كان واضحا ومذكورا.

أوجه البيان في تفسير الرسول عليه السلام:

أولا: بيان المجمل في القرآن الكريم، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وذلك حسبما يقتضيه المقام، وقد مرت الإشارات إلى ذلك في أمثال الخيط الأبيض والأسود ومثل تفسير الظلم بالشرك. ومن تقييده صلى الله عليه وسلم اليد في قوله تعالى: «فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا »(14) باليد اليمنى...

ثانيا: بيان معنى لفظ أو متعلقه .كبيان المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى وكبيان «أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ»(15) بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة.

---

(10) النحل 44

(11) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي ، ج1 ص50-51

(12) انظر مقالته في مقدمته في أصول التفسير ص5

(13) الإتقان : السيوطي، ج2 ص170

(14) المائدة 38

(15) البقرة 25

وكبيان: «وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ»(16) بأنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعير .

ثالثا: بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم . كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها. وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحصن، وميراث الجدة.... وغير ذلك .

رابعا: بيان النسخ. كأن يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن آية كذا نسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا. مثل قوله عليه الصلاة والسلام: لاوصية لوارث بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها، وإن بقيت تلاوتها. وحديث «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام» بيان لنسخ حكم الآية : « **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ من نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ** »(17)

خامسا: بيان التأكيد أي تأكيد الحكم وتقويته، كما في قوله عليه السلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» فإنه جاء تفسيرا وتقوية لقوله تعالى: «**لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ** »(18)

وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» فهذا تفسير وتأكيد لقوله عز وجل: «**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**»(19)

(16) البقرة 58 - 59
(17) النساء 15
(18) النساء 29
(19) النساء 19

ثانيا : الدرس البلاغي في تفسير الصحابة :

لقد بدأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يترسمون خطاه في التفسير، ويحفظون ما نقل عنه، وقد يزيدون بحذر شديد في شرح لفظ غريب، أو بيان حكمة أو موعظة. ونشأت طبقة القراء في صدر الإسلام، تحفظ القرآن وتلم ببعض التفسير. كان الرسول عليه السلام يبعث بها إلى القبائل يعلمهم القرآن، ويفقههم في معانيه. ومع تحرج بعض الصحابة عن خوض غمار التفسير والقول في كتاب الله، ومع غلبة الطابع الديني على تفسير من لا يتحرج منهم، فإننا لا نعدم آثارا لتفسير بعض الصحابة في الأول.

وقد يقال إن الصحابة وهم أهل الحجاز وأصحاب اللغة التي نزل بها القرآن، لم يفهموا بعض الغريب في آيات الله. من ذلك ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن إبرهيم التيمي، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى في سورة عبس «**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**» فقال : « أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم »(20).

ونقل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر «وفاكهة وأبًا» فقال: هذه الفاكهة قد عرفنا فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكلف ياعمر(21).

ومنه أيضا ما قيل من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلا قوله عز وجل: «**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**»(22).

فقال عمر: ما معنى التخوف؟ فقام رجل من هذيل يفسر الكلمة لعمر قائلا: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشد:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن (23)

فقال عمر رضي الله عنه لأصحابه : عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا وما

---

(20) الإتقان في علوم القرآن ج1 ص195

(21) المصدر نفسه ج1 ص196

(22) النحل 45-47

(23) التامك : السنام ، والقرد: الذي تجعد شعره فكان وقاية للسنام، والنبع: شجر للقسي والسهام، والسفن: هو كل ما ينحت- انظر الموافقات للشاطبي ج2 ص88

ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإنه فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم»(24).

والصحابة الذين لم يتحرجوا من خوض غمار التفسير قاموا بمهمة بيان ما خفي من القرآن الكريم على السائلين، والداخلين في الإسلام، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

الدرس البلاغي في تفسير ابن عباس :

قال السيوطي: «وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وابن مسعود وابن عباس، وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير»(24).

وكان عبد الله بن عباس ترجمان القرآن، استجابة لدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام. فكان له بصر نافذ في فهم القرآن الكريم، مما جعل له مكانة بين شيوخ الصحابة مقدرين فهمه وعلمه بالقرآن الكريم .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم . فدعاني ذاتَ يوم و أدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح» فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله، ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. فقال لي: أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له. قال: إذا جاء نصر الله والفتح. وذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا. فقال عمر ما أعلم منها إلا ما تقول(25).

ففهم ابن عباس من السورة ما لم يفهمه كثير من شيوخ الصحابة، وهذا يدل على عظيم مكانته في فهم القرآن الكريم وتأويله.

ولقد كان لسبق وفاة التسعة الكبار من الصحابة المشهورين بالتفسير، وامتداد حياة ابن عباس إلى عصر التابعين، واختلاطه بالكثيرين، ورحيله في بلاد إسلامية كثيرة أثر كبير في شهرته المدوية بالتفسير. كما كان له أثر كبير في تناقل تفسيره بين الناس في جميع البلاد الإسلامية فحفظ منه الكثير ودُونت معظم آرائه في كتب التفسير.

---

(24) الموافقات : الشاطبي ، ج2 ص88

(25) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص187

وكان ابن عباس لا يقتصر في تفسيره على المأثور والأخبار، بل كان يضيف إلى ذلك عنصرا لغويا في فهم معنى المفرد أو فهم سر التركيب. ويستشهد على ذلك بالشعر الجاهلي، ونقل عنه «إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي»(26).

والمناقشة الشيقة التي جرت بينه وبين نافع بن الأزرق حيث سأله عن كثير من ألفاظ القرآن ففسرها ابن عباس واستشهد على تفسيره لكل كلمة ببيت من الشعر دليل واضح على الاتجاه اللغوي والحس البلاغي الراقي في تفسيره بجانب روايته للمأثور.

إن في تفسير ابن عباس الدرس البلاغي والإشارات التطبيقية في مجال البيان، ولعلها كانت أساسا للنهج البلاغي الذي جاء بعد ذلك في التفسير.

وتأويله لسورة النصر السابقة من قبيل الكناية، لأن مجيء النصر والفتح يدل على انتهاء الرسالة وتحقيق غايتها، فما بعده إلا الأجل. ولئن فات ابن عباس أن ينطق بلفظ الكناية، فما فاته مدلولها الصريح(27).

إن ما روي عن ابن عباس في مسائل نافع بن الأزرق ما يؤكد ما امتاز به في منهجه في التفسير، فقد كان يمتاز في الأمور النقلية بالثبت إذ كان يسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من الصحابة(28).

وفي الاجتهاد أكثر من الاعتماد على الشعر الجاهلي لفهم الألفاظ والأساليب التي وردت في القرآن الكريم. وقد كان يقول: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك »(29). ويقول أيضا: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب»(30).

وأحسن ما روي عن ابن عباس في هذا مسائل نافع بن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها. أخرج بعضها ابن الأنباري في كتابه الوقف والابتداء . وأخرج بعضها الطبراني في معجمه الكبير. وقد ذكر السيوطي مبدأ الحوار بين ابن عباس وابن

---

(26) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص183

(27) المصدر نفسه ج1 ص120

(28) خطوات التفسير البياني : ص21

(29) حبر الأمة ومدرسته في التفسير : عبد الله محمد سلفي ، ص93

(30) الإتقان في علوم القرآن ج1 ص119

الأزرق فقال: «بينا ابن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به .

فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله ففسرها لنا وائتنا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما(31).

فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى :«عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ»(32).

قال: العزون: حلق الرقاق ،

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»(33)،

قال: الوسيلة هي الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

قال: أخبرني عن قوله: «شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا»(34)،

قال: الشرعة: الدين، والمنهاج: الطريق ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت أبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام دينا ومنهاجا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ»(35)،

قال: نضجه وبلاغه ،

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت قول الشاعر:

---

(31) وردت القصة كاملة في الاتقان للسيوطي

(32) المعارج 37

(33) المائدة 35

(34) المائدة 48

(35) الأنعام 99

إذا ما مشت وسط السماء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ»(36)،

قال: في اعتدال واستقامة ،قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت لبيد بن ربيعة يقول:

ياعين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ»(37)،

قال: السّنا الضوء ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت أبا سفيان ابن الحارث يقول:

يدعو إلى الحق لايبغي به بدلا يجلو بضوء سناه داجي الظلم

قال أخبرني عن قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذِينَ آمَنُوا»(38)

قال: أفلم يعلم ، بلغة بني مالك

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت مالك بن عوف يقول:

لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ»(39)

قال: ألجأها

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت حسان بن ثابت يقول:

إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا»(40)

قال: القاع: الأملس، والصفصف: المستوى

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

بملمومة شهباء لو قذفوا بها شماريخ من رضوى إذن عاد صفصفا

---

(36) البلد 4

(37) النور 43

(38) الرعد 31

(39) مريم 23

(40) طه 106

قال: أخبرني عن قوله تعالى «وَإِنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لا تَضْحَى»(41)
قال: لا تعرق فيها من شدة حر الشمس
قال: وهل تعرف العرب ذلك؟
قال: نعم، أما سمعت الشاعر يقول:

رأيت فتى أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي، فيحضر

قال: أخبرني عن قوله تعالى: «له خوار»(42)
قال: له صياح
قال: وهل تعرف العرب ذلك؟
قال نعم، أما سمعت قول الشاعر:

كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام صائحة تخور

والمسائل التي سأل عنها نافع بن الأزرق كثيرة وهي تدل على قوة ابن عباس في معرفته بلغة العرب، وإلمامه بغريبها إلى حد لم يصل إليه غيره، مما جعله بحق زعيم هذه المدرسة في التفسير، وبحق لنا أن نطلق على منهجه «المنهج الذي يجمع بين الذوق البلاغي والحس اللغوي في تفسير القرآن الكريم » باعتبار الناحيتين البلاغية واللغوية سمتين بارزتين فيه.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن طريقة ابن عباس هي جعل الشعر أصلا للقرآن الكريم، لكن في الحقيقة أنه كان ذواقة للشعر، وأنه يتميز بحس لغوي جعله يعتمد في بيان الغريب من القرآن على الشعر، لأن المولى عز وجل قال: « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »(43).

وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد سلك هذا الطريق قبل ابن عباس، عندما سأل أصحابه وهو على المنبر عن معنى «التخوف» -كما سبق- فالذي لا ينبغي الشك فيه أن ابن عباس قد تأثر بمنهج عمر بن الخطاب، إلا أنه امتاز واشتهر أكثر من غيره. وساعده على ذلك ذكاؤه، وقوة حفظه وإحاطته بالأدب الجاهلي الذي حفظ منه ابن عباس شيئا كثيرا، وتوفر في وجدانه مخزون هائل من هذا الأدب، مما كان له أعظم الأثر في صياغة ذوقه البلاغي وحسه اللغوي الذي شكل أساس منهجه في تفسير القرآن الكريم .

---

(41) طه 119
(42) طه 88
(43) الشعراء 195

ويكفينا -لنأخذ صورة واضحة عن حفظه الذي لا يكاد يجاريه فيه أحد -أن نعلم أن عمر بن أبي ربيعة أنشده قصيدته التي مطلعها: «أمن آل نعم أنت غاد فمبكر»، فحفظها ابن عباس في مرة واحدة، وهي ثمانون بيتا(44).

أضف إلى هذا وذاك ما كان عليه ترجمان القرآن من جرأة في تقرير ما وصل إليه باجتهاده، منذ حداثة سنه. والأمثلة على هذا كثيرة، منها ما مر بنا، ومنها: أن عمر بن الخطاب قال للصحابة: فيمن ترون هذه الآية نزلت :«**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**»(45) قالوا: الله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. وهنا برزت جرأة ابن عباس، فقال بكل أدب وتوقير للصحابة: في نفسي منها شيء، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال: ضربت مثلا لعمل. فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: رجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله (46).

ومن الأمثلة التي تشهد لابن عباس بعلوّ منزلته وسمو مكانته البلاغية واللغوية وجرأته في التفسير، منذ حداثة سنه، ما قاله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أخبروني بشجرة تشبه، أو كالرجل المسلم(47) لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، تؤتي أكلها كل حين، قال ابن عباس: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أن أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم. فلما لم يقولوا شيئا، قال الرسول عليه السلام: هي النخلة. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد وقع في نفسي أنها النخلة. فقال عمر: ما منعك أن تتكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا»(48).

وهذا ابن عمر ذاته يكشف عما في نفسه، فيعترف أنه لا تعجبه جرأة ابن عباس في كتاب الله ، ولكنه يتأكد بعد ذلك بأن جرأته تستند إلى معرفة علمية راسخة:

جاء رجل إلى ابن عمر يسأله عن قوله تعالى: «**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**»(49).

---

(44) حلية الأولياء : أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، ج1 ص212

(45) البقرة 266

(46) الإتقان في علوم القرآن ج1 ص119 ومابعدها

(47) هكذا في الأصل ، ولعله شك وقع من الراوي

(48) صحيح البخاري ج5 ص219-220

(49) الأنبياء 30

فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله ثم تعال أخبرني، فذهب وسأله، فقال: كانت السماء رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات .

فرجع إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علما »(50).

وقد سمع مرة الشاعر الحطيئة ابن عباس وهو يفسر بعض آيات القرآن الكريم، فأدهشه روعة البيان، وقوة الأسلوب، فأخذه العجب من تلك الجرأة والشجاعة وعمق التفسير. فقال الحطيئة: من هذا الذي نزل على القوم بسنه، وعلاهم في قوله؟ فقالوا له: هذا ابن عباس.

وهنا تتفتح قريحته فينشد:

إني وجدت بيان المرء نافلة يهدي له ووجدت العي كالصمم

المرء يبلى ويبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوما ولو لم يلم(51)

هل لابن عباس تفسير كامل مكتوب؟

إن عصر التدوين جاء متأخرا عن عصر الصحابة، ومن بين مراجع التفسير ما ينسب لابن عباس وهو «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس » فما حقيقة هذا التفسير؟

إ ن الذي جمع هذا التفسير هو أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي صاحب القاموس المحيط. وقد اطلعت على هذا التفسير فوجدته يبدأ من سورة الفاتحة، ويختم بسورة الناس. ورأيت الذي جمعه عند الكلام على البسملة يسوق الرواية عن ابن عباس بهذا السند: «أخبرنا عبد الله الثقة ابن المأمون الهروي، قال: أخبرني أبي قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازي، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي، قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس»(52)

وعند تفسير سورة البقرة يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله بن المبارك، قال: حدثنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس»(53) وفي مستهل كل سورة يقول: «وبإسناده عن ابن عباس» فيظهر لنا بشكل واضح أن جميع ما روي عن ابن عباس في هذا الكتاب،

---

(50) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص187

(51) الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني، ج2 ص193

(52) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص189 ومابعدها

(53) المصدر نفسه ج 2 ص 190

يدور على محمد بن مروان، وهو السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس.

وطريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، من الطرق التي كانت مطعنا للرواة، حتى وصفها بعضهم بأنها أوهى الطرق. ولكن للكلبي أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح وهو معروف بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول ولا أشبع كما يقول ابن عدي في الكامل(54).

ومع ذلك فإنه وجد من قال: رضوه في التفسير، ومن قال: أجمعوا على ترك حديثه وليس بثقة، ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع (55).

أثر مدرسة ابن عباس:

لقد سار على نهج ابن عباس كثير من التابعين، وتخرج على يديه كثير من المفسرين أمثال: سعيد بن جبير، ومجاهد، وطاووس بن كيسان، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم كثير، وكل هؤلاء في مكة، حيث كان يجلس ابن عباس يفسر لهم كتاب الله ويوضح لهم ما خفي من معانيه، وكان تلاميذه يعونَ عنه ما يقول ثم يروون عنه ما سمعوا منه.

وفي المدينة، قامت مدرسة متأثرة بابن عباس وكان أستاذها أبيّ بن كعب.

ومدرسة ثالثة في العراق، وكان عمادها عبد الله بن مسعود.

وقد بقيت مكة باعتبارها المركز الرئيسي لابن عباس صاحب الدور الهام، وذلك لموقعها ومكانتها الدينية، حيث ملتقى الحجيج من جميع الأقطار الإسلامية يأتون إليها من كل فج عميق. قال الإمام أحمد بن تيمية: «أما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس وطاووس، وأبي الشعناء، وسعيد ابن جبير، وأمثالهم »(56).

لقد كان أثر ابن عباس واضحا في تلك المدرسة، حيث استمرت طريقته في

---

(54) الإتقان في علوم القرآن ج2 ص189 ومابعدها

(55) التفسير معالم حياته ، منهجه اليوم : أمين الخولي، ص9

وانظر: التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي، ج1 ص81

والتعبير بـ «لا يكتب حديثه» هو أحد التعابير المصطلح عليها في مراتب الجرح، وهو يساوي قولهم: «رد حديثه» أو «مردود الحديث» أو «ضعيف جدا».

انظر في هذا كتاب الرفع في الجرح والتعديل : محمد عبد الحي الهندي، ص80

(56) مقدمة في أصول التفسير ابن تيمية ص 15

الرجوع إلى الشعر العربي للتعرف على الغريب من ألفاظ القرآن الكريم. والاعتماد على الكناية، والتمثيل والتشبيه، والمجاز، تلميحا لا تصريحا، ومعنى لا شكلا.

وظل تلاميذه ينقلون عنه هذا المنهج إلى عهد التابعين ومن يليهم... وظل ذلك المنهج سائدا إلى أن حدثت خصومة مفتعلة بين المتورعين والفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة وقالوا: إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن، وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم في القرآن الكريم والحديث الشريف(57).

والحق أن هذه الخصومة التي انبعثت في الأجيال المتأخرة لا تقوم على أساس فني ولا على قاعدة علمية سديدة .

فالأمر ليس كما زعم أصحاب هذا الرأي من جعل الشعر أصلا للقرآن، بل هو -في الواقع- بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى يقول: «**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**»(58) ولهذا لم يتحرج المفسرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر العربي للاستشهاد به على ما تعاجم عنهم في القرآن.

أمثلة ونماذج من تفسيرهم:

مجاهد بن جبير: هو أبو الحجاج المكي المخزومي ت104هـ مولى عبد الله بن السائب المخزومي شيخ القراء، وأحد الأئمة الأعلام في التفسير، اشتهر بفطنته وذكائه، وقوة حافظته حتى قال عنه عبد الله بن عمر: «وددت لو أن نافعا يحفظ حفظك»(59).

وقد روي عنه في قوله تعالى «**وَيَوْمَ الْفُرْقَانِ**» قال: يوم فرق الله فيه بين الحق والباطل»(60) كما أنه مثل للقلب بكفه وأصابعه ليضرب مثلا توضيحيا حسيا عن كيفية الختم على القلب في قوله تعالى: «**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**»(61).

قال الأعشى: «أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب مثل هذا يعني -الكف- فإذا أذنب العبد ذنبا ضم منه وقال بإصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى فإذا أذنب ضم وقال بإصبع أخرى، فإذا أحنى أصابعه

---

(57) التفسير والمفسرون : الذهبي ، ج1 ص129-130

(58) يوسف 2

(59) ميزان الإعتدال : الحافظ الذهبي ، ج3 ص9

(60) جامع البيان : ابن جرير الطبري ، ج1 ص32

(61) البقرة 7

كلها، قال: ثم يطبع الله عليه بطابع قال مجاهد: وكانوا يرون أن ذلك الران»(62)

وعندما يتحدث عن شياطين المنافقين، لا يغيب عن ذهنه أن اللهّ سبحانه وتعالى قد بين في سورة الناس، أن الشياطين تكون من الناس كما تكون من الجِنة . ففي قوله عز وجل: « **وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ** » قال مجاهد : أصحابهم من المنافقين والمشركين .

وفسر الرعد فقال: ملك يزجر السحاب بصوته (63)

وفسر مجاهد قوله تعالى : «**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**»(64)، قال: لا يبلن ولا يتغوطن ولا يمذين ، وزاد في رواية أخرى ولا يمنين ولا يحضن(65).

وإذا كان بعض النحويين قد فسر الباء الداخلة على لفظ الدهن في قوله تعالى: «**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ**»(66) بأنها للمصاحبة (67) فإن مجاهدا لمح فيها معنى مجاز الحذف حيث بين أن مجرور الباء في هذه مقدر وهو ثمرة الدهن، قال: تنبت بثمرة الدهن .

ونلاحظ في كل ما ورد عن مجاهد من تفسير أنه لا يقف عند الكناية أو التشبيه أو بعض الإشارات البلاغية في المجاز بالحذف إنما كان دائما لا ينسى الربط بين الآيات عندما يشرع في تفسيرها... روى الطبري عن مجاهد في قوله تعالى: «**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ**» قال إذا ولى سعى بالتعدي والظلم، فيحبس الله القطر، فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . ثم قرأ مجاهد «**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**» ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر(68).

وقد مضى جيل التابعين حتى نهاية القرن الأول الهجري وبعده بقليل على هذه الوتيرة، فكانت الإشارات البلاغية تبدو بوضوح من خلال رؤيتهم لتفسير آي الذكر الحكيم، ولكن بدون تصريح بالمصطلح البلاغي أو المجازي الذي عرف بعد ذلك.

فهذا عكرمة بن عبد الله المدني مولى عبد الله بن عباس، وهو يفسر قوله تعالى

---

(62) جامع البيان : ابن جرير الطبري ، ج1 ص86

(63) المصدر نفسه

(64)البقرة 25

(65) جامع البيان ج1 ص35

(66) المؤمنون 20

(67) انظر مغني اللبيب لابن هشام (معاني الباء ج 1 ص124 - 129)

(68) البقرة 205

في سورة الرعد «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»(69) يقول: إنه ملك في السحاب يجمع السحاب، كما يجمع الراعي الإبل. وعن تسبيح الرعد يقول: إن الرعد ملك يؤمر بإزجاء السحاب فيؤلف بينه، فذلك الصوت تسبيحه(70).

وفي مجال العقيدة نرى عكرمة قد اعتبر أن إسناد أي أمر من الأمور إلى مخلوق لا يكون على سبيل الحقيقة، وإلا عُدّ ذلك شركا... ويظهر ذلك في تفسير قوله تعالى: «فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» يقول عكرمة: «فلا تجعلوا لله أندادا، أي لا تقولوا: لَوْلَا كلبنا لدخل علينا اللص، ولولا كلبنا في الدار ونحو ذلك. فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئا، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له ندا وعدلا في الطاعة»(71).

وفي قوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»(72).

يقول عكرمة: إن الحسنة شهادة أن لا إله إلا الله . والسيئة الشرك . ثم عمم بالنسبة للسيئة فجعلها قاعدة من قواعد أصول التفسير فقال: كل شيء في القرآن السيئة فهو الشرك(73).

وهذا عطاء بن أبي رباح... سيد التابعين علما وعملا وأتقى أهل زمانه بمكة (74) يمضي على نهج السابقين في التفسير. يقول في تفسير قوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ »(75). هذا مثل ضرب للكافر، وفسر الصيب بالمطر(76).

وفي قوله تعالى: « وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ »(77) يقول: يقام الحد ولا يعطل(78) .

---

(69) الرعد 13
(70) جامع البيان ج1 ص116
(71) المصدر نفسه ج1 ص25
(72) النمل 89-90
(73) جامع البيان ج20 ص15
(74) طبقات ابن سعد ج5 ص467
(75) البقرة 19
(76) جامع البيان ج1 ص119
(77) النور 2
(78) جامع البيان ج18 ص68

وهكذا نجد التابعين يسلكون منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهج الصحابة رضوان الله عليهم في التفسير، إذ يركزون على الجوانب اللغوية لتوضيح ما دق وخفي من الآيات الكريمات فأسهموا بذلك في الكشف عن الأسرار البلاغية في القرآن الكريم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدرس البلاغي عند الدارسين للقرآن خلال القرن الثاني

تمهيد

يعتبر القرن الثاني وجزء من نهاية القرن الأول الهجريين مرحلة بداية التدوين. وفي هذه المرحلة برزت محاولات شتى لتدوين التفسير في صور عديدة، اختلفت باختلاف العلماء ومذاهبهم، فاللغويون والنحويون طبعت كتبهم باسم معاني القرآن، وها هو ذا أبو الحسن الكسائي (ت 183) يؤلف كتابا في معاني القرآن، وأبو الحسن سعيد بن مسعد الأخفش له كتاب بهذا الإسم، قال الزبيدي(1) قرأ الكسائي عليه كتاب سيبويه، وألف أبو جعفر الرؤاسي، والنضر بن شميل -المازني- والفراء- والزّجاج وأبو علي الفارسي، وأبو جعفر النحاس، وقُطرب كتبًا في معاني القرآن وهم من رجال القرنين الثالث والرابع.

المبحث الأول : الدرس البلاغي وإشاراته عند سيبويه (2) :

لقد جاء الكتاب، على سبقه الزمني، نسيج وحده في موضوعه، حافلا بكل مفيد من الدراسات اللغوية نحوا وتصريفا، وعروضا وأصواتا وقراءات وبلاغة لم يعرف قبله مثله، ولم يلحق به نظير، واحتل مكانا رفيع الدرجات عند العلماء والدارسين، وكان المبرد يقول فيه لمن جاء يقرأه عليه: هل ركبت البحر؟(3) تعظيما، واستصعابا لما فيه.

صار كتاب سيبويه دستورا لمن جاء بعده، ومرجعا للمؤلفين من القدماء وله عند الباحثين المحدثين أهمية لا تضارع، إنه دوحة عظيمة، وارفة الظلال، دانية الثمار، لم يقتصر جناها على القاطفين من النحاة والصرفيين واللغوين، والقراء، بل أمدت بطيب مذاقها الأدباء والنقاد والبلاغيين، فالإمام عبد القاهر الجرجاني، وهوفي البلاغة، مثل سيبويه في النحو، قد استمد نظريته في المعاني، التي وضع

---

(1) طبقات النحويين للزبيدي 16

(2) هو أبو عمرو بن عثمان النحوي البصري، وشهرته تغني عن التعريف به، وفي سنة وفاته خلاف كبير بين المصادر التي ترجمت له، والمتفق عليه أنه توفي أواخر القرن الثاني الهجري "مابين سنة 161 و 194هـ

انظر وفيات الأعيان ج3 ص 413 .

(3) الفهرست لابن النديم ص 76، وبغية الوعاة للسيوطي ج2 ص229

الفصل الثاني
الدرس البلاغي عند الدارسين للقرآن خلال القرن الثاني

المبحث الأول :

الدرس البلاغي وإشاراته عند سيبويه

- التركيب المستقيم والاستعارة التمثيلية

المبحث الثاني :

الدرس البلاغي وإشاراته عند الفراء

- خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي
- المجاز العقلي والمجاز المرسل
- الاستعارة
- التشبيه
- الكناية
- التكرار

المبحث الثالث :

الإشارات البلاغية عند أبي عبيدة

- خروج الاستفهام
- المجاز العقلي والمجاز المرسل
- المجاز الاستعاري
- الكناية
- المجاز بالحذف
- المشاكلة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رسومها، وأقام صرحها العملاق في كتابه «دلائل الإعجاز» من كتاب سيبويه، وصرح بالإفادة منه في مواضع كثيرة من كتابه المذكور، وحسبنا أن نقول: إن الإمام عبد القاهر، وضع تعريفه لنظرية «النظم» على إدراك المعاني النحوية، وحسن إيرادها بين الكلم، فقال: «وأعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه، وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها»(4) وقد راح عبد القاهر يفصل القول تفصيلا رائعا حول هذه النظرية البلاغية الأدبية، التي استبدت بكل جهوده في الدلائل وهو يلفت النظر بين الفينة والفينة إلى ماذكره سيبويه في «الكتاب»، ومن أبرز لفتاته « قال: صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى»(5)

ولا يمكن -هنا- أن نتبع الإشارات المجازية التي تؤكد وجود الدرس البلاغي في القرآن الكريم -إنما هي لقطات نذكرها على سبيل إيراد النماذج والأمثلة لا على سبيل الحصر فإن ذلك يطول....

التركيب المستقيم والاستعارة التمثيلية:

أول ما نقف أمامه في كتاب سيبويه نص ذكره تحت عنوان : هذا باب الاستقامة من الكلام(6) " فمنه مستقيم حسن ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح وما هو محال كذب .

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدا. وأما المحال فأن تنتقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"؟!

ويفسر عبد العظيم المطعني كلام سيبويه(7) بأنه يريد تفسير كيفية الكلام

(4) دلائل الإعجاز ص 117 شرح محمد عبد المنعم خفاجة
(5) المصدر نفسه ص138
(6) الكتاب لسيبويه جـ1 ص8
(7) المجاز في اللغة والقرآن الكريم للمطعني ج1 ص7- 8..

وتقسيمه إلى قسمين:

أحدهما: المستقيم وتحته ثلاثة أنواع ، والثاني : المحال وتحته نوعان ..

فصارت الأنواع خمسة تفصيلا على ما ذكر، وضابط المستقيم -عموما- هو إمكان الوقوع مع التفاوت والتأويل، أما ضابط المحال فهو عدم إمكان الوقوع.

فالمستقيم الحسن كلام جرى على الوجه المألوف.

أما المستقيم الكذب - كما ترى في التمثيل- ففيه ادعاء مالايكون كائنا.

وأما المستقيم القبيح فهو - كما في التمثيل- كلام اختل نظمه بتقديم الموجز، وتأخير المقدم بلا مسوغ مقبول.

أما المحال: فهو ادعاء وقوع الحدث قبل وقته، وهذا ممتنع، أو ادعاء وقوعه قبل فوات ظرفه، وهذا ممتنع كذلك، ومثالاه صريحان في هذا.

والمحال الكذب - كما تدل عليه عبارته- فيه ما في المحال زائداً ادعاء مالم يجربه طبعٌ أوعادة «سوف أشرب ماء البحر أمس»!

والمهم عندنا من هذه الأنواع: نوع المستقيم الكذب، وقد مثل له صاحب الكتاب بمثالين: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، وبدهي أن الجبل بمعناه المعروف لا يستطيع حمله أحد، وماء البحر لا يستطيع أن يشربه فرد؟!

وبناء على هذا فإن سيبويه قد أدرك الاستعمال المجازي في بعض تراكيب اللغة، وإن لم يسمّه مجازا ولكنه حام حوله...

والمتبادر إلى الذهن أن سيبويه لم يرد بالكذب -هنا- الكذب الخلقي المذموم، وإنما أراد التخيل الفني، فقد أدرك أن هذه الصور قد يتسع لها صدر اللغة العربية لا باعتبار أن مدعيه قد وقع منه فعلا هذا المدعى، وإنما على وجه من التأويل والصرف عن الظاهر. وإذا صح هذا الفهم فإن صاحب الكتاب يكون قد مهد للمبالغة المسماة عند المتأخرين «غلوا»، ومهد للاستعارة التمثيلية، أو المجاز المركب على الحد الذي حدوه(8)

بيان ذلك: أن لدينا مثالين مثل بهما صاحب «الكتاب»، لما سماه المستقيم

(8) المجاز في اللغة والقرآن الكريم ج1 ص 8-9

الكذب، أحد المثالين: شربت ماء البحر، وهذه الدعوى غير مقبولة من مدعيها لاستحالة وقوع مدلولها عقلا وعادة، فالعقل لا يجوّز أن يشرب إنسان ما مهما كان ماء البحر دفعة واحدة، ولا على دفعات، ولو عمّر عمر نوح عليه السلام، وما منعه العقل منعته كذلك العادة، وهذا ما أطلق عليه المتأخرون اسم «الغلو» أحد أنواع المبالغة الثلاثة (9)

أما المثال الآخر، حملت الجبل؛ وهي كلمة يقولها من يعاني من أمر ثقيل المحمل لا طاقة له به، فهو استعارة تمثيلية، أو مجاز مركب لا تجوُّز في مفرداته وإنّما التجوُّز في الهيئة وجملة التركيب، فقد شبه حاله وهيئته وهو يعاني ما يعاني من شدّة الوطأة بحال من يحمل جبلا في أن كلا منهما يلقى من العناء ما لا يطاق والقرينة استحالة أن يتصور إنسان ما يحمل جبلا..

واللغة العربية عرفت مثل هذا الإفصاح عند اشتداد الهول، وضعف المتعرض له، فقد سئل أحد السلف، وهو في ساعة الاحتضار: كيف تجدك؟ قال: كأن السماء انطبقت على الأرض، وأنا بينهما(10)؟! ويخطو صاحب «الكتاب» خطوة شديدة نحو الهدف، فينقل عن العرب الخلص تراكيب مأثورة، ومن القرآن الكريم، ويوجهها توجيها مجازيا، وإن لم يصرح هو باسْم المجاز، ولكن المتأخرين من علماء البلاغة من بعده، وإلى اليوم نقلوا تلك التراكيب التي لفت سيبويه الأنظار إليها؛ وردّدوا توجيههه إيّاها: قال عليه رحمة الله: «ومهما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى: «**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا**»(11) إنما يريد أهل القرية فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان ها هنا- ومثله قول تعالى: «**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...**»(12) ومثل ذلك من كلامهم: بنو فلان تطؤهم الطريق.. وإنما يطؤهم أهل الطريق(13) وآية «واسأل القرية» فيها مجازان عقليان، ولم يفت صاحب «الكتاب» أن يبين أصل

---

(9) المجاز في اللغة والقرآن الكريم ج1 ص9

(10) يرى الدكتور المطعني أن قائل العبارة هو عمرو بن العاص -رضي الله عنه- وأنه لا يتذكر المرجع .

(11) يوسف 82

(12) سبأ 33

(13) الكتاب جـ1 ص108، 109

الكلام، فكان حق الفعل: اسأل، أن يعمل في «الأهل لا في القرية» ولا في «العير» من حيث أنهما قرية، وعير.

والعلاقة في الموضعين واضحة، فهي في القرية «المكانية» وفي العير «المجاورة» أو «المصاحبة»، فقد أوقع الفعل فيهما على غير ما حقه أن يقع عليه ومثل هذا أن تقول: «أسعدت المدينة، وأنت تريد أهل المدينة. والمثال الذي رواه عن العرب: «بنو فلان تطؤهم الطريق» أسند فيه الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه، فالواطئ حقيقة هو أهل الطريق لا الطريق، والعلاقة هنا المكانية كذلك بيد أن النسبة في الآية الكريمة إيقاعية، وفي المثل العربي المأثور وقوعية (14)، والمجاز العقلي، وإن كان معتبرا في الإسناد «الفاعلية» فإنه يقاس عليه النسبة الإيقاعية «المفعولية» والنسبة الإضافية، بأن يضاف الشيء إلى غير ما حقه أن يضاف إليه، كمكر الليل والنهار، وقد صرح صاحب الكتاب في غير هذا الموضع بأن الليل والنهار لا يمكران، وإنما المكر فيهما (15).

فقد هجر صاحب الكتاب، وصف الكلام الذي اشتم فيه رائحة المجاز بالكذب كما فعل في أول الكتاب، وصار يتلمس له وجها آخر غير الكذب، فهداه تفكيره إلى الاختصار، والاتساع في الكلام، ولم يزل يردد هذا المصطلح الجديد في ثنايا كتابه، على ما فيه مجاز وعلى ما ليس فيه مجاز من أساليب اللغة.

وخرّج على هذا الفهم مئات الصور من كلام العرب، وإطلاق الاتساع على المجاز واقع موقعه من الصحة والقبول، فأصدروا في اتساع اللغة العربية وثرائها هو المجاز بل إنه من أعظم تلك الروافد عمقا وتدفقا وصفاء...

وقد ساق سيبويه في الكتاب أمثلة متعددة، خرج فيها الاستفهام إلى معان مجازية اعتبر ذلك من الظواهر البارزة في «الكتاب» وهذا أمر شاع بين الرواد الأوائل من اللغويين، وإذ لم نر واحدا منهم أغفل هذا الجانب من مباحثه، مثل الفراء وأبي عبيدة، وابن قتيبة كما سوف يجيء بعد قليل(16) ، وأطال صاحب

(14) المجاز للمطعني جـ1 ص10
(15) الكتاب جـ1 ص89
(16) المصدر نفسه جـ1 ص171 ومابعدها....

«الكتاب» في سرد الأمثلة عن خروج الأمر إلى التهديد (17) وأمثلة متعددة عن الاستعارة بالكناية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(17) الكتاب جـ1 ص319.. 320

المبحث الثاني : الدرس البلاغي وإشاراته عند الفراء :

من أبرز ما أثمره القرن الثاني كتاب «معاني القرآن» للفراء (18) وهذا الكتاب يأتي في الدرجة الثانية بعد إمام النحاة سيبويه، في سلسلة اللغويين والنحاة الذين تركوا في آثارهم ومصنفاتهم أضواء كاشفة في مجال الدرس البلاغي بصفة عامة، والمجازي بصفة خاصة.

وتأتي أهمية كتاب معاني القرآن ، كونه من أوائل ما وصلنا من تفسير للقرآن مكتوب حسب ما ذكر ابن النديم : « أن أبا العباس ثعلب قال : كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكير كان من أصحابه ، وكان منقطعا إلى الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء : إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا أو تجعل في ذلك كتابا أرجع إليه .فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن... فقال الفراء لرجل : اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها ثم نوفي الكتاب كله . فقرأ الرجل وفسر الفراء .

قال أبو العباس لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه »(19).

لكن هذا الحكم مطلق ويكشف عن انحياز شديد للفراء ، فالروايات تذكر تفاسير عديدة قبل معاني القرآن .

لكن الرجلين «سيبويه والفراء» يعتبران من أعلام القرن الثاني الهجري، أولهما: قضى نحبه قبل نهاية القرن الثاني بقليل، وثانيهما: بعد بداية الثالث بقليل وهما يمثلان أكبر مدرستين عرفتا في تاريخ البحث اللغوي، وسيبويه بصري المذهب، والفراء كوفي المذهب. وإذا كنا قد اتخذنا من سيبويه مصدرا في التعرف على موقفه من فكرة المجاز، فإننا نتخذ من كتاب الفراء «معاني القرآن» عمدتنا في الدرس البلاغي، وبخاصة أنه موضوع للكشف عن معاني القرآن.

---

(18) أبو زكريا يحي بن زياد بن عبد الله الملقب بالفراء، ولد ونشأ بالكوفة، ودرس اللغة والقرآن، وميادئ الاعتزال واستقر في بغداد، واتخذه المأمون مؤدبا لولديه، وله في النحو وفي اللغة عدة مؤلفات، وكانت وفاته عام 207 هـ . انظر معجم الأدباء جـ6 ص176

(19) الفهرست ص 99

وإذا أسفر البحث عن إدراك الفراء للاستعمال المجازي في أسلوب القرآن الكريم فمعنى ذلك أن الدرس البلاغي في القرآن كان من السمات البارزة للذكر الحكيم عند المفسرين والدارسين منذ فجر الإسلام.

والفراء بما أبداه في كتابه «معاني القرآن» من تخريجات وتوجيهات أبداها مفرقة هي من صميم مسائل البلاغة كما عرفت عند المتأخرين.

وهو أحيانا ينسب ما يصرح به إلى أعلام السلف: صحابة وتابعين، وبخاصة ابن عباس ومجاهد وقتادة، رضي الله عنهم أجمعين.

ولقد بدأ الفراء كتابه بمقدمة قصيرة، ثم تناول سور القرآن الكريم سورة سورة فبدأ بفاتحة الكتاب، ثم البقرة، ثم آل عمران، وهكذا حتى انتهى من سور القرآن وعرض بالشرح والبيان لآيات كل سورة، ووقف أمام غريب القرآن وعرض للقراءات وللتخريجات النحوية، واستدل على آرائه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والشواهد الشعرية، وكلام الفصحاء من العرب...

وإذا كانت السمة النحوية واللغوية تغلب فإن المسائل البلاغية والنظرات البيانية كانت كذلك واضحة في الكتاب...

والدرس البلاغي تتجلى ملامحه في كتاب معاني القرآن، في المسائل الآتية:

خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي:

يشير الفراء كثيرا إلى خروج الاستفهام عن معناه الوضعي إلى معان مجازية، وإن لم يصرّح هو باسم المجاز.

وهذه نص عبارته قال الله تعالى:« **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ** »(20).

قال: «وهذا على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض، أي ويحكم كيف تكفرون»(21).

إن صرف الفراء الاستفهام عن موضوعه هنا ضرورة أملته عليه أصول الاعتقاد،

---

(20) البقرة 28

(21) معاني القرآن للفراء جـ1 ص23

تمنع الأخذ بظاهر العبارة، لأن المستفهم -في الأصل- طالب من المخاطب إعلامه بأمر غير معلوم للمستفهم، وتعالى الله عن هذا علواً كبيرا، لأن علمه محيط بكل شيء، فتأويل الاستفهام هنا ضرورة من ضرورات التنزيه، وسمة أسلوبية بارزة في اللغة العربية المنزل بها القرآن العظيم، وهو مفيد للإنكار أكثر من إفادته للتعجب، والتوبيخ رديف الإنكار، لأنهم إنما وبّخوا على كفرهم مع وضوح دلائل الإيمان اليقيني (22). ومن خروج الاستفهام إلى الإنكار قوله تعالى حكاية عن اليهود يقول بعضهم لبعض:« **أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ**»(23) ويقول الفراء في تفسيره: هذا من قول اليهود لبعضهم، أن لا تحدثوا المسلمين بأنكم تجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة، وأنتم لا تؤمنون به فتكون لهم الحجة عليكم (24).

وكلامه هنا صريح في صرف الاستفهام عن الظاهر، وحمله على الإنكار، وهذا معنى مجازي بلا خلاف.

وتناول قوله تعالى: «**وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا**»(25) وقوله تعالى:« **... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**»؟(26).

وقال في الأول: وهو استفهام، ومعناه أمر.

وقال في الثاني: تأويله: انتهوا (27)

هذا وقد تعقب المفسرون من بعده هذا الموضع «أأسلمتم» وحملوا الاستفهام فيه على الأمر، كما قال الفراء، وبعضهم أضاف إليه التهديد، ومعاني أخرى مجازية مبثوثة في تصانيفهم (28).

وقال في قوله تعالى: «**إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ**

---

(22) المجاز للمطعني جـ1 ص19 - الكشاف للزمخشري جـ1 ص269

(23) البقرة 76

(24) معاني القرآن للفراء جـ1 ص50

(25) آل عمران 20

(26) المائدة 91

(27) معاني القرآن للفراء جـ1 ص202

(28) راجع الكشاف جـ1 ص919، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ2 ص45

مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ»(29)

قال:«إن شئت جعلت ماذا استفهاما محضا على جهة التعجب، كقولك: ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب؟ وإن شئت عجبت أمر العذاب»(30)

والمعنيان فيهما صرف عن الظاهر، فهما إذن مجازيان، لأن الصرف أقوى دلالات التجوز.

ومن التخريجات المجازية للاستفهام -عنده- خروجه من الطلب المحض الذي هو معناه الوضعي إلى الخبر، وعلى هذا خرج الاستفهام في قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً» (31).

قال معناه خبر، ومثله قول الشاعر جميل بثينة :

ألم تسألِ الرَبْعَ القديمَ فينطقُ فهل تخبرنَّ اليوم بيدا سملّق(32)

وقال إن معناه: «قد سألته منطق» فكأنه أراد أن يقول إن معنى: «ألم تر؟ قد رأيت. هذا ما يفيده التنظير بين الآية الكريمة وبين هذا البيت من الشعر.

وخرج الاستفهام في قوله تعالى: «اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ»(33)

على التوبيخ، فقال: استفهام وفيه توبيخ لهم (34)

ومثله قوله سبحانه وتعالى: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» على قراءة من قرأ على الاستفهام فيقال لهم ذلك توبيخا على ما فرطوا.

وكذلك قوله تعالى: «أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ» (35) قال: «وهو من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ»(36) هذا قوله، والظاهر أن «اصطفى البنات» للإنكار والتوبيخ لأن الاصطفاء غير موجود في واقع الأمر، فهو

---

(29) يونس 50

(30) معاني القرآن للفراء جـ1 ص467

(31) الحج 63

(32) السملق : الأرض الملساء المجوفة

(33) الصافات 153

(34) معاني القرآن للفراء جـ2 ص394

(35) المصدر نفسه جـ2 ص63

(36) المصدر نفسه جـ2 ص411

زعم باطل وبخ عليه مدعوه؛ أما «أذهبتم» فالأولى حمله على التقرير والتوبيخ، لأن الإذهاب موجود فعلا، وبهذا يظهر ما في كلام المؤلف من قصور، وشفيعه أنه رائد مقدم لا يطالب دائما بالتدقيق (37) وقد جاء المفسرون من بعده ونهجوا نهجه فصرفوا الاستفهام عن ظاهره، فحمل الزمخشري وغيره (38) استفهام أهل النار «**أتخذناهم**» على الإنكار. والفراء قال : إنه توبيخ،

ولا منافاة بين القولين، فالإنكار كثيرا ما يصحبه التوبيخ، ثم عاد المؤلف إلى قوله تعالى:«**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**» وقال: إن فيه قراءتين، إحداهما: استفهام، والثانية إخبار، وقال التوبيخ ملازم للقراءتين، وحكى عن العرب ما يؤيد ذلك فقال: والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم ، فيقولون: ذهبت ففعلت وفعلت؟ ويقولون: أذهبت وفعلت؟ وكلٌ صواب(39)

ومعنى هذا أن المؤلف لم يقف عند خروج الاستفهام إلى المعاني المجازية فحسب بل يرى الخبر قد يخرج إلى تلك المعاني.

وذهب المؤلف إلى أن الاستفهام في قوله تعالى: «**فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ...**»(40) للتعجب، فقد عجب الله رسوله منهم صلى الله عليه وسلم: «أيْ أيُّ شيء هم»(41)؟

وقد سلك هذا المسلك في الاستفهام الواقع في مطلع كل من سورتي الحاقة والقارعة

والذي تطمئن إليه النفس أن الاستفهام في مطلعي سورة الحاقة والقارعه، وكل ما أشبههما من الحديث عن الآخرة الأولى حمله على التهويل والتخويف لا على مجرد التعجب.

ومن هذا تربية المهابة في النفوس للنجاة من تلك الأهوال(42)

---

(37) المجاز للطعني جـ1 ص22

(38) الكشاف جـ4 ص 223 ، وفيه تحليل رائع للآية الكريمة . وانظر التفسير الكبير للرازي ج26 ص223

(39) معاني القرآن للفراء ج3 ص254

(40) الواقعة 8

(41)معاني القرآن ج3 ص258

(42)المجاز للمطعني جـ1 ص22

وخرج قوله تعالى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ»(43) على التعجب، فقال: «عجبهم من حمل الإبل إنها تحمل وقرها وهي باركة، ثم تنهض به، وليس شيء من الدواب يطيق ذلك إلا البعير»(44) كما تعرض الفراء في معاني القرآن للاستفهام الذي على صيغة «أرأيت» وما تصرفت إليه، وقسمه قسمين، جعل ثانيهما بمعنى «أخبرني»(45) وهو المعنى الذي شاع عند البلاغيين، والمفسرين، ولم يكادوا يرون في تلك الصيغ غيره... وهذا الفهم غير مطرد في هذه الصيغة بل فيها مواضع لا يحسن فيها هذا التخريج(46).

والخلاصة أن الفراء قد نص في كتابه المذكور على خروج الاستفهام إلى معان متعددة كالإنكار والتوبيخ والتعجب والأمر... وخروج الاستفهام إلى مثل هذه المعاني معدود من أساليب المجاز في اللغة، وهو مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد(47) .

ومعنى هذا أن الفراء وهو من سلف الأمة ومن علماء اللغة البارزين قد مهد للدرس البلاغي بحديثه وتخريجاته التي خرج عليها نصوصا كثيرة من القرآن الكريم في موضوع الاستفهام.

المجاز العقلي..

من الأخطاء التي شاعت عند الباحثين أن المجاز العقلي من مكتشفات الإمام عبد القاهر الجرجاني، وهذا القول ليس صحيحا -على إطلاقه- لأن الذي تسلم نسبته للإمام عبد القاهر، إنما هو تفصيل القول فيه، وتسميته، والإكثار من الشواهد عليه، والبحث عن جهة التجوز فيه..

وقد سبق لنا أن عرضنا تطرق إمام النحاة سيبويه إليه، وذكره بعض صوره وأطلق عليه الاختصار والاتساع اللغوي.

---

(43) الغاشية 17

(44) معاني القرآن ج3 ص258

(45) المصدر نفسه جـ1 ص133

(46) المصدر نفسه جـ1 ص121

(47) المجاز للمطعني جـ1 ص23 - وشروح التلخيص جـ2 ص264 - وحاشية السيد الشريف على المطول ص35

ثم ها هو ذا الفراء، وهو من معاصري سيبويه من اللغويين يلفت الأذهان إلى صور المجاز العقلي، ويكثر من الإشارة إليه في أفصح ما في الأساليب العربية من كلام، وأرفعها قدراً، وهو القرآن الكريم.

فقد ذكر الفراء قوله تعالى: «فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»(48)

ثم قال: «ربما قال القائل: كيف تربح التجارة؟ وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب، ربح بيعك وربح بيعك، فحسن القول بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب هذا ليل نائم، ومثله من كلام الله: «فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»(49) .

وإنما العزيمة للرجال(50) .

إن أدنى تأمل في تحليل الفراء لهذه الصورة، يريك أن الرجل قد أدرك بوضوح أثر التجوز في العبارة، مع حرصه على بيان العلاقة بين المسند إليه المجازي (التجارة)، والمسند إليه الحقيقي (التاجر)، وأن ذلك التصرف في الأسلوب من طرائق العرب في البيان، وأيد نظره كما رأينا بمأثور من كلامهم (51) ولا خلاف عند المتأخرين من أعلام هذا الفن، في حمل الآية على ما أسموه «بالمجاز العقلي» أو «الحكمي» أو مجاز الإسناد، مع جواز حمله على الاستعارة المكنية، وإن كان السكاكي يرجح المجاز الاستعاري في هذا الضرب على المجاز الإسنادي مع مجاراته للجمهور على اعتبار المجاز العقلي (52)، ثم يخطو الفراء خطوة أخرى لها وزنها في مجال الدرس البلاغي،... ولندع نصه يتحدث عن نفسه: فقد ذكر قوله تعالى:«لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ»(53) ثم قال: «لو جعلت العاصم في تأويل المعصوم، كأنك قلت: لا معصوم اليوم من أمر الله لجاز رفع

(48) البقرة 16
(49) محمد 21
(50) معاني القرآن ج1 ص15
(51) المجاز للمطعني ج1 ص24
(52) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص292 والإيضاح للقزويني ص97
(53) هود 42

«من» ولا تنكرن أن يخرج المفعول على فاعل.. ألا ترى قوله تعالى:«مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ»(54)

فمعناه -والله أعلم -مدفوق وقوله تعالى: «فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ»(55) معناه مرضية: قال الشاعر الحطيئة في قصيدته التي هجا بها الزبرقان بن بدر

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

معناه المكسو، تستدل على ذلك أنك تقول: رضيت هذه العيشة، ولا نقول رضيت، ودفق الماء ولا نقول: دفق، ونقول: كسي العريان ولا نقول: كسا (56)

ولقد كان ذكر نص الفراء بتمامه في غاية الأهمية، وكلامه في غاية الوضوح وقد حرص -هنا-أن بيّن حقائق الصور التي ابتني عليها المجاز، بناء على أن لكل مجاز حقيقة، حول عنها، ولا خلاف بين مؤسسي هذا الفن قدماء ومحدثين أن الصور التي ذكرها الفراء من قبيل المجاز العقلي.

وقد قال الفراء في قوله تعالى: «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ»(57) جعل العصوف تابعًا لليوم في إعرابه، وإنما العصوف للريح، وذلك جائز على وجهين: أحدهما: أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون مجازا أن تقول يوم عاصف كما نقول يوم بارد، ويوم حار (58)

وقال في قوله تعالى :«إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ» (59)

فجعلها عقيما إذ لم تلقح.... كما قيل: «ليل نائم، وسر كاتم» (60)

وذكر في قوله تعالى: «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا»(61) وقوله تعالى: «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» (62) ووجه الأول قائلا:«لم يقل آتيا، وكل ما آتاك فأنت

(54) الطارق 2
(55) القارعة 7
(56) معاني القرآن جـ2 ص15، 16
(57) إبراهيم 18
(58) معاني القرآن جـ2 ص73
(59) الذاريات 41
(60) معاني القرآن جـ2 ص280
(61) مريم 61
(62) سبأ 33

تأتيه... »(63)

ووجه الثاني فقال: المكر ليس لليل، ولا للنهار، وإنما المعنى بل مكركم بالليل والنهار، وقد يجوز أن تضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا كالفاعلين، لأن العرب تقول: نهارك صائم، وليلك نائم، ثم تضيف الفعل لليل والنهار، وهو في المعنى للآدميين -يعني العقلاء- كما تقول: نائم ليلك، وعزم الأمر إنما عزمه القوم، فهذا مما يعرف معناه فتتسع فيه العرب (64)

فهذا كلام طيب، وواضح أن المؤلف قد خرج هذه الصور جميعا على التأويل المجازي، ولم يطو إلا التصريح باسم المجاز.. وهذا لا يقدح في صحة جهوده...

ومن هذا القبيل؛ توجيهه لقوله جل قدره: «...**أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**... »(65) حيث قال: «يريد التي أخرجك أهلها...ولو كان التي أخرجوك كان وجها »(66)...

هذه هي إشارات الفراء الواضحة إلى هذا اللون من المجاز، نظر فيها نظرات سديدة رائعة، وطوّف بنا بين عدة صور من المجاز، الذي سمي - بعده - بالعقلي، مدخلا فيه النسبة الإضافية، منزلا لها منزلة النسبة الفاعلية التي هي قطب المجاز العقلي؛ ترى ذلك في تحليله لإضافة المكر لليل والنهار، مبينا علاقة التجوز في أكثر الصور التي ذكرها من مفعولية وزمانية، ومكانية وسببية، والدرس البلاغي -إذ ذاك -لم يزل غضا طريا.

لقد كان إسهام الفراء في هذا المجال ذا أثر عظيم في مستقبل الدرس البلاغي بصفة عامة والمجازي بصفة خاصة.... وقد ردّد الإمام عبد القاهر الجرجاني بعده بقرنين من الزمان ما قرره الفراء في النسبة الإضافية، وصلتها بالمجاز العقلي، وعلى دربهما سار اللاحقون(67)

---

(63) معاني القرآن جـ2 ص17
(64) المصدر نفسه جـ2 ص363
(65) محمد 13
(66) معاني القرآن جـ3 ص59
(67) أسرار البلاغة ص302

المجاز المرسل:

في خروج الاستفهام عن أصل استعماله عند كل من سيبويه والفراء ظهر أنه من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد، وهنا نعرض لصور أخرى من المجاز المرسل في كتاب معاني القرآن، والفرق بينها، وبين ما تقدم من خروج الاستفهام، إن في خروج الاستفهام كانت علاقة المجاز مطردة هي الإطلاق والتقييد، أما في هذه الصور فالعلاقات مختلفة ومتعددة..

ومن إشارات الفراء إلى هذا المجاز المختلف العلاقات، ما وجه به قوله عز وجل: «يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ»(68)

فقد قال فيه: «السجود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسجود، لأن التلاوة لا تكون في السجود، ولا في الركوع»(69)

هذا كلامه، وهو بعينه ما يقوله المتأخرون في تحليل هذا الموضع، وأمثاله، وبيان وجه التجوز والعلاقة فيه، وقد لفت الفراء الذهن إلى قرينة التجوز المانعة من إرادة المعنى الوضعي الشرعي للسجود، وهي أن التلاوة لا تكون لا في السجود ، ولا في الركوع، فوجب صرف اللفظ عن ظاهره لتسلم دلالته على المعنى (70) أما العلاقة فلم يشر إليها، وهي عند المتأخرين «الجزئية» لأن السجود جزء الصلاة المرادة بالمعنى المجازي.. والبلاغيون يشترطون في الجزء الذي يقوم مقام الكل أن تكون فيه «خصوصية» بالنسبة للمعنى المراد، كالعين في الرقيب، والرقبة في «الإعتاق» وقد وجدت تلك الخصوصية من السجود إذ هو أقوى أجزاء الصلاة الذي يدل على الامتثال والإذعان لبارئ الكائنات لوضع الجبهة، وهي أشرف جزء في الإنسان على الأرض.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى:«وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ»(71) وقوله صلى الله عليه وسلم «أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد»(72)

---

(68) آل عمران 113
(69) معاني القرآن جـ1 ص 231
(70) المجاز للمطعني جـ1 ص29
(71) العلق 19
(72) صحيح مسلم

وقال في قوله سبحانه وتعالى: «لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ...» (73) الدفء ما يلبسون منها «ويبتنون من أوبارها» (74)

وهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، فالأوبار لا ينتفع بها الناس إلا بعد انفصالها عن الأنعام، فهو مثل قوله تعالى:«إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا»(75) أي عنبا يصير خمراً.

وقال في توجيه قوله تعالى:«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»(76) أي صلاة الفجر تشهدها الملائكة ملائكة الليل وملائكة النهار (77).

فهذا كله مجاز مرسل علاقته، من تسمية الكل باسم الجزء، إذ لا صلاة بلا قرآن، وقد رشح هذا وقواه عطف «قرآن الفجر» على اسم الصلاة الصريح في صدر الآية الكريمة: «أَقِمِ الصَّلَاةَ» حيث أومأت الآية إلى أربعة أوقات: «الظهر، العصر، المغرب، العشاء» وكان قرآن الفجر هو خامسها، وهي الصلاة المفروضة في النهار والليل " (78)

ووجه قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»(79) بقوله: ثناء حسنا في كل الأديان.

-فهذا- بالقطع مجاز مرسل علاقته الآلية، لأن الثناء يكون باللسان والقرينة، استحالة بقاء اللسان- بمعنى العضو المعروف بعد ممات صاحبه كما نقل عن مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالى:«فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ»(80)

أن مجاهدا قال: الأعناق هنا المراد بها الرجال الكبراء..(81)

فهي مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأن العنق جزء من الإنسان .. ولا يخفى ما

(73) النحل 5
(74) معاني القرآن جـ2 ص96
(75) يوسف 36
(76) الإسراء 78
(77) معاني القرآن جـ2 ص129
(78) المجاز للمطعني جـ1 ص30
(79) مريم 50
(80) الشعراء 64
(81) المجاز للمطعني جـ2 ص277

لهذا الجزء من الخصوصية التي يشترطها أرباب الصناعة في نيابة الجزء عن الكل وللوفاء بحق المعنى المراد، فخضوع العنق دليل المعنى المراد ودليل الاستسلام والانقياد وما نقله الفراء عن مجاهد أحد وجوه في تأويل الآية الكريمة، بدأ الفراء بذكره، وكأنه الوجه الأرجح عنده.

وقال في قوله تعالى :«فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ»(82)

«فصلوا لله، حين تمسون: وهي المغرب والعشاء، وحين تصبحون، صلاة الفجر، «وعشيا»، صلاة العشاء، وحين تظهرون صلاة الظهر»

كما أول اليمين في قوله تعالى :«كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ» بالقوة والقدرة وأول اليد في قوله تعالى :«ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ»(83) بالقوة وهذا مجاز مرسل علاقته المحلية، لأن اليد واليمين موضع القدرة والقوة وفي ما نقله عن مجاهد دلالة لها معناها.(84)

الاستعارة :

لم يخل كتاب الفراء «معاني القرآن» من الإشارات الواضحة، إلى ما سمي -بعده- بالاستعارة ، وهي من أبرز أقسام المجاز تصريحية كانت أم مكنية....

وأحيانا يشير الفراء إلى علاقة المجاز بين المستعار له والمستعار منه ..كما يشير في بعض المواضع إلى الوضع الحقيقي، والوضع المجازي ، أو بعبارة أدق يشير إلى الفرق بين المعنى الأصلي الذي تؤديه الكلمة، والمعنى المجازي الذي استعملت فيه على خلاف الأصل وقد يسمى هذا «بالاتساع» في اللغة...

والفراء في كتاب معاني القرآن ، وخلال تقريره لهذه الظاهرة الأسلوبية من أساليب الدرس البلاغي واللغة العربية يقول في بعض المواضع: إن من لم يعرف مذاهب العرب في القول، فإنه لا يقف على إدراك تلك المعاني...

---

(82) الروم 17

(83) ص 17

(84)معاني القرآن جـ2 ص 323

ففي قوله تعالى :«وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ..»(85)

وهذا استعارة تصريحية أصلية شبه فيه معقول بمحسوس والعلاقة ما يترتب على كل من التنقل والاتباع .

والقرينة استحالة أن يكون للشيطان خطوات حسية مدركة للمخاطبين.

وتفسير الأم في قوله تعالى: «...هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...»(86) بالأصل حيث قال: هن الأصل(87) وهي استعارة تصريحية أصلية من تشبيه المعنوي بالمحسوس «والقرينة استحالة أن يكون للقرآن أمّ بيولوجية».. والعلاقة في كل من هذه الآيات والأم البيولوجية من أصالة في ما تفرع عنهما(88)

وفي قوله تعالى : «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ»(89)

الإثابة هنا في معنى عقاب.. ولكنه كما قال الفرزدق:

أُخَافُ زِياداً أن يكون عطاؤه أداهَمَ سُوداً أو مدحرجةً سُمْرا

وقد يقول الرجل: الذي اجترم إليك، لئن أتيتني لأثيبنك ثوابك، معناه: لأعاقبنك، وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية: وقد قال الله تبارك وتعالى:«فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»(90) والبشارة لا تكون إلا في الخير، فقد قيل ذلك في الشر»(91) . والآيتان وبيت الشعر.. هذه المواضع الثلاثة فيها استعارة تصريحية تهكمية -والآيتان الاستعارة فيهما تبعية لجريانها في فعل مشتق - وقد حرص الفراء على بيان الأصل المحول عنه في الآية الثانية. البشارة لا تكون إلا في الخير، وقد استعملت في الشر فهذا خروج بالكلمة إلى غير ما تواطأ عليه الوضع والاستعمال...

وفي قوله تعالى «أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ

(85) البقرة 208
(86) آل عمران 7
(87) معاني القرآن جـ1 ص190
(88) المجاز للمطعني جـ1 ص32
(89) آل عمران 153
(90) آل عمران 21
(91) معاني القرآن جـ1 ص 229

فِي النَّاسِ»(92) قال: «أي ضالا فهديناه» ويفسر النور بأنه «الإيمان» (93)

فهذه ثلاث استعارات: الأولى استعير فيها الموت للضلال ثم اشتق من الموت بمعنى الضلال ميتًا بمعنى ضالا،...

والعلاقة ما يترتب على كل من الأضرار والمفاسد، أما القرينة فلأن سنة الله جرت على أن من مات موتًا حقيقيا، فلا حياة له قبل المبعث.

والثانية: استعير فيها الحياة للهداية، ثم اشتق من الحياة بمعنى الهداية أحييناه بمعنى هديناه، والعلاقة ما يترتب على كل من المنافع والآثار. والاستعاراتان تصريحيتان تبعيتان.

والثالثة: تصريحية أصلية شبه فيها الإيمان بالنور بجامع ما يترتب على كل من النفع والاهتداء (94)

وفي قوله تعالى:«**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى، وَأَضَلُّ سَبِيلاً**» قال: «لم يرد به عمى العين ، إنما أراد به -والله أعلم- عمى القلب، فيقال فلان أعمى من فلان في القلب، ولا تقل هو أعمى منه في العين»(95) وكرر نفس التفسير في قوله تعالى: «**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**»(96)

قال: أعمى عن الحجة(97)

وكذلك في قوله سبحانه وتعالى: «**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ... وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ**»(98)

قال: «الأعمى ها هنا الكافر، والبصير المؤمن، والظلمات الكفر والنور الإيمان

---

(92) التوبة 122

(93) معاني القرآن جـ1 ص 353

(94) أسرار البلاغة ص54

(95) معاني القرآن جـ2 ص127

(96) طه 125

(97)معاني القرآن جـ2 ص194

(98) فاطر 19-20 -22

والأحياء المؤمنون والأموات الكفار».(99)

فكل هذه الصور التي أبداها الفراء هي بعينها التي نراها في مصنفات البلاغة من بعده، ولم يزيدوا عليها شيئًا سوى التسمية وبعض الضوابط والتعريفات، أما جوهر الفكرة فواحد عند الجميع.

إن هذا هو ما درج عليه علماء البلاغة المرجوع إليهم في كل المسائل في صور الاستعارة وأمر العلاقات والقرائن فيها أظهر من الشمس ، وقد صدر الفراء في هذه التأويلات عن فهم دقيق لأساليب اللغة العربية، وتصرفات القول فيها، ومذاهبها في الإفصاح والبلاغة والبيان..(100)

ويوجه قوله تعالى مصرحًا بالتشبيه: «مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ»(101)

فيقول: «وقد يكون في العربية أمثال الجبال، ومقاديرها»(102). وهذا معناه أن صاحب معاني القرآن يومي إلى التشبيه الذي انبنت عليه الاستعارة فتكون السحب قد شبهت بالجبال بجامع الضخامة في كل منهما...

وهذا اقتراب إلى القول بالتجوز في العبارة صراحة..

ثم يقول في توجيه قوله تعالى: «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ...»(103)

«ودوا لو تلين فيلينون في دينهم..»(104).

فالدهن هنا مستعار لليّن، والجامع ما يترتب على كل من التيسير والسهولة فهو استعارة تصريحية تبعية كما هو مقرر في كتابات البلاغيين (105)

وفسر الشرح في قوله تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» بالتليين ، كما فسر «الوزر» بآثام الجاهليين (106) .

---

(99)معاني القرآن جـ2 ص369
(100)المصدر نفسه جـ1 ص395
(101) النور 43
(102) معاني القرآن جـ2 ص369
(103) القلم 9
(104) معاني القرآن جـ3 ص75
(105) المجاز للمطعني جـ1 ص35
(106) معاني القرآن جـ3 ص57

وهو في الأصل الحمل الثقيل..

وفسر الاطلاع في قوله تعالى: «**التِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**» بالبلوغ(107)

والعلاقة بين الاطلاع والبلوغ واضحة ، فمن بلغ شيئًا اطلع عليه .

هذه الصور كلها من قبيل الاستعارة التصريحية أصلية وتبعية..

والفراء في كتابه معاني القرآن أول مفسر للقرآن الكريم مهد للقول بالاستعارة المكنية.

ومن ذلك: توجيهه لقوله تعالى :«**إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**»(108)

وقوله تعالى: «**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا...**»(109)

وقوله تعالى: «**يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...**»(110)

فقد وجه الفراء في مؤلفه، هذه الآيات التي وصف الحق فيها غير العاقل بما يوصف به العاقل، توجيها أقرب ما يكون إلى ما أطلق عليه علماء البيان في عصور التقعيد أنه استعارة مكنية قرينتها إثبات لازم المشبه به بعد حذفه المشبه...

قال الفراء(111) : «إن هذه الواو والنون -يعني علاقة جمع المذكر السالم- إنما تكون في جمع ذكران الإنس والجن وما أشبههم، فيقال: الناس ساجدون والجن والملائكة ساجدون، فإذا عدوت هذا المؤنث والمذكر إلى التأنيث فيقال : الكباش قد ذبحت، وذبحت، ومذبحات، ولا يجوز مذبحون وإنما جاز في الشمس والقمر والكواكب بالنون والياء، لأنهم وصفوا بأفاعيل الآدميين، فأخرج فعلهم على فعل الآدميين، ومثله: «**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**» فكأنهم خاطبوا رجالاً إذ كلمتهم وكلموها، «**يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ**». فما أتاك موافقا لفعل الآدميين من غيرهم وأجريته على هذا».

---

(107)معاني القرآن جـ 3 ص96

(108) يوسف 4

(109) فصلت 21

(110) النمل 18

(111) معاني القرآن جـ2 ص 35،34

والفراء يعني بالآدميين ما عناه سيبويه من قبل -العقلاء-.

وقد لحظ أن في خروج وصفهم إلى غيرهم من الجمادات، والمعاني الخالصة، أو الأعراض خروجا عن أصل الوضع، وهذا هو مما مهد للقول بالاستعارة المكنيّة عند الذين جاءوا بعد ذلك وقعدوا للدرس البلاغي...

ثم ذهب في قوله تعالى: «**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**»(112) هذا المذهب، وأجرى عليه ما أجراه على سوابقه.

ونقل عن ابن عباس رضى الله عنه في قوله تعالى: «**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**»(113) أنه قال: «إنها الساعة والقيامة لشدتها»(114)

ومعلوم أن الساعة لا ساق لها، وإثبات الساق لها في النظم الحكيم دليل على التجاوز في العبارة، فهي إما: استعارة مكنية، وإمّا مثل في معنى الاستعارة التمثيلية.

مسائل بلاغية متفرقة عند الفراء :

التشبيه :

ومن المسائل البلاغية التي أشار إليها الفراء في معاني القرآن التشبيه وذلك عند تفسيره لقوله تعالى:«**فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**» (115)

فقال : أراد بالوردة الفرس، والوردة تكون في الربيع إلى الصفرة أميل، فإذا اشتد البرد كانت وردية حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة أميل، فشبه تلون السماء بتلون الوردة، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه..(116)

---

(112) يس 40

(113) القلم 92

(114) معاني القرآن جـ3 ص 177

(115) الرحمن 37

(116) البحث البلاغي الشحات محمد عبد الرحمن ص 25

وفي قوله تعالى: «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا»(117)

يقول : والسفر واحد الأسفار، وهي الكتب العظام، شبه اليهود ومن لم يسلم إذا لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل، وهما دليلان عن النبي صلى الله عليه وسلم بالحمار الذي يحمل كتب العلم، ولا يدري ماعليه. فقد بين الفراء ما في الآيتين من تشبيه.

الكناية :

وقد أشار إليها في مواطن شتى من كتابه معاني القرآن من ذلك قوله: «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ»(118)، فقال: الجلود هنا -والله أعلم- الذكر، وهو مما كنى به الله عز وجل كما قال: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ»(119)

والغائط الصحراء، والمراد من ذلك أو قضى أحدكم حاجة.

التكرار :

وقد أشار إلى التكرار وهدفه البلاغي في مواضع شتى منها قوله تعالى: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»(120)

فقال: «الكلمة قد يكررها العرب على التغليظ، والتخويف. وهذا من ذاك»

وأمثلة الدرس البلاغي وحضوره في كل أساليب القرآن في كتاب معاني القرآن للفراء -كثيرة يطول استقصاؤها ومنها التقديم، والتأخير، والحذف، والانتقال من مخاطبة الشاهد إلى الغائب، وهو ما عرف بالالتفات بعد ذلك.

وأشار إلى البعض الذي يراد به الكل، والإخبار عن الواحد بالإثنين، أو الجمع، واستعمال اللفظ في معنى الضد.(121).

---

(117) الجمعة 5

(118) فصلت 20

(119) النساء 43

(120) التكاثر 3 - 4

(121) معاني القرآن جـ1 ص 231

المبحث الثالث : الإشارات البلاغية عند أبي عبيدة :

يخطئ كثير من الباحثين في الدراسات الفنية للقرآن عند وقوفهم أمام رؤية أبي عبيدة في «مجاز القرآن» فينفون عنه معرفته للمجاز وسواه من دروس البيان والبلاغة وأنه لم يعرف المجاز الذي هو قسيم الحقيقة مع اعترافهم بأنه أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز.

وأنه كان في تفسيره إلى النظرة اللغوية أقرب (122)

وبعد قراءة متأنية لكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة نجد أن هذا الكلام في حاجة إلى بيان، وأنه على عمومه بعيد عن الصواب...

وإذا كان أبوعبيدة لم يرد من كلمة المجاز التي جعلها عنوانا لكتابه المعنى الاصطلاحي للمجاز، فإن هذا الكلام ليس على عمومه، وإنما هناك تخريجات مجازية عديدة نهج في بيانها نفس المنهج الذي نهجه سيبويه والفراء.

وهذه بعض الإشارات البلاغية في مؤلفه ، والتي تؤكد صدق ما نقول .

خروج الاستفهام :

إن جميع الباحثين والمفسرين للقرآن في تلك الحقبة المتقدمة وقفوا عند خروج الاستفهام عن معناه الوضعي إلى معان أخرى بلاغية ، وأطالوا الوقوف.

وأولهم في هذا المضمار هو أبوعبيدة صاحب مجاز القرآن وذلك في تفسيره للاستفهام في كثير من آيات القرآن . من ذلك قوله تعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**»(123)

يقول هذا الكلام هو اخبار خرج مخرج الاستفهام، وليس هذا إلاّ في ثلاثة مواضع هذا أحدها.. والثاني: لا أبالي أقبلت أم أدبرت؟.. والثالث: ما أدرى أولّيت أم جاء فلان»(124)

ومن الأمور المسلم بها أن أصل الاستفهام: هو طلب فهم ما هو غير مفهوم عند

---

(122) راجع في ذلك بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ فتحي عامر ص 14 - وكتاب الإيمان لإبن تيمية ص 35 -

(123) البقرة 26

(124) مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1ص231

المستفهم، فإذا استعمل الاستفهام في غير هذا فقد خرج به إلى غير جهته

وهذا ما فطن له أبوعبيدة.. فرأى أن الاستفهام في قول علام الغيوب «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ» إنما هو إخبار من الله تعالى لرسوله عليه السلام بأن الكافرين لا يؤمنون في حالي إنذاره لهم ، وترك الانذار.

ولا ريب أن هذا خبر محض، وإن جاء في صورة الاستفهام (125) .

وفي موضع آخر من مجاز القرآن نرى أبا عبيدة يذكر ضابطين آخرين يجيىء فيهما الاستفهام بمعنى الخبر، وهما:

أ- بعد لا أبالي-

ب- بعد النفي (ما أدرى) وما أشبهها

وقد سبق أن خروج الاستفهام إلى غير معناه معدود عند علماء البلاغة من قبل المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقيد.

وقد قال أبوعبيدة في قوله تعالى: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ»(126) جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لا تستفهم ربها، ولكن معناها «الإيجابي، أي أنك ستفعل، وقال جرير فأوجب ولم يستفهم لعبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح(127)

وقال معلقًا على بيت جرير في موضع آخر (128) لم يستفهم، ولو كان استفهامًا ما أعطاه عبد الملك بن مروان مائة من الابل برعاتها، والحقيقة أن أبا عبيدة أصاب في تخريجه لبيت جرير فهو بلا خلاف استفهام أريد منه التقرير والإيجاب.. أي أنتم خير من ركب المطايا، أما الآية الكريمة فليس قوله فيها أنها للإيجاب بمسلم على إطلاقه ، بل الظاهر من السياق أن الاستفهام للإنكار (129)

وهذا مااختاره محمد بن جرير الطبري في أحد تأويلاته المأثورة في توجيه قوله

---

(125) مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1 ص38

(126) البقرة 230

(127) مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1 236

(128) المصدر نفسه جـ1 ص 184

(129) مجاز القرآن للمطعني جـ1 ص39

تعالى في هذه الآية..

وقال :«إن الملائكة التي قالت هذا الكلام استتيبت فتابت»(130) ثم ذكر تأويلين آخرين : أحدهما: أنه استفهام حقيقي سألت فيه الملائكة ربها أن يخبرها عن سرّ ذلك الجعل والتأويل.

ثانيهما: أنه استفهام استعظام.

وفي قوله تعالى :«**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**»(131)

قال: «هذا باب تفهيم، وليس باستفهام عن جهل بعلمه، وهو يخرج مخرج: «الاستفهام، وإنما يراد به النهي عن ذلك، ويتهدد به»(132)

وفي قوله تعالى : «**هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً**»(133)

قال: «وليس موضع هل هنا موضع الاستفهام، ولكن موضعها هنا موضع الإيجاب» أنه لا يستويان، وموضع تقرير وتخبير أن هذا كله ليس كذلك(134)

وفي قوله تعالى: «**أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ**»(135)

قال: «ليس باستفهام بل توعد»(136)

والأمثلة كثيرة في هذا الباب، والذي يهمنا هنا هو الملحظ البلاغي لأبي عبيدة في خروج الاستفهام عن معناه إلى غرض آخر سواء أصاب أبوعبيدة في التخريج أم أخطأ...

المجاز المرسل :

ومن المجاز المرسل المختلف العلاقات غير ما تقدم في خروج الاستفهام نجد أبا

---

(130) جامع البيان للطبري جـ1 ص159، 165

(131) المائدة 116

(132) مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ1 ص 278

(133) هود 24

(134)مجاز القرآن جـ1 ص 278

(135) الطور 15

(136) مجاز القرآن جـ2 ص 231

عبيدة في تناوله لبعض آيات من القرآن وتفسيره لها يقول: في قوله تعالى: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ»(137)

أي "بقوة" فهذا مجاز مرسل علاقته الآلية أو المحلية لأن اليد آلة القوة ومحلها.

ووجه اليد في موضع آخر بأنها "الخير"(138)

ومنه توجيهه لقوله تعالى: «وَنُسَبِّحُ لَكَ» حيث فسر التسبيح بالصلاة، فقال: «نصلي لك، نقول قد فرغت من سبحتي أي صلاتي»(139)

ونقول : يجوز حمل اللفظ "نسبح" على معناه الوضعي، أي نقول: سبحان الله فليس بلازم أن يكون مجازاً، وعلى القول: بأنه "الصلاة" فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأن التسبيح جزء من الصلاة...

ومنه قوله تعالى: «أَرِنَا مَنَاسِكَنَا» وقال: «علمنا» ثم استشهد بقول حُطائط بن يعفر:

أريني جواداً مات هزلاً لأنني أرى ما ترين أو بخيلا مخلداً

فهذا كذلك مجاز مرسل علاقته السببية، لأن من رأى شيئًا فقد علمه، ومثله قوله تعالى: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا»(140)، قال «أي اخترت لكم» فهو مجاز مرسل علاقته، إما اللزومية لأن الرضا ملازم للاختيار -وإما السببية-، لأن الرضا سبب في الاختيار .

وفي قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً»(141)

قال: «مجاز السماء هاهنا: مجاز المطر، يقال: مازلنا في سماء أي مطر، ومازلنا نطأ السماء، أي أثر المطر، وأني أخذتكم هذه السماء؟ ومجاز أرسلنا أنزلنا وأمطرنا(142)

---

(137) الذاريات 47

(138)مجاز القرآن جـ1 ص170

(139) المصدر نفسه جـ1 ص 36

(140) المائدة 3

(141) الأنعام 6

(142) مجاز القرآن جـ1 ص 176

وهنا يكاد أبوعبيدة يقترب من المجاز المألوف عند المتأخرين... فقد اشتهر عند علماء البيان أن السماء بمعنى المطر مجاز مرسل علاقته المجاورة، أما تأويله: أرسلنا بأنزلنا فهو مجاز لغوي استعاري، شبه فيه الإرسال بالإنزال بجامع البلوغ في كل، والسر -والله أعلم- جعل المطر كأنه يسعى لإرواء الناس ونفعهم.

ولا يبعد حمله على الاستعارة المكنية(143)

وفي قوله تعالى: «**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا**»(144) قال: «أنزل علينا»(145)

فهو على هذا مجاز مرسل علاقته السببية، لأن الإفراغ سبب في الإنزال. ويجوز حمله على الاستعارة المكنية، بتشبيه الصبر بالماء، ثم حذف المشبه به ورمز له ببعض خواصه وهو «الإفراغ» والسر -و الله أعلم- إن الصبر يطهر النفس من أمراض الجزع والفرار، والماء يطهر البدن من الأدران.

وفي قوله تعالى: «**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**»(146) أي يمسكون أيديهم عن الخير والصدقة، يقال: قبض فلان عنا يده، أي منعنا(147)

فاستعمال قبض اليد في المنع يجوز جعله مجازاً مرسلا علاقته السببية ، فهو قد دخل معنا -هنا- ويجوز اعتباره كناية عن صفة البخل، ويجوز جعله استعارة تمثيلية بأن تشبه هيئة البخيل بهيئة القابض على يديه، في أن كلا من البخيل، والقابض، لا يفعلان الخير.

وفي تفسيره لقوله تعالى: «**لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ**»(148)

قال: «ما استدفئ به من أوبارها، ومنافع سوى ذلك»(149)

وهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون

---

(143) المجاز للمطعني جـ 1 ص41

(144) البقرة 250

(145) مجاز القرآن جـ1 ص3

(146) التوبة 67

(147) مجاز القرآن جـ1 ص263

(148) النحل 5

(149)مجاز القرآن جـ1 ص 353

وفي تفسير لقوله تعالى: «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ»(150) أي أهل مجلسه(151) وهذا صالح لنوعين من ألوان البيان البلاغي: أولاً: المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، والثاني: المجاز العقلي وذلك بإيقاع الفعل: «يدعو» على غير ما هو له، والقرينة في كل امتناع دعاء النادي بمعنى المكان.

ومثله قوله تعالى: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»(152).

وقد لمح الاستعمال المجازي فيها كل الرواد: سيبويه، الفراء، ابن قتيبة، أبوعبيدة(153)

كما أشار أبوعبيدة إلى نوع آخر من المجاز المرسل، وهو خروج الأمر من الطلب إلى التوعد والتهديد؛ فقد قال في قوله تعالى: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»(154)

قال: «لم يأمرهم بعمل الكفر إنما هو توعد»(155)

وخروج الأمر إلى غير الطلب -على أي وجه كان- معدود من صور المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد -مثل الاستفهام- وبهذا يكون أبوعبيدة في مجاز القرآن قد مهد للقول بهذا النوع من المجاز(156).

المجاز العقلي :

وكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة، لا يخلو من الإشارات الواضحة إلى بعض صور ما عرف بعده بالمجاز العقلي، أو الإسنادي أو الحكمي

ومن ذلك على سبيل المثال: في قوله تعالى: «.... وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا»(157)

فقد قال فيه: «له مجازان: أحدهما: أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في

---

(150) العلق 17
(151) مجاز القرآن جـ1 ص100
(152) يوسف 82
(153) المجاز للمطعني جـ1 ص 44
(154) فصلت 40
(155) مجاز القرآن جـ2 ص 107
(156) المجازللمطعني جـ1 ص45
(157) يونس 67

موضع الفاعل، والمعنى أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل فيه غيره لأن النهار لا يبصر، ولكنه يبصر فيه الذي ينظر، وفي القرآن الكريم «فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ»(158)، وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها..

قال جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت، وما ليل المطيّ بنائم

والليل لا ينام، وإنما ينام فيه، وقال رؤبة الراجز:

فنام ليلي وتجلى همي(159)

ومنه تحول مدلول الأدوات والحروف... يقول: ومن مجاز الأدوات اللواتي لهن معان في مواضع شتى، فتجيء الأداة تتفق في بعض تلك المعاني، قال الله تعالى«إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا» معناه فما دونها -«وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» معناه مع ذلك(160)

ومنه، الانقلاب في المدلول إلى الضد، فقد ينقلب معنى وراء إلى قدام في قوله تعالى: «مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ» مجازه قدامه وأمامه، يقال إن الموت من ورائك أي قدامك، قال:

أتوعدني وراء بني رياح كذبت لتقصرن يداك دوني

أي قدام بني رياح(161) ولا نزاع في عد "مبصرا"، وصفا للنهار مجازاً عقليا أسند فيه الإبصار إلى غير ماهو له: «والعلاقة هي المفعولية وقد أشار إلى هذا أبوعبيدة نفسه حيث قال: «إن العرب وضعوا أشياء من كلامهم موضع الفاعل والمعنى أنه مفعول» وكذلك: في عيشة راضية، وكلامه فيها واضح.

ومن ذلك قوله تعالى: «كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ»(162)

والمعنى على الشاة المنعوق بها، وحوّل على الراعي الذي ينعق بالشاة... والعرب

---

(158) القارعة 7

(159) مجاز القرآن جـ1 ص279

(160) أثر القرآن في تطور النقد الأدبي محمد زغلول سلام ص 45

(161) المرجع نفسه ص45

(162) البقرة 171

تريد الشيء فتحوله إلى شيء من سببه. يقول: اعرض الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض (163)

ومن ذلك قوله تعالى: «خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ»

يقول: مجازه مجاز خلق العجل من الإنسان، وهو العجلة والعرب تفعل هذا(164)

ومنه التغير في الصيغة: بزيادة في الحروف كأن يكون مدلول مطر غير مدلول أمطر في تفسيره لقوله تعالى: «أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»(165)

مجازه : أن كل شيء من العذاب فهو: أمطرت بالألف، وإن كان من الرحمة فهو مطرت(166)

ويهتم أبوعبيدة كثير بصيغة "أفعل" في القرآن مثل قوله تعالى: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» -مجازه وهو (هيّن عليه) لأن أفعل يوضع موضع الفاعل(167)

المجاز الاستعاري :

هناك درس بلاغي هام في التوجيه المجازي نلمسه في كتاب أبي عبيدة «مجاز القرآن» وهو يفسر آيات كثيرة من القرآن الكريم وهو المجاز اللغوي الاستعاري.

والكتاب حافل بهذا النوع من الدرس البلاغي، حيث أشار إلى عدة أنواع من الاستعارة حسبما استقر عليه الوضع عند المتأخرين من الباحثين في علوم البلاغة.

لقد أشار إلى الاستعارة التصريحية بفرعيها: الأصلية والتبعية، كما أومأ إلى صور من التبعية كالتجوز في معنى الفعل، وفي زمنه، وفي معنى الحرف، والاستعارة المكنية، وصرح باسم الكناية: وهي كما هو معلوم فيها جانب الحقيقة وجانب المجاز..

ولفت الأنظار إلى المجاز بالحذف، وهو -أحيانا- يبين أصل استعمال الكلمة بعد

---

(163) مجاز القرآن جـ1 ص63

(164) أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص 44،43

(165) الأنفال 32

(166) أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ص 45

(167) المرجع نفسه

تأويله المجازي لها.. وكثيرا ما يؤيد مذهبه في العبارة بمأثور كلام العرب، ممهدا له بقوله: والعرب تفعل ذلك، ثم يمضي في التمثيل،.. وكذلك نراه قد أشار إلى ما عرف بالاستعارة التمثيلية ، أو المجاز المركب.

وبذلك وبما سوف نذكره من الأمثلة والنماذج من تفسيره لتلك الصور من صور الاستعارة يتجلى لنا:

أولا: أن المجاز عند أبي عبيدة ليس كما يدعي البعض بأنه ليس قسيم الحقيقة وأن هذا القول ليس على عمومه.

ثانيا: أن المجاز عرف قبل القرن الرابع بالمعنى الاصطلاحي الذي عرفه به المتأخرون (168)

في قوله تعالى: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا»(169)

يفسر أبو عبيدة المرض بالنفاق والشك، وتشبيه النفاق والشك بالمرض استعارة تصريحية أصلية. لوقوع التشبيه بين اسمين جامدين، والجامع ما يترتب على كل من النفاق والشك والمرض من الأضرار والمفاسد، والقرينة هي امتناع أن يكون المرض العضوي للقلب سببا في وصف صاحبه بالنفاق (170)

وفي تفسيره لقوله تعالى:«فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى»(171) يقول: «شبه بالعرى التي يتمسك بها»(172)

وتفسير أبي عبيدة هنا صريح في فهم المجاز والإشارة إليه حيث أدرك أن الإيمان الحق شبه صاحبه بمن يمسك بعروة وثقى وهي عقدة الحبل ، ومن كان هذا حاله فهو متشبث بما استمسك به.

وهذا كما يقول الزمخشري تمثيل للمعلوم، والنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس

---

(168) راجع في هذا : البحث البلاغي للشحات ص20 وما بعدها والبيان القرآني لرجب البيومي ص213 وما بعدها والقرآن والصورة البيانية لعبد القادر حسين ص 9 .

(169) البقرة 10

(170) المجاز للمطعني جـ1 ص 48

(171) البقرة 256

(172) مجاز القرآن جـ1 ص79

حيث يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده، والتيقن به»(173)

وفي تفسيره لقوله تعالى: «**رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا**»

يفسر «الإصر» بالثقل(174)

فقد استعير «الثقل» وهو الحمل المادي للأصر بمعنى التكليف الشاق وهو أمر معنوي... وسمى الإصر، إصراً لأنه يأصر صاحبه -أي يحبسه- فكأنه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاق من نحو قتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والجلد وغير ذلك.(175)

فهذه استعارة تصريحية أصلية شبه فيها التكليف الشاق على النفوس بالحمل الثقيل على الحامل بجامع ما يترتب على كل من المعاناة والخطر.

وفي تفسيره لقوله تعالى: «**تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**»(176)

فقد فسر «الحيّ» بالطيب، و«الميت» «بالخبيث»

وسواء كان رأيه صوابا أو غير صواب فالاستدلال به على إدراك المجاز في الأسلوب صحيح، فهو من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية (177)

وفي تفسيره لقوله تعالى: «**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**»(178)

فقد فسر أبو عبيدة «الوجه» بالأول لأن الوجه من أي شيء هو أول ما يرى، ويعرف به صاحبه فهي استعارة تصريحية أصلية.

ومما صح حمله من كلامه على الاستعارة التمثيلية تفسيره لقوله تعالى:

---

(173) الكشاف جـ1 ص 387

(174) مجاز القران جـ1 ص84

(175) الكشاف جـ1 ص408

(176) آل عمران 27

(177) المجاز للمطعني جـ1 ص50

(178) آل عمران 72

«...وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا»

فقد فسر «الشفا» بركبة البئر وحروفها (179)

وأيضا في تفسيره لقوله تعالى: «..... إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» فقد فسر «الحبل» بالعهد.. قال: إلا بعهد من الله .

قال الأعشى: (180)

وإذا تجوزّهَا حِبَال القبيلةِ أخَذَتْ من الأخرى، إليكَ حبالها

واستعمال الحبل في العهد مجاز على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية بجامع الاستيثاق في كل.

- وفي تفسيره لقوله تعالى: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ..»(181)

قال: «الزموا المسكنة».

وعلى ظاهر قوله تكون العبارة استعارة تصريحية تبعية، وهذا جائز فيها، لكن الأولى فيها أنها استعارة مكنية، شبهت فيها المذلة بالخيمة التي تضرب وتحيط بهم وتحبسهم، ثم حذف المشبه، ورمز له بخاصة من خصائصه، ويكون المعنى أن الذلة والمسكنة ملازمان لهم أينما حلوا (182)

- وفي تفسيره لقوله تعالى:«فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»

قال: «مجازه فجرّبوا وليس من ذوق الفم»(183)

وعلى هذا تكون الاستعارة تبعية

- ومن الاستعارات الصريحة تفسيره لقوله تعالى: «وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»(184)

فقد قال: «تنقطع دولتكم»(185)

---

(179) مجاز القرآن جـ1ص98

(180) المصدر نفسه جـ1 ص 101

(181)البقرة 61

(182) المجاز للمطعني جـ1 ص51

(183) مجاز القرآن جـ1 ص 26

(184) الأنفال 25

(185)مجاز القرآن جـ1 ص247

- ومن صور المجاز المركب تفسيره لقوله تعالى: «...إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» قال: «إلاّ هي في قبضته وملكه وسلطانه»(186)

وصف اللفظ هنا واجب لاستحالة إرادة معناه اللفظي في جانب الله فهو استعارة تمثيلية شبهت حالة النفوس في كونها متصرفة لله يصنع بها ما يشاء، بهيئة قابض على آخر من ناصيته فهو لا يستطيع الإفلات منه لتمكنه من السيطرة عليه وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس .

ومثله في البيان القرآني، في تفسيره لقوله تعالى: «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ»(187) إلاّ أن هذا آكد من الأولى، لاختلاف المقام»(188) مع الوفاء بالمعنى.

- وفي تفسيره لقوله تعالى:«...فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ»(189)

قال:«مجازه مجاز المثل» والمثل: «ماكرر في تشبيه حاله بحالة» شبهت فيه حالة الكاتم للحق مع وجوب البيان بحالة الراد يده ممسكا عن النطق، ويجوز جعله كناية عن الإمساك لجواز إرادة المعنى الأصلي -هنا-..

- وكذلك ذهب أبو عبيدة في تفسيره لقوله تعالى: «فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ»(190) هذا المذهب فقال:«مجازه المثل والتشبيه»(191)

وهذه دلالة صريحة على تذوقه لأخص درس من دروس البلاغة وعلامة واضحة على عمق استعماله للمجاز في القرآن الكريم... وفيه تقرير ووضوح على تصويره للمعنى المراد، ومبالغة في تسيير عملهم، فكأن الله -سبحانه وتعالى- عمد عمداً إلى تقويض ما بنوا (192) .

---

(186)مجاز القرآن جـ1 ص 248
(187) الرحمن 41
(188) الآية الأولى في حال الدنيا، والثانية في حال الآخرة : يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه
(189) ابراهيم 9
(190) النحل 26
(191) مجاز القرآن جـ1 ص359
(192) المجاز للمطعني جـ1ص53

- ونحا نفس المنحى في تفسيره لقوله تعالى: «**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ**»(193)

فقال: «مجازه في موضع قولهم: لا تمسك عما ينبغي لك أن تبذل من الحق، وهو مثل وتشبيه»(194)

- وفي تفسيره لقوله تعالى: «**وَقَدِمْنَا إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَنْثُوراً**»(195)

قال: «مجازه : وعمدنا إلى ما عملوا»

وقد أخذ الرماني فيما بعد نفس توجيه أبي عبيدة، وسلك الآية في صور الاستعارة مع زيادة في التحليل(196)

- أما الاستعارة في زمن الفعل نراه في تفسيره لقوله تعالى: «**أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ**»(197) قال فمجازه ، فسقناه مجاز فنسوقه، والعرب قد تضع فعلنا في موضع نفعل، قال الشاعر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا مني وما يسمعوا من صالح دفنوا

فالأصل «يطيروا» ووضع الماضي موضع المضارع استعارة في الفعل من حيث زمنه لا من حيث معناه، وسره البلاغي تحقق الوقوع حتى لكأنه حدث فعلاً.

- أما الاستعارة في الحرف ، فقد مهد لها في توجه وتفسير قوله تعالى حكاية عن قول فرعون للسحرة: «**لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ...**»(198)

قال: «أي على جذوع النخل، مثل قول الشاعر سويد اليشكري :

همو صلبوا العبدي في جذْع نَخْلَةٍ فلا عَطَست شَيْبَان إلا بأجْدَعَا(199)

(193) الاسراء 29
(194) مجاز القرآن جـ2 ص73
(195) الفرقان 23
(196) النكت في إعجاز القرآن للرماني ص86
(197) فاطر9
(198) طه 71
(199) مجاز القرآن جـ2 ص24

استعير «في» لـ «على» للدلالة على شدة غيظ فرعون من السّحرة لما آمنوا وخذلوه، فكأنه منْ شدة صلبه يدخلهم في جذوع النخل حُنَقًا وتشَفّيا.

- وكذلك أشار إليها في قوله تعالى: « **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ**»(200) قال: أو «في سفر»(201)

فاستعير «على» لـ «في» لأن «على» أوْفى بالمعنى المراد -هنا- كما كانت «في» أو في بالمعنى المراد في آية طه السابقة .

فالسفر سير وتنقل، فكأنه مطية تطير بالمسافرين فتمنعهم بعض التصرفات في شئونهم ، فناسب ذلك تخفيف الشرع عنهم، وتيسير التكاليف المطلوبة منهم.

وهنا وقفة هامة إذ لا يقال: إن أبا عبيدة لم يصرح بالتجوز فكيف تعدون هذا من باب المجاز واستعارة الحروف؟ لأنا نقول: إنه رائد مهد بهذا القول للمجاز، ولم يصرح، ويكفي أنه لحظ أن هذا، بمعنى هذا هنا، وذاك بمعنى ذاك...

ومما تقدم يتضح :

أن أبا عبيدة قد استوعب بتلك الإشارات صورا عدة من الاستعارة التصريحية أصلية وتبعية.

أما الاستعارة المكنية فقد أشار إليها في عدة مواضع دفعة واحدة، أسند فيها فعل الآدميين - وقد سبق الحديث عن ذلك، وكان مثله مثل الفراء وسيبويه في ذلك.

ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس، قال: «**رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**»(202)

وقال: «**أَتَيْنَا طَائِعِينَ**»(203)

وقال للأصنام: «**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ**»(204)

---

(200) النساء 43

(201)مجاز القرآن جـ2 ص24

(202) يوسف 4

(203) فصلت 11

(204) الأنبياء 65

وقـــال : « يَاأَيُّهَا الـــنَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ »(205)

وقال: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»(206)

وقال:«كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»(207)

قال أبو عبيدة (208): «ومجاز هذا مجاز الموات (يعني الجمادات) الذي أجري مجرى الناس في القرآن»

فهذه كلها تجري مجرى الاستعارة المكنية، أو أن ذلك جائز فيها

الكناية :

ولم يفت أبا عبيدة أن يصرح باسم الكناية، ويخرج عليها بعض الآيات القرآنية وإن كان يجمع بينها وبين التشبيه، والرواد حسبهم أن يضعوا منارات على الطريق وما عليهم من شيء إن لم يدركوا كل شعابه وتعرجاته (209)

ومن إشاراته في مجازه للكناية :

ما قاله في تفسيره لقوله تعالى: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» قال كناية عن حاجة ذي البطن والغائط الفيح من الأرض المتصوب وهو أعظم من الوادي(210) ثم كرر القول فيه في موطن آخر فقال:«كناية عن اظهار لفظ قضاء الحاجة في البطن»(211) وطبق نفس التفسير على قوله تعالى: «أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ»(212)

فقال: «كناية عن الغشيان»(213)

وما ذهب إليه في «الغائط» أحد وجوه جائزة في الآية الكريمة، ومنها اعتبار

---

(205) النمل 18
(206) الإسراء 17
(207) يس 40
(208) مجاز القرآن جـ1 ص10،11
(209) المجاز للمطعني جـ1 ص655
(210) مجاز القرآن جـ1 ص 128
(211) المصدر نفسه جـ1 ص155
(212) المائدة 6
(213)مجاز القرآن جـ1 ص155

الغائط مجازا مرسلا علاقته المكانية من تسمية الشيء باسم محله الغالب عليه

كما: يجوز حمل الكلام على حقيقته لأن ما يجب منه الوضوء غائط فعلا سواء كان ماء أو غيره

أما ملامسة النساء فهي تتردد بين ثلاثة احتمالات أحدها ماذكره أبو عبيدة وهو الكناية عن الجماع

والثاني: أنه مجاز لا كناية

والثالث: أنه حقيقة عند من يرى أن لمس النّساء باليد ونحوها ناقض للوضوء،....

وأبو عبيدة طبق فكرة الكناية على قوله تعالى: «**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**»(214)

فقال: «كناية وتشبيه»(215)

ويرى الدكتور عبد العظيم المطعني: أن هذا خلط من أبي عبيدة، والصحيح عنده في الآية الكريمة أن ذلك تشبيه بليغ لا كناية (216)

وقال أبو عبيدة في تفسيره لقوله: «**مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**»(217)

قال: «هو الفوقة التي في النواة» (218)

ومعنى هذا أنه كناية عن شدة افتقارهم وعدم امتلاكهم شيئا ولو حقيرا.

ومن أوضح ما قال في التخريج الكنائي في تفسيره لقوله تعالى: «**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**»(219)

قال: «أي فأصبح نادما، والعرب تقول ذلك للنادم: أصبح فلان يقلب كفيه ندما وتلهفا على ذلك وعلى ما فاته»(220)

---

(214) البقرة 223

(215)مجاز القرآن جـ1 ص72

(216) المجاز للمطعني جـ1 ص 57

(217) فاطر 13

(218) مجاز القرآن جـ2 ص153

(219) الكهف 42

(220) مجاز القرآن جـ1 ص404

فهذا تخريج كنائي واضح، لأن تقليب الكفين إنما هو كناية عن صفة هي الندم والتحسر

المجاز بالحذف:

لم يخل «مجاز القرآن» لأبي عبيدة من الحديث في عدة مواضع عن المجاز بالحذف، فقد أشار إلى ذلك عند شرحه لقوله تعالى في شأن اليهود «... **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**» (221)

قال في تفسيره: «سقوه حتى غلب عليهم، مجازه مجاز المختصر».

«أشربوا في قلوبهم حب العجل» وفي القرآن: «واسأل القرية: مجازه، أهل القرية»(222)

فهذا له - بلاغيا- تفسيران، إما أن يكون مجازاً عقليا بإيقاع الفعل على ما ليس له في الآيتين، والعلاقة هي المكانية فيهما، لأن العجل مكان الحب، والقرية مكان الأهل.

وإما أن يكون مجازا مرسلا بإطلاق المحل وإيرادة الحال، والقرينة هي استحالة إشراب العجل من حيث أنه عجل، وسؤال القرية من حيث أنها قرية.

والسر البلاغي في كل منهما: الاعتناء ببيان المعنى المراد، ففي الصورة الأولى، كأنهم من شدة حبهم العجل كادوا يضعونه في قلوبهم بلحمه وعظمه ودمه.... وفي الصورة الثانية إدعاء إخوة يوسف أن أمر سرقة أخيه «بنيامين» قد اشتهر وذاع حتى كادت القرية وهي جماد تقرّ به لو سئلت عنه؟!

وفي تفسيره لقوله تعالى: «**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ**»(223) ذهب نفس المذهب فقال: «أهل مجلسه...»

وفيه مجاز مرسل أو مجاز عقلي.... والتخريج واضح كما سبق

---

(221) البقرة 93

(222) مجاز القرآن جـ1 ص47

(223) العلق 17

المشاكلة :

المجاز ليس داخلا في مفهوم المشاكلة، فقد يقع التشاكل بين لفظين، ولا مجاز في واحد منهما، وقد يكون فيهما أو في أحدهما، وهو هنا الثاني، مجاز، ولكنه ليس شرطا كما قلنا في تحقيق التشاكل، والفرق كبير بين وجود الشيء مشروطا ووجوده غير مشروط.

وباعتبار الأصل في المشاكلة، وهو عدم توقف وقوعها على المجاز- يكون من المستبعد أن نذكر المشاكلة في دراسة تستهدف أصلا تتبع صور الدرس البلاغي في مرحلة النشأة على أيدي الرواد الأولين - كأبي عبيدة- ولكنا رأينا أن أبا عبيدة حين يتعرض لبعض النصوص والآيات القرآنية التي عدها البلاغيون -بعده من صور المشاكلة- رأيناه يتحسس بذوقه الفني أن في التعبير خروجا ما عن أصل الاستعمال اللغوي، فأعمل فكره ليوضح سر ذلك الخروج..

وقد سلك أبو عبيدة في هذا المجال طريقين:

أ- فهو يعمد- أحيانا- في النص القرآني إلى تأويل اللفظ الثاني تأويلا مجازيا صارفا معناه إلى ما يتفق ومنهج القرآن الكريم من تنزيه الله سبحانه وتعالى أن يوصف بما توصف به الحادثات وهو القديم الأزلي، الذي ليس كمثله شيء ، وهذه الطريقة هي الغالبة عليه في هذا المجال..

ب- أو يعمد إلى اللفظين معا فيؤولهما تأويلا مجازيا ليستقيم المعنى وأصول الاعتقاد، ويزول الإشكال.

ولهذا آثرنا أن نعرض لهذا اللون البديعي لدخوله بهذا الاعتبار، وكذلك بالاعتبار الأول في صميم الدرس البلاغي عند دارسي القرآن ومفسريه في تلك المرحلة من الزمان.

فقد قال في تفسير قوله تعالى: «**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ...**»(224)

فقال: «أهلكهم الله»(225)

---

(224) آل عمران 54

(225) مجاز القرآن جـ1 ص95

فأول المكر الواقع في جانب الله -لاستحالة المكر المعروف منه سبحانه- بالإهلاك، فهو مجاز مرسل علاقته ما سيكون، لأن عاقبة المكر السيّء هي العقاب الشديد- ومنزل العقاب هو الله.

ونراه في آية أخرى شبيهة بهذه، يؤول اللفظين تأويلا مجازيا فقد وقف أمام قول الحق: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ»(226)

وهنا يؤول أبو عبيدة المكر ويفسره ، فالمكر من الناس «مجاز المكر ها هنا مجاز الجحود بها- أي بالنعمة- والرد لها»

وفسّر المكر من الله فقال: «أي أخذا وعقوبة واستدراجًا لهم» (227)

وتفسير اللفظين هنا مختلف، فكل منهما أوّله بما يناسبه ويليق به . وفي موضع آخر يؤول اللفظين تأويلا مجازيا متفقا، ومن ذلك كلامه في قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ، كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا..»(228)

وقوله سبحانه: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا»(229) يقول في الآية الأولى: «مجازه نؤخرهم، ونتركهم كما تركوا أمر ربهم وجحدوا يوم القيامة(230) ويقول في الآية الثانية: «أن نتركك في جملتكم كما تركتم أمرنا...»(231)

هذا قول أبي عبيدة في تفسير المكر. وهذا التفسير صريح في الإشارة إلى أحد دروس البلاغة! وهذا شيء لا يحتاج إلى توضيح أكثر لأن المكر حقيقة :صرف الغير عما يقصده (الماكر) بحيلة (232) وهذا المعنى لا يليق بالله عز وجل (233)

---

(226) يونس 21
(227) مجاز القرآن جـ1 ص276
(228) الأعراف 50
(229) الجاثية 34
(230) مجاز القرآن جـ1 ص215
(231) المصدر نفسه جـ2 ص211
(232) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص471
(233) المجاز للمطعني جـ1 ص59

والخلاصة فإن أبا عبيدة ومعه سيبويه والفراء الجميع يؤكد حضور الدرس البلاغي في الدراسات القرآنية وفي تفسير آي الذكر الحكيم منذ القرن الثاني الهجري..

وإذا كان الدرس البلاغي في كتاب سيبويه عبارة عن ومضات خاطفة، وسريعة، فلقد كان عند الفراء أكثر ظهوراً وعمقا ووفرة، وكان عند أبي عبيدة قد طرق مناحي بلاغية لم ترد عند سيبويه ولا الفراء ولا وجه للمقارنة بين الفراء وأبي عبيدة وسيبويه لاختلاف موضوع الدراسة بينهم، وإنما المقارنة بين الفراء وأبي عبيدة لاتحاد موضوع الدراسة عندهما، وهو القرآن الكريم وتفسيره.

ويكاد الرجلان يتحدان في الزمن لضآلة المدة بين وفاتيهما «ثلاث سنين» ومع هذا الاتفاق فإن أبا عبيدة أومأ إلى ظواهر بلاغية لم ترد عند الفراء كالمشاكلة مثلا مع تفوقه على الفراء -أيضا- في كثرة الصور البلاغية التي أشار إليها.

ونؤكد مرة أخرى أن مفهوم المجاز عند أبي عبيدة ليس كما ادعى البعض بأنه كل تعبير وردت عليه الآية وأدت به معناها هو مجازها، وطريق مرورها إلى المعنى...

وأن هذا المفهوم الذي ذكره الإمام ابن تيمية (234) ليس على عمومه، وإنما كان له مفهوم ثان تجلى في كثير من دروس البلاغة كما فهمها المتأخرون بعد ذلك.. وما سبق من صور عديدة في تفسيره لآيات من القرآن يؤكد ذلك..

(234) مقدمة في أصول التفسير والإيمان لابن تيمية ص64

المبحث الأول

الرؤية البلاغية لابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل القرآن :

قام ابن قتيبة في منتصف القرن الثالث الهجري على رأس أهل السنة المناضلين عن مذهبهم ضد تيارات الكلام والاعتزال، وهو من أوائل الرواد الأفذاذ الذين جمعوا بين فنون المعرفة في مجالاتها المختلفة من لغة وفقه، وأدب، وبلاغة، ونقد .

ويعتبر كتابه: تأويل مشكل القرآن في مقدمة الكتب التي اهتمت بالبحوث البلاغية في ظلال القرآن وتفسيره...

وكانت ثقافته العربية تقوم على القرآن والحديث، واللغة والنحو والأدب شعره ونثره، وقد تخرج في هذا على أئمة علماء العصر..

وكان لهذه الثقافة العربية أثرها في توجيه كتابه وآرائه في الأدب وتفسير القرآن، فقد آمن كما آمن غيره بما قال العرب، ورووا، ولكنه مع ذلك لا يحتج بكلام العرب على القرآن بل يحتج بالقرآن على الشعر والنثر، ويزن ما جاء فيهما على ما جاء في القرآن.

وفي كتاب «مشكل القرآن» نلحظ تأثر ابن قتيبة بمجاز القرآن لأبي عبيدة في أبواب المجاز والأبواب الأخرى التي تكلم فيها عن الإنقلاب في معاني الألفاظ والأساليب.

منهج ابن قتيبة في كتابه ، تأويل مشكل القرآن :

إن الكتاب جامع للدراسات البلاغية لأسلوب القرآن، وهو يعتبر من المجموعة الأولى التي بدأ بها ابن قتيبة تأليفه فهو مع كتبه «تأويل مختلف الحديث» «وأدب الكاتب» وكتاب «غريب الحديث».

ويبدأ الكتاب بمقدمة طويلة، يتناول فيها مسألة «إعجاز القرآن البياني»، وكلامه في هذه الناحية إشارة لقضية الإعجاز من وجهة نظر أهل السنة في إعجازه بنظمه وسمو تأليفه عن سائر كلام العرب ونظمهم...

ويتناول القضية تناولا مرتبا منظما، فيبدأ دراسته الأسلوبية للقرآن متعرضا لعدة فنون أدبية ولغوية؛ ويقدم للكتاب بالنص على ذلك الإعجاز البياني فيقول: «وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين،

الفصل الثالث

الدرس البلاغي عند المفسرين ودارسي القرآن في القرن الثالث الهجرى

المبحث الأول:

الرؤية البلاغية لابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل القرآن

- منهج ابن قتيبة في كتابه
- الدرس البلاغي في تأويل مشكل القرآن
- المجاز
- أحكام المجاز عند ابن قتيبة على ضوء تفسيره
- الاستعارة
- نتائج بحوث ابن قتيبة في الاستعارة
- المقلوب
- الإيجاز
- الإطناب وتكرار الكلام
- التكرار في القرآن في تصور ابن قتيبة

المبحث الثاني:

أبو العباس المبرد ورؤيته البلاغية

- تمهيد
- الرؤية البلاغية عند المبرد
- الالتفات
- صور من المجاز

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجعله متلواً لا يمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الآذان، وغضًا لا يخلقُ على كثرة وعجيبا...الخ»(1)

ويوضح جوانب ذلك الإعجاز في التأليف والبلاغة والنظم فيرى أنها تتعلق بأمور هي:

أولا: النظم بمعنى سبك الألفاظ وضمها بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها، وبين المعاني فيجريان معًا في سلاسة، وعذوبة كالجدول، لا تعثر، ولا كلفة، ولا حوشي في اللفظ، ولا زيادة أو فضول.

ثانيا: النغم الموسيقي، ويشمل النظم والإيقاع الداخلي في الآيات وهو الذي ينجم من تآلف الحروف في النغم، كما ينجم من الفاصلة و اطرادها أو تغيرها في نسق معين، فهو حلو النغم، رتيب الوقع، حبيب الجرس إلى النفوس، لاتمله الآذان لما ينساب في عبارته، وخلال لفظه من الموسيقى الخافتة، ولا تتعثر فيه الألسنة لسلاستها...

ثالثا: و القرآن بما جمع من هذه الصفات، والصفات الأخرى يفوق كل أثر بياني للعرب، ويسمو على فنون بلاغتهم.

رابعا: وبما جمع من المعاني وضروب العلم خزانة، تمد الإسلام والمسلمين وتجمع زبدة الشرائع السماوية وتزيد عليها وتتمها.

خامسا: وما جمع من دلائل الألوهية ومظاهرها المختلفة في الكون والحياة والإنسان، مما أعطى بيانه قوة روحية، وكان عبرة للمؤمن وملجأ ودعوة للشاك إلى التوحيد والإيمان.

سادسا: لما له من أثر نفسي يثير الوجدان عن طريق الشعور ويهز القلوب، لأن أسلوبه يخاطب النفس الإنسانية خطاب العارف بخفاياها، فبلغ في التعبير مبلغ الروعة، إذ يكلم الغرائز وينادي الطبائع ويستخرج منها دفائنها، ومكنوناتها.(2)

وهذا مشاهد بوضوح في القصة القرآنية، الطويلة والقصيرة والمثل، والصورة

---

(1) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص3 تحقيق السيد صقر

(2) أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام ص 108، 109

- صور من الكناية
- الاستعارة

المبحث الثالث :

تفسير كتاب الله العزيز بين هود بن محكّم الهواري ويحيى بن سلام البصري

- التعريف بالمفسيرن
- منهج ابن سلام في تفسيره
- منهج هود بن المحكم في تفسيره
- نماذج من التفسيرين :
  - النموذج الأول
  - النموذج الثاني
  - النموذج الثالث
- الدرس البلاغي في تلك النماذج

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

البيانية، والتعبيرات المجازية...

سابعا: الكتاب كما هو بين أيدينا يحتوي على مقدمة وسبعة عشر بابا هي:

- ذكر العرب وما خصهم الله به من المعارضة والبيان واتساع المجاز
- الحكاية عن الطاعنين - والرد عليهم في وجوه القراءات.
- ما ادعى على القرآن من اللحن
- التناقض والاختلاف
- المتشابه - المجاز- الاستعارة -
- المقلوب
- الحذف والاختصار
- تكرار الكلام والزيادة فيه
- الكناية والتعريض
- مخالفة ظاهر اللفظ ومعناه
- تأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم
- اللفظ الواحد للمعاني المختلفة
- تفسير حروف المعاني، وما شاكلها من الأفعال التي لاتتصرف
- دخول بعض الصفات مكان بعض(3)

وهنا حقيقة نحب أن نؤكدها وهي أننا لم نظفر على نص ظاهر الدلالة على معنى المجاز شاملا لطائفة من المصطلحات البلاغية عند رائد آخر قبل ابن قتيبة.

يقول: «وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارات، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، والجمع مخاطبة الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ

(3) تأويل مشكل القرآن ص701 ومابعدها

الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها في باب المجاز -إن شاء الله تعالى- ...»(4)

إن هذا النص لأكبر شاهد على أنه ليس المجاز وحده هو الذي ولد في كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وإنما ولدت معه بعض صوره وتفريعاته، وطائفة من المصطلحات الفنية التي حفلت بها مصادر الدرس البلاغي وبحوثه المتنوعة في عصور النضج والاكتمال... واتسم فهمه للمجاز وبحوثه بالتنوع والشمول، حتى إنه عاب على النصارى واليهود فهمهم المريض لبعض الألفاظ في الإنجيل والتوراة وفسروها على الحقيقة، ويستحيل أن تحمل عليها -إن كانت صحيحة- مثل «الأب» في تفسير النصارى له في الأناجيل و مثل «استراح» أي الله في اليوم السابع من خليقته التي خلق الأرض والسموات (5)

وطبعا هذه نصوص أجمع الباحثون والدارسون المسلمون على كذبها وإنها من التحريفات التي أدخلها النصارى واليهود على الإنجيل والتوراة ولكن ابن قتيبة لم يتعرض لصحة هذه النسبة أو بطلانها لأن المقام غير صالح لمثل هذه البحوث.

الدرس البلاغي في تأويل مشكل القرآن :

كان أبرز سبب دفع ابن قتيبة لتأليف كتابه هذا هو الدفاع عن القرآن، ودرء شبهات الطاعنين، وما وجهه إليه خصوم الدعوة وجلّ هذه الشبهات موجهة إليه من حيث نظمه وأسلوبه وطرائق بيانه...

وكتاب الفراء وأبي عبيدة، وإن كان موضوعهما القرآن فإنهما لم يواجها ما واجهه كتاب «تأويل المشكل».

فكان ذلك أورى للزند، وأقدح للنار، وأخرج للثمار، وشحذا للعزائم ولمعانا للقرائح، وتنبيها للعقول، ولأول مرة تظهر كلمة المجاز بالمعنى الفني الاصطلاحي الذي لا خلاف عليه إلى اليوم، فيما كانت هذه الكلمة، عزيزة المنال عند المتقدمين... ولم تكن كلمة المجاز وحدها، وإنما سائر مصادر البحث البلاغي

---

(4) تأويل مشكل القرآن ص20

(5) المصدر نفسه ص103 ومابعدها...

وهذه بعض النماذج والأمثلة لمظاهر الدرس البلاغي في مشكل القرآن...

المجاز :

بدأ ابن قتيبة حديثه عن المجاز بالإشارة إلى أغلاط الناس فيه وخلطهم بين ما هو حقيقة وما هو مجاز فقال: «وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل، وتشعبت بهم الطرق»(6).

والظاهر كما ألمحنا آنفا أنه أراد أن يوسع دائرة البحث فقدم للمجاز في القرآن بالكلام عن المجاز في كلام الله في كتبه المقدسة الأخرى كالتوراة والإنجيل ثم يقارن بين ما جاء في القرآن من المجاز، وبين ما جاء منه في تلك الكتب فيورد مثلا كلمة «أم» ويقارن بين استعمالها في الكتب المقدسة وكلمة «استراح» «وسبت»...الخ

وهذه بحوث طريفة أراد أن يخرج بها ابن قتيبة إلى التعميم في الظاهرة البلاغية وفي الأسلوب الأدبي عامة، ولا يقتصر دائرة البحث البلاغي في القرآن بله كلام العرب.. وهي لفتات طريفة(7)

ويتعرض لأقوال بعض المعتزلة والمتكلمين في المجاز فيقول: «ذهب قوم في قول الله عز وجل، وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعاني، وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز» ثم ينقل بعض أقوالهم في هذا مع شواهدها من الشعر، مثل قوله تعالى للسماء والأرض «**ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**»(8) فلم يقل الله: ولم يقولا، وكيف يخاطب الله معدوما؟؟ وإنما هو عبارة لتكوينهما فكانتا، كما قال الشاعر حكاية عن ناقته:

تقُولُ إذَا ذَرَأتْ لها وَضِينِى أهَذا دِينُهُ أبَدًا وَدِينِـــى

أكُلَّ الدَّهْرِ حلٌّ وارْتِحَـــالٌ أمَا يبقى عَلَيَّ ولا يقينى

وهي لم تقل شيئا من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال فقضى عليها

(6) تأويل مشكل القرآن ص 98 - 100 - 102

(7) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص120-123

(8) فصلت 11

بأنها لو كانت ممّن يقول لقالت مثل الذي ذكروا لقول الآخر

شَكَا إليَّ جَمَلِي مِنْ طول السُّرى

والجمل لم يشْك، ولكنه عبر عن كثرة أسفاره وأتعابه جملة، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى ما به...

وهذا كثير في شعرهم، ومنه قول عنترة عن فرسه :

مازلتُ أرميهم بثغـــرة نحـــره ولبانه حتى تَسربَـــل بالـــدم

فَازْوَرّ من وقع القنـــا بلبانـــه وشكا إليَّ بعبـــرةٍ وتحمحـم

لَو كَانَ يدْرِي ما المحاورةُ اشْتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

ثم يقول ابن قتيبة ونحو هذا قوله تعالى: «**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**»

ليس يومئذ قول من جهنم، وإنما هو عبارة عن سعتها وفي قوله تعالى: «**تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**»

يريد أنه مصير من أدبر وتولى إليها، فكأنها داعية.... كما قال ذو الرّمّة

دَعَتْ فيه الأعدادُ واسْتَبدلت خَنَاطِيل آجَال من العِين حُذّلِ

والأعداد المياه التي انتقلت ميّة إليها ورغبت عن مائها كانت كأنها دعتها(10)...

ويبين ابن قتيبة علاقة المجاز في قوله تعالى: «**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ...**»(11) فيقول: «لما كانت الأم كافلة الولد وغازيته، ومأواه، ومربيته، وكانت النار للكافر كذلك جعلها أمه»(12)

وفي قوله تعالى: «**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ**»(13) يقول «والله لا يشغله

(9) تأويل مشكل القرآن ص51

(10) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص124

(11) القارعة 9

(12) تأويل مشكل القرآن ص104

(13) الرحمن 31

شيء عن شيء، ومجازه سنقصر لكم بعد طول الترك والإمهال»(14) ولقد تلقف المفسرون بعد ابن قتيبة قوله في هذا الموضع، ورأوا رأيه فيه -ونقل بعضهم (15) قراءة لأبيّ هي «سنفرغ إليكم» بدل «لكم» بمعنى سنقصر إليكم- وفي ذلك يقول الرازي:

«اختلف المفسرون فيه، وأكثرهم على أن المراد سنقصركم بالفعل، وقال بعضهم خرج ذلك مخرج التهديد على ماهي عادة الناس فإن السيد يقول لعبده عند الغضب سأفرغ لك، وقد يكون السيد فارغا جالسا لا يمنعه شغل» (16)

أحكام المجاز عند ابن قتيبة على ضوء تفسيره :

نلخص بإيجاز بعض أحكام المجاز التي وردت في كلام ابن قتيبة، فيما يلي:

أولا: إن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر، ولا تؤكد بالتكرار، فلا يقال أراد الحائط إرادة شديدة، وقالت الشجرة فقالت قولا شديداً -وقوله تعالى «**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**» مؤكد المصدر معنى الكلام، ونفى عنه المجاز، ولا يقال لمن ألهمه الله كلمه اللّه (17)

ثانيا: المجاز ضرورة لغوية وبيانية لا يخلو التعبير منها...

ثالثا: قد يكون المجاز متعلقا باللفظ وحده من ناحية المدلول اللغوي كأن يتشابه لفظان أو يتحدا، والمدلول مختلف، ولاصلة لأحدهما ولا قرابة في المعنى..

رابعا: قد يتغير مدلول اللفظ فيه عن المعنى الأصلي إلى معنى آخر له صلة بالآخر.

خامسا: والمجاز ظاهرة أسلوبية بلاغية أساسية في القرآن الكريم لأنه فن قولي، ولكنه محدود بقواعد وأصول يجب مراعاتها، ولا يتوصل إليها إلا بدراسة ما جاء مشابها لها في كلام العرب، وطرق القول عندهم ولا يتوسع فيه، ولا يحمل على غير ما يحتمل.

---

(14) تأويل مشكل القرآن ص105

(15) الكشاف للزمخشري ج4 ص47

(16) التفسير الكبير للرازي ج 29 ص 110

(17) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص125 - 126

سادسا: المجاز في القرآن ليس تغييرا للحقيقة فيكون كذبا على قول الطاعنين،(18)

ثم يفصل القول في أبواب المجاز الباقية من استعارة وكناية وغيرهما...

الاستعارة عند ابن قتيبة :

مفهوم ابن قتيبة للاستعارة كما يطالعنا بها فيقول: «فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمّى بها بسبب من الأخرى أو مجاوراً لها، أو مشاكلا لها، فيقولون للنبات نوء، لأنه يكون من النوء عندهم.

قال رؤبة بن العجاج :

وَجَفَّ أنواء السحاب المرتزق(19)

أي جف البقل، ويقولون للمطر سماء، لأنه من السماء ينزل فيقال مازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، قال الشاعر (20) :

إذَا سَقَطَ السماءُ بِأرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وإن كانوا غِضَابا(21)

والملاحظ هنا: أنه يخلط بين الاستعاره والمجاز المرسل، فقوله فكون الكلمة «المستعارة» على حد قوله بسبب من الأخرى، أو مجاورة لها، فهذا مخصوص بعلاقات المجاز المرسل، كما دل عليه تمثيله. أما قوله: «أو مشاكلا لها» فهو مخصوص بالاستعارة، وإن كان تمثيله المتقدم ليس فيه استعارة واحدة، بل هو من قبيل المجاز المرسل قطعا، بيد أنه في كلامه الآتي سيذكر كثيرا من الصور منها ماهو استعارة ، ومنها ما هو غيرها.. فلنأخذ في عرضها مع التوجيه...

يقول: ومن الاستعارة في كتاب الله قوله عز وجل: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ»(22)

---

(18)أثر القرآن في تطور النقد العربي ص128

(19) ديوان رؤبة ص105

(20) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب

(21) تأويل مشكل القرآن ص135

(22) القلم 42

أي عن شدة من الأمر، كذلك قال: قتادة، وقال إبراهيم عن أمر عظيم، وأصل هذا أن الرجل إذا كان في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته، والجد فيه شمر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة قال دريد بن الصّمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه صَبُور عَلَى الجَلادِ طَلاعُ أنجُدِ(23)

وقال الهذلي:

وكنت إذا جاري دعا لمصفَّةٍ أشمر حتّى ينصف الساق مئزري(24)

و الواقع أن بيتي دريد والهذلي: فيهما كنايتان لا استعاراتان.

لأن الساق فيهما أجريت على من له ساق فعلا، وهما كنايتان عن صفة هي الشدة والاهتمام، وكثيرا ما يصاحب هذه الصفة التشمير الحقيقي للساق، أو هي غير ممتنع فيها، وماكان كذلك فهو كناية لا استعارة بناء على ما استقر عند علماء البلاغة من قواعد.(25)

أما الآية الكريمة، فقد سبق أن ذكر رواية عن ابن عباس: أن المراد منها القيامة، وعلى تلك الرواية فيجوز جعل التعبير استعارة بالكناية، هو ما يطلق على نظيره بأنه مجاز متفرع من الكناية ، وإن كان في هذا القول نظر (26)

وابن قتيبة في هذا التمثيل والتخريج في هذا الموقع ربما يكون قد جانبه بعض التوفيق.

إن ابن جرير الطبري يروي عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين، أنّ المراد: الشدة والأمر العظيم، وأكثر من روى عنه هذا المعنى هو ابن عباس في طرق متعددة تنتهي إليه(27)

ويمكن القول بأن ما قاله: ابن قتيبة صحيح في الآية الكريمة وذلك من وجه آخر،

---

(23) تأويل مشكل القرآن ص137

(24) المصدر نفسه ص137

(25) الإيضاح ج1 ص 417 ، شرح التلخيص ج4 ص67 ، والمثل السائر لابن الأثير ج2 ص84

(26)المجاز للمطعني ج1 ص70

(27) جامع البيان ج9 ص252

وهو ما قاله صاحب الكشاف الإمام الزمخشري..» في معنى يوم يشتد الأمر فيه، ويتفاقم، ولا كتف له ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة، ولا يد ثمة ولاغل، وإنما هو مثل في البخل(28)

فهذ كلام صالح للحمل على المجاز المركب (الاستعارة التمثيلية) وهو المراد بالمثل، ويجوز إبقاؤه على الكناية لا المجاز(29)

ويدل على قول الزمخشري -بعد-: «تقول كشفت الحرب عن ساقها على المجاز»(30) وإنما احتملت الآية التفسير المجازي المذكور لأنها لا ساق لها فإذا أريد بالعبارة يوم القيامة كانت الكناية وهذا أمر واضح، أما قولا الشاعرين، فلا مجاز فيهما لأن كلاً منهما له ساق تراد حقيقة، فهذا فرق دقيق يتأمل(31)

والتوفيق لم يحالف ابن قتيبة عندما أورد هذه الآيات وعدّها من الاستعارة وهي:

قوله تعالى:«..... **وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**»(32) وقوله تعالى: «**وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً**» فالآيتان من باب الكناية قطعا، وهي كناية عن صفة: هي عدالة الله في المجازاة.

وقد تابع أبو هلال العسكري في الصناعتين ماذهب إليه ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن...(33)

والصواب أن التمثيل بالآيتين من باب الكناية لا الاستعارة ولم يحالفه التوفيق أيضا في عدّ بعض التشبيه البليغ من الاستعارة كقوله تعالى:«**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**»(34) وقوله تعالى:«**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ**»(35) لأن الاستعارة لا يجمع فيها بين

---

(28) الكشاف ج4 ص147

(29) المجاز للمطعني ج1 ص710

(30) الكشاف ج4 ص147

(31) المجاز للمطعني ج1 ص71

(32) النساء 49

(33) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص205

(34) البقرة 223

(35) البقرة 187

الطرفين(36)

وقد حالفه التوفيق في التمثيل للاستعارة بقوله تعالى: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً»(37)

وقال: «قصدنا لأعمالهم، وعمدنا لها» والأصل أن من أراد القدوم إلى موضع عمد له وقصد»(38)

وقد تابعه في هذا التوجيه كثير من اللاحقين منهم الرماني صاحب «النكت» فقال: "حقيقة قدمنا -هنا- عمدنا، وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه من أجل إمهاله لهم كمعامل الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال(39) وقد تابعه في هذا التوجيه أبو هلال، ويكاد يتفق مع الرماني في العبارة(40) ومما سلم لابن قتيبة وحالفه فيه التوفيق ما قاله في باب الاستعارة في قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ»(41)

و «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ»(42)

و «...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»(43)

و «..فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ»(44)

و «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ»(45)

---

(36) المجاز للمطعني ج1 ص71

(37) الفرقان 23

(38) تأويل مشكل القرآن 138

(39) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل ص86

(40) الصناعتين ص 208

(41) الكهف 21

(42) الإنشراح 2

(43) الأعراف 157

(44) النحل 112

(45) الأعراف 154

و «أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ»(46)

وقد حفل ابن قتيبة ببيان العلاقة بين المعنى المنقول عنه (الوضعي) والمعنى المنقول إليه «المجازى».

واستدل على صحة مذهبه بالمأثور عن العرب، وكل هذه الآيات التي ذكرها فيها استعارة بلا خلاف.. والغالب عليه الاستعارة التصريحية كما في: أعشرنا، ميتًا،أحييينا، ووضعنا، وإصر، والأغلال.... إلا سكوت الغضب فيمكن حمله على الاستعارة المكنية.. أو المجاز الحكمي(47)

ماعدّه ابن قتيبة استعارة وليس كذلك، وكيف يمكن توجيهه؟

لقد مثل ابن قتيبة بعدة آيات وفسرها على أنها استعارة وهذا خلط ويمكن تخريج ذلك على وجه من الوجوه الآتية:

أ- ما عدّه استعارة وهو تشبيه بليغ، وقد ألمحنا إلى صورتين من ذلك آنفا ومن ذلك قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا»(48)

عدّه استعارة غير ناظر إلى وجود الطرفين في الصورة (الليل-اللباس)

ب- ما عدّه استعارة، وهو مجاز مرسل، وهو الغالب على مواضع الخلط، كقوله تعالى: «وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ»(49)

فهو عنده استعارة بمعنى الذكر(50).. والبلاغيون على أنه مجاز مرسل علاقته الآلية.. وهو الصواب(51)

جـ-ما عدّه استعارة وهو مشاكلة كقوله تعالى: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً»(52) قال ابن قتيبة في تخريجه: «يريد الختان فسماه صبغة؛ لأن

---

(46) الأنعام 122

(47) المجاز للمطعني ج1 ص73

(48) النبأ 10

(49) الشعراء 84

(50) تأويل مشكل القرآن 146

(51) شروح التلخيص ج4 ص42 ، المطول

(52) البقرة 138

النصارى كانوا، يصبغون أولادهم، ويقولون هذه طهرة لهم كالختان للحنفاء»(53) والذي عليه جمهور البلاغيين والمفسرين، أن في النص الحكيم مشاكلة، وقد عرفها الخطيب، وتابعه الشراح فقال: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا وتقريرا، ومثلوا للتقديري بهذه الآية الكريمة التي عدّها ابن قتيبة من صور الاستعارة، وتابعه الرماني بعد أن ذكر بعض صورها في باب التجانس(54) . أما المفسرون فبعضهم عدّها من صور المشاكلة، ولم يشرك معها غيرها وعلى رأس هؤلاء جار اللّه الزمخشري في الكشاف (55) .

أما الألوسي فقد جعلها استعارة تصريحية تحقيقية قرينتها الإضافة إلى الله والجامع ظهور الأثر على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ على المصبوغ (56)

واكتفى أبو حيان بقوله: ومجازه ظهور الأثر أو ملازمه لمن ينتحله فهو كالصبغ في هذين الوصفين، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب(57)

كما جوّز فيه المشاكلة (58)

وحكى ابن عطية كونه استعارة ووجهها بما وجهاها به .

يقول عبد العظيم المطعنى في دراسته الجيدة عن البديع من المعاني والألفاظ «إن تحرير القول في هذه المسألة أننا إذا اعتبرنا سبب النزول الذي أشار إليه ابن قتيبة والزمخشري، فصبغة مشاكلة لا مجاز فيها على الأظهر، وإذا نظرنا إلى واقع النص دون اعتبار قول النصارى، فصبغة مجاز بلا نزاع، وأيّا كان فإن المؤلف -ابن قتيبة- قد خلط في هذا الموضع فعدّه استعارة جزما، وهو مشاكلة (59) .

د- ما عدّه استعارة وهو كناية، كقوله تعالى: «فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ

---

(53) تأويل مشكل القرآن ص 149

(54) النكت للرماني ص99

(55) الكشاف ج1 ص316

(56) روح المعاني للألوسي ج1 ص397

(57) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ج1 ص 52

(58) المجاز للمطعني ج1 ص75

(59)المرجع نفسه ج1 ص75

تَنْهَرْهُمَا »(60)

فهو كناية عن دفع قليل الأذى عنهما ومن الأولى كثيره.

أما ابن قتيبة فقد عدّه استعارة (61)

ومثله قوله تعالى: «لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ»(62)

فهما كنايتان: الأولى عن الهيمنة، والثانية عن الإهلاك.

ويمكن تصحيح كلام ابن قتيبة هنا حيث جعل مجموع الكنايتين استعارة (63)

بأن تكون استعارة تمثيلية، والنظم القرآني لا يأباها، ولا يدفع في عدّ الأولى كناية ذكر اليمين، لأن المراد بها يمين المتقول لا يمين القائل، ولا يدفع كذلك ذكر «أخذنا» فله ملائكة موكلون بهذا (64)

هـ- ما عدّه استعارة وهو مجاز عقلي، كقوله تعالى: «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ»(65)

إن ابن قتيبة يجعل ذلك استعارة، وليس الأمر كما قال إلا على مذهب السكاكي في كل المجازات العقلية، وهو ليس بلازم فيه(66)

وكلام ابن قتيبة يشعر بأن الآية من صور المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية(67) ولكن الأظهر فيها أنها مجاز عقلي، أسند فيه الحدث (الكذب-الخطأ) إلى غير ماهو له (الناصية) ومثله : «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» حيث أسند الرضا إلى ضمير العيشة، وعلى هذا الوجه خرجها الزمخشري(68)

---

(60) الإسراء 23

(61) تأويل مشكل القرآن ص147

(62) الحاقة 45-46

(63)تأويل مشكل القرآن ص154

(64) الكشاف ج4 ص145

(65) العلق 16

(66) يرى السكاكي أن صور المجاز العقلي استعارة مكنية انظر المفتاح ص166

(67) تأويل مشكل القرآن ص135

(68) الكشاف ج4 ص272

نتائج بحوث ابن قتيبة في الاستعارة :

إن بحوث ابن قتيبة في الاستعارة والمبالغة تنتهي إلى أنه وفق في فهم مراميها البيانية، ومحاولته وضع حد لها يبرز دورها في التعبير . ومما تبيناه أيضا من الدراسة السابقة تردد ابن قتيبة بين الذوق الأدبي والتحرر في الفكر، وبين التبعية التقليدية للمذهب العقدي والمذهب اللغوي.

وكان من نتائج هذا التردد ما أشرنا إليه من خلط واضطراب أمام الظاهرة الواحدة...

المقلوب :

ويقصد به المقلوب في معاني الألفاظ والأضداد.

وهذا البحث يتصل بمدلول اللفظ، أو استدعاءاته المعنوية إذ المعروف أن الألفاظ عند سماعها أو قراءتها تحدث حركة ذهنية بها يتصور المعنى في العقل، وربما استدعى اللفظ معنى مقاربا أو مضادا فالأضداد إذاً تدخل تحت نظرية الاستدعاء المعنوي.

هذا من ناحية المعنى في العقل، أما من الناحية اللغوية للأضداد فإن لها خطرها في الأسلوب.

وهو خطر يرجع إلى الصلة المعنوية بين اللفظ وسياق العبارة وخطرها في القرآن أكثر من غيره، وذلك لتوقف فهم النصوص في الشريعة والفقه والعقيدة على معاني ألفاظ الأضداد.. وقد تنقلب المعاني بانقلاب فهم معنى اللفظ مما له خطره على النص.. لهذا اهتم علماء المسلمين ببحوث الأضداد، وأفرد لها الكثيرون كتبا بحثوا فيها هذه الظاهرة.

وكان طبيعيا أن يلتزم المحافظون منهم جانب الحرج، فلا يجيزون التضاد في معنى اللفظ الواحد، وإن وردت في بعض النصوص مراعاة لأسلوب القرآن.

وأهم من تعرض لبحث هذه الظاهرة الأصمعي، وأبو حاتم السجستاني وهما من أساتذة ابن قتيبة في الدراسات اللغوية.

وتتبع العلماء ظاهرة الأضداد فأحصوها -أو بعضًا منها- في القرآن الكريم والشعر وكلام العرب ، فوجدوا أنها قد تأتي في مناسبات لتدل على معان مختلفة

أو منقلبة، والفهم الصحيح لمعاني هذه الألفاظ ودراستها ووضع قاعدة عامة لها أمر هام بالنسبة للباحثين في الدرس البلاغي.

وقد أفرد ابن قتيبة للمقلوب بابا في بحوث المشكل لتلك الأهمية يقول: «من المقلوب أن يوصف الشيء بضدّ صفته»

ويرى أن الأحوال التي يوصف بها الشيء بضد صفته هي:

أولا: للتطير والتفاؤل، كقولهم للديغ سليم نظيراً من السقم وتفاؤلا بالسلامة، وللعطشان ناهل أي سينهل، يعنون (أنه سيروى) وللفلاة مفَازة أي منجاة

ثانيا: للمبالغة في الوصف كقولهم للشمس جَوْنة لشدة ضوئها، وللغراب أعور لحدة بصره.

ثالثا: للاستهزاء كقولهم للحبشي أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجوت ، ومن هذا قول قوم شعيب: «**إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**»(69) كما تقول للرجل تستهجنه: يا عاقل، وتستخفه: يا حليم.

رابعا: أن يسمى المتضادات باسم واحد، والأصل واحد، فيقال للصبح صريم، ولليل صريم.

قال الله تعالى: «**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**»(70) أي سوداء كالليل لأن الليل ينصرم عن النهار، والنهار ينصرم عن الليل...الخ

خامسا: النسبية فقد تخضع معاني الألفاظ المنقلبة والمتضادة للنسبية.

ويوضح ابن قتيبة ذلك بقوله: «وقالوا للكبير جلل، وللصغير جلل لأن الصغير قد يكون كبيرا عند ما هو أصغر منه، والكبير يكون صغيراً عند ما هو أكبر منه، فكل واحد منهما صغير كبير، ولهذا جعلت بعض بمعنى كل؛ لأن الشيء لا يكون كله بعضا(71) فهو كل وبعض قال الله تعالى:«**وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي**

---

(69) هود 87

(70) القلم 20

(71) تأويل مشكل القرآن ص 75

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ»(72) وقوله تعالى:«وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ»(73)

وقوله تعالى:«يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» (74)

سادسا: من المقلوب أن تقدم ما يوضحه التأخير، وتؤخر ما يوضحه التقديم، كقوله تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»(75)

أي تدلى فدنا لأنه تَدَلٌّ للدنو، ودنا بالتدلى، ومنه قوله تعالى: «بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» (76) يريد شهادة جوارحه عليه .

سابعا: ومن المقلوب ما قلب على الغلط كقول خداش بن زهير

وَتركَبُ خَيْلاً لا هَوادَةَ بَيْنَها وتُعْطَى الرماحُ بالدياطِرة الحُمر

أي تعطى الدياطرة بالرماح، وهذا ما لايقع فيه التأويل، لأن الرماح لا تعطى بالدياطرة، وإنما يعطى الرجال بها.....(77)

وتتلخص نظرية ابن قتيبة في المقلوب والأضداد في القول بالاشتراك بصفة عامة، أي الاشتراك في اللفظ بين المعنيين: الأصلي، ومقلوبه، وليس لأي من المعنيين، حق في اللفظ دون الآخر إلا بمقدار ما يتطلبه السياق، فهو الذي يفرض المعنى المطلوب على اللفظ، ويغلب أحد المعنيين على الآخر وقد تكون «المشاركة» أصلية، كما في قوله في كلمة -الصريم- بمعنى الليل، والصريم بمعنى النهار.

وقد تكون «المشاركة» نسبية، مثل ما في لفظ -جلل- بمعنى كبير، وجلل بمعنى صغير، فالصغر والكبر هنا معنيان مشتركان في اللفظ، تغلب أحدهما على الآخر بما تقتضيه المناسبة والسياق.

---

(72) الزخرف 63

(73) النمل 23

(74) النحل 112

(75) النجم 8 - 9

(76) القيامة 14

(77)تأويل مشكل القرآن ص 76 وما بعدها

والظن يشترك فيه الشك و اليقين «لأن في الظن طرفا من اليقين» على حد قوله: «وقد تكون الشركة فرضية، أو امتداداً وجدانيا أو تأنقًا في التعبير»(78) وهذا يكون استجابة لغرض من الأغراض الآتية:

أ- التماسًا لأمنية في النفس، أو بعداً عن مكروه، فاللديغ الذي لدغته الحية لدغة قد تودي بحياته، يطلقون عليه «السليم» تفاؤلا بسلامته، وتمنيا لشفائه وكأنه أصبح في وهمهم، سليما معافى، وقد سمي رغبة فيما سيكون، وجزعًا من الواقع المكروه، ومن هذا السبيل أيضا تسمية العرب الصحراء الممتدة مفازة.

ب- أو مبالغة وتوكيداً للصفة، كما يقال للشمس جونة لشدة ضوئها، وللغراب أعور لحدة بصره.

جـ- أو استهزاء كقولهم للحبشي «أبو البيضاء»، وللأبيض أبو الجون، وذلك الانقلاب في المعنى.

أما الانقلاب في المكان، فهو التقديم والتأخير، أو على حد تعبير ابن قتيبة «أن تقدم ما يوضحه التأخير وتؤخر ما يوضحه التقديم، ومن هذا تقدم الخبر على المبتدأ، أو تقديم المفعول على الفاعل، أو تقديم لفظ متأخر في النسق المعنوي على آخر متقدم عليه مثل قوله تعالى:«ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» .

وابن قتيبة لا يسلم بشيئين:

أ- إنه لا يسلم بكل ما جاء عن العرب من القلب، بل يرى أنه يجب وزنه بميزان النقد، وقياسه على اللغة الصحيحة، ومثّل لكثير من أخطاء العرب بلا مبرر يقتضيه المعنى أو السياق، أو ضرورة ما.

ومن هذا بيت خداش زهير [تركب خيل لا هوادة بينها...]

ومنه قول الآخر:

أَسْلَمْتُهُ في دَمَشْقَ كَمَا أَسْلَمَتْ وَحْشِيَّةٌ وَهَقَا (79)

أراد كما أسلم وحشية وهقٌ، فقلب على الغلط

---

(78) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص136

(79) الوهق: الحبل يرمى في انشوطة فتؤخذ به الدابة . القاموس المحيط ج3 ص282

وقول الآخر

كانت فريضة ما تقول كما كان الزِّنَاءُ فريضة الرَّجْم

أراد كما كان الرجم فريضة الزنا (80)

ب- ولا يسلّم كذلك بكل ما قاله اللغويون في القرآن الكريم من القلب، بل يرى أنهم غلطوا في كثير من تأويلهم للآيات على أنها من القلب، وتتبع بعض تلك التأويلات وبيّن أخطاءهم، ورأى أحيانًا أنه لايجوز التأويل الذي تأولوه، لأنه إذا جاز أمكن القول بأن القلب ضرورة لجأ إليها القرآن في أسلوبه؛ وهذا مما لا يصح أن يقال عنده، فبيان القرآن يرتفع عن التكلف والضرورة.

و إنما تأتي ألفاظه في مواضعها دالة على معانيها، مصيبة مفاصل القول...

والشعراء هم الذين يضطرون، ويخطئون، لقصور بيانهم وأداتهم في التعبير وهم ومع ذلك يتفاوتون في الضرورات كل حسب مقدرته.

يقول ابن قتيبة: «وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الله عز وجل: «**وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً**»(81) إلى مثل هذا القلب، ويقولون وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام، والمعنى للمنعوق به وهي الغنم.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: «**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**»(82) أي تنهض بها وهي مثقلة، وقال آخر في قوله سبحانه وتعالى: «**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**»(83)

أي وإن حبه للخير لشديد، وفي قوله تعالى: «**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**»(84)

«أي اجعل المتقين إماما لنا في الخير»(85) وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به

---

(80) تأويل مشكل القرآن ص 94

(81) البقرة 171

(82) القصص 76

(83) العاديات 8

(84) الفرقان 74

(85) تأويل مشكل القرآن ص102

على كتاب الله تعالى، لو لم نجد له مذهبا، لأن الشعراء تقلب اللفظ وتزيل الكلام على الغلط، أو على طريق الضرورة للقافية، أو لاستقامة وزن البيت، فمن ذلك قول لبيد «نحن بنو أم البنين الأربعة».

قال ابن الكلبي: هم خمسة فجعلهم أربعة للقافية.

ويمثل ابن قتيبة لكثير من هذه الضرورات، والقلب في الشعر لإقامة الوزن والقافية... ثم يختم هذا كله بقوله: «والله عز وجل لا يغلط ولا يضطر»(86)

ومنهج ابن قتيبة في هذا الباب واضح تبرز فيه نزعته العقلية الحرة أكثر من الأبواب السابقة، ويظهر ميله للتعليل والتعميم، ووضع القواعد، والنقد لآراء السابقين وتتضح شخصيته فيما يدلي به من رأي يحكمه في المشكل.

وقد يختلف رأيه هنا عن آراء الفراء بعض الاختلاف، ذلك أن الفراء يرى أن الوزن القرآني يراعي الفاصلة أو رأس الآية، ولكنه ينفيه هنا كما ينفيه «في غريب القرآن» ويأخذ على الفراء قوله.

وعلى الرغم من التزامه منهجا عقليا في دراسته هذه فإنه لم يخلص من الزلات أحيانا، ومن ذلك اتباعه آراء بعض اللغويين الذين عارضهم أمثال أبي عبيدة، إذ سلم بقوله في قوله تعالى: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**» بتفسير فوق هنا بمعنى دون

وقد خطأ كثير من العلماء قول أبي عبيدة هذا كالجاحظ وابن الانباري(87)

الإيجاز في دراسات ابن قتيبة :

ابن قتيبة يسمي الإيجاز الحذف والاختصار، كما سماه أبو عبيدة من قبل في مجاز القرآن(88)

والإيجاز أنواع:

1- من ذلك أن تحذف المضاف، وتقيم المضاف إليه مقامه، وتجعل الفعل له كقول

---

(86) تأويل مشكل القرآن ص103

(87) الأضداد للأنباري ص 217

(88) تأويل مشكل القرآن ص78

الله عز وجل: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» أي اسأل أهلها.

وكقوله تعالى: «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» أي حبه (89)

2- ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين، وهو لأحدهما، وتضمر للآخر فعله كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ»ثم قال: «وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ»(90)

والفاكهة واللحم والحور لا يطاف بها، أراد يؤتون بلحم طير، ومثله قوله تعالى:«فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ» أي وادعوا شركاءكم.

3 - ومن ذلك أن يأتي الكلام مبينا على أن له جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به كقوله سبحانه وتعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا»(91)

أراد لكان هذا القرآن فحذف..

4- ومن ذلك حذف الكلمة أو الكلمتين، كقوله سبحانه: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ» والمعنى -والله أعلم - فيقال لهم: أكفرتم.

وقوله سبحانه: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا» والمعنى: يقولون ربنا..(92)

5- ومن الاختصار القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل عليه أي على الجواب كقوله تعالى:« قَ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَئِذَا مِتْنَا»(93)

والمعنى: قال سبحانه: -والله أعلم- لتبعثن.

---

(89)تأويل مشكل القرآن ص78

(90) الواقعه 20 - 21 - 22

(91) الرعد 31

(92) تأويل مشكل القرآن 80 وما بعدها

(93) ق 1 - 2 - 3

المناسبة بين الموضوع والأسلوب -للتأثير في النفوس أو العقول وهو كباب المقلوب- فكلاهما فيه تجاوز في انقلاب معنى اللفظ أو مكانه، والتكرار تجاوز في زيادة اللفظ -في اعتقادهم- زيادة ظاهرية عن المعنى، مما يوهم بوجود فضول في التعبير.

وقد يزعم الطاعنون أن التكرار في القرآن من هذا القبيل (100) ولكن ابن قتيبة يرد عليهم، ويتناول ادعاءهم هذا بالبحث والمناقشة، والدراسة المقارنة، مع تحكيم العقل أحيانا والعرف اللغوي أحيانا.

فيبين ابن قتيبة أن التكرار في القرآن لم يكن من ضروب الفضول أو الزيادة وإنما جاء لزيادة المعنى أو تأكيده، أو لضرورة في التعبير يكشف عنها فيما سنعرض له من آرائه في هذه القضية البلاغية القرآنية الخطيرة... والتكرار مع ذلك كثير في لغة العرب، وهومن فنون القول عندهم.

وابن قتيبة لا يقتصر في بحث التكرار على اللفظ وحده، أو العبارة بل يعمم فينظر إلى التكرار في القرآن كظاهرة عامة... فيتكلم عن التكرار في القصص، وفي بعض المعاني القرآنية، والصور الأخرى في القرآن كله ثم يتدرج، ويبدأ في تخصيص التكرار بالآية، ويقابلها بالعبارة فيبحث تكرار العبارة ثم تكرار الكلمة.

ولا يرى في التكرار -في كل هذه الحالات- فضولا، بل يرى أنه زيادة اللفظ لحكمة ينشدها القرآن...(101)

التكرار في القرآن في تصور ابن قتيبة :

يتكلم ابن قتيبة عن هذه القضية البلاغية من قضايا القرآن فيتحدث عن تكرار الأنباء ، والقصص، ويرى أن ذلك إنما كان لحكمة قصد إليها، ولظروف خاصة بأسباب النزول، وتتلخص مقاصد القرآن في:

1- أن تكرار الأنباء و القصص جاء نتيجة نزول القرآن منجما...

يقول ابن قتيبة : (102) «أما التكرار في القصص والأنباء، فإن الله تبارك

---

(100) أثر القرآن في النقد العربي ص 141

(101) المرجع نفسه ص 142

(102) تأويل مشكل القرآن ص 76

المناسبة بين الموضوع والأسلوب -للتأثير في النفوس أو العقول وهو كباب المقلوب- فكلاهما فيه تجاوز في انقلاب معنى اللفظ أو مكانه، والتكرار تجاوز في زيادة اللفظ -في اعتقادهم- زيادة ظاهرية عن المعنى، مما يوهم بوجود فضول في التعبير.

وقد يزعم الطاعنون أن التكرار في القرآن من هذا القبيل (100) ولكن ابن قتيبة يرد عليهم، ويتناول ادعاءهم هذا بالبحث والمناقشة، والدراسة المقارنة، مع تحكيم العقل أحيانا والعرف اللغوي أحيانا.

فيبين ابن قتيبة أن التكرار في القرآن لم يكن من ضروب الفضول أو الزيادة وإنما جاء لزيادة المعنى أو تأكيده، أو لضرورة في التعبير يكشف عنها فيما سنعرض له من آرائه في هذه القضية البلاغية القرآنية الخطيرة... والتكرار مع ذلك كثير في لغة العرب، وهومن فنون القول عندهم.

وابن قتيبة لا يقتصر في بحث التكرار على اللفظ وحده، أو العبارة بل يعمم فينظر إلى التكرار في القرآن كظاهرة عامة... فيتكلم عن التكرار في القصص، وفي بعض المعاني القرآنية، والصور الأخرى في القرآن كله ثم يتدرج، ويبدأ في تخصيص التكرار بالآية، ويقابلها بالعبارة فيبحث تكرار العبارة ثم تكرار الكلمة.

ولا يرى في التكرار -في كل هذه الحالات- فضولا، بل يرى أنه زيادة اللفظ لحكمة ينشدها القرآن...(101)

التكرار في القرآن في تصور ابن قتيبة :

يتكلم ابن قتيبة عن هذه القضية البلاغية من قضايا القرآن فيتحدث عن تكرار الأنباء ، والقصص، ويرى أن ذلك إنما كان لحكمة قصد إليها، ولظروف خاصة بأسباب النزول، وتتلخص مقاصد القرآن في:

1- أن تكرار الأنباء و القصص جاء نتيجة نزول القرآن منجما...

يقول ابن قتيبة : (102) «أما التكرار في القصص والأنباء، فإن الله تبارك

---

(100) أثر القرآن في النقد العربي ص 141

(101) المرجع نفسه ص 142

(102) تأويل مشكل القرآن ص 76

وتعالى أنزل القرآن» «نجوما» في ثلاث وعشرين سنة بفرض بعد فرض، تيسيراً للعباد، وتدريجا إلى دينهم، ووعظ بعد وعظ تنبيها لهم من سنة الغفلة، واختبارا لبصائرهم، يقول الله عز وجل: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»(103)

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد بالتثبيت هو والمؤمنون.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم وأن يبعدهم بها عن الغفلة ودثور القلوب، ولو آتاهم القرآن نجمًا واحداً لسبق حدوث الأسباب التي أنزله الله بها، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين، وعلى من أراد الدخول في الدين، ولبطل معنى التنبيه، وفسر معنى النسخ، لأن المنسوخ يعمل به مدة، ثم يعمل بناسخه بعده»(104)

2- أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يحفظون القليل من القرآن للصلاة ولم يفرض عليهم حفظه كله، فكان القليل منه يغني عن الكثير لتكرر القصص العظات في السور.

3- ومن ذلك أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله بلطفه، ورحمته أن يشهر هذا القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويبثها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الأفهام والتحذير(105)

التكرار في العبارة

1-قد يجيء للتوكيد: يقول: ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز... قال الله عز وجل: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»(106) وقال: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا،

---

(103) الفرقان 32

(104) تأويل مشكل القرآن ص 76

(105) المصدر نفسه ص 86

(106) التكاثر 3 - 4

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»(107) وقـال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى»(108) «كل هذا يراد به التوكيد للمعنى الذي كرر به اللفظة... وقد يقول القائل للرجل: أعجل أعجل، وللرامي: ارْم ارْم . كما قال الشاعر:

كم نعمةٍ، كانت لكُمْ كم نعمةٍ، وكم وكم(109)

وقال آخر

هلْ سألتَ جمعَ كِنْدَه يوم ولّوا أيْنَ أينا

2- وقد يكون بإعادة اللفظ بتغيير حرف فيه- استيحاشًا من إعادته ثانية «لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفا، ثم اتبعوها الأولى كقولهم عطشان نطشان كرهوا أن يقولوا عطشان عطشان»

وللتوكيد أغراض منها (110)

أ- حسم الأمر، كما جاء في تفسير قوله تعالى: «قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ»

ب- لبيان فضل المكرر وحسن موقعه في تكرار قوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» فإنه تعالى عدد في هذه السورة نعماء، وأذكر عباده آلاء، ونبههم على قدرته، ولطفه بخلقه، ثم ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلا بين كل نعمتين ليفهمهم النعم، ويقررهم بها»

وكقوله تعالى:«فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ»... والنخل والرمان من الفاكهة، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها لفضلهما، وحسن موقعهما، وقوله سبحانه:«حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى»(111)

وهي منها، فأفردها بالذكر ترغيبا فيها، وتشديدا لأمرها»

---

(107) الإنشراح 5 - 6

(108) القيامة 34 - 35

(109) تأويل مشكل القرآن ص87

(110) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص 142 وما بعدها

(111) البقرة 238

وبعد: فإن ابن قتيبة يكاد يرى في كل آية جاء فيها التكرار حكمة مغايرة للآيات الأخرى.

ثم ينتقل من التكرار للتوكيد إلى الزيادة للتوكيد(112)

يقول: «فأما الزيادة للتوكيد فقوله سبحانه:«**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**»

لأن الرجل قد يقول بالمجاز، كتابا وإشارة على لسان غيره، فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم.

ثم يتكلم عن الزيادة في الحروف كزيادة لا، والباء، واللام، وعلى وعن، وأنّ الثقيلة، وأن الخفيفة، وإذ، وما، وواو النسق(113) ويرى أن زيادة قد تقع في الألفاظ فضلا عن الحروف فقد يزداد لفظ الوجه، مثل ما يقوله تعالى:«**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**»(114) إلا هو، وقوله تعالى: «**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**»(115) .

ويرى أن اسم الله يزاد في الكلام مستشهدا بذلك على رأيه السابق في زيادة الوجه، ومحتجا بقول أبي عبيدة في بسم الله، إنما هو بالله وأنشد للبيد قوله:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والواضح هنا أن ابن قتيبة قد لجأ إلى هذا الرأي في زيادة الوجه ليتحاشى التشبيه في الآية، ويذهب إلى الزيادة في القرآن.

وهذا مخالف لرأي جماعة من العلماء لا يأخذون بالقول بالزيادة في القرآن، ويرون أن ذلك غير لائق بنظمه، ومن هؤلاء المبرد.

---

(112) تأويل مشكل القرآن ص107

(113) المصدر نفسه 109

(114) القصص 88

(115) البقرة 115

المبحث الثاني

أبو العباس المبرد ورؤيته البلاغية (117)

المبرد أديب لغوي، من أعلام أدباء ونقاد ونحاة البصرة في القرن الثالث الهجري وقد أجمع أصحاب التراجم على ذلك

فالسيرافي يقول: «انتهى علم النحو بعد طبقة الجرمي و المازني إلى أبي العباس المبرد ». وابن الأنباري يقول في نزهة الألباب : «كان شيخ أهل العربية والنحو»

ويذكر عنه ابن خلكان «أنه كان إمامًا في النحو واللغة»

وقد وصفه البغدادي، بأنه شيخ أهل النحو وحافظ علم العربية .

ونحن نرى أن أبا العباس المبرد كان ثاني اثنين في القرن الثالث الهجري فظل منهما على سير كثير من معالم الدرس البلاغي في هذا القرن، لأننا نراه في كتابه: الكامل، يشير إلى كثير من مواضيع المجاز (118)

أحيانا تكون الإشارات البلاغية تصريحا، وأحيانا تلميحًا وهذا واضح في كتابه: «البلاغة» الذي حققته دار الشعب بالقاهرة ثم حققه بعد ذلك الدكتور رمضان عبد التواب.

وهو كتاب موجز لا يزيد عن عدة وريقات كتبه إجابة عن سؤال ألقي إليه من أحمد بن الواثق، «أي البلاغتين أبلغ ؟ أبلاغة الشعر، أم بلاغة الخطب والكلام المنثور، والسجع، وأيهما أبلغ عندك؟ ويجيب المبرد بما يفيد مفهوم البلاغة عنده فيقول:« إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعارضة شكلها، وأن يقرّب بها البعيد، ويحذف منها الفضول»(119)

---

(116) أثر القرآن في تطور النقد ص 144

(117) أبو العباس محمد يزيد المبرد نحوي لغوي بصري . له ترجمة واسعة في: بغية الوعاة ج2 ص269، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج5 ص 430، وإنباء الرواة للقفطي ج3 ص 241 ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ج2 ص377 .

(118) الكامل للمبرد جـ1 ص45 وما بعدها

(119) البلاغة للمبرد ص59

فالمبرد يرى البلاغة في حسن النظم، والتئام الكلمات، فلا يكون بينها تنافر، ولا يبرأ بعضها عن بعض، بل يأخذ بعضها بأعناق بعض حتى يحدث التماسك والاتصال، مع شمول في المعنى، واختصار في اللفظ وتوضيح لكل ما هو بعيد، على أنه لم يكن ينسى أيضا فضل الإطناب وما له من أثر في الكلام، ولذلك فإن كلام العرب لا يخلو منه، شأنه في ذلك شأن الإيجاز...(120)

والقرآن الكريم هو أكمل الأساليب في البلاغة، وأشملها في ذكر مقوماتها.. ويطبق ذلك على كثير من تفسيره لآيات من القرآن الكريم...

وحتى لا نطيل الأمثلة الكثيرة سوف نورد بإيجاز بعض اللمحات التي وقف أمامها المبرد وهو يفسر بعض آيات القرآن ومن ذلك:

الالتفات :

في تفسيره لقوله تعالى:«**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا....**»(121)

يقول المبرد(122) : «كانت المخاطبة للأمة ثم انصرفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إخباراً عنهم» (123)

نقد رأي المبرد:

نحن لا نوافق المبرد على هذا التفسير، لأن المفهوم من الآية أن الخطاب موجه إلى الناس أولا بطريق الخطاب، ثم أخبر عنهم بطريق الغيبة فالالتفات في قوله «وجرين بهم» وليس كما زعم المبرد بأن الالتفات في قوله: «حتى إذا كنتم» باعتبار أن الخطاب كان موجها إلى الأمة، ثم انصرف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هنا استحق المبرد النقد اللاذع الذي وجهه إليه المرصفي، وهو يعقب عليه بقوله: وهذا هذيان من أبي العباس، وغفلة عن سياق الآية، «وإنما الخطاب فيها للناس لا للنبي عليه السلام، قال تعالى:«**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ**

---

(120) البلاغة للمبرد ص 60

(121) يونس 22

(122) الكامل جـ1 ص 270

(123) المصدر نفسه جـ2 ص30

وَالْبَحْرِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ» ثم صرف الخطاب إلى الغيبة فقال «وجرين بهم» كأنه يريد أن يؤكد حالهم لمن بعدهم فينكروه ويستقبحوه (124)

صور من المجاز :

في قوله تعالى: «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»

يقول : بل مكرهم في الليل والنهار، وقال جرير

لقد لُمتِنَا يَا أمَّ غيلانَ في السُّرى ونِمتِ ومالَيْلُ المطيِّ بنائم

وقال رؤبة: «منام لَيْلِي وتَجَلِّيَ همي»

ومن نافلة القول: إن هذه الصورة فيها مجاز عقلي، أسند فيها الفعل، أو أضيف مصدر إلى غير ما هو له، مما له به ملابسة معتبرة في العلاقات المجازية: وهي هنا -الزمان- فالليلة يفرع فيها كما قال، ويمكر فيها كما يمكر في النهار، وينام فيها.(125)

والبلاغيون -بعده- لم يزيدوا شيئا على ما قاله -رحمه الله- وكذلك من سبقه أو عاصره من الرواد التقوا جميعا عند هذا المعنى في توضيح إسناد الفعل إلى غير ما هو له.

ويذكر المبرد عدة آيات يفسرها، ويبين ما فيها من مجاز وخاصة المجاز العقلي، ومن هذه الصور ماذكره في قوله تعالى:«وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»(126) ويسترسل قائلا: «نصب لأنه كان واسأل أهل القرية»

حيث حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعطى حكمه....

ومن صور المجاز المرسل عند المبرد في تفسيره لقوله تعالى حكاية عن نبي الله إبرهيم عليه السلام:

---

(124) رغبة الآمل للمرصفي جـ4 ص187

(125) الكامل جـ1 ص135

(126) يوسف 82

قوله تعالى: «وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ»(127)

قال: «ثناء حسنا»(128)

وقد عزا المبرد هذا التفسير لبعض المفسرين، ولعله أراد منهم، من كتبوا في معاني القرآن على نمط الفراء وأبي عبيدة، والأخفش الأوسط(129) وغيرهم، لأن التفسير بمعناه المعروف لنا اليوم لم يكن قد ظهر قبل عصر المبرد.

وجميع الرواد الذين تحدثنا عن الدرس البلاغي في تفسيرهم والذين سبق الحديث عنهم قد فسروا «اللسان» بالثناء ما عدا ابن قتيبة فقد فسره بمعنى قريب، وهو الذكر الحسن.

وفي تفسيره لقوله تعالى: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا»

قال:«أي أعصر عنبا فيصير إلى هذا الحال»

وهذا طبعا مجاز مرسل وعلاقته اعتبار مايكون...(130)

ومن صور الكناية :

في تفسيره لقوله تعالى عن المسيح وأمه :«مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ»(131)

قال: « وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة »(132) لأن من أكل الطعام أفرزه ضرورة . وذهب إلى التصريح بلفظ الكناية في تفسيره لقوله تعالى:«أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ»(133)

---

(127) الشعراء 84

(128) الكامل جـ1 ص378

(128) هو أبو الحسن سعيد بن مسعده المجاشعي نحوي بصري توفي عام 215 هـ، وله كتاب «معاني القرآن» نحا فيه منحى الفراء وأبي عبيدة (بغية الوعاة) جـ1 ص590

(130) الكامل جـ3 ص92

(131) المائدة 75

(132) الكامل جـ2 ص291

(133) المائدة 6

قال:« وكذلك قولهم في قضاء الحاجة جاء فلان من الغائط، وإنما الغائط الوادي»(134)

الاستعارة عند المبرد

تحدث المبرد في تفسير الكثير من آيات القرآن عن الاستعارة، وكان رائدا في هذا الدرس من دروس البلاغة في القرآن الكريم..

ويكفي المبرد فخرا أنه ممن مهدوا للقول بالاستعارة في الحرف..

وقد لفت نظره إليها قوله تعالى في سورة طه:

«قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ، وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ....»(135)

قال المبرد في تفسيره لها: « أي» «على» ولكن الجذوع إذا أحاطت دخلت «في» لأنها للوعاء، يقال فلان في النخل أي قد أحاط به.. قال الشاعر

هُمُو صلَبُوا العَبدِيَّ في جِذْعِ نخلةٍ فلا عطست شَيْبَانُ إلا بأجْدَعا

وقال عز وجل:**«أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»**(136)

قال: أي «عليه»

وقال تبارك وتعالى:**«لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...»**(137) قال: «أي بأمر الله»(138)

---

(134) الكامل جـ 1 ص 290

(135) طه 71

(136) الطور 38

(137) الرعد 11

(138) الكامل جـ3 ص98

هذه النماذج التي ساقها المبرد حيث حل فيها حرف محل حرف آخر «في» حلت محل «على» و «من» حلت محل «الباء».

وجمهور البلاغيين يعدون هذا التصرف من الاستعارة التصريحية التبعية لجريان التشبيه فيها بين مطلق متعلقى الحرفين كالظرفية المطلقة؛ والاستعلاء المطلق ثم يسرى التشبيه إلى معنى الحرفين في الجملة، المتجوز فيها، فيكون ذلك مثل إجراء التشبيه بين مصدري الفعلين ثم بين الفعلين تبعًا لجريانه في مصدريهما.

وفي تفسيره لقوله تعالى:«**وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**»(139)

قال: «والطبع أسوأ الطمع، وأصله أن القلب يعتاد الخلة الدنيئة فتركبه كالحائل بينه، وبين الفهم لقبح ما يظهر منه. وهذا مثل وأصله في السيف، وما أشبهه، يقال طبع السيف إذا ركبه صدأ يستر حديده، وطبع الله على قلوبهم، من ذا »(140)

وهذا كلام المبرد. وهو كلام رائع جداً حيث شبه الرين الذي يصيب القلوب فيفسدها، ويمنع صفاءها وإدراكها للحق والإذعان له، بالصدأ الذي يكسو السيوف فيمنع بريقها، وحدتها، ويصيبها بالتآكل و التلف، فهو استعارة تصريحية أصلية، والجامع ما يترتب على كل من المضار والمفاسد، والقرينة استحالة أن يصيب القلوب الصدأ المألوف الذي هو آفة الحديد.

فهذا كله توجيه بلاغي مجازى، وإن لم يسمه المؤلف، فإن العبرة بالموضوع لا بالتسمية (141)

وفي تفسيره لقوله تعالى: «**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ، وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**»(142)

يقول المبرد: «ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون فإن مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف، ومعناه يخوفكم من أوليائه»(143)

---

(139) التوبة 9

(140) الكامل ج4 ص 39

(141) المجاز للمطعني جـ1 ص91

(142) آل عمران 51

(143) الكامل جـ4 ص 128

وفي القرآن الكريم: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ»(144) والشهر لا يغيب عنه أحد، ومجاز الآية: «فمن كان منكم شاهدا بلده في الشهر فليصمه، والتقدير فمن شهد منكم أي كان شاهداً في شهر رمضان....فليصمه»(145)

وماذهب إليه المبرد من تفسير الشهادة بالحضور، والإقامة بالبلد غير مسلم به، وإن تابعه عليه جار الله الزمخشري في تفسير الكشاف (146)

وذهب جمهور المفسرين أن المراد من الشهادة في قوله تعالى: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» رؤية الشهر- يعني الهلال- لا عدم السفر- نص على ذلك القرطبي، وله في المسألة بحث مستفيض(147) وهو الأرجح لأن حكم المسافر تقدم قبل هذه الآية في قوله تعالى: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ....»(148)

وعلى كل فإن المبرد هنا لم يخرج بالمجاز عما كان يريده منه أبو عبيدة كما تقدم ويقول المبرد في الكامل: وفي القرآن الكريم:«فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً»(149)

«فليس معنى ننجيك نخلصك، لكن نلقيك على نحو من الأرض، ببدنك: بدرعك، يدل على ذلك: لتكون لمن خلفك آية»(150) وتفسيره لهذه الآية ممكن أن يسلك في صور المجاز، لأن الإنجاء يكون بالسلامة من الهلاك، وليس هذا بوارد في شأن فرعون« الخروج و الغرق» فيكون تفسير المبرد «الإنجاء» بالإلقاء، على هذا وجيها ويكون في التعبير استعارة ساخرة، وعظة لمن كان على شاكلته، ومثلها مثل قوله تعالى:«فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»(151)

---

(144) البقرة 185

(145) الكامل ج 4 ص128

(146) الكشاف جـ1 ص236

(147) أحكام القرآن للقرطبي جـ2 ص 294

(148) البقرة 184

(149) يونس 93

(150) الكامل ج 4 ص129

(151) آل عمران 21

والعذاب لا يبشر به، وإنما ينذر به (152)

ومن الصعب أن نلم هنا بشتى ألوان الدرس البلاغي الذي تناوله المبرد على ضوء تفسيره لآيات كثيرة من القرآن.

فكتابه الكامل، وكتاب المقتضب مليئان بهذه الألوان وفيما ذكرناه كفاية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(152) الكامل ج4 ص129

المبحث الثالث :

تفسير كتاب الله العزيز

بين هود بن محكم الهواري ويحيى بن سلام البصري

عجيب أمر هذا التفسير، وأعجب منه كلام المحققين له، والمعلقين عليه، والذين تابعوا مخطوطاته المختلفة، ومصادره المتعددة. فلقد ذكر العلامة الفاضل بن عاشور(153)أن ليحي بن سلام البصري تفسيرا اشتاقت النفس إليه... وذكر الشيخ الفاضل بن عاشور أن التفسير يمتاز بكثير من الاتجاهات اللغوية والبيانية...

وقد قامت الباحثة والمحققة هند شلبي بتحقيق التفسير المنسوب ليحيى بن سلام البصري...

وقام الحاج بن سعيد شريفي بتحقيق التفسير منسوبا للشيخ هود بن محكم الهواري من علماء القرن الثالث...

والشيء الذي يثير التساؤل، ويفرضه على الباحث هو تلك الصلة الوثيقة بين تفسير الشيخ الهواري، وبين تفسير يحي بن سلام(154) الذي سبق بنحو قرن من الزمان حتى جعله محمد حسين الذهبي تفسيرا أباضيا واحدا وذلك في الجزء الثاني من كتابه التفسير والمفسرون .

---

(153) التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ص27 وما بعدها

(154) هو أبو زكريا يحي بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي، تيم ربيعة، مولاهم، ولد بالكوفة سنة 124هـ، ثم نشأ بالبصرة، وهي في أوج ازدهارها العلمي، ولقي بها بعض التابعين وكثيرا من العلماء، ثم انتقل إلى القيروان حيث طاب له المقام زمنا، وبها سمع الناس تفسيره. ثم رحل عنها بسبب سفارة قام بها بين عمران بن مجالد الربعي وبين أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب، فأخفر فيها العهد على بده، ثم قصد مكة للحج، ثم رجع إلى مصر حيث توفي سنة 200 هـ.
وأهم مصادر ترجمته وأخباره هي: طبقات علماء إفريقيا ص37-39. لأبي العرب ص37- 39 ، ورياض النفوس للمالكي ص122-125، وفهرست ابن خير الإشبيلي ص56 - 57 وطبقات المفسرين للداودي جـ2 ص371، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ص373 ، وميزان الاعتدال للذهبي ج4 ص380، والأعلام للزركلي جـ2 ص182 - 183 .

والشيخ الفاضل بن عاشور، وبعد إشادته الهائلة بتفسير يحيى بن سلام يقول: «إنه أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق».

مع أنه وجدت تفاسير أقدم منه عهدا مثل تفسير مجاهد بن جبير، وتفسير مقاتل بن سليمان...

وقد كتب عن هذا التفسير الأستاذ حمادي صمود بحثا قيما نشره بالفرنسية في مجلة معهد الآداب العربية تحت عنوان «مفسر مشرقي بإفريقية: يحي بن سلام سنة 742م/815م وقد ذكر الأستاذ الحاج بن سعيد شريفي أنه زار تونس وحصل على نسخة مخطوطة من هذا التفسير... ثم يضيف قائلا: إنه وهو ينسخ تفسير سورة النمل من تفسير هود بن محكم الهواري(155) إذ استعصت عليه عبارة فرجع إلى مخطوطة يحي بن سلام لتوضيح ما أشكل عليه، فوجد العبارة في صفحة أو صفحتين وهي هي...(156)

ويرى المحقق أن هذا التفسير ظل أكثر من أحد عشر قرنا منسيا مغمورا، وقد ظهرت مخطوطاته المتفرقة في بعض الخزائن الخاصة، وهي خزائن لعلماء من القرون الأربعة الأخيرة

---

(155) هود بن محكم الهواري..

ينتمي إلى قبيلة هوارة من قبائل البرانس البربرية، وقد سكنت بطونها عدة مواطن في أفريقيا والمغرب، وجاورت هوارة قبيلة نفوسة بالجبل الذي ينسب إليها جنوب طرابلس الغرب وسكنت بطون منها بلاد الجريد، جنوب الحدود الجزائرية التونسية الآن، وسكنت بطون منها جبل أوراس ونواحيه...

وفي تلك الناحية من جبل أوراس، وما يحيط به، وفي كنف هذا الوالد التقي وتحت رعاية والده القاضي الحازم نشأ عالمنا هود بن محكّم.

ولم يعرف بالتحديد عام مولده،والمرجح أن يكون في العقد الأول أو الثاني من القرن الثالث الهجري وأما عن سنة وفاته فلم تذكر المصادر أيضا تحديدها، وإن كان المرجح أنها كانت في العقد الثامن أو التاسع من القرن الثالث الهجري راجع مقدمة تحقيق كتاب الله العزيز للحاج بن سعيد شريفي ص7 وما بعدها.

(156) تفسير كتاب الله العزيز لهود بن محكم تحقيق الحاج بن سعيد شريفي جـ1 ص23

يحتفظ بها أبناؤهم وحفدتهم، وهي موجودة في وادي ميزاب جنوب الجزائر... وفي جزيرة جربة التونسية...

وإن المصادر الإباضية القديمة هي وحدها التي أشارت إلى وجود هذا التفسير، وذكرته بصفة موجزة جدا...(157)

ثم يذكر لنا أقوالا متناقضة لكتاب السير والمؤرخين من الإباضية بين معترف وبين منكر للشيخ ابن محكم، فلا حياته مبسوطة في كتبهم، ولا آثاره معروفة لديهم...(158) ونحن لا نوافق المحقق في تعليله أن المؤرخين المعاصرين لابن محكم وهما: ابن الصغير، ولواب بن سلام اللذين لم يشيرا إلى هذا التفسير ولم يذكرا مؤلفه، ويرجع ذلك لسببين أولهما أغرب من ثانيهما.

ويقول في أولهما إن الظروف لم تسمح بلقاء بينهما، ويقول في ثانيهما إن التاريخ لا يحفظ عادة للعلماء ذكرا، ولا تعرف آثار هؤلاء إلا بعد وفاتهم بعشرات السنين!!!(159)

منهج ابن سلام... ومنهج هود بن محكم...

أولا: إن تفسير ابن سلام أصبح الآن معروفا لدينا بعد أن قدمت دراسات حوله، وهي دراسات ضافية، وأبحاث قيمة(160)

ثانيا: إذا سلمنا وافترضنا بصحة نسبة التفسير لابن سلام فإنه يكون أقدم ما وصل إلينا من كتب التفسير بالمأثور، فقد تتبع فيه المؤلف سور القرآن كلها آية آية يذكر سبب نزولها - إن وجد - ويذكر ما يناسبها من الآية أو الآيات المشابهة لها

---

(157)مقدمة تحقيق كتاب الله العزيز ج1 ص7

(158) المصدر نفسه ج1 ي ص7، 8، 9، 10 - 17 .

(159) المصدر نفسه ج1 ص19 ومابعدها

(160) إن أحسن دراسة علمية وأوفاها في الموضوع هي تلك الأعمال الممتازة التي نشرتها الباحثة هند شلبي في تقديمها وتحقيقها لكتاب «التصاريف» لابن سلام، وفي أطروحتها: «القراءات بإفريقيا» إلى منتصف القرن الخامس الهجري».

وقد حقق الأساتذة: حمود صمودي، والبشير المخينيني، ورشيد الغزي تحت إشراف محمد طالبي ستة أجزاء من تفسير ابن سلام مصدرة بدراسات حول ابن المفسر.

إن وجدت .

وتفسير القرآن بالقرآن هي القاعدة الأساسية التي التزم بها في تفسيره. وقديما قيل: «مافسر القرآن مثل القرآن»(161)

ثم يذكر بأسانيد متصلة في أغلب الأحيان الأحاديث التي تبين الآية وتعين على فهمها؛ يرويها عمن حدثه بها مباشرة...

وإذا كان للآية قراءتان أو أكثر أشار إلى ذلك، وذكر باختصار شديد مدلول كل قراءة من دون تعمق في التعليل...

وأهم مصادر تفسير ابن سلام من تفاسير الصحابة: تفسير ابن عباس، وتفسير ابن عمر، وتفسير ابن مسعود، وتفسير علي بن أبي طالب... وغيرهم... وهو يذكر ما أثر عنهم ويروي أقوالهم وخاصة في تفسير آيات الأحكام. ومن تفاسير التابعين اعتمد ابن سلام خاصة تفسير الحسن وتفسير مجاهد.

وابن سلام يكثر الرواية عن الكلبي، وعن السّدي، ولذلك لا نعجب من وجود بعض الإسرائيليات التي يوردها بدون أن ينقدها أو يعلق عليها...(162)

ثالثا: ليحي بن سلام كتاب آخر هو «التصاريف» وهو كتاب في علم الأشباه والنظائر ولم يشر إلى هذا الكتاب في تفسيره من قريب ولا بعيد... ولعله وضعه بعد تأليفه للتفسير...

ومما يغلب هذا الظن هو أن أغلب الوجوه المختلفة التي صرف إليها اللفظ القرآني في كتابه «التصاريف» موجودة فعلا في كتاب التفسير إمّا بنصها وعبارتها أو

---

(161) التصاريف ليحيى بن سلام تحقيق هند شلبي ج1 ص29

(162) المصدر نفسه ج1 ص 30

ملاحظة : من المفسرين الذين اقتبسوا من تفسير ابن سلام ونقلوا عنه آراءه وأقواله :

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي صاحب الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي ج12، ص279

وأبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي صاحب «زاد المسير» ج8 ص379

والحافظ ابن حجر صاحب فتح الباري (فتح الباري ج8 ص632)

والإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «الأمثال في القرآن» ص266

بمعناها.

وكأن كتاب «التصاريف» خلاصة استخرجها ابن سلام من تفسيره وتناول بها جانبا من جوانب التفسير فأفرده بمؤلف خاص.

هكذا وصل إلينا تفسير ابن سلام، وهو يمثل بمنهجه ومحتواه صورة حية لطور من أطوار التفسير في مراحله الأولى، أي في القرن الثاني الهجري.

رابعا: هناك تفسيران لهما علاقة بتفسير ابن سلام، وهما:

أ- تفسير عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن أبي المطرف الأنصاري الفنازعي القرطبي(163)

والمصادر التي ترجمت لأبي المطرف عبد الرحمن القرطبي تذكر أنه صنف مختصر تفسير القرآن لابن سلام.

وقد ولد أبو المطرف سنة 341هـ -وتوفي سنة 413هـ

ب- تفسير محمد بن عبد الله بن عيسى المرّي الإمام أبو عبد الله الإلبيري المعروف بابن أبي زمنين (ولد سنة 324 هـ وتوفي سنة 399هـ)(164) ومن مؤلفاته الكثيرة «مختصر تفسير ابن سلام» الذي حفظت لنا مكتبة جامعة القرويين بفاس نسخة منه كاملة(165) وقد ذكر المؤلف الأسباب التي دفعته إلى اختصار تفسير ابن سلام وبين منهجه في الديباجة قائلا: «وبعد فإني قرأت كتاب «يحي بن سلام في

---

(163) أهم من ترجم له: ابن الجزري في طبقات القراء جـ1 ص380، وابن فرحون في الديباج ص152، والداودي في طبقات المفسرين ج1 ص287.

(164)طبقات القراء لابن الجزري ج1 ص 31

(165) الديباج لابن فرحون ص269 ، وجذوة المقتبس للحميدي ص56، وترتيب المدارك للقاضي عياض جـ2 ص672، وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ17 ص188 ، وطبقات المفسرين للداودي جـ 2 ص161، و طبقات المفسرين للسيوطي ص89.

وكان ممن روى عن ابن أبي زمنين أبو عمرو الداني... وقد قام الأستاذ محمد ابراهيم بن محمد هارون من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بتحقيق كتاب أصول السنة لابن أبي زمنين، وقدم دراسة حوله .

راجع مقدمة تحقيق كتاب الله العزيز للحاج بن سعيد شريفي جـ1 ص3.

تفسير القرآن، فوجدت تكرارا كثيرا وأحاديث ذكرها يقوم علم التفسير دونها، فطال بذلك الكتاب...،نظرت فيه فاختصرت فيه مكروره، وبعض أحاديثه، وزدت فيه على غير كتاب يحي بن سلام مالم يفسره يحيى، واتبعت ذلك إعرابا كثيرا، ولغة على ما نقل عن النحويين، وأصحاب اللغة السالكين لمناهج الفقهاء في التأويل زائدا على الذي ذكره يحيى من ذلك(166)

خامسا: يتفق كثير من الدارسين والمحققين على أن ابن أبي زمنين اختصر تفسير بن سلام اختصارا مخلا، وأنقص من محتواه كثيرا؛ كحذفه ما يتعلق بالأحاديث، وأقوال الصحابة، والتابعين وأخبارهم...

ولكن الشيء الجديد والذي يعتبر من حسنات ابن زمنين أنه أضاف إلى تفسير ابن سلام شيئا هاما وهو الشرح اللغوي، والملاحظات النحوية أو الصرفية التي تزيد الآية بيانا وتوضيحا.

ومن مزايا تفسير ابن أبي زمنين أيضا أن المؤلف حافظ فيه على الأسانيد فيما ينقل من تفسير ابن سلام، وفرّق بين ماهو من أقوال بن سلام بقوله: قال يحي، وبين ماهو من زياداته بقوله: قال محمد(167)

سادسا: ليس في تفسير ابن سلام تلك الإشارات البيانية أو اللغوية التي تستحق أن ترصد كظاهرة بلاغية أو لغوية تستحق الوقوف عندها، أو دراستها أو تقعيدها...

سابعا: من حيث النماذج والأمثلة فإن شواهد ابن سلام هي نفسها شواهد التفسير المنسوب إلى ابن محكم... وكل سور القرآن الكريم.

وهذا ما يجعلنا نميل إلى أنه تفسير واحد...

منهج هود بن محكم في تفسيره :

تفسير هود بن محكم يعتبر على أقوى الاحتمالات اختصارا لتفسير يحي بن سلام وأن هذا التفسير تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم، يعتمد على

---

(166) الديباج لابن فرحون ص269 .

(167)تفسير كتاب الله العزيز تحقيق الحاج بن سعيد شريفي جـ1 ص32.

تفسير سبقه بما يقرب من قرن من الزمان.

ونحن نميل إلى ذلك...

وهذه حقيقة يؤكدها الشيخ الحاج بن سعيد شريفي في تحقيقه لتفسير هود بن محكم حيث يقول:

«إذا كان تفسير ابن سلام البصري أصلا لتفسير هود بن محكم الهواري فكيف رواه أو وصل إليه حتى عني به واختصره؟»(168)

والمصادر التي بين أيدينا تجمع على أن تفسير يحي بن سلام سمع بالقيروان، ورواه الناس بها مباشرة عن مؤلفه، وخاصة ابنه محمد وتلميذه أبو داود العطار.

وكان أواسط القرن الثالث الهجري هي الفترة التي ملأ فيها هذا التفسير مجالس العلم، وحلق الدروس، والمناظرة بالقيروان خاصة، وفي أفريقيا الإسلامية عامة.

وكانت دار محمد بن يحيى، مركزا من مراكز العلم، كما يفهم من رواية القاضي عياض(169) وكانت مفتوحة للطلبة الذين يقصدونها، وهم يرتدون زيا خاصا، للتفقه على هذا العالم الذي ورث علم أبيه، ويؤمها الفقهاء والعلماء للمناظرة وتلقّي بعضهم عن بعض في مجلس هذا العالم الثقة النبيل كما وصفه أبو العرب (170) في طبقاته...

ثم إن تفسير ابن سلام في أوائل القرن الثالث الهجري، وأواسطه كان التفسير الجديد الكامل الذي طبقت شهرته أفريقيا الإسلامية، وذاع صيته؛ فحداثته كافية لأن تجذب الأنظار والهمم إليه، وكون مؤلفه بصريا استوطن القيروان، تمنح الكتاب ميزة خاصة تزيد الناس إغراء بالاطلاع عليه، وولوعا بتلقيه.

نماذج من التفسيرين :

إن النماذج التي نعرضها لا تكاد تختلف في التفسيرين :

---

(168)تفسير كتاب الله العزيز جـ1 ص33

(169) ترتيب المدارك للقاضي عياض جـ2 ص335

(170) طبقات علماء افريقيا ص38

النموذج الأول (171)

قوله تعالى في سورة البقرة «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى» يعني اختاروا الضلالة على الهدى. وقال بعضهم استحبوا الضلالة على الهدى.

قال الله تعالى: «فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

ثم ضرب مثلهم فقال: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ» (قال الحسن: يعني مثلهم كمثل رجل يمشي في ليلة مظلمة في يده شعلة من نار، فهو يبصر بها موضع قدميه. فيما هو كذلك إذ طفئت ناره، فلم يبصر كيف يمشي، وإن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له الدنيا، فحقن بها دمه وماله، وسباء ذريته، وناكح بها المسلمين، وغازاهم، ووارثهم بها، وأخذ الحقوق، فلما جاءه الموت ذهب ذلك النور لأنه لم يحققه بعمله، ولم يكمل فرضه، فطفئ نوره القليل الذي كان معه، وهو التوحيد، كما طفئت النار التي استوقدها صاحبها، فأضاءت ما حوله، فبقي في ظلمة حين طفئت النار... ثم قال: «صمٌ» يعني عن الهدى فلا يسمعونه، بكم عنه فلا ينطقون به «عمي» عنه فلا يبصرونه، ثم قال : «فهم لا يرجعون» أي إلى الإيمان، يعني أنهم لا يتوبون من نفاقهم.

ثم ضرب مثلا آخر فقال: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ» يقول هذا المثل أيضا مثل المنافق، والصيب المطر، ذكروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا استسقى قال: «اللّهم صيّبا هنيّا»(172) وهو تفسير مجاهد: قال بعضهم: كان المنافقون إذا أصابوا في الإسلام رخاء وطمأنينة طابت أنفسهم في ذلك وسروا به في حال دنياهم وإذا أصابتهم فيه شدة لم يصبروا عليها، ولم يرجوا عاقبتها.

فالظلمات هي الشدة، والرعد هو التخوف إذا تخوفوا أن تأتيهم شدة، والمطر فيه الرزق، وتكون فيه الظلمة والرعد والبرق، فضرب الله ذلك مثلا، والبرق مثل نور الإسلام في تفسير الحسن، وقال ابن عباس: هو نور القرآن، وهو واحد.

---

(171) البقرة : 16، 17، 18، 19، 20 . تفسير كتاب الله العزيز لهود بن محكم ج1 ص86 .

(172) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب ما يقال إذا أمطرت، عن عائشة بلفظ «اللّهم صيّبا نافعا».

«يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ» وهذا كراهية من المنافقين للجهاد لأنهم لم تكن لهم حسبة في الشهادة والجهاد في سبيل الله.

قال الله: «وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» يقول والله محيط بالمنافقين وهو كفر دون كفر الشرك: يقول: هو من وراء المنافقين حتى يخزيهم بنفاقهم وكفرهم»(173)

النموذج الثاني :(174)

قال الله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ»(175)

«وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ»

والمعروشات في تفسير الكلبي: العنب، وغير معروشات النخل والشجر، وفي تفسير مجاهد «العنب منه معروش وغير معروش. قال: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ» تفسير الكلبي منه الجيد ومنه الردي». «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ» أي متشابها في المنظر وغير متشابه في المطعم.

ذكروا عن مجاهد عن ابن عباس قال: اختلاف الطعم والشجر، وتفسير بعضهم في الآية الأولى: متشابها في الورق مختلفا في الثمر.

قوله: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» أي: الزكاة المفروضة فيما ذكر الحسن، وقال غيره: هي الصدقة التي فيه، وكذلك قال سعيد بن جبير هي الزكاة.

ذكروا عن ابن عمر ومجاهد قالا: هو سوى العشر، ونصف العشر أن يتناول منه يوم يحصد.(176)

---

(173) تفسير كتاب الله العزيز الحكيم لهود بن محكم جـ1 ص87، وتفسير يحيى بن سلام تحقيق هند شلبي جـ1 ص60

(174) تفسير كتاب الله العزيز جـ1 ص866

(175) الأنعام 141

(176) تفسير كتاب الله العزيز جـ1 ص566

النموذج الثالث : (177)

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ، الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»(178)

قوله: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» أي هذا حكم الله في هذا في التوراة والإنجيل والقرآن.

«وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» على الاستفهام، أي لا أحد، قال: «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أي النجاة العظيمة.

قوله «التَّائِبُونَ» قال الحسن: تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق «الْعَابِدُونَ» أي عبدوا الله مخلصين، «الْحَامِدُونَ» أي الحامدون الله على السراء والضراء، قال الحسن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قضى الله خيرا لكل مسلم، إن أعطاه شكر، وإن ابتلاه صبر»(179)

«السَّائِحُونَ» ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سُئل عن السائحين فقال: هم الصائمون(180) وذكروا عن الحسن: كثرة الصيام.

---

(177) تفسير كتاب الله العزيز جـ2 ص170

(178) التوبة 111، 112

(179) أخرجه مسلم في صحيحه عن صهيب مرفوعا في كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.

(180) أخرجه ابن جرير الطبري وغيره مرفوعا عن أبي هريرة، وعن ابن مسعود أيضا، وأخرجه بعضهم مرسلا.

انظر جامع البيان جـ14 ص506 .

«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» يقول: أهل الصلاة

«الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» وهو كل ما يعرف العباد عدله

«وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» وهو كل ما يعرف العباد جوره

«وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » فيما أمروا به ونهوا عنه

«وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» وهم أهل هذه الصفة، أي بشرهم يامحمد بالجنة .

الدرس البلاغي في تلك النماذج :

أولا: تؤكد النماذج الثلاثة أن ما ذكره هود بن محكم، وما ذكره يحيى بن سلام في معنى الآيات وتأويلها واحد. بل وتكاد العبارات والأساليب تتفق شكلا ومضمونا...

ثانيا: أن الشيخين الجليلين كانا يميلان إلى الأخذ بالمأثور بقدر الإمكان، ولا يحيدان عن المأثور والأخذ به ما وجدا إلى ذلك سبيلا...

ثالثا: إن ما ذكره الشيخ العلامة الفاضل ابن عاشور من اعتماد تفسير يحيى بن سلام على المعقول والأخذ بالرأي والأخذ باللغة والولوع بالجانب البياني- شيء نفتقده كثيرا في هذين التفسيرين.

رابعا: هناك بعض البوارق البلاغية كانت تلمع في ذهن الشيخين ولكنهما لم يصرحا بها كثيرا.

وذلك ألوان الكناية، والاستعارة التبعية، والاستفهام والايجاز بالحذف. وكذلك التشبيه»

في مثل هذه الآيات :

« اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »

« فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُمْ »

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ»

« يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ »

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا »

« وَهُوَ الذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ»

« اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »

« وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ »

خامسا: لقد كنت على وشك أن أهمل في بحثي هذين التفسيرين، وألا أرجع إليهما لسببين:

السبب الأول : اضطراب الروايات في أمرهما ونسبتهما كما سبق.

السبب الثاني : خفوت صوت الدرس البلاغي، وعدم وضوحه..

لكن قيمتهما تكمن في تقدمهما زمنيا عن معظم التفاسير التي وصلتنا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة

- علم البلاغة والمعتزلة
- موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم
- المبدأ اللغوي في تفاسير المعتزلة
- أبرز تفاسير المعتزلة
- خصائص الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة
- ارتباط الدرس البلاغي بعقائدهم
- فروق دقيقة بين ابن قتيبة والمعتزلة في موضوع المجاز
- توسعهم في المجاز العقلي في تفاسيرهم
- المجاز بين اللغة والعقل في تفاسير المعتزلة
- رؤية القاضي عبد الجبار فيما ذهب إليه المرتضى
- الحقيقة والمجاز في التفسير بين ابن جني والمعتزلة
- قدسية اللغة ومثالية الموروث من كلام العرب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن المعلوم أن المعتزلة أقاموا مذهبهم في التفسير على أصولهم الخمسة: التوحيد - العدل - والوعد والوعيد- والمنزلة بين المنزلتين- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وهذه الأصول الخمسة يجمع الكل عليها، ومن لم يقل بها جميعا فليس معتزليا بالمعنى الصحيح:

قال أبو الحسن الخياط أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث: «وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة، التوحيد والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلي..»(1)

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

أقام المعتزلة مذهبهم في التفسير على أصولهم الخمسة؛ ومن المعلوم أن هذه الأصول، لم تتفق ومذهب أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أهم خصومهم وفي سبيل تقرير المبدأ الاعتزالي ، ذهب مفسرو المعتزلة إلى حمل النص والعبارة القرآنية على منحى تأويلي يتلاءم مع مبادئهم، ووجهات نظرهم . فإخضاع عبارات القرآن لآرائهم التي يقولون بها، وتفسيرهم لها تفسيرا يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم، شيء أساسي في تفسيرهم..(2)

ولاشك أن مثل هذا التفسير الذي يخضع للعقيدة يحتاج إلى مهارة كبيرة، واعتماد على العقل أكثر من الاعتماد على النقل، حتى يستطيع المفسر الذي هذا حاله أن يلوي العبارة إلى جانبه، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه... »(3)

ومذهب المعتزلة في التفسير -في عمومه- يكره التكلف، ويمقت الانطلاق وراء الغريب في التأويل.

---

(1) تاريخ الفرق لأبي زهرة ص208

(2) التفسير والمفسرون للذهبي ج1 ص352

(3) المرجع نفسه

يقول النظام في حق ملتمسي الغريب: «وليس يؤتى القوم إلا من الطمع، ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل»(4)

ويرى أن كثيرا من الجهلة يعجبون بالمفسر الذي يتصيد الغريب في تفسيره، حتى إنه «كلما كان المفسر أغرب عنهم كان أحب إليهم»(5).

والنظام كان اعتماده على العقل شديدا، وكانت تحمله هذه النزعة إلى رفض كثير من الآراء، وعدم الأخذ بها إلا بعد تمحيصها ودراستها ومراجعة النظر فيها، وهي نزعة كانت تحمله على الكثير من الآراء المستغربة الشاذة التي لا يرضى عنها كبار الأمة، إنه مثلا لا يطمئن إلى كثير من المفسرين -وفيه جلّة كبار- ويدعو إلى عدم الأخذ بآرائهم في التفسير يقول: «لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة و أجابوا على كل مسألة، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندهم: عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم في سبيل واحد»(6)

ويسوق أمثلة لتفسيرات شاذة لا ترضى عنها المعتزلة... وهي أقوال لا ندري إذا كانت من أقوال من نسبت إليهم حقا، أم أنّها حملتْ عليهم حملا... يقول النظام: "فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا في قول الله عز وجل: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ» أن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عني الحياة، وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف، وقد قالوا في قوله تعالى: «أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ» إنه ليس يعني الجمال والنوق، وإنما يعني السحاب...وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان قد كان فرضا على جميع الأمم وأن الناس غيرّوه، قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...»(7) . ورفض النظام أيضا قولهم في تفسير قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً» قالوا:

---

(4) الحيوان للجاحظ جـ1 ص162

(5) المصدر نفسه جـ1 ص343

(6)المصدر نفسه

(7)المصدر نفسه ج1 ص 344

يعني حشره بلا حجة....

وقالوا في تفسير قوله تعالى: «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» الويل واد في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي...

ومعنى الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام وهو من أشهر كلامهم....

وذكر أيات أخرى، وأبدى عدم رضاه عن تفسيرها، مما يوضح مذهبهم في التفسير، وهو عدم البعد في التأويل عن المعنى الذي تدل عليه الألفاظ مما جرت عليه عادة العرب في كلامهم....»(8)

المبدأ اللغوي في تفاسير المعتزلة

وللمبدأ اللغوي، والطريقة البلاغية العربية في تفاسير المعتزلة أهمية كبرى وهذه الناحية تعتبر عندهم المبدأ الأعلى للتفسير.. ويظهر ذلك واضحا في تفسيرهم للعبارات القرآنية التي لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية أو العبارات التي تحتوي على التشبيه، أو العبارات التي تصادم بعض أصولهم، فنراهم يحاولون أولا إبطال المعنى الذي يرونه مشبها في اللفظ القرآني، ثم يثبتون لهذا اللفظ معنى موجود في اللغة يزيل هذا الاشتباه، ويتفق مع مذهبهم، ويستشهدون على ما يذهبون إليه من المعاني التي يحملون ألفاظ القرآن عليها بأدلة من اللغة والشعر العربي القديم...(9)

فمثلا الآيات التي تدل على رؤية الله تعالى كقوله سبحانه: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»(10) وقوله تعالى: «عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ»(11)

نجد المعتزلة ينظرون إليها بعين غير العين التي ينظر بها أهل السنة، ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يطبقوا مبدأهم البلاغي اللغوي حتى يتخلصوا من الورطة

---

(8) الحيوان جـ1 ص 344

(9) التفسير والمفسرون جـ1 ص355

(10) القيامة 22 - 23

(11) المطففين 23

التي أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم، فإذا بهم يقولون: إنّ النظر إلى الله معناه الرجاء، والتوقع للنعمة والكرامة...واستدلوا على ذلك بأن النظر إلى الشيء في العربية ليس مختصا بالرؤية المادية، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

وإذا نظرت إليكَ من مُلْكٍ والبحر دونكَ زدْتني نعمًا

ومثلا عندما يقرأ المعتزلي قوله تعالى:«**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ**»(12) يجد أن مذهبه الذي يقول بوجوب الصلاح والأصلح على الله، لا يتفق وهذا الظاهر من معنى الجعل، ولكن سرعان ما يتخلص من هذه الضائقة العالم المعتزلي أبو علي الجبائي، فيفسر: «جعل» بمعنى «بيّن» لا بمعنى خلق، ويستدل على ذلك بقول الشاعر:

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا على ثبْت منْ أمْرهم حين يمّموا

فيكون المعنى على هذا: أن الله سبحانه بيّنَ لكل نبيّ عدوه حتى يأخذ حذره منه(13)

وهناك ظاهرة أخرى نلاحظها ونحن نقرأ تفاسير المعتزلة وهي أننا نجدهم أحيانا يتصرفون في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم.

وذلك مثل تأويلهم لقوله تعالى: «**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**»(14)

ومذهبهم لا يتفق مع ظاهر اللفظ القرآني، حيث جاء المصدر مؤكدا للفعل، رافعا لاحتمال المجاز، فيبادرون إلى تحويل هذا النص إلى ما يتفق ومذهبهم، وذلك بنصب لفظ الجلالة «وكلم اللّهَ موسى تكليما» وموسى الفاعل...وغير ذلك

وهكذا نجد شيوخ المعتزلة، يحاولون التوفيق بين مذهبهم والقرآن الكريم بكل ما يستطيعون من وسائل التوفيق: تارة بتطبيق مبدئهم اللغوي والمجازي، على كثير من آيات القرآن الكريم، حتى يتمشى النص القرآني مع قواعد مذهبهم، أو يتخلصوا من معارضته لهم على الأقل، وتارة بتحويل النص القرآني والتصرف فيه بما يجعله

---

(12) الفرقان 31

(13)التفسير الكبير للفخر الرازي جـ6 ص471

(14) النساء 164

في جانبهم لا في جانب خصومهم...

أبرز تفاسير المعتزلة في تلك الفترة

فسر القرآن الكريم عدد هائل من شيوخ المعتزلة مراعين في ذلك مبادئ الفكر الاعتزالي، ولكن هذه التفاسير كانت مثل غيرها من كتب التراث المختلفة، فلقد امتدت إلى الكثير منها عوادي الزمان، وضاعت، وحرمت المكتبة الإسلامية من معظم هذا التراث الذي لو بقي إلى اليوم لألقى ضوءا واضحا على مدى الفكر العتيد لشيوخ هذا المذهب الاعتزالي، ولكشف لنا عن حقيقة ما ينسب لبعض شيوخهم من تفسيرات واسعة النطاق نسمع بها من علمائنا المتقدمين، ونقف منها موقف الحائر بين الشك واليقين لما يذكر عنها من الاستفاضة والتضخم إلى حد يكاد يكون متخيلا أو مبالغا فيه (15)

ونحن نتصفح طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودي وغيرهما من الكتب التي لها عناية بهذا الشأن، نجد أن من أشهر من صنف في التفسير من المعتزلة هم :

1- أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم المتوفي سنة 240 هـ (أربعين ومائتين من الهجرة) أقدم شيوخ المعتزلة، والشيخ إبراهيم بن اسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي، فقد ذكر ابن النديم في الفهرست: أنه ألف تفسيرا للقرآن الكريم (16) ولكننا لا نعلم عن هذا التفسير خبرا بعد ذلك...

2- ومحمد بن عبد الوهاب بن سلام (أبو علي الجبائي) المتوفي سنة 303هـ. (ثلاث وثلاث مائة من الهجرة).. وأحد شيوخ المعتزلة الذين كانت لهم شهرة واسعة في الفلسفة وعلم الكلام، فقد ذكر السيوطي في طبقات المفسرين(17) أنه ألف في التفسير، وذكر ذلك ابن النديم في الفهرست أيضا(18)

---

(15) التفسير والمفسرون جـ1 ص365

(16) الفهرست لابن النديم ص51

(17) طبقات المفسرين للسيوطي ص50

(18) الفهرست ص50

ولكننا لا نعلم شيئا عن هذا التفسير أكثر مما ذكرناه...

3- وأبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي الحنفي، المعروف بالكعبي المعتزلي المتوفي سنة 319 هـ فقد ذكر صاحب كشف الظنون، أنه ألف تفسيرا كبيراً يقع في اثني عشر مجلدا، وقال: «إنه لم يسبق إليه»(19)

ولكن لم يقع لنا هذا التفسير كغيره..(20)

4- وأبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفي سنة 321 هـ

ذكر السيوطي في طبقات المفسرين (21): أنه ألف تفسيرا، وقال إنه رأى جزءا منه... ولكن لم نظفر به كاملا أيضا...

5- وأبو مسلم، محمد بن بحر الأصفهاني المتوفي سنة 322هـ صنف تفسيرا اسمه «جامع التأويل لمحكم التنزيل» يقع في أربعة عشر مجلدا، وقيل في عشرين مجلداً...

وقد أشار إلى هذا التفسير ابن النديم في الفهرست (22) والسيوطي في بغية الوعاة في طبقات النحاة (23)

وهذا التفسير -فيما يبدو- هو الذي يعتمد عليه الفخر الرازي، فيما ينقله في تفسيره من أقوال منسوبة لأبي مسلم، وقد أخذ بعض المؤلفين ما جاء في تفسير الفخر الرازي منسوبا لأبي مسلم الأصفهاني، وجمعه في كتاب مستقل سماه تفسير أبي مسلم الأصفهاني(24)

6- وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة 384 هـ، وهو أحد شيوخ المعتزلة، المتشيعين صنف تفسيرا للقرآن الكريم، قال السيوطي في طبقات المفسرين

---

(19) كشف الظنون لحاجي خليفة ج1 ص234

(20) التفسير والمفسرون ج1 ص366

(21) المرجع نفسه ج1 ص33

(22) المرجع نفسه ج1 ص50

(23) بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي ص 23

(24)التفسير والمفسرون ج1 ص 366

إنه رآه، وذكر صاحب كشف الظنون: إنه اختصره عبد الملك بن علي المؤذن الهروي (ت سنة489)

7- وعبد الله بن أحمد الأسدي أو القاسم النحوي العروضي المعتزلي المتوفي سنة 387هـ.

قال السيوطي في طبقات المفسرين: إنه صنف تفسيرا للقرآن الكريم وذكر في: (بسم الله الرحمن الرحيم) مائة وعشرين وجها ولكن لم يظفر منه إلا على أقوال مبثوثة.(25)

8- والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المتوفي سنة 415هـ - ألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن).

وهذا التفسير موجود بين أيدينا، ومتداول بين أهل العلم، ولكنه غير شامل لجميع آيات القرآن الكريم(26)

9- وهناك عدة تفاسير للمعتزلة منها:

- ما كتبه الشريف المرتضى، العالم العلوي الشيعي (ت 436 هـ) .

وتفسير عبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني شيخ المعتزلة (ت سنة483 هـ) وغير ذلك...

والذي نود تسجيله هنا هو عناية جميع هذه التفاسير الاعتزالية بالجانب البلاغي من الناحيتين النظرية والتطبيقية... فلقد كان بروز الدرس البلاغي فيها جميعا ظاهرة تلفت النظر.

وسوف نستبين ذلك من خلال بعض الشواهد القرآنية...

خصائص الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة:

ولعل من أهم التفاسير التي يبرز فيها الدرس البلاغي بعد عرض ما سبق من نماذج للنظام.... تفسيرين هامين.. نكتفي بعرض عدة شواهد منهما، وهما: تنزيه

---

(25) طبقات المفسرين للسيوطي ص19

(26) التفسير والمفسرون جـ1 ص367

القرآن عن المطاعن (للقاضي عبد الجبار) (27)

وأمالي الشريف المرتضى، أو غرر الفوائد ودرر القلائد (28)

وهذان التفسيران يعبران عن المنهج الذي سلكه المعتزلة في كل ما كتبوه عن القرآن، ولا يخرج عنها عامة تفاسيرهم...

ولكن قبل إعطاء النماذج والشواهد، نعطي تصورنا عن خصائص السمات البلاغية في تفاسيرهم:

والدرس البلاغي عند المعتزلة كما يفهم من تفاسيرهم خاضع لتسليمهم بما يأتي:

1- المجاز في اللغة العربية موجود وبالتالي فهو موجود في القرآن الكريم؛ لأن القرآن إنما نزل بلغة العرب، وعلى طرائقهم وأساليبهم في القول والتعبير، ولغة العرب فيها الحقيقة والمجاز، ولذلك جاء القرآن بهما جميعا:

---

(27) أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخيلي الهمذاني الأسد أبادي الشافعي، شيخ المعتزلة سمع من أبي الحسن بن سلمة بن القطان، وعبد الله بن جعفر بن فارس، وغيرهما. عاش دهراً طويلا، وفاق أقرانه ، وسار ذكره، وعظم صيته وأخذ عنه كثير من العلماء .
وقد خلف أبو الحسن عبد الجبار مصنفات في أنواع شتى من العلوم منها: كتاب الخلاف والوفاق، وكتاب المبسوط، وكتاب المحيط - وكلها في علم الكلام . وألف في أصول الفقه : النهاية والعمدة، وشرحه. وألف في المواعظ كتابا سماه : نصيحة المتفقهة، وقال ابن كثير في طبقاته : " إن من أجل مصنفاته: كتاب دلائل النبوة في مجلدين، وكتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل وكتاب متشابه القرآن" وتوفي في ذي القعدة سنة 415 .راجع طبقات المفسرين للسيوطي ص16 وشذرات الذهب ج 3 ص202 - 203 .

(28) الشريف المرتضى صاحب الأمالي أو غرر الفوائد ودرر القلائد.
هو أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن ابراهيم بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه .
وهو أخو الشريف الرضي، شيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق، وكان مع تشيعه معتزليا مبالغا في اعتزاله، وقد تبحر في العلوم والفنون، وكان إماما في الأدب والكلام والشعر والحديث، وله تصانيف كثيرة على مذهب الشيعة، وله ديوان شعر . وقد اختلف في نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام علي هل هو الذي جمعه أم أخوه الشريف الرضي . راجع ترجمته في وفيات الأعيان ج2 ص14 - 17 .

يقول القاضي عبد الجبار : " إن القرآن نزل بلغة العرب، وفيه المجاز والحقيقة كما قال تعالى: «وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً» وكما قال: «وَإِن مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا» إن ذلك ذكر للقرية، والمراد بها أهلها من المكلفين، لأن القرآن لا يصح ولا يحسن إلا فيهم"(29).

والمعتزلة ليسوا بدعا في هذا، بل يشاركهم فيه عامة علماء المسلمين، فلم ينكر المجاز في الواقع إلا قلة قليلة من الناس ...

والمجاز بعد ذلك حقيقة واقعة في اللغة ولا سبيل إلى إنكارها، وكلام العرب: قديمه وحديثه، حافل بألوان مختلفة منه .

وإذا كان القدماء لم يتحدثوا في هذه الألوان تحت أسماء ومصطلحات بلاغية، ولم يضعوا لها تعريفات أو حدوداً، فإنها كانت أسلوبا بلاغيا معروفًا في أساليبهم ولكن الحديث عنها تحت أسماء ومصطلحات يعود إلى العصور المتأخرة إلى بيئة المتكلمين والمعتزلة بصورة خاصة بسبب الظروف التي تحدثنا عنها، وإذن فليس هنالك تعارض بين المعتزلة وأهل السنة أو غيرهم في مسألة التسليم بوجود المجاز في اللغة العربية وفي القرآن الكريم .

وكما أنكر المعتزلة قول من نفى ورود المجاز في اللغة أو في القرآن فاتهمه الجاحظ بالجهل، وأنه لا يعرف من لغة العرب قليلا ولا كثيرا، كذلك نجد أهل السنة ينكرون هذا القول إنكاراً شديدا... فهاهو ابن قتيبة -وهو من أكبر أعداء المعتزلة- يرد على الطاعنين في العربية والقرآن الكريم بسبب المجاز، والقائلين بعدم جوازه في أسلوب الذكر الحكيم، وشبهتهم أنه أخو الكذب، فيتهمهم بالجهل والغباء وسوء النظر؛ ويوضح لهم أن المجاز ضرورة لغوية، لا يستغنى عنها التعبير يقول: «وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تسأل، إشارة إلى قوله تعالى: «...جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ». وقوله: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا».. وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على

(29) طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار ص152

سوء نظرهم، وقلة أفهامهم... ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا، كان أكثر كلامنا فاسداً، لأننا نقول: نبتت البقل، وطالت الشجرة وأينعت الثمرة، وأقام الجهل، ورخص السعر، ونقول: كان هذا الفعل وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن، وإنما كوّن ، ونقول كان الله، وكان بمعنى حدث، والله عز وجل قبل كل شيء بلاغاية، ولم يحدث فيكون بعد أن لم يكن، والله تعالى يقول: «فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ» وإنما يعزم عليه، ويقول تعالى: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» وإنما يربح فيها، ويقول: «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» وإنما كذب به (30)

ويقول السيوطي، وهو يرد على أبي إسحاق الاسفرايني الذي أنكر المجاز في لغة العرب: «وعمدتنا في ذلك النقل المتواتر عن العرب لأنهم يقولون: استوى فلان على متن الطريق، ولامتن لها، وفلان على جناح السفر، ولاجناح للسفر، وشابت لمّة الليل، وقامت الحرب على ساق وهذه كلها مجازات، ومنكر المجاز في اللغة جاحد للضرورة، ومبطل محاسن لغة العرب»(31)

والإمام ابن تيمية الذي أنكر المجاز في كتابه الإيمان، عاد إلى القول به في «الرسالة المدنية»(32) بل واعتبره ضرورة في بعض الأحيان(33) وهكذا يكون التسليم بوجود المجاز شيئا معترفا به عند الجميع.

بل إن أهل السنة قد استفادوا من تحديد المعتزلة لمصطلح المجاز وراحوا يطبقونه بدورهم على دراستهم للقرآن الكريم، وتلمس إعجازه، ووجه براعته وتفوقه...

ولكن الفرق بين المعتزلة وغيرهم كان في مدى الشوط الذي ينبغي السير فيه في تطبيق فكرة المجاز على القرآن... فبينما توقف أهل السنة في استعماله عند حد معين لا يكادون يجاوزونه...

---

(30) تأويل مشكل القرآن ص 132 ، 133

(31) المزهر للسيوطي جـ1 ص364

(32) الرسالة المدنية لابن تيمية ص14

(33) المصدر نفسه ص15 وما بعدها

مضي المعتزلة في تطبيق المجاز إلى أبعد حد :

وإذا كان الجميع يسلمون بأن في اللغة الحقيقة والمجاز؛ فإن توسع المعتزلة في المجاز جعلهم يذهبون إلى القول بأن معظم لغة العرب مجاز، وأقلها حقيقة يقول ابن جني وهو معتزلي: «اعلم أن أكثر لغة العرب مجاز لا حقيقة...»(34)

ويؤكد شيوع المجاز وكثرة انتشاره في اللغة مثلا استعمال التوكيد، وهو دليل على سعة المجاز في الكلام، لأنه إنما يؤتى به لتأكيد الحقيقة ورفع المجاز.... يقول ابن جني: «وإذا عرف التوكيد وسبب استعماله... عرف منه حال سعة المجاز في الكلام، ألا تراك تقول: قطع الأمير اللص، ويكون القطع له بأمره لا بيده فإذا قلت: قطع الأمير نفسه اللص، رفعت المجاز من جهة الفعل، وصرت إلى الحقيقة، ولكن يبقى عليك التجوز من مكان آخر، وهو قولك: اللص، وإنما لعله قطع يده أو رجله، فإذا احتطت قلت: قطع الأمير نفسه يد اللص أو رجله.... فوقوع التوكيد في هذه اللغة أقوى دليل على شياع المجاز فيها واشتماله عليها»(35)

وهكذا يمضي ابن جني المعتزلي، يوسع النظرة إلى المجاز توسيعا كبيراً، كما نشاهد ذلك في أساليب الإسناد والتوكيد والبدل، وغير ذلك من ألوان القول: يقول: «ومن المجاز كثيرا من باب الشجاعة في اللغة: من المحذوف والزيادات، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف..»(36)

ولعل ابن جني نفسه قد أحس أنه قد وسع النظرة إلى المجاز توسيعا عريضا، وأنه قد بالغ في ذلك مبالغة لاحد لها، فجميع كلام العرب جار على تلك السنن التي عدها مجازاً، ولذلك كان عنوان الباب الذي تحدث فيه عن المجاز هو [باب في أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة](37)

ودلل على ذلك بأن العرب قد وكدته، كما وكّدت الحقيقة كقول الفرزدق:

---

(34) الخصائص لابن جني ج2 ص448 - 450

(35) المصدر نفسه ج2 ص446

(36) المصدر نفسه

(37) المصدر نفسه ج2 ص453

عشيّة سال المربدان كلاهما سحابة موت بالسيّوف الصّوارم

وإنّما هو مربد واحد، فثنّاه مجازا لما يتصل به من مجاورة، ثم إنه وكده وإن كان مجازا... »(38)

ارتباط الدرس البلاغي بعقائدهم

ينبغي أن نلاحظ أن اتساع المعتزلة في تفاسيرهم في فهم الدرس البلاغي بوجه عام والجانب المجازي منه بوجه خاص، إنما كان الدافع إليه خدمة أغراضهم الاعتزالية، والدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم، وحتى يستقيم لهم توجيه الآيات والنصوص التي تخالف هذه العقائد(39)

فكانوا يحاولون في ضوء التوسع في استعمال فهم النص القرآني فهما يبعده عن تصورات المشبهة والجبرية، وأهل السنة أحيانا...

ونحن لا نكاد نحس بتطرفهم الشديد في استعمال ألوان الدرس البلاغي وخاصة المجاز إلا حينما تكون الآية التي يعالجون بحثها من تلك المتشابهات التي تتعلق بالاعتزال وأصوله، وأمّا ما عدا ذلك، فإننا لا نكاد نجد لهم خرقا للمألوف أو خروجا على المعتاد... ولا نجد عندئذ أحدا من أهل السنة أو غيرهم قد شدّد عليهم النكير فيما أتوابه من تأويل أو تفسير....

وعلى سبيل المثال نتوقف عند مسألتين، من هذه المسائل، ونرى الفرق بين معالجة المعتزلة، ومعالجة أهل السنة لها، ونصيب كل فريق منهما:

أولاهما: مسألة صفات الله، والثانية مسألة كلام الله...وكلتاهما -كما نعلم- ذات صلة بمبدأ التوحيد، فأما ما يتعلق بصفات الله، فإن كل ما جاء من الآيات والنصوص، على شاكلة قوله تعالى: «**يَاحَسْرَتَا عَلَى مَافَرَّطتُّ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**»(40)

---

(38) الخصائص ج2 ص453

(39) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس ، وليد قصاب ج1 ص347

(40) الزمر 56

وقوله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»(41)

وقوله تعالى: «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ»

وقوله تعالى: «مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا»

وقوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»(42)

وقوله تعالى: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي»(43)

وقوله تعالى: «وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»(44)

وهكذا كل ما جرى هذا المجرى: هو عند المعتزلة من باب المجاز في اللغة التي كما يقول ابن جني: «أكثرها جار على المجاز، وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة»(45)

وذلك لأن حمل المعنى فيها على الظاهر يؤدي في نظر المعتزلة إلى أن تكون هذه أعضاء لله: «وإذا كانت أعضاء كان هو لا محالة جسما معضّى على ما يشاهدونه من خلقه.. »

ومجازها أنهم يقولون هذا الأمر يصغر في جنب هذا، أي بالإضافة إليه وقرنه به...» وكذلك «يَاحَسْرَتَا عَلَى مَافَرَّطتُّ فِي جَنْبِ اللَّهِ» أي فيما بيني وبين الله إذا أضفت تفريطي إلى أمره ونهيه إياي...وكذلك قوله تعالى «فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» إنما هو الاتجاه إلى الله، وقوله: «مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا» إن شئت قلت: لما كان العرف أن يكون الإعمال باليد جرى هذا مجراه وإن شئت قلت: الأيدي هنا جمع اليد التي هي القوة، فكأنه قال: مما عملته قوانا، أي القوى أعطيناها الأشياء، لا أنّ له- سبحانه- جسما تحله القوة أو الضعف، وقوله «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» أي تكون مكنوفا برأفتي بك، وولايتي لك ، كما أن من يشاهده الناظر له، والكافل

---

(41) البقرة 115

(42) الرحمن 27

(43) طه 39

(44) الزمر 67

(45) الخصائص جـ3 ص247

به أدنى إلى صلاح أموره وانتظام أحواله، ممّن يبعد عمّن يدبّره ويلي أمره .

وقوله تعالى: «وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»

إن شئت جعلت اليمين هنا الجارحة، فيكون على ما ذهبنا إليه من المجاز والتشبيه أي جعلت السموات تحت قدرته حصول ما تحيط اليد به في يمين القابض عليه؛ وذكرت اليمين هنا دون الشمال لأنها أقوى اليدين، وهو من مواضع ذكر الاشتمال والقوة، وإن شئت جعلت اليمين هنا القوة، كقول الشاعر:

إذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لمجد تَلَقَّاها عُرابَةُ بِاليَمِينِ

أي بقوته وقدرته... ويجوز أنه أراد بيد عربة اليمنى...(46)

فمن الواضح أن المعتزلة يستخدمون في هذه النصوص، وأمثالها المجاز؛ لتأويلها وحدفها عن ظاهرها، وأما أهل السنة - على اختلاف فيما بينهم أيضا- فإنهم لا يتوسعون في استعمال المجاز في هذه النصوص توسع المعتزلة- ويرون أحيانا حملها على الحقيقة، فهذه صفات لله ورد على سبيل الإثبات والوجود لا على سبيل الكيفية...

يقول صاحب الطراز: " الذي عوّل عليه علماء البلاغة، والمحققون من أهل البيان هو أنها «اليد» جارية على نعت التخييل، فهي في الحقيقة دالة على ما وضعت له في الأصل، ولكنها معناها غير متحقق، وإنما هو أمر خيالي...

فاليد مثلا دالة على الجارحة، والعين كذلك، لكن تحقق اليد والعين في حق الله تعالى غير معقول، ولكنه جار على التخييل، كمن يظن شبحا من بعيد أنه رجل، فإذا هو حجر، ومن يتخيل سوادا أنه حيوان، فإذا هو شجرة، إلى غير ذلك من الخيالات...."(47) .

وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: «إن لله وجها لا كالصور المصورة والأعيان المخططة، بل وجه بقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ...»

«ومن غيّر معناه فقد ألحد عنه.. وذلك عند وجه في الحقيقة دون المجاز، ووجه

---

(46) الخصائص جـ3 ص245 - 256

(47) الطراز لابن حمزة العلوي ص 133

الله باق لا يبلى، وصفة لا تفنى،.. ومن ادعى أن وجهه نفسه فقد ألحد فيه.. ومن غير معناه فقد كفر، وليس معنى وجه معنى (جسد)»...

«وكان يقول إن لله يدين وهما صفة له في ذاته، ليستا بجارحتين وليستا بمركبتين، ولاجسم، ولا من جنس الأجسام، ولا من جنس المحدود والتركيب، ولا الأبعاض والجوارح، ولا يقاس على ذلك... وينكر أن تكون يده القوة والنعمة والتفضيل.. لأن جمع يد أيد، وجمع ذلك أياد، ولو كانت اليد عنده القوة والنعمة لسقطت فضيلة آدم وثبتت حجة إبليس»(48)

وأما المسألة الثانية: وهي مسألة كلام الله، فقد ذهب المعتزلة إلى أن الآيات التي تسند الكلام إلى الله، وتصف حواراً دار بينه وبين الكائنات، لا تؤدي معنى القول الحقيقي المادي، وإنما هي مجازات لها حقائقها المجردة...(49)

يقول ابن قتيبة عن المعتزلة: «وذهب قوم في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة؛ وإنما هو إيجاد للمعاني؛ وصرفه في كثير من القرآن إلى المجاز كقول القائل: قال الحائط فمال، وقل برأسك إليّ يريدون بذلك الميل خاصة، والقول فضل...وقالوا فقوله تعالى للسماء والأرض: «**ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**» لم يقل الله، ولم يقولا، وكيف يخاطب معدوما؟ وإنما هذا عبارة لكونهما فكانتا:

قال الشاعر حكاية عن ناقته :

تقول إذا درأتُ لَهَا وضِيني ... أهذَا دِينُه أبَداً ودِينِي

أكُلّ الدَّهْرِ حلّ وارتحَال ... أمَا يُبقي عليّ ولا يقِيني

وهي لم تقل شيئا من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذي ذكر...»(50)

---

(48) كتاب اعتقاد الإمام ابن حنبل ،إملاء الشيخ أبي الفضل التميمي من كتاب طبقات الحنابلة لأبي الحسن محمد بن يعلى جـ1 ص223 - 294

(49) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص350

(50) تأويل مشكل القرآن ص78 - 79.

وهكذا: يحمل المعتزلة مافيه إسنادُ كلام أو قول إلى الله على المجاز، ويرون أن له نظائر في الشعر القديم، وفي لغة العرب....

ويرد عليهم ابن قتيبة السني فيلاحظ أمرين:

أولهما أن القول يقع فيه المجاز حقا، فيقال: قال الحائط فمال، وقل برأسك إلي: أي أملهُ، وقالت الناقة، وقال البعير، ولكي لا يقال في مثل هذا المعنى تكلم، ولا يعقلَ الكلام إلا بالنطق بعينه، خلا موضع واحد، وهو أن تتسببن في شيء من الموات عبرة وموعظة، فتقول: خبِّر، وتكلم، وذكر لأن ذلك معنى فيه، فكأنه كلمك...

وقال الشاعر:

وعظتْكَ أحْدَاثٌ صُمُتْ ... وَنَعتْكَ ألسنَةٌ خُفُتْ

وَتَكَلَمَتْ عَنْ أوْجُهٍ ... تَبلي وَعَنْ صُوَرٍ سبَتْ

وَأرَتْكَ قَبْرَك في القبور ... وأنْتَ حيٌّ لم تَمُتْ

ومن هذا قول الله عز وجل: «**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**» أي أنزلنا عليهم برهانًا يستدلون به فهو يدلهم»(51)

فروق دقيقة بين ابن قتيبة والمعتزلة في موضوع المجاز

يسلم ابن قتيبة بوجود المجاز في القول فحسب دون الكلام؛ لأن الكلام مقرون بالنطق بينما يتوسع المعتزلة في استعمال المجاز، فيطبقونه على القول والكلام معا، ويحملون الكلام في ذلك على القول غير مفرقين...

يقول الجاحظ في قوله تعالى: «**وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**»(52):

«والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول، والكلام المؤلف من الحروف، وإنما يريد النعم والأعاجيب، والصفات، وما أشبه ذلك فإن كلا من هذه الفنون لو وقف عليه رجل دقيق صافي الذهن، صحيح الفكر، تام الأداة، لما برح أن تحرره

---

(51) تأويل مشكل القرآن ص80 - 82

(52) لقمان 27

المعاني، وتغمره الحكم.... »(53)

والأمر الآخر عند ابن قتيبة أن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر، ولا تؤكد بالتكرار، فتقول: أراد الحائط أن يسقط، ولا تقول، أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة، وقالت الشجرة فمالت، ولا تقول قالت الشجرة فمالت قولا شديداً، وبناء على ذلك يكون قول الله تعالى: «**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**» من باب الحقيقة؛ لأن الله أكد بالمصدر معنى الكلام، ونفى عنه المجاز.

وفي قوله تعالى: «**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**» فؤكد القول بالتكرار، ووكد المعنى بإنما... »(54)

ويتفق ابن جني في الرأي مع ابن قتيبة في أن الكلام في قوله تعالى: «**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**» حقيقة وليس مجازا، ولكنه يذهب في تأويله بما يتفق وأصول الاعتزال: يقول: «وأما قول الله عز وجل: «**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**» فليس من باب المجاز في الكلام بل هو حقيقة: قال أبو الحسن: خلق الله لموسى كلامًا في الشجرة، فكلم به موسى وإذا أحدثه كان به متكلما، فأما أن يحدثه في شجرة أو فم أو غيرهما فهو شيء آخر» وهكذا - عندما أقر ابن جني بأن الكلام حقيقة في الآية، وأفلت من يده سلاح المجاز لجأ إلى سلاح التأويل، فصرف الكلام إلى وجه يحقق أصل المذهب الاعتزالي...

ولكن ابن جني يخالف ابن قتيبة في أن يكون التوكيد نافيا للمجاز، وهو كما مرّ -قبل قليل- يرى أن التوكيد يقع في المجاز كما يقع في الحقيقة فهو لا يعد دليلا على خروج الكلام مخرج الحقيقة...

وقد استشهد على ذلك بقول الفرزدق:

عشيّة سال المربدان كلاهمـــا سحابة موت بالسيوف الصوارم

وإنما هو مربد واحد، فثنّاه مجازا لما يتصل به من مجاوره »(55) الخ

---

(53) الحيوان ج1 ص210

(54) تأويل مشكل القرآن ص 33

(55) الخصائص ج2 ص454

ثم إنه مع ذلك أكده وإن كان مجازا... وقال الآخر:

إذا البيْضَةُ الصَّمَّاءُ عضَّتْ صَحيفَةً بِحَرَبائها صَاحتْ صِيَاحًا وَصَلَّت(56)

فأكد: (صاحت) وهو مجاز بقوله: صياحا.

توسعهم في المجاز العقلي في تفاسيرهم

ونحن نلاحظ- كذلك- أن من أبرز خصائص الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة...أنهم توسعوا بصورة خاصة في استعمال المجاز العقلي أو المجاز الإسنادي: وهو الذي يتعلق بإسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي ويتصل -كما يقول عبد القاهر الجرجاني-: «بالحمل أو يقوم على التجوز في حكم ينسب إلى الكلمة لا إلى معناها ذاته»(57)

وأولوا به كثيرا من الآيات المتشابهات التي تشعر بالجبر والإرغام أو تنسب إلى الله تزيين السوء والفحشاء ، أو غير ذلك مما ينكره المعتزلة وقد دافع الجاحظ على هذا النوع من المجاز، وعاب على بعض علماء عصره -لقربهم بعهد الجاهلية الوثنية- كراهتهم له مع علمهم به؛ فكأن هؤلاء العلماء لخوفهم على القوم العود في شيء من أمر الجاهلية أنكروا على الناس أن يسندوا شيئا إلى غير الله كأن يقول القائل: طلع سهيل ، وبرد الليل، ومنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق وكره ابن عمر -رضي الله عنهما- قول القائل: أسلمت في كذا أو كذا، وقال: ليس الإسلام إلا لله عز وجل، وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل ، وقد كرهه ابن عمر- وهو أعلم بذلك- وكره مالك أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلفها للمطرا وهذا كلام مجازه قائم (58)

والمعتزلة وهم يتوسعون في هذا اللون من الدرس البلاغي في تفاسيرهم وخاصة في القرون الثلاثة الأولى- يستفيدون من تلك الملابسات التي يمكن أن توجد بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي الذي أسند إليه الفعل، فأولوا كثيرا من الآيات

---

(56)الخصائص جـ 2 ص 454

(57) أسرار البلاغة ص 376

(58) الحيوان جـ1 ص340 - 341

المتشابهات، إلا أن أخذهم به لم يكن دائما على نفس القدر بينهم جميعا... وإذا كان الشريف المرتضى قد غلب عليه في تأويلاته الاهتمام بالجانب اللغوي والتوسع في استعمال اللغة، فإنّ غيره من مفسري المعتزلة في القرون الثلاثة الأولى -حتى الزمخشري- قد عوّل في تفسيره على المجاز بالدرجة الأولى، وجعله السلاح الرئيسي في تفسيره، واعتمد عليه من أول تفسيره إلى آخره...

على أن المعتزلة جميعا مهما كان حظ أحدهم من المجاز، ومهما تفاوت القدر بينهم في استعماله، فإنهم يبقون جميعا علما متميزا في التعامل معه.

المجاز بين اللغة والعقل في تفاسير المعتزلة

من المسلمات البلاغية في علم البيان أن المجاز يتعلق باللغة، والعرف اللغوي الذي تفرضه طبيعتها على أهلها، ولذلك فإن معرفة أحكامه وقوانينه لا تكون إلا بالرجوع إلى أهل اللغة، والاستنارة بخبرتهم في التفرقة بين الحقيقة والمجاز: إمّا بتعريف ونص أو بقرينة: فمثلا إذا استعير الأسد للرجل في الشجاعة فيجب إقراره حيث ورد، ولايجوز تعديه، فلا يجوز أن يطلق الأسد على الرجل الآخر لوجود هذه المشابهة...(59)

ولهذا عيب قول الشاعر يعبر عن قوته وصحته :

بَلْ لَوْرأتنى أُخْتُ جيراننا إذ أنا في الدار كأني حمارْ (60)

إذ أنه بعيد عن الوضع، فالمعروف أنه يشبه بالحمار في البلادة لا بالقوة ولكن المعتزلة قوم يقدسون العقل، ويؤمنون أنه الحكم الأول الذي ينبغي الرجوع إليه في معرفة الأحكام، واستنباط الأدلة فما اتفق مع العقل أخذوه، وما تعارض معه نبذوه، وهو عندهم مقدم على الرواية والنقل .

ولكن مسائل اللغة، وما يتصل بها من دروس البلاغة والمجاز وغيرها لا تتعلق بالعقل، ولا تخضع لأحكامه وإنما تخضع لأحكام العرف اللغوي... نقل السيوطي عن القاضي عبد الوهاب قوله في كتاب الملخص(61) « اعلم أن الفرق بين الحقيقة

---

(59) الطراز جـ1 ص87 -90

(60) المصدر نفسه

(61) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص 356

والمجاز لا يعلم لا من جهة العقل ولا السمع، ولا يعلم إلا بالرجوع إلى أهل اللغة .

«والدليل على ذلك أن العقل متقدم على وضع اللغة، فإذا لم يكن فيه دليل على أنهم وضعوا الإسم لمسمى مخصوص، امتنع أن يعلم به أنهم نقلوه إلى غيره... فمن وجوه الفرق بين الحقيقة والمجاز أن يوقفنا أهل اللغة على أنه مجاز، ومستعمل في غير ما وضع له، كما أوقفونا على أسد وشجاع وحمار في القوي والبليد، وهذا من أقوى الطرق في ذلك»(62)

ولكن المعتزلة في تفاسيرهم يمضون في تطبيق مبادئهم في تقديس العقل، والاحتكام إليه في كل شيء، حتى في أمور اللغة، وما يتصل بها، متجاهلين أن اللغة لا تخضع لذلك ولا تعتد به، والمعتزلة هكذا في تأويلاتهم المجازية يلحون على الجانب العقلي، ويهتمون به اهتماما شديدا، وقد تعارض لغة النص الذي بين أيديهم تلك المبادئ، والأحكام العقلية التي آمنوا بها، وعندئذ فإن الحكم الفيصل في الموضوع هو العقل؛ ولابد من حمل الكلام على تأويلات مجازية تظاهر العقل، وتتفق مع أحكامه.

وقد طبق المعتزلة فكرتهم هذه نظريا وعمليا، فصرحوا دائما بأن الكلام إذا خالف ظاهره ما تطمئن إليه أدلة العقل وجب صرفه عن ظاهره إلى ما يوافق هذه الأدلة .

يقول الشريف المرتضى في أماليه «فإذا ورد عن الله تعالى كلام ظاهره يخالف مادلت عليه أدلة العقول وجب صرفه عن ظاهره -إن كان له ظاهر- وحمله على ما يوافق الأدلة العقلية ويطابقها، ولهذا رجعنا في ظواهر كثيرة من كتاب الله تعالى اقتضى ظاهرها الإجبار أو التشبيه إلى ما لا يجوز عليه تعالى»(63)

ومعنى ذلك أن تأويل الكلام أصبح خاضعًا للأدلة العقلية أكثر من خضوعه لأدلة اللغة، والعرف المستعمل فيها، والتأويل المجازي يصبح ضرورة لا بد منها، ولا مندوحة عنها حينما يتعارض مع هذه الأدلة سواء أأسعفت اللغة على ذلك أم لم تسعف، وساعد المجاز على هذا أم لم يساعد إن التعسف في التأويل عند ذلك

---

(62) المزهر جـ1 ص312

(63) أمالي المرتضى جـ2 ص300

مغتفر في سبيل العقل، وكذلك البعد فيه...(64)

يقول الشريف المرتضى عما ورد في القرآن من معاتبات الرسول صلى الله عليه وسلم مع عصمته، وطهارته، وكونه الحجة على الخلق أجمعين:

« إنه إذا ثبت بالدليل عصمة الأنبياء عليهم السلام، فكل ما ورد في القرآن الكريم مما له ظاهر ينافي العصمة، ويقتضي وقوع الخطأ منهم، فلابد من صرف الكلام عن ظاهره، وحمله على ما يليق بأدلة العقول، لأن الكلام يدخله الحقيقة والمجاز ويعدل المتكلم به عن ظاهره، وأدلة العقول لا يصح فيها ذلك ألا ترى أن القرآن قد ورد بما لا يجوز على الله تعالى من الحركة والانتقال كقوله تعالى: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» وقوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ» ولابد مع وضوح الأدلة على أن الله تعالى ليس بجسم، واستحالة الانتقال عليه، الذي لايجوز إلا على الأجسام، من تأويل هذه الظواهر، والعدول عما يقتضيه صريح ألفاظها قرب التأويل أو بعد، ولو جهلنا العلم بالتأويل جملة لم يضر ذلك. مع التمسك بالأدلة، وكان غاية ما فيه ألا نعلم قصد المتكلم، بما أطلقه من كلامه، ونعلم إذا كان حكيما أن له غرضًا صحيحا.. »(65)

فقوله تعالى في سورة يوسف: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» «يدل ظاهره على نسب المعصية إلى يوسف، وقد يشعر أن يوسف عزم على المعصية وأرادها، وأنه جلس مجلس الرجل من المرأة، ثم انصرف بأن رأى صورة أبيه يعقوب عاضًا على إصبعه متوعداً على مواقعة المعصية... »(66)

هذا ما تدل عليه لغة الآية، ولكن: «إذا ثبت بأدلة العقول التي لا يدخلها الاحتمال» والمجاز ووجوه التأويلات أن المعاصي لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام، فإن الواجب عندئذ «صرف كل ماورد ظاهره بخلاف ذلك من كتاب أو سنة

---

(64) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص357

(65) أمالي المرتضى جـ2 ص299

(66) المصدر نفسه

إلى ما يطابق الأدلة ويوافقها، كما نفعل مثل ذلك فيما يرد ظاهره مخالفا لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى، وما يجوز وما لا يجوز... »(67)

ومن ثم يأخذ الشريف المرتضى في تأويل هذه الآيات تأويلات مجازية خاضعة لهذه الأدلة التي يتحدث عنها:

يقول: «ورد لهذه الآية وجوه من التأويل كل واحد منها يقتضي نزاهة نبي الله من الذم على الفاحشة»(68)

ويأخذ الشريف المرتضي في إيراد هذه التأويلات وهي أربعة:

إحداها: أن الهم في ظاهر الآية متعلق بما لا يصح أن يعلق به العزم أو الإرادة على الحقيقة لأنه تعالى قال: «**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**» فعلق الهم بهما، وذلك لايجوز أن يراد أو يعزم عليهما، لأن الموجود الباقي لايصح فيه، فلا بد من تقدير محذوف يتعلق العزم به وقد يمكن أن يكون ما تعلق به همه إنما هو ضربها، أو دفعها عن نفسه كما يقول القائل: كنت هممت بفلان، وقد همّ فلان بفلان أي بأن يوقع به ضربا أو مكروها.

فإن قيل: فأيّ معنى لقوله تعالى: «**لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**» والدفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها؟ قلنا: يمكن أن يكون الوجه في ذلك أنه لما همّ بضربها أراه الله برهانا على أنه إن أقدم على ماهم به أهلكه أهلها وقتلوه، أو أنها تدعي عليه المراودة على القبيح، وتقذفه بأنه دعاها إليه، فأخبر الله تعالى بأنه صرف عنه السوء والفحشاء.

وإن قيل هذا الجواب يقتضي أن جواب «لولا» يتقدمها، ويكون التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بضربها ودفعها، وتقدم جواب لولا قبيح غير مستعمل، أو تقتضي أن تكون «لولا» بغير جواب، قلنا أما تقدم جواب لولا فجائز... غير أنا لا نحتاج إليه في هذا الجواب، لأن الهم بالضرب قد وقع، إلا أنه انصرف عنه بالبرهان، والتقدير: ولقد همت به وهم بدفعها، لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك،

---

(67) أمالي المرتضى جـ2 ص299

(68) المصدر نفسه

فالجواب في الحقيقة محذوف، والكلام يقتضيه، كما حذف الجواب في قوله...وقوله.... وإن قيل قوله «وهمّ بها» كقوله «همّتْ به» فلم جعلتم همها به متعلقا بالقبيح، وهمه بها متعلقا بما ذكر من الضرب وغيره؟ قلنا: أما الظاهر فلا يدل على ما تعلق به الهم والعزم فيهما جميعا، وإذا أثبتناهما به متعلقا بالقبح لشهادة الكتاب والأثار وهي ممكنة ممّن يجوز عليه فعل القبيح، ولم يؤمن دليل على امتناعه عليها كما أمن ذلك فيه عليه السلام.

الوجه الثاني: في تأويل الآية أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، ويكون تلخيصه:

ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، ويجرى ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت لولا أني تداركتك .

والوجه الثالث: ما اختاره أبو علي الجبائي، وهو أن يكون معنى «همّ بها» اشتهاها، ومال طبعه إلى ما دعته إليه، وقد يجوز أن تسمى الشهوة همًا في مجاز اللغة، كما يقول القائل فيما لايشتهيه: ليس هذا من همي وهذا أهم الأشياء إلي، ولاقبح في الشهوة لأنها من فعل الله تعالى فيه. وإنما يتعلق القبح بتناول المشتهي....

والوجه الرابع: أن عادة العرب أن يسموا الشيء باسم ما يقع عنده في الأكثر. وعلى هذا لاينكر أن يكون المراد به «همّ بها» خطر بباله أمرها ووسوس إليه الشيطان بالدعاء إليها من غير أن يكون هناك عزم أو همّ ، فَسمّى الخطور بالبال همًا....(69)

وبعد أن يورد المرتضى الوجوه الأربعة يعود مرة أخرى، ويعقب عليها مشيرا إلى أن ما حمله عليها هو موافقة أدلة العقول: فيقول: «وإنما أنكرنا ما ادعاه جهلة بعض المفسرين، ومخّرفوا القصاص، وقرفوا به نبي الله صلى الله عليه وسلم من حيث كان منفرا عنهم، وقادحًا في الغرض المجرى إليه بإرسالهم»(70)

---

(69) أمالي المرتضى جـ1 ص477 - 481

(70) المصدر نفسه

ولعله من الواضح تمامًا خضوع المجاز في هذه التأويلات الأربعة جميعها للعقل، حمل الكلام مرة على الحذف، وقدر محذوفين مختلفين للفعل الواحد «همّ، همّت» ثم فسّر لفظة «البرهان» في الآية بما يتفق مع ذلك وأوقعه هذا بما يشعر بتقدم جواب «لولا» فجوزه، واحتج له، ولكنه فضل عليه الحذف، واستشهد له، وفي الوجه الثاني حمل الكلام على التقديم والتأخير، وفي الوجه الثالث: فسر الهمّ بالشهوة وميل الطبع. وفي الوجه الرابع: فسر الهمّ بالخطور في البال تسمية للشيء باسم ما يقع عنده في الأكثر...

رؤية القاضي عبد الجبار فيما ذهب إليه المرتضى :

من الملاحظ أن المرتضى في كثير من تأويلاته يتعسف تعسفا واضحا مراعاة لأدلة العقول التي تحدث عنها...

وإذا كان الخلاف قد وقع -كما رأينا- في الآيات المتشابهات مما استدعي التأويل، وحتم استعمال المجاز، وغيره من طرائق القول لصرف الكلام وإخراجه عن ظاهره، فإن الحكم الأول في مثل هذه الأمور ينبغي أن يكون للغة وتقاليدها، والعرف المجازي الشائع في مثل هذه القضايا.

وأما القاضي عبد الجبار فإن الحكم الفيصل فيها عنده العقل وأدلته، يقول في كتابه متشابه القرآن: «وكل ذلك يوجب أن يرجع في دلالة القرآن إلى أن يعرف تعالى بدليل العقل، وأنه حكيم لا يختار فعل القبيح ليصح الاستدلال بالقرآن على ما يدل عليه»(71)

ويقول في موضع آخر مشيراً إلى أن المتشابه لا تكفي فيه اللغة أو لمضارعة القرينة لا يحتمل إلا الوجه الواحد، فمتى سمعه من عرف طريقة الخطاب، وعلم القرآن أمكنه أن يستدل في الحال على ما يدل عليه، وليس كذلك المتشابه لأنه، وإن كان من العلماء باللغة، ويحمل القرآن، فإنه يحتاج عند سماعه إلى فكر مبتدأ، ونظر محدد؛ ليحمله على الوجه الذي يطابق المحكم ودليل العقل»(72)

---

(71) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار جـ2 ص6

(72) المصدر نفسه

ويقول كذلك: «فأما إذا كان المحكم والمتشابه واردِيْن في التوحيد والعدل، فلابد من بنائهما على أدلة العقول... »(73)

ويجوز القاضي عبد الجبار الاعتماد المبالغ فيه على العقل، وجعله الحكم الأول الذي ينبغي العودة إليه في مسألة المحكم والمتشابه بأنه حكم لا يخطئ وقاسم مشترك بين الجميع، ولذلك فإنه يمكن أن يقضي على الخلافات التي قد تثور حول هذا الموضوع .

يقول: «وبسبب اختلاف الناس في المحكم والمتشابه، وأن ما هو محكم عند المشبه هو من المتشابه عند الموحدة، وما يعده الموحدة محكما، عند المشبهة بخلافه، كان لابد بأن يرجع إلى محكم آخر، أو بأن يرجع إلى أدلة العقول»(74)

وقد أدت هذه الحرية الواسعة التي أعطاها المعتزلة للرأي والتفكير غير مقيدين أحيانا بالنص اللغوي، أو العرف المجازي الشائع إلى كثير من الاختلافات بين رجالهم في وجوه التأويلات المجازية (75)

وهكذا خضع مبحث المجاز وألوانه البلاغية في تأويل المعتزلة وتفاسيرهم لسلطان العقل خضوعا مطلقا في بعض الأحيان، حتى كاد يتحول إلى شكل من أشكال القياس، وطريقة من طرائق الإثبات وقد يحمل أكثر مما يضيق، أو تستبعد منه كثير من الجوانب الثرة الغنية التي يمكن أن تشيع في الكلام رونقا وحياة بسبب احترام الجانب العقلي والإلحاح عليه في التأويل .

الحقيقة والمجاز في التفسير بين ابن جني والمعتزلة

يرى ابن جنى في الفرق بين الحقيقة والمجاز:

« ماأقّر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة والمجاز، وماكان بضد ذلك... »(76)

---

(73) متشابه القرآن جـ2 ص7

(74) المصدر نفسه جـ2 ص8

(75) التراث النقدي والبلاغي ص361 - أيضا- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص15

(76) الخصائص جـ2 ص442

فالحيقيقة إذن ما استعمل في المعنى الذي وضع له في الأصل عند بدء اللغة ، والمجاز ما استعمل في غير وضع له .

ومن الواضح أن هذا التعريف لا يفرق بين أنواع المجاز المختلفة لأن الاستعارة تدخل في نطاقه.

ونحن نواجه مثل هذا التعريف عند الرماني، وهو يحدثنا عن الاستعارة ويحدّها: «تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة... »(77)

وهذا يدل على أن التفريق بين الاستعارة والمجاز المرسل لم يكن معروفا -بدقة- في ذلك الوقت .

ولكن ابن حمزة العلوي صاحب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (78) لا يرضيه تعريف ابن جني للحقيقة، ويقول عنه :

«هذا فاسد فإنه يلزم فيه خروج الحقائق الشرعية والعرفية عن حد الحقيقة لأنها لم تقرّ في الاستعمال على أصل وضعها اللغوي مع أنها حقائق... »

وبناء على ذلك فإن تعريف المجاز الذي التزم به ابن جني في تأويله لآيات القرآن على هذه الصورة بأنه مالم يفرق الاستعمالات على أصل وضعه في اللغة هو أيضا في رأي ابن حمزة العلوي، فاسد..لأنه -أولا- يبطل بالأعلام المنقولة من: أسد، وثور. فإن هذه الأعلام لم تبق على استعمالاتها في اللغة ، بل نقلت إلى هذه الأشخاص، والمعلوم أنها لم تكن مجازات...وثانيا، فلأن ما هذا حاله يبطل أيضا بالحقائق العرفية والشرعية، فإنها قد استعملت في غير ما وضعت له في أصل اللغة، ولم تقر على تلك الاستعمالات اللغوية، ولا يقال إنها مجازات...(79)

ويرى أن الأفضل أن يكون التعبير عن المجاز بأنه:

«ما أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب لعلاقة بين

---

(77) النكت في إعجاز القرآن للرماني ص 442

(78) الطراز جـ1 ص67

(79) المصدر نفسه جـ1 ص67

الأول والثاني... »(80)

والمعتزلة في حديثهم عن المجاز يفترضون دائما وجود أصل حقيقي لكل صورة مجازية، وهو أصل ثابت يأتي المجاز ليحدث فيه خصوصية معينة، وليعرضه عرضا آخر فيه ميزة وفضل.

يقول الرماني: «وكل استعارة فلابد فيها من أشياء : مستعار، ومستعار له ومستعار منه.... وكل استعارة : فلابد لها من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة ، كقول امرئ القيس: قيد الأوابد، والحقيقة فيه: جامع الأوابد وقيد الأوابد أبلغ وأحسن... فكل استعارة لا بد لها من حقيقة، ولا بد من بيان لا يفهم بالحقيقة.. »(81).

فكأن مهمة المجاز هي زخرفة المعنى وتزيينه، ومن ثم يصبح متصلا باللفظ وجانبا من جوانب الصياغة الشكلية، فهو قرين الحلية والزخرف، ومن ناحية أخرى، فإن افتراض أن لكل صورة مجازية أصلا حقيقيا، ترتب عليه أنه لا بد من أن تكون الصلة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي صلة واضحة وقوية...إن هذه الصلة هي القرينة الشرعية التي تبيح نقل المعنى عن وضعه الأصلي إلى وضع جديد. وهي كما يقول ابن جني: «قرينة تسقط الشبهة »(82)

وإذا لم تكن القرينة واضحة جلية، فإن هذه النقلة تصبح ضربا من الهذيان الذي لامسوغ له، وكلما وضحت هذه القرينة كان المجاز أجود(83)

فنظرة المعتزلة إلى المجاز نظرة صارمة لا تقبل التداخل، وانعدام الفواصل والحدود؛ والحق بعد ذلك أن تصور المعتزلة للمجاز على هذا النحو تصور تقليدي موروث، وهم ليسوا بدعا في هذا، وعلماء البلاغة والنقاد القدامى جميعا يؤمنون بأن لكل معنى مجازي معنى حقيقا لا بد منه ولا غنى عنه.

وهناك حدود صارمة بين المعنيين، وقرينة تربط بينهما تتضح أو تغمض، وبها

---

(80) الطراز جـ1 ص64

(81) النكت للرماني ص87

(82) الخصائص جـ2 ص442

(83) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص363

يقاس حسن المجاز أو رداءته (84) .

يقول صاحب الطراز: «من شرط المجاز أن يكون مسبوقا بالحقيقة، وليس من شرط الحقيقة أن يكون لها مجاز. وأما الأول فبيانه أن المفهوم من حقيقة المجاز هو ماكان مستعملا في أمر يخالف موضوعه الأصلي، فهو يوجب أن يكون قد وضع في الأصل لمعنى آخر...

وأما الثاني فبيانه هو أن مفهوم الحقيقة هو اللفظ الذي استعمل في نفس موضوعه الأصلي (85) وإذا كانت الصلة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي التي تبيح النقلة من الأول إلى الثاني؛ فإن هذه النقلة تحقق للمعنى الأصلي ثلاث مزايا، أو توفر له ثلاث فوائد، هي -كما يقول ابن جني-: «الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة»(86)

ومعنى ذلك أنه لا يعدل عن أصل الوضع إلى معنى جديد، إلا إذا تحققت إحدى هذه الصفات الثلاث... ويمضي ابن جني يضرب على ذلك الأمثلة والشواهد....

من ذلك:

1- قوله تعالى: «وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا»(87)

فهذا مجاز، وفيه الأوصاف الثلاثة، أما السعة: فلأنه كأنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة - وأما التشبيه: فلأنه شبه الرحمة- وإن لم يصح دخولها- بما يجوز دخوله، فلذلك وضعها موضعه -وأما التوكيد: فلأنه أخبرعن العرض بما يخبر به عن الجوهر، وهذا تعال بالعرض وتفخيم منه؛ إذ صير إلى حيز مايشاهد ويلمس ويعاين، ألا ترى إلى قول بعضهم في الترغيب الجميل: ولو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه حسنا جميلا، وإنما يرغّب فيه بأن ينبه عليه، ويعظّم من قدره بأن يصوره في النفوس على أشرف أحواله، وأنوه صفاته، وذلك بأن يتخيل شخصا متجسمًا عرضا متوهمًا، وعليه قوله:

---

(84) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص363

(85) الطراز جـ3 ص99

(86) الخصائص جـ2 ص442

(87) الأنبياء 75

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَتْمَةَ في فُؤَادي فَباديه مَعَ الخافي يَسيرُ

أي فباديه إلى الخافي يسير: أي فباديه مضمُومًا إلى خافيه يسير..

وذلك أنه لما وصف الحب التغلغل فقد اتسع به.. ألا ترى أنه يجوز عدا هذا أن نقول:

شَكَوْتُ إليْها حبّها المتَغَلْغِلاَ فَما زَادَهَا شَكْوَايَ إلاَّ تَدَلُّلاَ

فيصف بالتغلغل: ماليس في أصل اللغة أن يوصف بالتغلغل وإنما ذلك وصف يخص الجواهر لا الأحداث...

وأما التشبيه: فلأنه شبه ما لا ينتقل ولا يزول بما ينتقل ويزول،

وأما المبالغة والتوكيد: فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية إلى أنه يكسب اللغة اتساعًا ويغنيها بمدلولات أكثر وأغزر، فقال: إنّه به وبأشباهه اتسعت لغة العرب..(88)

2- وقد ذكر أن المجاز في قوله تعالى: «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ**»(89)

قد أفاد اتساعًا في اللغة، ودلّ على المبالغة: قال: «فإن قلت رأس الإصبع هو الذي يجعل في الأذن، فهلا قيل: أنا ملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لايكاد الحاصر يحصرها ، كقوله تعالى: « **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ**»(90) «**فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**»(91)

أي البعض الذي هو إلى المرفق، والذي إلى الرسغ، وأيضا ففي ذكر الأصابع من المبالغة ماليس في ذكر الأنامل»(92)

وإذا كان المجاز يفيد هذه المعاني جميعها، ومعاني أخرى يمكن أن تفهم من الكلام، فإنه لذلك أبلغ من الحقيقة، وأكثر مزية وفضلا...

---

(88) الخصائص جـ2 ص442 - 444

(89) البقرة 19

(90) المائدة 6

(91) المائدة 38

(92) الخصائص جـ2 ص 443

فالشريف المرتضى يرى أن الكلام لا تظهر فصاحته، ولا تقوى بلاغته إذا خلا من وجه بلاغي...

«وكل كلام خلا من مجاز وحذف واختصار، واقتصار بعد عن الفصاحة وخرج عن قانون البلاغة...»(93)

ومعلوم أن الجاحظ يرى في المجاز مفخرة من مفاخر اللغة العربية، وهو فضل زائد في لغتهم يمكن أن يفاخروا به، ويتباهوا...

ويتفق الشريف المرتضى في هذا مع الجاحظ، فيرى أن كلام العرب إنما كان في المرتبة العليا من سلّم الفصاحة والبلاغة لما يكثر فيه من استعمال ألوان المجاز يقول:

«وكلام العرب وحي وإشارات واستعارات ومجازات، ولهذه الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة، فإن الكلام متى خلا من الاستعارة وجرى كله على الحقيقة كان بعيدا من الفصاحة بريا من البلاغة...»(94)

وعلى الرغم من أن القاضي عبد الجبار، قد ربط فصاحة الكلام بالنظم، وارتباط أجزائه خلال النسق والتأليف على طريقة مخصوصة بحيث يحتل كل لفظ مكانه المناسب في التركيب الملائم لما قبله وما بعده، سواء أكان هذا اللفظ حقيقة أم مجازا،فإنه أشار إلى أن في المجاز فضل مزية أو حسنا زائداً يضاف إلى المجاز أدخل في الفصاحة؛ لأنه كالاستدلال في اللغة والغالب أنّه يزيد..»(95)

ويغلب على تصور المعتزلة للمجاز النظرة الحسية...ولعل أكثر من ألح على هذا الجانب من المعتزلة «الرماني» فقد لاحظ عند حديثه عن التشبيه والاستعارة في القرآن الكريم، أن النقلة فيهما تكون لإخراج المشبه المعنوي إلى صورة المدرك المحسوس الذي يجعله قريبا من التصور. وحينما راح يتحدث عن وظائف التشبيه، وبين فوائده ومزاياه، ذكر أنه يخرج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة أو أنه يخرج مالمْ تجر به العادة إلى ماجرت به العادة، أو يخرج مالا يعلم بالبديهة

(93) أمالي المرتضى جـ2 ص300

(94) المصدر نفسه جـ1 ص4

(95) المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار جـ16 ص201

إلى ما يعلم بالبديهة أو يخرج ما لا قوة له في الصّفة إلى ما له قوة في الصفة. وفي كل هذا كما يلاحظ إلحاح على هذه النظرة الحسية...

وحينما مضى يحلل كثيراً من الأمثلة من أمثلة الاستعارة التي وردت في القرآن الكريم، أرجع الجمال فيها إلى استخدامه للحواس المختلفة من صوت ولمس وذوق، وغير ذلك في التعبير، وإخراجه إلى الوجود، وبتأثر ابن جني كذلك بنظرة الرّماني هذه فيرى في المجاز تجسيداً للمعنى، وتقديمًا له في صورة حسية، وذلك بهدف تأكيد المعنى وتثبيته في النفوس، ففي قوله تعالى: «**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا**» الذي سبقت الإشارة إليه مجاز قام على هذه الخاصة؛ فشبه الرحمة -وهي أمر معنوي- بشيء محسوس ملموس، وصحيح أن ابن جني قد استعمل مصطلحات مخالفة لمصطلحات الرّماني، فاستعمل الجوهر والعرض أحيانا إلاّ أنه يلتقي في نهاية المطاف مع الرّماني في الفكرة الأساسية،.... ويأخذ أبو هلال العسكري الذي تأثر تأثراً واضحا بالرّماني، بخيط الفكرة، ويتوقف عند ذلك ملحًا على فكرة التقديم الحسي في المجاز... فهو مثلا عندما يتّعرض للاستعارة في قوله تعالى: «**فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**»(96) يلاحظ التقديم البصري للمعنى، ويرى ذلك من بلاغة المجاز وامتيازه وفضله، فيقول: «حقيقتة: أبطلناه حتى لم يحصل منه شيء، والاستعارة أبلغ لأنها إخراج ما لا يرى إلى ما يرى»(97)

وكذلك الاستعارة في قوله تعالى: «**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**» هي أبلغ من الحقيقة لأنها أخرجت المعنى الحقيقي، وهو الخطأ، من المعنوي غير المشاهد إلى المعنى المجازي، وهو الاعوجاج، وهو حسّي مشاهد، والخطأ غير مشاهد(98)

قدسية اللغة ومثالية الموروث من كلام العرب :

وعلى الرغم من أن المعتزلة كانوا يحتجون -كما سبق- بالعقل أولا في إقرار المعنى أو رفضه، ويرون في مخالفة هذا المعنى للأدلة العقلية ضرورة تحتم أن يصرف عن وجهه، وتلتمس له التأويلات المجازية المختلفة، فإن هذا لا يعني أنهم

---

(96) الفرقان 23

(97) الصناعتين ص271

(98) المصدر نفسه ص274

كانوا يوردون هذه التأويلات دون سند لغوي أو دعم من النصوص، والأمثلة، بل كانوا يحرصون دائما على الرجوع إلى لغة العرب والقرآن الكريم والشعر القديم للاستشهاد بكل ذلك فيما يسوقون من وجوه التأويل، وكانوا يشعرون باستمرار أن تأويلاتهم المجازية لا يمكن أن تقنع، أو تكتسب صفة الشرعية مالم تسند إلى أساس لغوي مكين . (99)

ومن هنا كانت دائما هذه المحاولات الشاقة الجبارة من المعتزلة للتوفيق بين العقل واللغة، بين المبادئ التي آمنوا بها واعتنقوها، وبين طبيعة المجاز وأصول العرف اللغوي المستعمل فيه، وصحيح أن صوت العقل كان هو الأقوى وهو الأهم في نظرهم ولكنهم لابد أن يجدوا السند اللغوي من العربية، وكلام اللغويين مهما كان فيه من عسف وجور.

وقد لوحظ من خلال دراستنا لبعض الشواهد من تفسيراتهم ما يؤكد أن حرص المعتزلة الدائم على هذا السند اللغوي من العربية لأقوالهم وتأويلاتهم، فقلما كانوا يوردون قولا يخلو من شاهد منقول مهما كان شأن هذا الشاهد.(100)

وبذلك لم يخالف المعتزلة سنة القوم المعروفة في هذه المسائل فهم كأهل السنة، وكجميع علماء العربية على اختلاف منازعهم ومشاربهم يحرصون على الشاهد والمثل في كل ما يقومون، وعلى الاحتكام إلى كلام العرب وطرائقهم في التعبير، مما هو سنة لا يكاد يحيد عنها أحد، وبذلك ساهم المعتزلة مع غيرهم في تدعيم فكرة قداسة اللغة، واحترام عاداتها، وتقاليدها، ومراعاة السنن الواردة في استعمالها، واعتبار المتوارث المنقول عن أهلها أمراً لا يجوز التفريط فيه أو التساهل في شأنه....

وبذلك ظلت النظرة التقليدية شائعة في استعمال المجاز، وظل الشاعر مطالبا بالحفاظ على الأشكال التقليدية الموروثة في كل كلامه..

وهذا هو الجاحظ يتحدث عن بعض التشبيهات الشائعة في كلام العرب... ثم يتطرق إلى الحديث عن المجاز في بعض الكلام فيقول: «لايعيبه إلا من لا يعرف

---

(99) التراث النقدي والبلاغي ص370

(100) المرجع نفسه

مجاز الكلام، وليس هذا مما يطّردُ لنا أن نقيسه، وإنما نقدم على ما أقدموا، ونحجم عما أحجموا، وننتهي إلى حيث انتهوا»(101)

والجاحظ بذلك يدعو الشاعر المحدث أن يلتزم بهذا المألوف المتوارث، وألا يحاول الخروج عليه، أو التجديد فيه، ومعنى ذلك أنه إذا كان العرب يسمون الرجل حملا، ولا يسمونه بعيرا، ولا يسمون المرأة بقرة، ويسمون الرجل ثورا... ويسمون الرجل حمارا، ولا يسمون المرأة أتانا، ويسمون المرأة نعجة، ولا يسمونها شاة (102). فينبغي الحفاظ على ذلك، وعدم الخروج عليه... وبذلك لم يتخل المعتزلة عن فكرة القدسية للغة القديمة، ومثالية الموروث من كلام العرب، وأساليبهم... وظل المجاز تبعا لذلك خاضعًا للنظرة التقليدية التي كان يتحدث عنها بصراحةٍ اللغويون والنحويون...

وخلاصة القول أن رؤية المعتزلة للدرس البلاغي في القرآن الكريم وفي سائر الأساليب العربية قد تحددت تحديداً، واضحا دقيقا بالمعنى الاصطلاحي المقابل للحقيقة... ومضوا يطبقونه بهذا المفهوم على نطاق واسع كبير في أبحاثهم ودراساتهم القرآنية، ولاسيما تلك الآيات المتشابهات التي تصادم مبادئ الاعتزال، وقد استنبطوا كثيرا من خصائص ومميزات الدرس البلاغي، وأقاموا حوله دراسات واسعة مركزة وقد كان من نتيجة الجدل الطويل الذي دار بين المعتزلة، وغيرهم من أصحاب الفرق والطوائف الأخرى حول المجاز وسائر ألوان الدرس البلاغي ودفاع المعتزلة عن ذلك دفاعًا مدعوما بالحجج والبراهين المقنعة مستنداً إلى المتناقل الموروث من كلام العرب، أن أدرك الجميع أن المجاز ضرورة لا بد منها، وهو من مستلزمات التعبير، وخصيصة مهمة من خصائص العربية، وكان من أثر ذلك أن أقبل العلماء على دراسة كثير من أشكال التعبير والصور البلاغية والدروس البيانية في القرآن الكريم، واستفادوا كثيراً من تحديدات المعتزلة لمصطلحاتها، وإيضاحهم لكثير من خصائصها ومميزاتها . (103)

---

(101) الحيوان جـ1 ص212

(102) المصدر نفسه

(103) التراث النقدي والبلاغي ص371

لمحة عن تفسير الطبري :(1)

يدل اسم الكتاب على موضوعه فهو: «جامع البيان في تفسيرالقرآن» ، كذلك نجد اسمه في النسخ المطبوعة... على حين أن الطبري سماه في كتاب التاريخ: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» وكذلك ذكر ياقوت(2)

وقد ألف ابن جرير تفسيره قبل كتاب التاريخ(3)

وابن جرير نفسه يذكر في كتاب التاريخ ما يثبت تلك التسمية التي ذكرها ياقوت في معجمه، إذ يقول: «وقيلت أقوال في ذلك، قد حكينا منها جملا في كتابنا المسمى «جامع البيان عن تأويل أي القرآن» فكرهنا إطالة الكتاب بذكر ذلك في هذا الموضوع»(4)

وكان تأليفه للتفسير في أواخر القرن الثالث الهجري.

قال أبو بكر بن كامل إنه قرأه على تلاميذه سنة 270 (5) وقال أبو بكر بن بالويه إنه أملاه عليهم من سنة 283هـ إلى سنة 290هـ (6)

ويظهر أنه أملاه على طبقتين من الطلاب

وقد طبع التفسير عدة طبعات، وكان للعالمين الجليلين والأخوين الفاضلين الشيخ محمود شاكر والشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- فجاء في حسن عرضه ودقة طبعه، وترتيب مفاصله، وتحقيق معانيه، وتخريج أحاديثه، واستيعاب فهارسه آية وروعة

---

(1) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري العالم المحقق الثبت السلفي الورع المولود بطبرستان سنة 229هـ والمتوفى ببغداد سنة 310هـ صاحب التاريخ المشهور «تاريخ الطبري» والتفسير المأثور «جامع البيان في تفسير القرآن» وله ترجمة وافية في «وفيات الأعيان ج2 ص322 ولسان الميزان ج1 ص100 - 103 ومعجم الأدباء ج 18 ص40-94 وطبقات الشافعية ج2 ص135 .

(2) معجم الأدباء جـ18 ص44

(3) كتاب التاريخ للطبري جـ1 ص45

(4) المصدر نفسه

(5) معجم الأدباء ج18 ص62

(6) تاريخ بغداد ج 2 ص164

الباب الثاني

الإمام الطبري وتفسيره

الفصل الأول

جامع البيان للإمام الطبري

الفصل الثاني

الدرس البلاغي في تفسير الطبري

الفصل الثالث

علم المعاني والبديع في تفسير الطبري

الفصل الرابع

على درب الطبري (السمرقندي)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لجميع الدارسين..

مادة التفسير

ونستطيع أن نوجز مادته في ثلاثة موضوعات:

أولها قضايا كثيرة عرض لها في المقدمة:

1- منها شرح الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف» والانتهاء من مناقشة الآراء المختلفة فيه إلى أن معناه أنزل القرآن بسبع لهجات من لغة العرب، لأن الذين اختلفوا في بعض القراءة، واحتكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فصوّبهم كلهم في قراءاتهم على اختلافها.

وقال لهم: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها»

إنما كان اختلافهم في التلاوة نفسها دون المعاني التي دلت عليها التلاوة من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك (7).

2- ومنها بيان اللغة التي نزل بها القران الكريم، والرد على من قالوا إن فيه كلمات غير عربية (8).

وأورد الطبري عدة آيات مما قيل فيها ورود كلمات غير عربية مثل كلمة: «كفلين» و«ناشئة» و «أوّبي» و«قَسْوَرة» و «سجِّيل» الخ ونقل في تفسيرها: أن «الكفلين» ضعفان من الأجر بلغة الحبشة، وأن الناشئة في لغتهم القيام، و «أوّبي» بمعنى سبحي، وذكر أن «القسورة» الأسد بالفارسية.

---

(7) جامع البيان جـ1 ص9-23

(8) من الذين نفوا الألفاظ الأعجمية في القرآن : الشافعي وأبو عبيدة والباقلاني وابن فارس، مستدلين بقوله تعالى: " **إنا أنزلناه قرآنا عربيا** " ، وبقوله تعالى: " **ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لو لا فصلت آياته أأعجمي وعربي**"، وفي رأيهم أن الكلمات التي يظن أنها غير عربية: إما أنها عربية خالصة لكن عروبتها خفيت على علماء اللغة، وإما أنها كانت من الزمن القديم غير عربية ثم نقلها العرب في الجاهلية، واستعملوها في شعرهم ومحاوراتهم فجرت مجرى الفصيح ثم نزل القرآن فاستعمل بعضها .

الفصل الأول

جامع البيان للإمام الطبري

- لمحة عن تفسير الطبري
- مادة التفسير
- منهج الإمام الطبري في تفسيره
- الإعتماد على المأثور الذي ثبتت صحته
- التنحي عن التفسير بالرأي وماذا يعني بالرأي
- دقته في الإسناد
- الاعتماد على علوم اللغة العربية
- الحديث النبوي الشريف
- الاستشهاد والاستعانة بالشعر
- تسجيل القراءات
- العناية بالإعراب
- مناقشته الآراء الفقهية
- تصويب رأي السلف
- الإدلاء برأيه
- التقليل من الأساطير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأن السجيل فارسية أيضا.

ثم عقب على هذا ببحث مطول: خلاصته أنّ الكلمات التي جاءت في القرآن، وخيل إلى بعض العلماء أنها ليست من العربية، إنما هي ممّا اتفقت في العربية وغيرها باللفظ والمعنى، فليس لنا أن نقول: إنها فارسية لا عربية، أو أنها حبشية لا عربية، أو أنها روسية لا عربية، لأن أي لسان ليس أولى بنسبتها إليه من اللسان العربي...

ومن هنا: يصح أن يطلق على أمثال هذه الكلمات، أنها: عربية فارسية، أو حبشية عربية، إذ كانت الأمتان مشتركتين في استعمالها بلفظها ومعناها.

وبحث الإمام الطبري في هذه القضية رائع، وإن كانت لنا بعض التحفظات على جزئيات من رأيه..(9)

---

(9) لأن التاريخ الأدبي للغة العربية يثبت أن العرب كانوا قبل الإسلام على صلات بالهنود والفرس والحبشة والروم والنبط والسريان واليهود والنصارى عن طرق التجارة والرحلات، والاسترقاق والحروب والجوار والمعاشرة، وكان من الطبيعي أن تثمر هذه الصلات ثمرات شتى، منها تنمية اللغة العربية بكلمات كثيرة نقلها العرب إلى لغتهم، ووردت في شعرهم، كما يتبين ذلك لمن يتصفح دواوينهم، وينقب في معاجم اللغة، أو يردد النظر في كتاب المعرب للجواليقي، وشفاء الغليل للخفاجي.

وبهذا الإستعمال الأدبي صارت هذه الكلمات معربة وصار ورودها في القرآن الكريم أمراً طبيعيا لا يستحق جدلا ولا إنكارا بعد أن عربها العرب واشتقوا منها كلمات أخر، وقد عقد الإمام السيوطي في الإتقان فصلا للكلمات غير العربية في القرآن أورد فيه كلمات فارسية ورومية وحبشية وسريانية ونبطية وعبرية، وهندية.. وهل خطر لأحد أن يشك في عربية شعر امرئ القيس أو الأعشى، أو عدي ابن زيد وأشباههم لأن في شعر كل منهم كلمات فارسية أو رومية؟

وإذا فالإمام الطبري لم يكن له أن يؤيد الرأي الذي أنكر وقوع ألفاظ غير عربية في القرآن، بحجة أنها تخرجه عن صفته العربية التي وصفه بها الله تعالى، لأن هذه الكلمات قليلة لا تخرج القرآن عن عربيته، كما أن القصيدة الفارسية لا تنسلخ عن نسبتها إلى اللغة الفارسية لأن فيها كلمة أو بضع كلمات عربية.

أما قوله تعالى: «ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لو لا فصلت آياته أأعجمي، وعربي» فإن المراد أكلام أعجمي، والمتكلم عربي؟

وقد انتهى الطبري بعد تلك الدراسة إلى نتيجة حاسمة -في تصوره- وهي أنه من غير الجائز أن يتوهم ذو فطرة سليمة، وإيمان صحيح أن بعض القرآن فارسي لا عربي أو حبشي لا عربي..

3- ومن القضايا التي عرض لها الإمام الطبري في المقدمة، وجوه تأويل القرآن، وما يمكن الوصول إليه، وما لا يمكن الوصول إليه.

والتأويل في رأيه على ثلاثة أوجه :

أ- أحدها لاسبيل إلى الوصول إليه، وهو الذي استأثر الله بعلمه، وحجب معرفته عن جميع خلقه: مثل وقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، وما أشبه ذلك....

ب- والوجه الثاني: ما خص الله بعلم تأويله نبيّه صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك، إلا ببيان الرسول لهم تأويله.

جـ- والوجه الثالث: ما كان علمه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن؛ وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه..

وإذا كان الأمر كذلك فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن، أوضحهم حجة فيما تأول وفسر، معتمداً على الأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إمّا من جهة النقل المستفيض عنه، وإمّا من جهة الدلالة المنصوبة على صحته.

كذلك أوضحهم برهانا فيما ترجم وبيّن، مما كان مدركا علمه من جهة اللسان معتمداً على الشواهد من أشعار العرب، وعلى منطقهم ولغاتهم بعد ألا يكون خارجا تأويله وتفسيره عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة.(10)

4- ثم عقد فصلا بعنوان "ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على تفسير القرآن، ومن كان يفسره من الصحابة".

ذكر فيه أن الصحابة كانوا يتفهمون القرآن، ويفسرونه، وعجب الإمام الطبري من أولئك الذين يتحرجون من تفسيره، وأفاض في الرد على فكرة التحرج من تفسير القرآن مادامت مقومات التفسير ومؤهلاته وشروطه موجودة.

---

(10)جامع البيان جـ1 ص 41 بتصرف

وقد أبان الإمام الطبري أن الجهل بما في القرآن جهل بالدين وأحكامه، وجهل بما في القرآن من عبر وعظات..

وهو هنا يستدل بنوعين من الأدلة: ما جرى عليه الصحابة، وما يقتضيه العقل والنظر.

أما ما جرى عليه الصحابة فقد ذكر هذه الأقوال لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وتابعيهم:

قول ابن مسعود: «كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»

وقول ابن عمر:« والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيم نزلت؟ وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته»

وقول مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار»

وروي أن ابن عباس، قرأ على الناس في الحج سورة النور، وجعل يفسرها. وروي أنه قرأ سورة البقرة وجعل يفسرها .

وقول سعيد بن جبير: «من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى»

وأما الدليل العقلي فقد بناه على أن القرآن أنزل ليفهمه المسلمون، ويتدبروه ويتعظوا به، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بنهيه، وليس شيء من هذا ممكنا إلا إذا أدركوا معانيه، وفسروا آياته، لأن الأمر بغير مفهوم محال.

يقول في هذا(11): «وفي حث الله -عز وجل- عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله -جل ذكره- لنبيه صلى الله عليه وسلم: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ، لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ»(12)

وقول تعالى: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ

(11)جامع البيان جـ1 ص28

(12) المصدر نفسه جـ1 ص29 وما بعدها

يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»

وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عباده، وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن والاتعاظ بمواعظه، مايدل على أن عليهم معرفة تأويل مالم يحجب عنهم تأويله من آية.

لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له، ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا معرفة من العقل والبيان، والكلام إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به، فأما قبل ذلك فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل.

كما أنه محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب، ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ذات أمثال ومواعظ، وحكم: اعتبر بما فيها من الأمثال، واذكر بما فيها من المواعظ، إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب، ومعرفته، ثم الاعتبار بما ينبهها عليه ما فيها من الحكم...

ثم فسر القرآن الكريم معتمدا على أقوال الصحابة والتابعين، وتابعيهم وعلى آراء النّحاة من الكوفيين والبصريين، وعلى أساليب العرب وبيانهم وأشعارهم، ونثرهم، ثم على وجوه القراءات، والكلام في الناسخ والمنسوخ، والأحكام، والخلاف فيها...

مصادر التفسير عنده :

1- إن الطابع العام لتفسير الطبري اعتماده على المأثور الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتابعيه .

ويبدو من تتبع الروايات التي سجلها في تفسيره، أنه رجع إلى كتب التفسير المصنفة عن ابن عباس من خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير من طريقين، وعن مجاهد بن جبير من ثلاثة طرق.. وفي بعض المواضع يزيد على ذلك.

وعن كل من قتادة، والحسن البصري، وعكرمة، من ثلاثة طرق.

وعن الضحاك بن مزاحم من طريقين، وعن عبد الله بن مسعود من طريقين وقد استنفاد من تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ومن تفسير ابن جريج، ومن تفسير

مقاتل بن حيان والسُّدي، وغيرهم(13)

على أنه استمد من كتب الحديث في كثير من المواضع...

2- ولكن الطبري في تفسيره لم يقف عند ما روى من المأثور الصحيح، فلقد أضاف إلى التفسير بالمأثور ما عرف في عصره، من نحو ولغة وشعر، وبرز ذوقه الأدبى وحسه البلاغى فاستشهد بالشعر كثيرا، ورجع إلى آراء نحاة البصرة، ونحاة الكوفة، وإلى آراء علماء اللغة مستعينا بكتب علي بن حمزة الكسائي، ويحيى بن زياد الفراء، وأبي الحسن الأخفش، وأبي علي قُطْرُب وغيرهم... وكان أحيانا يذكر أسماءهم، وأحيانًا يكتفي بذكر آرائهم...

3- كما أنه رجع إلى القراءات، وتخيَّر منها بعد تحليل دقيق لكل وجوهها ورجّح ما يتخيره من هذه الوجوه...

وكان يؤكد أنه كثيرا ما يستعين بكتب الفقه... فعرض كثيرا من آراء الفقهاء في مناسباتها(14)

4- وكان الطبري عالما فذاً بالتاريخ، وكتابه في ذلك أكبر شاهد على نبوغه وعبقريته في التاريخ....

ولذلك كان التاريخ مصدرا هاما من مصادره في التفسير، فاستعان بكتب التاريخ، ونقل كثيرا من أخبار العجم عن ابن اسحاق وغيره، كما نقل عن وهب بن منبه(15)

5- وإذا كان الطبري سلفيَّ النزعة، سنّي الصبغة، وثقافته الأصلية دينية تاريخية أدبية لغوية بلاغية، فإن ذلك لم يمنعه من الاستفادة بآراء المتكلمين، وبخاصة المعتزلة..

وقد تحرّى جهده أن تكون التفاسير التي ينقل منها مما يثق به، فلم يدخل في كتابه شيئًا عن محمد بن السائب الكلبي، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر

---

(13) معجم الأدباء لياقوت الحموي جـ18 ص64

(14) جامع البيان جـ14 ص 58

(15) المصدر نفسه جـ16 ص13

الواقدي، لأنهم في رأيه متهمون...

لكنه إذا رجع إلى التاريخ والسير وأخبار العرب حكى عنهم وعن غيرهم، مثل هشام بن الكلبي فيما يفتقر إليه، ولا يؤخذ إلا عنهم(16)

منهج الإمام الطبري في تفسيره :

نهج الإمام الطبري طريقة متميزة، تكاد تكون خاصة به، التزمها ولم يتحول عنها، هذه الطريقة ذات الطابع الخاص: تتميز بعدة سمات، هذه أبرزها:

1- الاعتماد على المأثور الذي ثبتت صحته :

قبل أن يسلك أيّ طريق يبحث عما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة والتابعين، سالكا طريقة الإسناد الدقيقة في سلاسل الروايات لأن ذلك هو طريق العالم السديد..

وبهذا اصطبغ تفسيره بأنه سجل لما أثر من آراء ونلاحظ أنه في أكثر تفسيره يلخص الفكرة العامة التي يستنبطها من هذه الروايات، ويصوغها بقلمه ثم يعقب عليها بذكر الروايات التي قد تختلف في التفصيل والإيجاز، أو تختلف في أمور شكلية، لا تعارض الجوهر الأصيل للفكرة.

فإذا كانت هناك روايات أخرى تعارض ما ذكر في تلخيصه، وفي تفصيله، سجلها بعد ذلك وعقّب عليها.

ولنأخذ مثالا واحداً :

قوله في تأويل الآية الكريمة: «**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**»...«أما تأويل قوله: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**» فإن معناه النهي عن أن يعبد شيء غير الله الحي القيوم، لا إله سواه، ولا معبود سواه، يعني ولا تعبدوا شيئا سواه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي صفته ماوصف في هذه الآية.

وهذه الآية إبانة من الله تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله عما جاء به المختلفون(17) في البينات من بعد الرسل الذين أخبرنا الله تعالى ذكره، أنه فضل

---

(16) الطبري ضمن سلسلة أعلام العرب ، لأحمد الحوفي ص 120

(17) يريد عما خاطب به المختلفين في البينات

بعضهم على بعض، فاختلفوا فيه، واقتتلوا كفرا به في بعض، وإيمانًا به في بعض، فالحمد لله الذي هدانا للتصديق به، ووفقنا للإقرار به.

وأما قوله «الْحَيُّ» فإنه يعني الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له يحدّ، ولا آخر له يؤمّدْ(18)

إذا كان كل ما سواه، فإنه وإن كان حيًا، فلحياته أول محدود، وآخر مأمور، ينقطع بانقطاع أمرها، وينقضي بانقضاء غايتها.. وبما قلنا في ذلك، قال جماعة من أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك

حُدِّثْتُ عن عمار بن الحسن، قال: حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله: «الْحَيُّ» حيّ لا يموت.

حدّثني المثنّى، قال: «حدّثنا إسحاق قال: حدّثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيّع مثله...»

وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك، فقال بعضهم: إنما سمّى الله نفسه حيًا لصرفه الأمور مصارفها، وتقديره الأشياء مقاديرها، فهو حيّ بالتدبير لا بحياة..

وقال آخرون: بل هو حيّ بحياةٍ له صفة.

وقال آخرون: بل ذلك اسم من الأسماء تسمّى به، فقلناه تسليمًا لأمره.

وأمّا قوله: «الْقَيُّومُ» فإنه الفيعول من القيام.

ومعنى قوله: «الْقَيُّومُ» القائم برزق ما خلق، وحفظه، كما قال أمية

لَمْ تُخْلَقِ السَّمَاءُ والنُّجوم والشمْسُ مَعَهَا قَمَرٌ يَقُومْ

قَدَّره المهيْمِنُ القيـــوم والحشر والجنّةُ والنعيم

إلا لأمر شأنه عظيم

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

ذكر من قال ذلك :

---

(18) يؤمّد: يقصد به ينهي

حدثني محمد بن عمر وقال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله «الْقَيُّومُ» قال: القائم على كل شيء.

- حدثني موسى، قال: حدثنا عمر، وقال: حدثنا أسباط عن السُّدى: القيوم هو القائم.

- حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: «حدثنا أبو زهير، عن جويبر عن الضحاك: الحيُّ القيوم : القائم الدائم»

وقال في تأويل قوله تعالى: «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ»

يعني تعالى ذكره بقوله: «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ» لا يأخذه نعاس، فينعس، ولا نوم فيستثقل نومًا.. والوسن: خثورة النوم ومنه قول عدي بن الرّقاع :

وسْنَانُ أقْصَدَه النُّعَاس فَرَنَّقتْ ... في عيْنِه سِنَةٌ وليْسَ بنائم

ومن الدليل على ما قلنا من أنها خثورة النوّم في عين الإنسان قول الأعشى ميْمون بن قيسْ

تعاطى الضَّجِيج إذا أقبلت ... بُعَيْدَ النّعاس، وقبل الوَسَنْ

وقال آخر:

بَاكَرَتْهَا الأعرابُ في سِنَةِ النّو ... مِ فَتجري خِلاَلَ شوكِ السَّيال

يعني عند هبوبها من النوم ووسْن النوم في عينيها، يقال: وسن فلان فهو يوسن، وسنا سنة وهو وسنان إذا كان كذلك (19)

وبنحو الذي قلناه في ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك..

حدّثني المثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا: معاوية بن صالح عن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله تعالى: «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ»

السِّنة: النعاس، والنوم هو: النوم

---

(19) في القاموس المحيط: الوسن والسنة شدة النوم أو أوله أو النعاس - ووسن من باب فرح فهو وسن ووسنان.

حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمر، قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ»

السنة: النعاس !

حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة والحسن في قوله: «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ» قالا: نعسة

حدثني المثنى قال: حدثنا عمرو بن عون قال: أخبرنا هيثم عن جويبر عن الضحاك في قوله: «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ» قال: السِّنة الوسنة، وهو دون النوم، والنوم الاستثقال.

وهكذا يورد الطبري عدة روايات كلها تدور في هذا الفلك... ثم يقول: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل قال: حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل، عن الحكيم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يحكي عن موسى صلى الله عليه وسلم قال: وقع في نفس موسى هل ينام الله تعالى ذكره، فأرسل الله إليه ملكا فأرّقه ثلاثا، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام، وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ، فيحبس إحداهما عن الأخرى، ثم نام نومة، فاصطفقت يداه، وانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلا، بأن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض»(20)

2- التنحي عن التفسير بالرأي، وماذا يعني بالرأي؟

بعد معايشتنا للطبري في تفسيره وجدنا أنه يتنحى بقدر الإمكان عن التفسير بالرأي بل ويحمل على أصحابه محذراً ومهددهم بسوء العاقبة .

ولكن: ماهو الرأي؟ وما تفسيره الذي يتنحى عنه الطبري؟

إن المراد بالتفسير بالرأي كما هو واضح في مفهوم الطبري هو توجيه التفسير إلى آراء شخصية مجارية للأهواء السياسية والحزبية والجنسية والمذهبية وما شاكلها مما لا يقصد إليه القرآن الكريم

(20) جامع البيان جـ3 ص6

وقد عقد فصلا في مقدمة تفسيره بهذا العنوان:

« ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تفسير القرآن بالرأي»

وقد ذكر في هذا الفصل أحاديث منها: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» ومنها: «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار» ومنها: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» .

وذكر قول أبي بكر: أيّ أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن ما لا أعلم» وعلقّ الإمام الطبري على هذه المرويات بقوله : «هذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلناه من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بنصبه الدلالة عليه فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل من ذلك برأيه -وإن أصاب الحق فيه- فمخطئ فيما كان فعله بقيله فيه، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هي إصابة خارص وظان، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لا يعلم ».

وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: «**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**»(21)

«فالقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل إليه بيانه، قائل بما لا يعلم، وإن وافق قيله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه، لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به.. وهذا هو معنى الخبر الذي حدثنا به العباس بن عبد العظيم العنبري قال: حدثنا حيّان ابن هلال قال: حدثنا سهيل بن أبي حزم قال: حدثنا أبو عوان الجويني عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » يعني صلى الله عليه وسلم أنه أخطأ في فعله بقيله برأيه، وإن وافق قيله ذلك عين الصواب عند الله لأن قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم أن الذي قال فيه من قول حق وصواب، فهو قائل على الله ما

---

(21) الأعراف 33

لا يعلم، آثم بفعله ما قد نهي عنه وحظر عليه(22) هذا هو رأي الإمام الطبري في قضية التفسير بالرأي "أو بالدراية والعقل" ومنه يتضح أن الطبري إنما يرفض الرأي الذي يكون بدون علم من صحيح المنقول أو صريح المعقول، وهو رأي تقوده الأهواء والنزوات السياسية والطائفية والمذهبية والانتماءات الحزبية أو العنصرية الشعوبية والجنسية....

أما الرأي القائل على العلم بما ثبت عن رسول الله وأصحابه، الرأي القائم على العلم بالعلوم التي لابد منها للمفسر، والتي كانت مصادر الطبري الأساسية والتي قام عليها منهجه في التفسير...

فهذا تفسير بالرأي لا يرفضه الطبري بل هو قد اعتمد عليه في كثير مما قال وفسّر .

3 - دقته في الإسناد :

من خلال مطالعتنا لمقدمة التفسير ثم القراءة المتأنية لمعظم ما كتبه من تفسير للقرآن الكريم يتضح بصورة لا تقبل الشك أن الإمام الطبري كان أمينًا دقيقا في الإسناد، وكان ذلك بارزا في ذكر السند، وفي تسجيل أسماء الرواة، لأنه اتصل بكثير من العلماء، وسمع منهم، فإذا كان قد سمع هو وغيره، قال: حدثنا، وإذا كان قد سمع وحده قال: حدثني، وإذا نسي واحداً من سلسلة الرواية صرّح بنسيان اسمه...

من الذين سمع منهم هو وغيره : خلاد بن أسلم، وأبو كريب، ومحمد بن حميد الرازي وسعيد بن يحيى بن سعيد الأموي وعبيد الله بن محمد الغرياني، وإسماعيل ابن موسى السّدي، وابن البرقي، والربيع بن سليمان، ومحمد بن بشار وغيرهم.

ومن الذين سمع منهم وحده : عبيد الله بن أسباط، ويونس بن عبد الأعلى وأحمد بن منصور، ومحمد بن أبي مخلد الواسطي، وأبو السائب سالم بن جناة ويعقوب بن إبراهيم، وسعيد بن الربيع، والربيع بن سليمان... وغيرهم. ويتبين من مقارنة الأسماء أنه كان يسمع من الشخص الواحد تارة في جماعة، وتارة بمفرده..

---

(22)جامع البيان جـ1 ص35

وأحيانًا يقول: حدثني بعض أصحابنا.

أما التصريح بنسيانه ففي مثل قوله: حدثنا أبو كريب، قال: حدثني يحيى بن آدم قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن فلان العبدي -قال أبو جعفر ذهب عني اسمه -عن سليمان بن صرد عن أبي كعب قال(23)

ومن أمثله رواياته قوله:

حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي قال: حدثنا شريك عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»(24)

وقوله: حدثني سملة عن محمد بن إسحاق، عن أبي عناب رجل من تغلب كان نصرانيا أربعين سنة ثم أسلم...الخ(25)

4 - الإعتماد على علوم اللغة العربية :

الطبري كان إماما في اللغة العربية بكل فروعها، وقد مكنه علمه باللغة وأساليبها ونبوغه الفريد في استعمالها أن يفضل معنى للمفردة على معنى آخر تحتمله، وإذ كنا سوف نطيل الحديث، ونفصل القول في هذا الجانب عند حديثنا عن: الدرس البلاغي في تفسير الطبري، فإن ذلك لا يمنعنا أن نذكر بعض اللقطات السريعة للاستشهاد على هذا المصدر... ومن ذلك على سبيل المثال:

1- قال في تفسيره في سورة «الفيل».. «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ»

«أن الأبابيل المتفرقة يتبع بعضها بعضا من نواح شتى، أو هي الكثيرة المتتابعة.

ثم ذكر الآراء في معنى «سجيل» أهو الطين في حجارة، أم الطين ، أم الكلمة فارسية معناها حجر وطين....

ثم قال: وقال آخرون: إن معنى سجيل: السّماء الدنيا

(23) جامع البيان جـ1 ص11

(24) المصدر نفسه جـ1 ص27

(25) المصدر نفسه جـ15 ص33 -34

وعلق على ذلك بقوله: «وهذا القول لا نعرف لصحته وجها في خبر، ولا عقل، ولا لغة، وأسماء الأشياء لا تدرك إلاّ من سائرة أو خبر من الله تعالى...(26)

2- وقال في تفسير سورة «الفرقان» :

في قوله تعالى: «**تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا**»(27)

«يعني بالبروج القصور...» وبعد أن أورد عدة آراء في معنى البروج قال...«وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: «هي قصور في السماء»(28) لأن ذلك في كلام العرب، ومنه: «**وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**»

ومنه قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ بَانٍ بِجِصٍّ وآجرٍ وَ أَحْجَارِ(29)

3- وقال في تفسيره سورة «البقرة» :

في قوله تعالى: «**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**»(30)

قال أبو جعفر: «لعلكم تتقون بعبادتكم ربكم الذي خلقكم، وطاعتكم إياه فيما أمركم به، ونهاكم عنه، واقراركم له بالعبادة لتتقوا سخطه، وعضبه أن يحل عليكم، وتكونوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم».

«فإن قال قائل: فكيف قال جلّ ثناؤه «**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**» أو لم يكن عالما بما يصير إليه أمرهم إذا هم عبدوه وأطاعوه حتى قال لهم : لعلكم إذا فعلتم ذلك أن تتقوا، فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم إيّاه مخرج الشك؟ قيل له : ذلك على غير المعنى الذي توهمت، وإنما معنى ذلك اعبدوا ربكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم

---

(26) جامع البيان ج30 ص193

(27) الفرقان 61

(28) يقول الدكتور أحمد الحوفي في كتابه سلسلة أعلام العرب (الطبري ص123) لست أدري لماذا خصها بأنها في السماء، مع أنه سيذكر بعد سطر واحد بيتا للأخطل يدل على أن البرج الحصن .

(29) جامع البيان ج19 ص19.

(30) البقرة 21

لتتقوه بطاعته، وتوحيده وإفراده بالربوبيّة والعبادة، كما قال الشاعر:

وقُلتمْ لَنَا كُفُّوا الحروبَ لَعَلنـــا نَكُفُّ وَوَثّقتُم لنا كُلّ مَوْثـق

فلَمّا كَفَفْنَا الحرْبَ كانت عُهُودكُمْ كَلَمْح سَرَابٍ في الفَلاَ مُتألِق

يريد بذلك: قلتم لنا كفوا لنكُفّ، وذلك أنّ لعلّ في هذا الموضع لوكان شكًا لم يكونوا وثقوا لهم كلّ موثق(31)

5 - الحديث النّبوي الشريف :

وكان يكثر من الأحاديث النبوية، لأنه درس الحديث على كبار المحدثين في عصره وفي مقدمتهم علماء طبرستان، وساعدته على هذا ذاكرة فذّه، وحسّ مرهف، وذكاء لا مثيل له فحفظ الحديث سندا ومتنا، وكان في ذلك مضرب الأمثال، وغاية الأعاجيب .

وهذه بعض الأمثلة من استدلاله بالحديث :

1- في بيان اللغة التي نزل بها القرآن:

روى عن خلاد بن أسلم عن أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، فالمراء في القرآن كفر -ثلاث مرات- فما عرفتم منه، فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»(32)

2- وفي تأويل قوله تعالى: «وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ»(33)

قال أبو جعفر: العدل في كلام العرب الفدية، ثم ذكر الحديث الشريف: حدثني

---

(31) جامع البيان جـ1 ص125

(32) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده جـ2 ص 300 ، عن أنس بن عياض، ورواه ابن حبان في صحيحه(رقم 73 بشرح أحمد شاكر) عن أبي ليلى عن أبي خثيمة عن أنس بن عياض، ونقله ابن كثير في تفسيره (جـ2 ص102) عن مسند أبي يعلى، وفي فضائل القرآن ص63 عن مسند أحمد، وهو في مجمع الزوائد جـ7 ص 151 ونسبه ابن كثير في الفضائل للنسائي، والظاهر أنه يريد كتاب التفسير للنسائي . انظر جامع البيان تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر جـ1 ص22

(33) البقرة 18

نجيح بن إبرهيم قال: حدثنا علي بن حكيم قال: حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائي، عن رجل من بني أمية عن أهل الشام، أحسن عليه الثناء، قال: قيل يارسول الله مالعدل؟ قال العدل: الفدية

وإنما قيل للفدية من الشيء والبدل منه عدل لمعادلته إياه ، وهو من غير جنسه(34).

3-وفي تأويل قوله تعالى:«**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ**»(35)

قال يعني بالأميين الذين لا يكتبون ولا يقرأون، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»(36)

4- وفي تأويل قوله تعالى: «**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**»(37)

استطرد فذكر عن ابن بشار عن هشام بن معاذ عن أبيه عن قتادة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (38) : «إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم؟ فنزلت الآية «**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ**».(39)

5- وفي تأويل قوله تعالى: «**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ**

---

(34) نقله عن الطبري ابن كثير جـ1 ص61 . و السيوطي في الإتقان جـ1 ص68 . ولم أجده عند غير الطبري، جامع البيان تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر جـ2 ص 34 .

(35) البقرة 78

(36) رواه البخاري جـ3 ص 108، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي كما في الجامع الصغير للسيوطي رقم 2521، جامع البيان جـ2 ص257 .

(37) البقرة 115

(38) حديث النجاشي هذا هو حديث ضعيف لأنه مرسل، وقد نقله السيوطي جـ1 ص 109، ونسبه لابن جرير. ونقله ابن كثير جـ1 ص291 ، ثم قال: هذا غريب، وأقول : سياقته تدل على ضعفه. جامع البيان جـ4 ص533

(39) آل عمران 199

لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»(40) ذكر أن المراد بالظلم الشرك.

وروى عن أبي كريب عن أبي إدريس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحابه صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (41) : ألا ترون إلى قول لقمان : «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . (42)

6- وفي تأويل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» روى عن محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مامن رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جبينه وجبهته وظهره» .

6 - الاستشهاد والاستعانة بالشعر:

لقد برز الحسُّ الأدبي، والتذوق الفني واضحا في تفسير الطبري حيث كان الشعر أحد المصادر الرئيسة لتفسيره، فكثيرا ما يعتمد على الشعر في بيان المعنى المراد من العبارة، وكان تارة ما يذكر اسم الشاعر، وتارةً ما يذكر النص الشعري مجرداً من الاسم.

وكذلك كان ابن عباس -رضي الله عنه- يستعين على التفسير بالشعر... فقد كان يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه كذا: أما سمعتم الشاعر يقول كذا، وكان ابن عباس يقول: إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله تعالى فاطلبوها في الشعر، فإنه ديوان العرب، وذكر سعيد بن جبير أنه ماسمع ابن عباس فسّر آية من كتاب الله إلاّ استشهد بيت من الشعر(43)

---

(40) الأنعام 82

(41) وهذا الحديث رواه أبو جعفر من طرق، ورواه البخاري وصححه ، فتح الباري جـ1 ص 81، وجـ8 ص220 ورواه مسلم في صحيحه جـ2 ص 103 ورواه الترمذي في كتاب التفسير، ورواه أحمد في مسنده .

(42) لقمان 13

(43) شرح ديوان الحماسة للتبريزي جـ1 ص3

لقد كان الإمام الطبري عالما باللغة والشعر، ولقد بلغ من اهتمامه بلغة القرآن الكريم أن أملى أثناء إقامته بمصر شعر الطِّرمّاح، ولم يكتف بالإملاء بل شرحه وفسر مافيه من الغريب، وكتبه عنه ابن السراج وغيره(44)

والأمثلة على استدلاله بالشعر مبثوثة في التفسير على امتداد الأجزاء الثلاثين، ومن هذه الاستشهادات على سبيل المثال:

1- استدلاله على أن السّورة المنزلة من الارتفاع بقول النابغة الذبياني:

أَلَمْ تر أنّ اللّه أعطاك سُورَة تَرى كلُّ مَلكٍ دُونَها يَتَذَبْذبُ

أي أعطاك منزلة من منازل الشرف التي قصرت عنها منازل الملوك ثم قال: إن بعضهم همز السورة من القرآن وتأويلها إذا القطعة التي فصلت من القرآن عما سواها وأبقيت... ومن ذلك قول الأعشى، أعشى بن ثعلبة يصف امرأة فارقته، فأبقت في قلبه من وجدها بقية:

فبانت وقد أسأرت في الفؤاد صداعًا على نأيها مستطيرا

وقال الأعشى في ذلك :

بانت وقد أسأرت في النّفس حاجتها بعد ائتلاف وخير الودّ ما نفعا(45)

2- واستأنس بالشعر في معنى كلمة «آية» :

قال: وأمّا الآية من القرآن، فإنها تحمل وجهين في كلام العرب:

أحدهما: أنها سميت آية، لأنها علامة يعرف بها تمامًا ماقبلها وابتداؤه، كالآية التي تكون دلالة على الشيء يستدل بها عليه، كقول الشاعر:

أَلِكنّي إليها عَمْرَكَ اللّهُ يَافَتَى بآيةِ ما جاءت إلينا تَهَاديا(46)

ومنه قوله جل ذكره: «**رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا، وَآيَةً مِنْكَ**»(47) أي علامة منك لإجابتك دعاءنا .

(44) الطبري أحمد الحوفي ص 137

(45) المرجع نفسه ص 138

(46) ألكني إليها : بلغ رسالتي إليها

(47) المائدة 144

والآخر: القصة، كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى :

ألاَ أبْلِغَا هَذَا المعْرِض آيةً أيَقْظَان قال القوم إذْ قال أمْ حُلْمُ؟

يعني بقوله آية: رسالة مني وخبراً عني، فيكون معنى الآيات: القصص في قصة تتلو قصة بفصول ووصول(48)

3- وفي قوله تعالى: «**أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** »(49)

قال: في الكلام محذوف قد ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ذكر عليه، منه وهو: أفمن كان على بينَة من ربه ويتلوه شاهد منه، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة، كمن هو في الضلالة متردد لايهتدي لرشد؟ والعرب تفعل ذلك كثيرا، إذا كان فيما ذكرت دلالة على مرادها على ما حذفت وذلك كقول الشاعر:

وأقْسِمُ لو شَيْء أتانا رَسُوله سواكَ، ولكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مدفعا(50)

4- ومنها في قوله تعالى: «**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**»

حيث أورد آراء مختلفة في معنى الكرسي، ثم رجح أنه العلم، وقال: أصل الكرسي: العلم، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب كراسة ومنه قول الراجز في صفة قانصْ:

حتّى إذا ما اجتازها تكرّسًا.

يعني: علم، ومنه يقال للعلماء الكراسي؛ لأنهم المعتمد عليهم، كما يقال: أوتاد الأرض، يعني بذلك أنهم العلماء، الذين تصلح بهم الأرض ومنه قول الشاعر:

يَحُفُّ بِهِمْ بِيضُ الوَجُوهِ وعُصْبَةٌ كَرَاسِي بالأَحْدَاثِ حين تَنُوبُ

يعني بذلك علما بحوادث الأمور ونوازلها.

والعرب تسمى أصل كل شيء الكرسي، يقال منه فلان كريم الكرسي أي كريم

---

(48) جامع البيان جـ1 ص36

(49) هود 17

(50) جامع البيان جـ12 ص36

الأصل.

قال العجاج:

قد علم القُدّوسُ مولى القدس أنّ أبا العباسِ أولى نفس

بمعدن الملك الكريم الكرسي(51)

5 - وأصل العصم :

في قوله تعالى: «**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(52) ومن يتعلق بأسباب الله، ويتمسك بدينه وطاعته فقد وفق إلى طريق واضح، ومحجة مستقيمة غير معوجّة.

وأصل العصم: المنع، فكل مانع شيئًا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به... ومنه قول الفرزدق:

أما ابن العاصمين بني تميم إذا ما أعظم الحدثان نابا

وقول الأعشى:

إلى المرء قيس أطيل السُّرى وآخَذ منْ كل حيّ عِصَمْ

ولذلك قيل للجبل عصام وللسبب الذي ينتسب به الرجل إلى حاجته عصام فهو يعني بالعصم الأسباب.

يقصد أسباب الذمة والأمان..

يُقال منه اعتصمت بحبل فلان، واعتصمت حبْلا منه، وأعصمتُ به واعْتصمته.. وأفصح اللغتين إدْخال الباء، كما قال عز وجل: «**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**»(53)

وقد جاء اعتصمته كما قال الشاعر:

---

(51) جامع البيان جـ3 ص 8.. ومن معاني الكرسي: السرير والعلم، (القاموس المحيط) والملك والعلم (أساس البلاغة) للزمخشري

(52) آل عمران 101

(53) آل عمران 160

إذا أنت جازيْت الإخاء بمثله وآسيتنى تمّ اعْتصمْت حباليَا(54)

6- ومنها في قوله تعالى: «**وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ الـنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا**»(55)

يعني: وكنتم يا معشر المؤمنين من الأوس والخزرج على حفرة من النار، وإنما ذلك مثل لكفرهم الذي كانوا عليه قبل أن يهديهم الله للإسلام، ويصيروا بائتلافهم عليه إخوانا... وشفا الحفرة طرفها وحرفها، مثل شفا الركية والبئر..

ومنه قول الراجز:

نحنُ حَفَرْنا للحجيج سَجْلَهْ نَابِتَةٌ فَوْقَ شِفَاها بقْلَهْ

يعني فوق حرفها.

وقال: فأنقذكم منها: يعني فأنقذكم من الحفرة، فرد الخبر إلى الحفرة، لأن الشفا من الحفرة، فجاز ذلك، كما قال جرير بن عطية:

رأتْ مرّ السنين أخذْن منّي كما أخذَ السّرار من الهلال

وكما قال العجّاج:

طول اللّيالي أسرعت في نقضي طوينَ طولي وطوينَ عرضي(56)

7- ومنها في قوله تعالى: «**وَهُوَ الذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**»(57) أي هيّن عليه .

وقد وجّه غير واحد من أهل العربية قول ذي الرّمة :

أخي قَفَرات دبَّبَتْ في عظامِهِ شَفَافَاتُ أعجاز الكرس فَهُوَ أَخْضَعُ (58)

أي أن أخضع بمعنى «خاضع»

---

(54) جامع البيان جـ4 ص 19

(55) آل عمران 100

(56) جامع البيان جـ4 ص 25

(57) الروم 27

(58) دبّبت شفافات أعجاز الكرى : بقايا أواخر النوم ، أخضع: منكسر

وقول الأخر:

لعمرك أنّ الزبْرقانَ لَباذِل لمعروفه عِنْدَ السنين وأفْضَلُ
كريمٌ له عن كلّ ذمّ تأخرُ وفي كلّ أسْبَابِ المكارم أوّلُ

إلى أنه بمعنى فاضل .

وقول معن :

لعمرك ما أدري، وإنّي لأوجلُ على أيّنَا تعْدُو المنيّة أوّلُ

إلى أنّه بمعنى وإنّي لوجل .

وقول الآخر :

تمنّى امرؤ القيس موتي وإن أمت فتلك سبيلُ لسْتُ فيهَا بأوحَد

إلى أنه بمعنى لسْت فيها بواحد...

وقول الفرزدق :

إنّ الذي سمكَ السّماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعزّ وأطولُ

إلى أنه بمعنى عزيزةٌ طويلة.

ومنه قولهم في الآذان «اللّه أكبر بمعنى اللّه كبير»(59)

8- ومنه في قوله تعالى: «**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ، وَتَمَاثِيلَ، وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ، وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ**»(60)

يعني تعالى ذكره: يعمل الجن لسليمان ما يشاء من محاريب، وهي جمع محراب، والمحراب مقدم كل مسجد وبيت ومصلى (61).

ومنه قول عديّ بن زيد:

كدمى العاج في المحاريب أو كـ بيض في الروض زهره مستنير

---

(59) جامع البيان جـ1 ص25

(60) سبأ 13

(61) جامع البيان جـ22 ص49

والجوابي جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء.. كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تروحُ على نادي المحلقّ جفْنَة كجابية الشّيخ العراقي تفهّقُ

وكما قال آخر:

فَصَبّحَتْ جَابِيةٌ صَهَارِجَا كأنّها جلدة خَارجَا

9- ومنها في قوله تعالى: «**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ**»(62)

إنا خلقناهم من طين لاصق، وإنما وصفه جلّ ثناؤه بالزوب، لأنه تراب مخلوط بماء، والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا.

والعرب تبدل أحيانا هذه الباء ميمًا فنقول طين لازم

ومنه قول النجاشي الحارثي:

بنى اللّؤمُ بيْتًا فاسْتَقرّ عمادُ عليْكُمْ بنى النّجار ضرْبَةَ لازم

ومن اللازب قول نابغة بن ذبيان:

ولا تحْسبُون الخيْر لا شرّ بعده ولا تحسّبون الشّر ضرْبة لازب

وربّما أبدلوا الزاي التي في لازب تاء فيقولون طين لاتب

وذكر أنّ ذلك في «قيس»

زعم الفراء أنّ أبا الجرّاح أنشد:

صدّاعُ، وتَوصيمُ العظام وفترةُ وغَثْيٌ مع الإشراقِ في الجوف لاتب

بمعنى لازبٌ (63)

10- ومنها في تفسير قوله تعالى: «**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**»(64)

قال: في عنقها، والعرب تسمى العنق جِيداً، ومنه قول ذي الرّمة:

---

(62) الصافات 11

(63) جامع البيان جـ23 ص 28

(64) المسد 5

فعيْناك عيناهُا ولونُك لونُها وجيدُك إلاّ أنّها غير عاطِلُ(65)

وذكر الإمام الطبري الآراء المختلفة في معنى مسد، أهي حبال تكون بمكة، أم حبال من شجر تنبت باليمن، أم حبال من نار، أم حبل من ليف، أم سلسلة من حديد، أم المسد: الحديد الذي يكون في البكرة، أو قلادة من ودع في عنقها ثم قال: «أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: حبل جمع من أنواع مختلفة ولذلك اختلف أهل التأويل على النحو الذي ذكرنا، وممّا يدل على ما قلنا في ذلك قول الراجز:

ومسد أمرّ من أيانق صهْب عتاق ذاتِ مُخّ زاهِق

فجعل إمراره من شتى؛ وكذلك المسد الذي في جيد امرأة أبي لهب أمر من أشياء شتّى، من ليف وحديد، ولحاء، وجعل في عنقها طوقًا كالقلادة من ودع (66)

7- تسجيل القراءات :

لقد عرض الإمام الطبري وجوه القراءات، ورجّح ما ارتضاه، لأنّه كان عالما بالقراءات مؤلفا فيها....

ولنذكر بعض النماذج التطبيقية:

1- من هذا ما ذكره في قوله تعالى: « وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللّه وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»(67)

---

(65) جامع البيان جـ30 ص 220

(66) ومنه قول الأعشى:

نمشي فنضرب بابها من دوننا علقا صريف محالة الأمساد

يعني بالأمساد جمع مسد وهي الحبال ، جامع البيان جـ30 ص220

(67) التوبة 99 - 100

قال: «...عن ابن عامر الأنصاري أن عمر بن الخطاب قرأ: «وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارُ، الذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ»

«فرفع الأنصار، ولم يلحق الواو في الذين» فقال له زيد بن ثابت: «والذين اتبعوهم بإحسان» فرفع الأنصار، فقال عمر: «الذين اتبعوهم بإحسان» فقال زيد: أمير المؤمنين أعلم، فقال عمر: ائتوني بأبيّ بن كعب، فأتاه، فسأله عن ذلك ؟ فقال أبيٌ: «والذين اتبعوهم بإحسان» فقال عمر: إذا نتابع أبيّا».

«...والقراءة على خفض الأنصار عطفا على المهاجرين.. وقد ذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأ الأنصار بالرفع عطفا بهم على «السابقون».

«والقراءة التي لا استجيز غيرها، الخفض في الأنصار» لإجماع الحجة من القراء عليه، وأن السابق كان من الفريقين جميعا من المهاجرين، والأنصار، وإنما قصدا الخبر عن السابق من الفريقين دون الخبر عن الجميع، وإلحاق الواو في «الذين اتبعوهم بإحسان» لأن ذلك كذلك في مصاحف المسلمين جميعا.

على أن التابعين بإحسان غير المهاجرين والأنصار، وأما السابقون فإنهم مرفوعون بالعائد من ذكرهم في قوله: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»(68)

2- وفي قوله تعالى: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»(69)

قال: اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ» فقرأ بعض قراء أهل المدينة "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ". "أم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ" .

على وجه مالم فاعله في الفعلين كليهما.

وقرأت عامة قراء الحجاز والعراق: «أفمن أَسَّسَ بنيانه...» بالبناء للمعلوم في الفعلين .

---

(68) جامع البيان جـ11 ص7

(69) التوبة 109

وهما قراءتان متفقتا المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن قراءته بتوجيه الفعل إلى: منْ، إذ كان، من المؤسَّس أعجبُ إليّ وتأويل الكلام إذا: أيّ هؤلاء الذين بنوا المساجد خير:

الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتّقاء الله، وأداء فرائضه ورضا من الله لبنائهم، أم الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على نفاق وضلال، وعلى غير بصيرة منهم بصواب فعلهم من خطئه . وقد مثّل هذا بمن يبني على حرف ركيّة لا تلبث السيول أن تهدم بناءه، وتنثره، فانتثر الجرف الهار ببنائه في نار جهنم»(70)

3- وفي قوله تعالى: « **قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**»(71)

قال: اختلف القراء في ذلك، فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة وبعض أهل البصرة والكوفة «**فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ**» بفتح العين، وتخفيف الميم، بمعنى فعميت عليكم الرحمة، فلم تهتدوا لها، فتقروا بها، وتصدقوا رسولكم عليها.

وقرأ عامة قراء الكوفة: «**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**» بضمّ العين وتشديد الميم، اعتبارا منهم بقراءة عبد الله، وذلك أنها فيما ذكر في قراءة عبد الله، فعمّاها عليكم،...

وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ «**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**» بضم العين وتشديد الميم للذي ذكروا من العلة لمن قرأ به، ولقربه من قوله تعالى : «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ**» فأضاف الرحمة إلى الله، فكذلك تعميته على الآخرين بالإضافة إليه أولى»(72)

4- وفي قوله تعالى: «**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى...**»(73)

---

(70) جامع البيان جـ11 ص 24

(71) هود 28

(72) جامع البيان جـ12 ص18

(73) الصافات 102

«اختلف القراء في قراءة: «مَاذَا تَرَى» فقرأته عامة قراء أهل المدينة، والبصرة وبعض قراء أهل الكوفة بفتح التاء ، بمعنى أي شيء تأمر، أو فانظر ما الذي تأمر... وقرأ عامة قراء الكوفة «مَاذَا تُرَى» بضم التاء، بمعنى ماذا تشير، وماذا ترى من صبرك أو جزعك من الذبح؟

«والذي هو أولى القراءتين في ذلك عندى بالصواب، قراءة من قرأ «مَاذَا تَرَى» بفتح التاء بمعنى، ماذا ترى من الرأي؟ فإن قال قائل: أو كان إبراهيم يؤامر ابنه في المعنى لأمر الله، والانتهاء إلى طاعته؟ قيل: لم يكن ذلك من مشاورة لابنه في طاعة الله، ولكنه كان منه ليعلم ما عند ابنه من العزم، هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذي هو عليه، فيسر بذلك أم لا، وهو في الأحوال كلها ماض لأمر الله»(74)

والأمثلة في تفسيره أكثر من أن تحصى!

8 - العناية بالإعراب:

والإمام الطبري -رحمه الله- يعنى في تفسيره بالجانب الإعرابي حتى أصبح الإعراب معلما أساسيا من معالم منهجه في التفسير، وقد أجمع على ذلك كل القارئين والدارسين للطبري...(75)

ونحن نراه في التفسير يفسر، ويفصل مذاهب النحاة في كثير من المواضع حتى يجلو المعنى. لأن الإعراب فرع المعنى كما قيل..

وعلى سبيل المثال :

تفسيره لقوله تعالى : « قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ»(76)

يقول: «اختلف أهل العربية في موضع «مَنْ» «لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ

---

(74) جامع البيان جـ23 ص50

(75) راجع الطبري لأحمد الحوفي ص152 عدد 13 من سلسلة أعلام العرب

(76) هود 43

إلاّ مَنْ رَحِمَ» في هذا الموضع:

«فقال بعض نحويي الكوفة : هو في موضع نصب، و لأنّ المعصوم بخلاف العاصم، والمرحوم معصوم، كأن نصبه بمنزلة قوله: «**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**»(77) ومن استجاز «اتباع الظن، والرفع في قوله:

وبلدةٌ لَيْسَ بِهَا أنِيسُ إلاّ اليَعَافيرُ وإلاّ العِيسُ

لم يجز له الرفع في مَنْ» لأنّ الذي قال إلاّ اليعافير، جعل أنيس أكبر اليعافير وما أشبهها، وكذلك قوله: «**إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**» يقول علمهم ظن، وأنت لايجوز لك في وجه أن تقول المعصوم هو عاصم في حال، ولكن لو جعلت العاصم في تأويل معصوم لجاز رفع «من»، قال: ولا ينكر أن يخرج المفعول على فاعل، ألا ترى قوله تعالى: «**مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**»(78) معناه -والله أعلم- مدفوق، وقوله «**فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**»(79) معناها «مرضيّة» قال الشاعر:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها واقعد فإنك أنْتَ الطّاعِمُ الكاسي

ومعناها المكسُو.

«وقال بعض نحويي البصرة «إِلاَّ مَنْ رَحِمَ» على لكن مَنْ رحم، ويجوز أن يكون على تأويل لا ذا عصمة. أي لا معصوم، ويكون «مَنْ» على الرفع بدلا من عاصم».

ثم يعلق الطبري بعد ذلك بقوله:

« ولا وجه لهذه الأقوال التي حكينا عن هؤلاء، لأنّ كلام الله تعالى إنما يوجه إلى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم يضطرنا شيء إلى أن نجعل عاصما في معنى معصوم، ولا أنّ نجْعل إلاّ بمعنى لكن، إذا كنا نجد لذلك مخرجًا صحيحا، وهو ما قلنا مِنْ أن معنى ذلك، قال نوح: لا عاصم اليوم من أمرالله إلا من رحم، فأنجانا من عذابه، كما يقال:« لا منجي اليوم من عذاب الله إلا الله . ولا مطعم اليوم من طعام زيد إلا زيد، فهذا هو الكلام المعروف،

(77) النساء 157

(78) الطارق 6

(79) القارعة 7

والمعنى المفهوم»(80)

ولست أرى حاجة إلى مزيد من التمثيل لعنايته بالإعراب، حتى أصبح ذلك أحد المعالم الأساسية في منهجه التفسيري.

9 - مناقشته الآراء الفقهية :

كان الإمام الطبري حراً في بحثه، مستقلا في دراسته، لا يقلد ولا يجري وراء رأي سابق مهما كانت قوة هذا الرأي إلا بعد تدقيق وتمحيص.

لقد كان فقيها دارسًا للمذاهب كلها وهو صاحب مؤلفات في الفقه، وهو مجتهد صاحب مذهب اختاره لنفسه، صار من البدهي أن يعرض للآراء الفقهية ويناقشها في مناسباتها من الآيات القرآنية، وينتهي إلى الرأي الذي يستصوبه بعد المناقشة:

ولسوف نأخذ مثالا واحداً استكمالا لمعالم المنهج .

من هذا ماذكره في تفسير قوله تعالى: «**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**»(81)

يقول الإمام الطبري في ذلك: «اختلف أهل العلم في المرض الذي أباح الله معه الإفطار وأوجب معه عدة من أيام أخر، فقال بعضهم: هو المرض الذي لا يطيق صاحبه معه القيام لصلاته، وقال بعضهم: هو كل مرض كان الأغلب من أمر صاحبه بالصوم الزّيادة في علته زيادة غير محتملة.... »

ثم يعلق الإمام الطبري بعد ذلك بقوله: «والصواب عندنا أن المرض الذي أذن الله تعالى بالإفطار معه في شهر رمضان، مرض من كان الصوم جاهده جهدا غير محتمل، فكل من كان كذلك فله الإفطار، وقضاء عدة من أيام أخر.

«وذلك أنه إذا بلغ ذلك الأمر، فإن لم يكن مأذونًا له في الإفطار، فقد كلف عسرا ومنع يسراً، وذلك غير الذي أخبر الله أنه أراده بخلقه بقوله: «**يُرِيدُ اللَّهُ**

---

(80) جامع البيان جـ12 ص28

(81) البقرة 185

بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»- وأمّا من كان الصوم غير جاهده فهو بمعنى الصحيح الذي يطيق الصوم، فعليه أداء فرضه...

«واختلف أهل العلم فيمن كان مريضا أو على سفر، فصام الشهر، وهو ممّن له الإفطار، أيجزيه ذلك من صيام عدة من آيام أخر أو غير مجزيه؟

وهل لمن كان مريضا أو على سفر صيام شهر رمضان، أم ذلك محظور عليه، وغير جائز له صومه، والواجب عليه الإفطار، فيه حتى يقيم أو يبرأ؟»

ثم أورد الإمام الطبري بعد ذلك آراء العلماء مفصلة، ملخصها أن بعضهم رأى أن الإفطار في المرض عزيمة من الله واجبة وليس بترخيص، ولهذا رووا أن عمر أمر رجلا صام في سفره أن يعيد صومه، وعلتهم أنّ الله تعالى فرض بقوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» صوم شهر رمضان على من شهده مقيمًا غير مسافر، وجعل على من كان مريضا أو مسافراً صوم عدة من آيام أخر، غير أيام شهر رمضان، وكما لا يجوز للمقيم أن يفطر، ويصوم عدة من أيام أخر، لا يجوز للمسافر الصيام،...واحتجوا أيضا بحديث روي عن رسول الله «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر»

«وبعضهم رأى أن الإفطار في السفر رخصة الله تعالى رخصها لعباده، والفرض الصوم، فمن صام فرضه أدى، ومنْ أفطر فبرخصة الله له أفطر وإن صام في سفره فلا قضاء عليه إذا أقام...

«واستدل هؤلاء بأن عائشة كانت تصوم، وأنّ ابن عمر كان لا يصوم واستدلوا بآثار أخرى...

وعلق الإمام الطبري على ذلك بقوله: «وهذا القول عندنا أولى بالصواب، لإجماع الجميع على أن مريضًا لو صام شهر رمضان وهو ممن له الإفطار، لمرضه فصومه مجزئ عنه، ولا قضاء عليه إذا برئ من مرضه، فكان معلومًا بذلك أن حكم المسافر حكمه في أنه لا قضاء عليه إن صامه في سفره، لأن الذي جعل للمسافر من الافطار، وأمر به من قضاء عدة من أيام أخر، مثل الذي جعل من ذلك للمريض أو أمر به من القضاء...

«ثم في دلالة الآية كفاية مغنية عن استشهاد شاهد على صحة ذلك بغيرها،

وذلك قوله تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» ولا عسر أعظم من أن يلزم من صامه في سفره عدة من أيام أخر، وقد تكلف أداء فرضه في أثقل الحالين عليه حتى قضاه وأداه»(82)

وفي هذا المثال الذي أطال في الكلام عنه الطبري مافيه الكفاية...

10 - تصويب رأي السلف:

وكان الإمام الطبري أحيانا يعرض آراء المتكلمين ، ويسمّيهم أهل الجدل ويناقشها، ويصوّب الرأي السلفي الذي يدين به .

1- من هذا أنه استبعد رأي المعتزلة في أن المراد بيد الله نعمته أو ملكه أو قوته، وصوّب أن المراد باليد صفة من صفاته، لكنها ليست بجارحة كجوارح البشر.

ذكر في قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ»(83)

يعنون أن خير الله ممسك وعطاءه محبوس عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى: «وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ»(84) وإنما وصف تعالى اليد بذلك، والمعنى العطاء، لأن عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب أن يكون بأيديهم، فجرى الاستعمال في الوصف بالجواد أو بالبخل بالإضافة إلى اليد، كما قال الأعشى في المدح:

يَدَاهُ يدا مَجْدٍ فَكَفٌّ مُفيدَةٌ وكَفٌّ إذَا ماضَنَّ بالزَّاد تُنْفِقُ

ومثل ذلك في كلام العرب وأشعارها أكثر من أن يحصى، فخاطبهم الله بما يتعارفونه، ويتحاورونه بينهم في كلامهم.. فقال: إن اليهود قالوا إن الله يبخل علينا، ويمنعنا فضله، فلا يفضل كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء، ولا بذل معروف، تعالى الله عمّا قال أعداء الله.

فقال الله يكذبهم، ويخبرهم بسخطه عليهم «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» أي أمسكت أيديهم

---

(82) جامع البيان جـ1 ص 87 - 91

(83) المائدة 18

(84) الإسراء 29

عن الخيرات، وقبضت عن الانبساط بالعطيات، ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان بالبذل والعطاء، وأرزاق العباد .

وبمثل الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل....

وبعد أن ذكر آراءهم المتفقة مع هذا التأويل شرع يناقش المتكلمين فقال: «واختلف أهل الجدل في تأويل قوله «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» قال بعضهم: عني بذلك «نعمتاه مبسوطتان ، بمعنى يد الله على خلقه، ونعمه عليهم لأن العرب تقول لك عندي يد، يعنون بذلك نعمة .

وقال آخرون من أهل الجدل: عني بذلك القوة، نظير قوله تعالى: «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي»(85) وقال آخرون منهم: بل يداه ملكه، ومعنى قول اليهود «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» ملكه وخزائنه، كقول العرب للملوك: هو ملك يمينه، وفلان بيده عقدةُ نكاح فلانة، أي يملك ذلك، وكقوله تعالى: «فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً»(86)

وقال آخرون منهم: يد الله صفة من صفاته ، هي يد غير أنها ليست بجارحة كجوارح ابن آدم، لأن الله تعالى أخبر من خصوصية آدم بما خصه به من خلقه إياه بيده، وإلا لم يكن مخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم، إذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ومشيئته، وهو لجميعهم مالك وإذ خصّ آدم بأنه خلقه بيده، دُونَ غيره من عباده، كان معلوما أنه خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق.

وبهذا يبطل تفسير اليد بالقوة، والنعمة، والملك في هذا الموضع ولو أن المراد باليد النعمة لكان الرد عليهم بل يده مبسوطة، ولم يقل بل يداه مبسوطتان، لأن نعمة الله لا تحصى بكثرة، وبذلك جاء التنزيل في قوله تعالى: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا»(87)

قالوا: ولو كانت نعمتين كانتا مُحْصَاتَيْنِ.... الخ (88)

---

(85) ص 45

(86) المجادلة 12

(87) النحل 18

(88)جامع البيان جـ6 ص 193

2- وكذلك صوّب الطبري رأي السلف في رؤية الله يوم القيامة، ورد على المعتزلة الذين أنكروا هذه الرؤية يوم القيامة(89)

والأمثلة كثيرة.... ونكتفي بذكره هذا القدر.

11 - الإدلاء برأيه :

من المعالم الأساسية في تفسير الإمام الطبري أنه كثيراً ما يعلن رأيه عقب كل خلاف، فيرفض رأيًا، ويرجح رأيًا آخر، مدللا على أسباب الرفض والترجيح، معللا لتصويب ماذهب إليه.

1- من أمثلة الرفض أنه استبعد رأيًا لمجاهد مع ثقته به، ووصف رأيه بأنه فاسد ومخالف للإجماع.

قال في تفسير قوله تعالى: «**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**»(90)

«ولقد عرفتم الذين تجاوزوا حدي، وركبوا ما نهيتهم عنه في يوم السبت، عصوا أمري فمسختهم قردة بمعصيتهم.

وذكر عن ابن عباس أنّ الله حرّم عليهم في يوم السبت ما أحلّ لهم في غيره، ومنْ صيد الحيتان وأكلها، فكانت تقبل يوم السبت إلى ساحل بحرهم، فإذا انتهى السبت مضت، فاجترأ بعضهم على صيدها يوم السبت فمسخهم الله قردة، إلا الذين كانوا ينهون عن السوء.

وكذلك قال قتادة والسدي.

ثم ذكر عن مجاهد أن الله لم يمسخهم، إنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب مثل الحمار يحمل أسفارا...

وعلقّ الإمام الطبري على رأي مجاهد بقوله: «هذا القول مخالف لظاهر ما دل عليه كتاب الله، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبدة

---

(89) المصدر نفسه جـ7 ص 199 - 203

(90) البقرة 65

الطاغوت، ثم أخبر أنهم قالوا لنبيهم أرنا الله جهرة، وأن الله أصعقهم عند مسألتهم... ذلك وأنهم عبدوا العجل، فجعل توبتهم قتل أنفسهم وأنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة، فقالوا لنبيهم : «**اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**»(91)

فابتلاهم بالتيه...

ومن ذكر شيئا من ذلك، وأقر بآخر سئل البرهان على قوله وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقّر به، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح.

«هذا مع خلاف قول مجاهد لقول جميع الحجة (92) التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب، فيما نقلته مجمعة عليه، وكفى دليلا على فساد قول مجاهد إجماعها على تخطئته(93).

والحق أن رأي مجاهد جدير بالاعتبار لا بالإنكار «وقد فسر الزمخشري الآية: بأنهم جمعوا بين الصغار والطرد من رحمة الله، وهذا هو المفهوم من الآية، وكان على الطبري ألا ينكره ويحمل على ماذهب إليه (94)

12 - التقليل من الأساطير:

قلّل الطبري من ذكر الإسرائيليات والنصرانيات والأساطير لأنها كما ذكر مرات لا قيمة لها..

كما قال في المائدة التي نزلت على عيسى، وهل كان عليها طعام، أو لم يكن عليها طعام؟(95)

وكما قال في تفسير قوله تعالى في سورة يوسف «**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**»

---

(91) المائدة 24

(92) يريد بجمع الحجة : أصحاب الحجة والأدلة

(93) جامع البيان جـ1 ص264

(94) الطبري لأحمد الحوفي ص168

(95) جامع البيان جـ11 ص9

أما الدراهم المعدودة، فإنه يعني عز وجل أنهم باعوه بدراهم غير موزونة ناقصة غير وافية لزهدهم فيه.

وقيل إنما قيل معدودة ليعلم بذلك أنها كانت أقل من الأربعين، لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أربعين درهما، لأن أقل أوزانهم وأصغرها كان الأوقية، وكان وزنها أربعين درهما، فدل بقوله:«مَعْدُودَةٍ» على قلة الدراهم التي باعوه بها..

قال بعضهم: كان عشرين درهما.

وقال بعضهم: كان اثنين وعشرين درهما، أخذ كل واحد من إخوة يوسف وهم أحد عشر رجلا درهمين منها...

وقال آخرون: بل كانت أربعين درهما.

ثم علّق الإمام الطبري على ذلك بقوله: «والصواب أن يقال:أنه أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة، غير موزونة، ولم يحدد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب، ولا خبر من الرسول، وقد يحتمل أن يكون الثمن عشرين، ويحتمل أن يكون الثمن اثنين وعشرين، ويحتمل أن يكون أربعين، ويحتمل أن يكون أقل من ذلك أو أكثر، وأيّ ذلك كان فإنها كانت معدودة غير موزونة وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل دخول ضرر فيه.

والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع علمه فيه تكلف (96) .

(96) المصدر نفسه جـ12 ص103

تمهيد

قبل أن نبدأ الحديث عن الدرس البلاغي في تفسيره نسجل عدة حقائق وهي:

أولا: إن ابن جرير يتحفظ كثيرا جدا من صرف العبارة على غير ظاهرها، ويحاول -جاهداً- رضي الله عنه أن يقف بالعبارة القرآنية عند دلالتها الظاهرة، وهو حين ينقل من آراء السلف ما فيه صرف عن الظاهر، فإنه عند الترجيح، يقلل من قيمة الصرف، ويميل إلى ما عداه.

ثانيا: أنه مع هذا التحفظ الشديد فإن الدرس البلاغي يبرز واضحا وقويا في تفسيره، والباحث فيه يجد الشواهد على هذا الدرس في كثير من مجالاته إلى درجة تفوق إحصاء المحصي المتعجل لكثرتها وهذا ما سوف يتأكد لنا جيدا من واقع تفسيره بل ومن مختاراته في كثير من المواضع...

ثالثا: لقد كان الدرس البلاغي ومباحث البلاغة جميعها مبثوثة مخلوطة، حتى عصر الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- في أعمال النحاة واللغويين مثل: سيبويه والفراء وأبي عبيدة وابن قتيبة والمبرد... والأدباء والنقاد وسائر البلاغيين مثل ابن المعتز والقرشي والجاحظ ولم تستقل تمام الاستقلال .

ولذلك نرى الإمام ابن جرير يعزي التوجيهات البلاغية في تفسيره إلى مدرسة الكوفة كثيرا، وإلى مدرسة البصرة حينا آخر.

أو يقول: «وكان بعض المنسوبين إلى معرفة العربية يقولون كذا، وكلام قريب من هذا»

«وتجده في مسائل الإعراب، واختلاف القراءات، وأسباب النزول وعدد الآي والميزان الصرفي، والنحوي، طالما يستند إلى مدرسة الكوفة، ويحقق القول، بما تقتضيه، والدراسة الإحصائية لترجيحاته اللغوية نحوا وصرفا واشتقاقا أو تركيبا تثبت صحة هذه الدعوى من عمل المتخصصين بالدراسات النحوية، وإن كان لا يرفض آراء البصريين بل ويسرد كثيرا منها في حدود»(1)

---

(1) مدرسة الكوفة في تفسير القرآن ، محمد حسين علي الصغير - مجلة المورد مجلد 17 العدد الرابع ص203 بغداد 1988

الفصل الثاني
الدرس البلاغي في تفسير الطبري

تمهيد

المبحث الأول:

الاستفهام

الأمر والنهي

المبحث الثاني :

علم البيان في تفسير الطبري

المجاز في تفسير الطبري

مفهوم المجاز عند البلاغيين

المجاز العقلي في تفسير الطبري

المجاز المرسل في تفسير الطبري

الاستعارة في تفسير الطبري

الكناية والتعريض في تفسير الطبري

التشبيه وخصائصه في تفسير الطبري

رؤية الطبري في فن التشبيه

- تشبيه المحسوس بالمحسوس
- تشبيه معقول بمعقول
- تشبيه المعقول بالمحسوس
- تشبيه المحسوس بالمعقول
- تشبيه التمثيل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: إن الحس البلاغي للإمام ابن جرير يبدو واضحا في حسن تذوقه، وروعة استقباله للنص القرآني الذي يتجلى في نظمه العجيب، وتأليفه البديع.

ومن أجمل ما قال في ذلك عن إعجاز القرآن وبلاغته :

«ومن أشرف تلك المعاني التي فضل الله بها كتابنا عن سائر الكتب قبله، نظمه العجيب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سوره الخطباء، وكلت عن وصف شكله البلغاء، وتحيرت الشعراء»(2)

من هذا النص يبدو واضحا مدى الحس البلاغي للإمام ابن جرير، فهو لم يقف عند التفسير اللغوي -وحده- بل إنه خرج بالتفسير من اللغوب إلى الإيضاح والتأويل، إذ جعل إعجازه قائما على تلاؤم الألفاظ، وائتلافها مع تحدى الرسول صلى الله عليه وسلم للعرب أن يأتوا بمثله لأنه بلغتهم، ولفظه كلفظهم.

ثم ذكر الوجوه والأسرار التي أدت إلى التفاوت بين بلاغة القرآن التي عجزت العرب وبلاغتهم، وما أتى منها في اللسان العربي كالتقديم والتأخير، والاستعارة والإيجاز والإطناب....

كما نفهم من نص الإمام الطبري أن التحدي لم يكن في الإتيان بمثل ألفاظ القرآن، ولا بمثل معانيه، وإنما كان بالإتيان بمثل أقصر سورة نظما وتأليفا.(3)

خامسا: إننا سوف نبدأ الحديث عن الدرس البلاغي في تفسير الإمام الطبري في الاستفهام، ولربما يتساءل البعض، ولماذا الاستفهام، ولم يكن المجاز أو التشبيه أو الاستعارة؟ فنقول: إن استعمال الاستفهام عندما يخرج عن دلالة وضعه إلى الإنكار، أو التوبيخ أو التعجب.. هو بداية المجاز، هذه الظاهرة البلاغية التي واكبت البحث البياني منذ طفولته وصباه إلى نضوجه واكتماله...

المبحث الأول : الاستفهام

ورد الاستفهام في القرآن الكريم على أصل معناه : وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول كما في قوله تعالى: «**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**»(4)

---

(2) جامع البيان جـ1 ص65

(3) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق حفني ناصف ص35

(4) النازعات 42

وقوله تعالى:«قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.....»؟(5)

وقوله تعالى:«إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟...»(6)

وقوله تعالى:«قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا» وقوله: «ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ»(7) وهذا كثير في القرآن الكريم... وهو ماذكره الإمام الطبري في مواطن تلك الآيات... ولكن الأكثر منه خروج الاستفهام عن أصل وضعه لمعان أخرى، تفهم من سياق الأسلوب وتركيب الكلام.

فيخرج الاستفهام إلى الإنكار، ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفي، وما بعده منفي،...ومنه التوبيخ على فعل وقع، وكان الأولى ألا يقع، أو على ترك فعل ما كان ينبغي ألا يقع... ومنه التقرير...ومنه التعجب، ومنه التهويل والتخويف ومنه الاستهزاء والسخرية أو الاستبعاد...الخ

وخروج الاستفهام عن أصل وضعه من الظواهر الأسلوبية التي لفتت أنظار الدارسين والباحثين منذ عهد مبكر، ولم يخل عمل من أعمال الرواد من الوقوف عنده أو الإشارة إليه، والإمام الطبري واحد من أولئك الرواد الكبار الذين وقفوا أمام هذه الظاهرة البلاغية، وأشاروا إلى أسرارها الفنية بعمق... ومن الأمثلة التي استوقفه فيها جمال أسلوب الاستفهام لخروجه إلى معنى بلاغي بدلا من الدلالة الوضعية قوله تعالى:«كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ»؟(8)

فقد أشار إلى معناه المخروج به إليه مرتين، قال في الأولى(9)

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا : توبيخ مستعتب عباده وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصي إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الإنابة» فهذا كما يرى الطبري وكثير من المفسرين غيره خطاب من الله لنا معاشر الأحياء قبل أن نموت؛ ولذلك فهو يرد على من يرى أنه خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم فيها، وهذا نصّ

(5) الشعراء 23
(6) المائدة 112
(7) البقرة 68-69
(8) البقرة 28
(9) جامع البيان جـ1 ص 107

كلامه» وأمّا وجه تأويل من تأول ذلك أنه الإماتة التي هي خروج الروح من الجسد، فإنه ينبغي أن يكون ذهب بقوله:«وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا» إلى أنه خطاب إلى أهل القبور بعد إحيائهم في قبورهم، وذلك بعيد، لأن التوبيخ هنا إنما هو توبيخ على ما سلف وفرط من إجرامهم، لا استعتاب ولا استرجاع (10)

يعني أنه يلزم من رأى من قال إن هذا سؤال لأهل القبور فهو وإن تضمن توبيخا فإنه نوع من العقاب على ما سلف وفرط من الإجرام لا استعتاب ولا استرجاع فيه، وهذا كما قال بعيد، لأن المراد من الآية الكريمة الاستدلال على عظم أنعام الله على الناس، وهدايتهم إلى الطاعة والامتثال مع نصب العلاقات الدالة على استحقاق الخالق المتفضل للإقرار بوحدانيته، وعبادته وحده وحسن الثناء على نعمه...

وما ذهب إليه الطبري هو الصواب. وهذا من المواضع التي اختار فيها ابن جرير ترجيح التأويل المجازي على إبقاء العبارة على ظاهرها لأن الرأي الذي رده هنا ذهب إلى إبقاء الموت والحياة في قوله تعالى: «وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ» على ظاهرهما، والطبري يختار أن الموت هنا هو خمول الذكر، ونقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنه(11)

وقال في الموضع الثاني: «وكيف بمعنى التعجب والتوبيخ لا بمعنى الاستفهام كأنه قال: ويحكم كيف تكفرون بالله كما قال: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ»

وما فهمه الطبري من الاستفهام هنا صحيح، ولكنه غير واف لأن دلالة الاستفهام في الآية الكريمة على الإنكار واضحة، ويكون التوبيخ الذي نص عليه هو وغيره من توابع الإنكار وروادفه، على أن المراد بالإنكار فيه إنكار الموقع أو المتوقع لا إنكار الوقوع الذي هو نفي وتكذيب.

والفرق كبير بين نفي غير الواقع الذي هو نفي محض، وبين إنكار الواقع الذي كان ينبغي أن لا يكون، وهو الإنكار المحض.

وقد خصّ بعضهم الاستفهام بمعنى النفي التكذيبي - وإن عنون له بالإنكار- بما كان الاستفهام فيه خبرا وليس إنشاء (12)

---

(10)جامع البيان جـ1 ص147

(11) المجاز للمطعني جـ 1 ص 438

(12) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ2 ص 328 - 329

مع أنه غير مختص بنوع من أنواع الاستفهام، وإن كان التكذيبي في الخبر أظهر وأكثر.

2- ومن المواضع التي عرض لها الطبري.. في تفسيره قول الله تبارك وتعالى: «**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**»(13) وبعد أن عرض الطبري آراء العلماء، وعدّد الرّوايات الواردة في ذلك، قال في الموازنة والترجيح: «وأولى هذه التأويلات بقول الله جلّ ثناؤه مخبرا عن ملائكته قيلها له: «**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**» تأويل من قال إن ذلك منها استخبار لربها بمعنى :«أعلمنا ياربنا: أجاعل أنت في الأرض، من هذه صفته وتارك أن تجعل خلفاءك منا، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك»؟ «لا إنكار منها لما أعلمها ربها أنه فاعل، وإن كانت قد استعظمت لما أخبرت بذلك أن يكون لله خلق يعصيه... »(14)

وعبارة الطبري يفهم منها أنه يمنع خروج الاستفهام، ويفضل التأويل الذاهب إلى بقاء العبارة على ظاهرها بدون صرف عنه...

وهذا رأي وجيه... ولكنه يعود فيجعل العبارة مفيدة للاستعظام، وهو التعجب.. وهذا قريب من الرأي القائل بأن الاستفهام هنا- على حقيقته لكنه مشوب برائحة التعجب.

فكأن المنفي عند الطبري تمحض الاستفهام للتعجب، لا كون التعجيب من مستتبعات العبارة، والدليل على هذا قوله بعد ذلك: «وأما دعوى من زعم أن الله جل ثناؤه كان أذن لها بالسؤال عن ذلك فسألته على وجه التعجب -(أي الخالص) فدعوى لا دلالة عليها في ظاهر التنزيل، ولا خبر بها من الحجة يقطع العذر، وغير جائز أن يقال في تأويل كتاب الله بما لا دلالة عليه من بعض الوجوه التي تقوم بها الحجة.. »(15)

---

(13) البقرة 30

(14) جامع البيان جـ1 ص 209

(15) المصدر نفسه

وقد سبق للطبري وهو يعرض ماقيل في الآية من تأويلات: من ذلك أيضا... أن الملائكة سألت على وجه التعجب.

وقال بعض أهل العربية: «قول الملائكة: «أتجعل فيها من يفسد فيها» على غير وجه الإنكار منهم، وإنما سألوه ليعلموا، وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون، وقال: قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يعصى الله ، لأن الجن قد كانت أمرت قبل ذلك فعصت...

«وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا: يارب خبرنا: مسئلة استخبار منهم لله لا على وجه مسئلة التوبيخ(16) إلى آخر ما ذكر من أوقوال مرفوضة عنده... ولكنه -وهذا العجيب الغريب- أنه يذكر قولين يقول عنهما: «وغير فاسد مارواه الضحاك عن ابن عباس، وتابعه عليه الربيع بن أنس» ثم يقول: «وغير خطأ ما قاله ابن زيد من أن يكون قيل الملائكة ما قالت من ذلك على وجه التعجب منها من أن يكون لله خلق يعصي خالقه»(17) ولا تعليق لنا على ذلك. ! ! !

3- ومما عرض له الطبري توجيه الاستفهام في قوله تعالى: «**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**»(18) والآية تتحدث عن حرمة أخذ المهور من الزوجات.

وقف ابن جرير أمام الآية والاستفهام فيها وأوجزه قائلا: «وهذا كلام، وإن كان مخرجه مخرج الاستفهام، فإنه في معنى النكير والتغليظ، كما يقول الرجل لآخر كيف تفعل كذا وكذا، وأنا غير راضٍ به، على معنى التهديد والوعيد»(19)

4- وقد سلك الطبري هذا المسلك في قول الحق سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام: «**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**»

حيث رأى ابن جرير أن الاستفهام هنا خرج عن دلالة الوضع، وصور هذا في سؤال سائل: يقول: «وما كان وجه سؤال الله عيسى، وهو العالم أن عيسى لم يقل

---

(16) جامع البيان جـ1 ص 208
(17) المصدر نفسه جـ1 ص209
(18) النساء 21
(19) جامع البيان جـ4 ص214

ذلك»؟(20) و إيراده هذا السؤال كاف في الدلالة على تجويز الطبري المجاز هنا سواء أصاب في الإجابة أم لم يصب وهذا الوجه هو ما سماه البلاغيون من علماء البيان المتأخرين أنه محمول على الإنكار والتوبيخ لغير المخاطب، وبيان ضلال من قال هذا القول من النصارى.

والطبري يحمل ذلك كما يفهم من كلامه على وجهين: أحدهما تحذير عيسى من هذا القول: والثاني إعلامه بانحراف قومه من بعده(21)

وعلى كلّ فالاستفهام خارج -عنده- عن دلالة الوضع... ولكن جوابه فيه شيء من القصور إذ لا معنى -والله أعلم- لتحذير عيسى عليه السلام من مثل هذا القول، وبخاصة إذا كان سؤال الله عيسى سيقع يوم القيامة وليس ببعيد، ولا هو مستنكر، أن نقول إن الاستفهام هنا للتعريض بضلال من قال هذا القول... فالسؤال كان ليجيب عيسى عليه السلام بما أجاب، فتظهر براءته من القول الذي نسبه إليه النصارى، ويتحقق ضلالهم فيه... والاستفهام الخارج عن دلالة الوضع صالح لإفادة التعريض وإن لم يشتهر عند البلاغيين(22)

5- وقد عرض الطبري لذلك في قوله تعالى: «**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**»(23)

وإذا كان علماء البلاغة يقولون بخروج الاستفهام عن دلالة الوضع إلى معنى التعجب(24) فإن الطبري يميل إلى التعبير في خروج الاستفهام هنا إلى معنى التعجب والتقبيح، والتعريض وذلك بحمل معنى التعجب تلميحا لا تصريحا أو ضمنا لاشكلا...

فهو يقول بعد أن عرض أقوال أهل التأويل في تفسير الآية وفي معنى البر... يقول عند الترجيح والموازنة:« فالتأويل الذي يدل على صحته ظاهر التلاوة إذا: «أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه، فهلاّ تأمرونها بما تأمرون به

(20)جامع البيان جـ7 ص89
(21) المصدر نفسه
(22) المجاز للمطعني جـ1 ص442
(23) البقرة 44
(24) من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص164

الناس من طاعة ربكم معيّرهم بذلك ومقبحا إليهم ما أتوا به.....

«أفلا تعقلون» أفلا تفقهون، وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم فتناهم عن هذا الخلق القبيح»(25)

6- وفي خروج الاستفهام عن دلالة الوضع إلى النفي والنهي يتّضح ذلك في آيات كثيرة ذكرها الطبري في مواضعها...ومنها:

قوله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»(26)

يقول الطبري في تفسيره للآية الكريمة: «يعني تعالى ذكره بقوله «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ» أكنتم ، ولكنه استفهم بأم إذ كان استفهاما مستأنفا على كلام سبقه كما قيل «أَلم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ»؟(27)

وكذلك تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه فيه بأم... وتأويل الكلام... أكنتم يامعشر اليهود والنصارى المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم الجاحدين نبوته حضور يعقوب، وشهوده إذ حضره الموت، أي إنكم لم تحضروا ذلك، فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتنحلوهم اليهودية، والنصرانية... فإني ابتعثت خليلي إبراهيم، وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة وبذلك وصوا بنيهم، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم...وهذه الآيات نزلت تكذيبا من الله لليهود والنصارى(28)

7- والطبري يطنب القول في تحليل الاستفهام في قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»(29)

---

(25) جامع البيان جـ1 ص259

(26) البقرة 133

(27) السجدة 1-2-3

(28) جامع البيان جـ1 ص562

(29) الأنعام 40

ولا ينقل فيه رأيًا لغير أهل العربية من نحويي البصرة ونحويي الكوفة، ثم ينتهي إلى أن معنى: أرأيت: أخبرني، ومعنى أرأيتكم أو أرأيتم: أخبروني... ولم يذكر فيه شيئا غير هذا (30) وهو نفس المعنى الذي أشار إليه بعض المتقدمين وأكد من تكراره المتأخرون...

وهذا واضح في كلام عبد القاهر والسكاكي والخطيب -رحمهم الله- ولكن فات الطبري أنّ يوجه الاستفهام قبل الفاصلة: «أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ»؟ وهو كما تقدم لنا من نقول للإنكار على المخاطب، والمنكر فيه هو ما ولي همزة الاستفهام....

8- وأحيانا يؤول الطبري الاستفهام بأنه خبر، ويستعمل الخبر المدلول عليه بالاستفهام من معان مجازية لم يوضع لها الخبر، ترى ذلك واضحا في تأويله لقوله جل ثناؤه: «يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا»

قال الطبري موجّها الاستفهام في هذا الموضع: «معناه قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه...»(31) وهذا صريح بأن المراد بالاستفهام هنا الخبر، فيكون الاستفهام قد خرج عن دلالة الوضع، وهي طلب الفهم إلى الخبر، والمخاطبون به عالمون بمضمون الخبر فلم يرد من الخبر هنا فائدته ولازمها لأن كلا من المستفهم والمستفهم منه عالم بالمضمون، ولم يرد المستفهم أن يعلم المستفهم منه أنه...أي المستفهم عالم بالمضمون...وانتفاء الفائدة ولازمها عن الخبر خروج به إلى معان مجازية وهي كما صورها الطبري: «وهذا من الله جل ثناؤه تقريع وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي»

الاستفهام هنا -حسب كلام الطبري- قد تجوز به عن الخبر، وتجوز بالخبر عن التقريع والتوبيخ فهو من مجاز المجاز.

وكم الاستفهامية موضوعة للسؤال عن العدد، وقد تخرج كمثيلاتها إلى معان أخرى؛ ومنها التكثير، وقد فسرها به المؤلف في قوله تعالى: «وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ»(32)

(30) جامع البيان جـ7 ص121
(31) المصدر نفسه جـ8 ص27
(32) الأعراف 4

وفي هذا يقول الطبري:

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حذّر هؤلاء العابدين غيري، والعادلين بي الآلهة والأوثان سخطي، لأحلّ بهم عقوبتي فأهلكهم كما أهلكت من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، فكثيرا ما أهلكت قبلهم من أهل قرى عصوني، وكذبوا رسلي، وعبدوا غيري «فجاءها بأسنا بياتا»... يقول: «فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلا قبل أن يصبحوا، أو جاءتهم قائلين...يعني نهارا في وقت القائلة...

«وقيل» وكم لأن المراد بالكلام ماوصفت من الخبر، عن كثرة ما قد أصاب الأمم السالفة من المثلات بتكذيبهم رسله، وخلافهم عليه.

«وكذلك تفعل العرب، إذا أرادوا الخبر عن كثرة العدد..كما قال الفرزدق:

كَمْ عمَّة لَكَ ياجريرُ وخالةٍ فَدْعَاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِشَارِي(33)

فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره إنما أخبر أنه أهلك قرى، فما في خبره عن إهلاكه القرى من الدليل على إهلاكه أهلها؟ قيل: إن القرى لا تسمى قرى، ولا القرية قرية إلاّ وفيها مساكن لأهلها، وسكان منهم، ففي إهلاكها إهلاك من فيها من أهلها.

«وقد كان بعض أهل العربية يرى أن الكلام خرج مخرج الخبر عن القرية، والمراد به أهلها، والذي قلنا في ذلك أولى بالحق (34)

الأمر والنهي:

ولم يقف الطبري في هذا الدرس البلاغي على خروج الاستفهام وحده بل لحظ خروج الأمر كذلك:

من ذلك قوله تعالى: **«إِنَّ الذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ القِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ**

---

(33) البيت للفرزدق (ديوانه طبعة الصاوي بالقاهرة ص451 من قصيدة يهجو بها جريرا). الفدعاء : صفة من الفدع وهو اعوجاج الرسغ من اليد والرجل حتى ينقلب الكف والقدم إلى انسيهما. حلبت على: أي على كره مني. عشارى جمع عشراء التي مضى عليها في الحمل عشرة أشهر.
والشاهد في كم عمة ، فإن كم خبرية بمعنى ، عدد كثير وقيل استفهامية تهكمية، ولذلك تصب عمة على التميز في بعض الروايات . ورواية الشطر الأول في الديوان: «كم عمة لك ياجرير وخالة » .
(34) جامع البيان جـ8 ص118

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»(35)

يقول: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» وهذا أيضا وعيد خرج مخرج الأمر....

وقد خرج الأمر مخرج الوعيد والتهديد في قوله تعالى: «قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»(36)

فقد قال فيه: «وقوله تعالى ذكره لنبيه : قل لقومك ياقوم اعملوا على مكانتكم أمر منه له بوعيدهم، وتهديدهم، لا إطلاق لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله»(37)

والأصل في النهي أن يكون لطلب الكف على سبيل التحريم كما في قوله تعالى: «وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ»(38)

وقد لحظ الطبري أن النهي قد يخرج إلى أغراض بلاغية أخرى مثل الدعاء، وذلك عند تفسيره لآيات كثيرة ، منها قوله : « رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»(39)

قال: «وهذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه، وما يقولون في دعائهم، ومعناه: قولوا: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا شيئا فرضت علينا عمله، فلم نعمله أو أخطأنا في فعل شيء نهيتنا عن فعله ففعلنا، على غير قصد منّا إلى معصيتك(40)

وفي قوله تعالى: «رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»(41)

---

(35) فصلت 40
(36) الأنعام 125
(37) جامع البيان جـ8 ص39
(38) الإسراء 33
(39) البقرة 286
(40) جامع البيان جـ3 ص155
(41) آل عمران 8

فيقول: «إنهم يقولون رغبة منهم إلى ربهم في أن يصرف عنهم ما ابتلى به الذين زاغت قلوبهم من اتباع متشابه آي القرآن ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله الذي لا يعلمه غير اللّه: ياربنا لا تجعلنا مثل هؤلاء الذين زاغت قلوبهم عن الحق، فصدوا عن سبيلك «**لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا**» لا تهملها، فتصرفها عن هداك «**بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**» له فوفقنا للإيمان بمحكم كتابك ومتشابهه «**وَهَبْ لَنَا**» ياربنا «**مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً**» يعني من عندك رحمة يعني بذلك: هب لنا توفيقا وثباتا للذي نحن عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه، «**إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**» يعني: إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والسداد والثبات على دينك، وتصديق كتابك ورسلك(42)

(42) جامع البيان جـ3 ص187

المبحث الثاني : علم البيان في تفسير الطبري

مفهوم المجاز عند الطبري :

يقسم البلاغيون المجاز قسمين: مجازا عقليا، ومجازاً لغويا، ويجعلون الأول في إسناد الفعل أو ما يشبهه إلى غير فاعله الأصلي لملابسته له...

وحكمة هذا الإسناد حينا قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيسي في الجملة.... وقد يكون هو الركن الذي لا يتم العمل بدونه، كما ترى ذلك في قوله سبحانه: «**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**»(43)

فإسناد الذبح إلى فرعون لأنه الآمر به، ولولاه ما حدث، وما الجند المنفذون سوى آلات مسخرة تفعل ما تؤمر به...

وعلى هذا المنوال جاء قوله تعالى: « **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ، فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا**»(44)، فمن هامان الوزير يصدر الأمر لأتباعه بإعداد مواد البناء، ورفع الصرح...

وقوله تعالى: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ..**»(45) . ونحن نجد أنّ هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفراً هم العنصر الفعال فيما آل إليه حال قومهم من عقبى السوء، لأنهم هم الذين كانوا سبب إضلالهم وكفرهم...

ولما كان يوم القيامة تملؤه أحداث مرعبة، تملأ النفوس هولا يتسبب عنها لشدتها الشّيب، وكان هذا اليوم ظرفا لتلك الأحداث، صح أن يسند الشيب إليه في قوله تعالى: «**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**»(46) ، وقد أجاز ذلك شدة الارتباط بين الأحداث وظرفها كما أنّ شدة الارتباط بين العيشة وصاحبها جعلت من الجميل نسبة الرّضا إليها في قوله تعالى: «**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**

---

(43) القصص 3
(44) غافر 36
(45) ابراهيم 28
(46) المزمل 17

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ..»(47)

أما الثاني وهو المجاز اللغوي: فهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولا لصلة بين المعنيين غير صلة التشابه .

وقد لاحظت أن كثيرا ممّن تعرضوا لدراسة المجاز اللغوي في القرآن الكريم، قد أسرفوا وتجاوزوا الحدود عندما ذهبوا يتلمسون أمثلته، ويبوّبونه، ويذكرون أقساما كثيرة له، حتى بلغوا من ذلك حد التفاهة، وخالفوا الذوق اللغوي.. فوجدوا مثلا في قوله تعالى: «إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ»(48) مجاز لغويا، من وصف الكل بصفة البعض، إذ الوجل محله القلب...وقياسا على ذلك جعلوا مثل: محمد عالم، وجاهل وراغب وخائف، وما على شاكلتها، مجازا لغويا.

ووجدوا كذلك في قوله سبحانه وتعالى:«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»(49) مجازا لغويا، لأن البشارة والإنذار بعض مافي القرآن، وفي قوله سبحانه وتعالى «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ»(50) وجدوا مجازا لغويا، لأن الشهر اسم لثلاثين ليلة، وقد أريد جزء منه إلى غير ذلك، ومن أمثلة يطول بي وجه إحصائها، وبيان ما فيها من تكلف، وتفاهة،...

ولو سرنا على منهجهم لوجدنا في كل ما ننطق به مجازا، وليس في ذلك كبير نفع، مادامت الكلمة لا تسترعي انتباه القارئ، ولا تستوقفه لتبين السرّ في استخدامها...

لا أريد أن أمضي في بيان ما تكلفوه، وجروا وراءه من تلمس الأسباب لعدد من الآيات من باب المجاز اللغوي...وكل ما أريد قوله هنا هو: أنّ أكثر هذه الكلمات، أصبحت توحي بالفكرة من غير أن يشار في النفس المعنى المجازي.. خذ مثلا قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ..»(51)

---

(47) القارعة 7

(48) الحجر 52

(49) فصلت 3، 4

(50) البقرة 185

(51) المنافقون 4

فإنهم قالوا: إن فيه إطلاق الكل على البعض، والمراد تعجبك وجوههم، لأن الأجسام لا ترى كلها، وإنما يرى الوجه فحسب، ولا أرى تأويلا أبعد من هذا التأويل عن روح الآية،...فالجسم، وإن كان لا يرى كله، من المستطاع أن يدرك الإنسان بنظره ما عليه الجسم من جمال يبعث على الإعجاب، ولا تريد الآية: تعجبك وجوههم، ولكنها تريد يعجبك ما عليه أجسامهم من ضخامة وما يبدو فيها من مظاهر النماء والقوة، وما عليه وجوههم من جمال ونضرة....

وخذ قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، ... ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ...»(52)

قالوا: إنه من إطلاق الجزء وإرادة الكل، فقد عبر بالوجوه عن جميع الأجساد، لأن النّصب والتنعم حاصل لكلها، ولا أرى الذهن في حاجة إلى أن يفهم هنا من الوجه معنى الجسم، لأنّ النصب والنعمة يظهران أتم ظهور على الوجه....

وخذ مثلا قوله تعالى: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»(53) قالوا: إنه من إطلاق الملزوم على اللازم؛ إذ المراد: هل يفعل فأطلق الاستطاعة على الفعل لأنها لازمة له، ولا أرى في ذلك كبير عناء...

ولكنك لا تعدم في بعض الأحيان روعة في بعض ماعدّوه من ألوان هذا المجاز، كما في قوله تعالى: «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ»(54)

وقوله سبحانه وتعالى: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ»

وقد لا تكون اليد هي الفاعلة، ولكن لما كان أكثر الأعمال بها جمل هذا التعبير وراق(55)

المجاز العقلي في تفسير الطبري

مرت شواهد من كلام ابن جرير على خروج الاستفهام عن دلالة الوضع الذي سمي

---

(52) الغاشية 2-9

(53) المائدة 112

(54) البقرة 19

(55) من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص223

فيما بعد مجازا... وهي شواهد كافية بمقياس البحث العلمي للتعرف على موقف ابن جرير من هذا الدرس البياني الذي واكب البحث البلاغي منذ طفولته وصباه إلى اكتماله ونضوجه....

وهذه نماذج من الشواهد في تفسير الطبري تؤكد معرفته فيما عرف بعد بالمجاز العقلي أو الحكمي الإسنادي منذ كتابات عبد القاهر وإلى الآن . وأول ما عرض له ابن جرير الطبري من هذا النوع قوله جلّ ذكره في شأن النصارى «**وَلاَ الضَّالِّينَ**» في سورة الفاتحة «**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**» والذي دعاه لما قاله فيه بعد رده لمذهب جهلة القدرية -كما يقول الطبري نفسه حيث يستدلون بنسبة الضلال إلى النصارى، وأنهم هم فاعلو الضلال، وعدم نسبة ضلالهم إلى «الله» على أن الله ليس له في أفعال العباد خلقه سبب من أجله وجدت أفعالهم(56)

هذه قضية كلامية أثارت الطبري وحملته حملا على توجيه هذا الكلام، فسلك به مسلك المجاز العقلي...

يقول الإمام الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل أي القرآن

«وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية، أن وصف الله جلّ ثناؤه، النصارى بالضلال بقوله: «**وَلاَ الضَّالِّينَ**» وإضافة الضلال إليهم دون إضافته إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذي وصف به اليهود أنهم المغضوب عليهم، دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية جهلا منه بسعة كلام العرب، وتصاريف وجوهه، ولو كان الأمر على ماظنه الغبي الذي وصفنا شأنه لوجب أن يكون شأن كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل، لايجوز أن يكون فيه سبب لغيره، وأن يكون كلّ ما كان فيه من ذلك لغيره سبب، فالحق فيه أن يكون مضافا إلى مسببه، ولو وجب ذلك لوجب أن يكون خطأ قول القائل: تحركت الشجرة إذا حركتها الرياح، واضطربت الأرض، إذا حركتها الزلزلة، وما أشبه ذلك، من الكلام الذي يطول بإحصائه الكتاب » (57) .

وفي قول الله جل شأنه: «**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ**» بإضافة

---

(56) القدرية هم المعتزلة، ومذهبهم تنزيه الله عن الأفعال القبيحة، وأن العباد هم فاعلو أفعال أنفسهم الاختيارية «انظر الفَرق بين الفرق ص94

(57) جامع البيان جـ1 ص84 - 85

الجري إلى الفلك، وإن كان جريها بإجراء غيرها إيّاها مايدل على خطأ التأويل الذي تأوله من وصفنا قوله في قوله: «ولا الضالين» وإدعائه أن في نسبة الله جل ثناؤه، الضلالة إلى من نسبها إليه من النصارى تصحيحا لما ادعى المنكرون أن يكون لله جلّ ثناؤه، في أفعال خلقه سبب من أجله وجدت أفعالهم، مع إبانة الله عزّ ذكره، نصا في آي كثيرة من تنزيله أنه المضلّ الهادي، فمن ذلك قوله جل ثناؤه «**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**» فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادي دون غيره، ولكن القرآن نزل بلسان العرب..

«ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه، وإن كان مسببه غير الذي وجد منه أحيانا، وأحيانا إلى مسببه، وإن كان الذي وجد منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذي يكتسبه العبد، كسبًا ويوجده الله جل ثناؤه عينا منشأة...بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبا له بالقوة منه عليه، والاختيار منه له. وإلى الله جل ثناؤه بإيجاد عينه، وإنشائها تدبرا»(58) هذه قضية كلامية حملت الإمام الطبري على هذا التوجيه. فالفعل الاختياري الصادر عن العبد يصح إسناده إليه بما له به من علاقة الاختيار والميل وفعله بالقوة، ويصح كذلك إسناده لله لأنه الموجد الحقيقي للفعل.. وعلى هذا يكون الإسناد إلى العبد هو الإسناد المجازي.

هذا ما أراد أن يقوله الإمام الطبري، وقد بين أن هذا من سنة العرب في القول، وقد شنع على من لم يدرك هذا التصرف فقال: «وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية، جهلا منه بسعة كلام العرب، وتصاريف وجوهه». إلى آخر ما ورد في العبارة السابقة .

وإذا نظرنا إلى الأمثلة التي أوردها في العبارة نجده يجوز إسناد الفعل إلى مفعوله في: تحركت الشجرة، واضطربت الأرض، وإن كان الفاعل -كما ذكر- الرياح والزلزلة، وإسناد الفعل إلى المفعول واحدة من صور الإسناد الحكمي.

أما إسناد الضلال إلى العبد فهو -كما يفهم من كلامه- من إسناد الفعل إلى سببه المباشر. (59)

---

(58)جامع البيان جـ1 ص84 - 85

(59) المجاز للمطعني جـ1 ص446

ومن المواضع التي أوضح فيها الإمام الطبري أصالة هذا الاستعمال واستشهد عليه بمأثور كلام العرب قوله تعالى: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**»(60)

فقد لحظ كما لحظ غيره من الرواد أنّ في إسناد الربح إلى التجارة خروجا عن أصل الاستعمال، فاستشعر فيه سؤالا ثم أجاب عليه فقال:(61) «فإن قال قائل: فما وجه قوله تعالى: «**فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**» وهل التجارة ممّا تربح أو تنقص، فيقال ربحت أو وضعت؟ قيل إن وجه ذلك على غير ما ظننت وإنما معنى ذلك فما ربحوا في تجارتهم لا فيما اشتروا ولا فيما شروا، ولكن الله جل ثناؤه خاطب بكتابه عربًا فسلك في خطابه إياهم وبيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضا، وبيانهم المستعمل بينهم. فلما كان فصيحا لديهم قول القائل لآخر: خاب سعيك، ونام ليلك، وخسر بيعك، ونحو ذلك من الكلام الذي لايخفى على سامعه ما يريد قائله، خاطبهم بالذي هو في منطقهم من الكلام، فقال:«**فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**» إذ كان معقولا عندهم أن الربح إنما هو في التجارة، كما النوم في الليل، فاكتفى بفهم المخاطبين، بمعنى ذلك عن أن يقال: فما ربحوا في تجارتهم، وإن كان ذلك معناه كما قال الشاعر:

وشَرّ المَنايا ميتٌ وسْط أهله كَهَلْك الفَتَاةِ أسْلَم الحيّ حاضره

يعني بذلك: وشرُّ المنايا منيّة ميت وسط أهله، فاكتفى بفهم سامعه قبله مراده من ذلك عن إظهار ما ترك إظهاره..

وكما قال رؤبة بن العجاج:

حارِثُ قَدْ فَرّجْتَ عنّ هَمي فنام ليْلي وتَجَلّى غَمّي

فوصف بالنوم الليل، ومعناه أنه هو الذي نام

وكما قال جرير بن الخطفي:

وأعورَ من نبهان أمّا نَهارُه فَأعْمَى، وأمّا ليْلُه فَبصيرُ

فأضاف العمى والإبصار إلى الليل والنهار، ومراده وصف النّبهاني بذلك

---

(60) البقرة 16

(61) جامع البيان جـ1 ص139

وفي قول الشاعر: وشر المنايا ميت وسط أهله....الخ

فهذا إن قلنا إنه مجاز عقلي ففيه إسناد الفعل إلى أحد ملابساته وهو هنا السبب المؤثر لأن الربح بسبب التجارة يكون...

وبنحو هذا فسره الفراء(62)

وقد استشهد الطبري بقول رؤبة بن العجاج وبقول جرير...

وقال في كلام رؤبة: فوصف بالنوم والليل ومعناه أنه هو الذي نام.

وقال في بيت جرير: أضاف العمى والإبصار إلى الليل والنهار، ومراده وصف النبهاني بذلك.

وهذا من الإسناد إلى الزمان، لأن الليل هو زمان النوم في قول رؤبة، وزمان الإبصار في قول جرير، والنهار هو زمان العمى في قول جرير...

والذي أفاد أن رؤبة هو النائم، والنبهاني هو الأعمى نهارا البصير ليلا إن كلا من الشاعرين قد أضافا الليل والنهار إلى ضمير الفاعل الحقيقي، ولو قطعت الإضافة فقيل: فنام ليل، ونهار أعمى، وليل بصير لتحقيق التجوز في الكلام، لكن مع عمومية الوصف المتناول لجميع الأفراد(63)

شاهد آخر:

قوله تعالى : « **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ....** »(64)

فقد أسند إخراج آدم وحواء من الجنة إلى ضمير الشيطان،..وهنا نجد الطبري يتعقب هذا الموضع فيقول:(65) في جامع البيان...

قال أبو جعفر: وأما تأويل قوله تعالى:«**فَأَخْرَجَهُمَا**» فإنه يعني مما كان فيه آدم وزوجته، من رغد العيش في الجنة... وإنما أضاف إخراجهما من الجنة إلى الشيطان، وأضيف ذلك لتسببه إياه كما يقول القائل لرجل وصل إليه منه أذى حتى

---

(62) معاني القرآن للفراء جـ1 ص5

(63) المجاز للمطعني جـ1 ص447

(64) البقرة 36

(65) جامع البيان جـ1 ص234 ومابعدها

تحول من أجله من موضع كان يسكنه: «ماحولني من موضعي الذي كنت فيه إلا أنت، ولم يكن له منه تحويل، ولكن لما كان تحوله عن سبب منه جاز له إضافة تحويله إليه»(66)

لا جدال في أن المخرج إنما هو الله تبارك اسمه، وقد صرح في قوله تعالى : «**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا**» بالأمر الصادر منه لآدم وحواء، وللشيطان نفسه بالهبوط من الجنة، وهذا ما سوغ القول بأن في إسناد الإخراج إلى الشيطان تجوزا في الكلام، لحظه الرواد، وحققوا القول فيه، وإن لم يسموه مجازا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرواد، ومنهم الطبري قد حرصوا في هذا النوع من التأويل على بيان العلاقة المصححة للتجوز، هذا وقد بقي من صور المجاز العقلي في تفسير الطبري صور أخرى نجتزئ منها بصورتين مهمتين ونذر ما عداهما خشية التطويل لأن فيما ذكرنا كفاية في الدلالة على ما نريده من هذه الدراسة.

الصورة الأولى :

وهي الصورة التي وقف عندها جميع الرواد، وأطلقوا عليها مصطلح الاتساع في الكلام، ثم أحلوا مصطلح المجاز محل الاتساع مع تقدم البحث وتطوره وهي قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم: «**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا..**»(67) فقد حللها الطبري تحليلا مجازيا، وإن لم يصرح بالمجاز. يقول في ثنايا حديثه عن الآية المذكورة: «وإن كنت متهما لنا لا تصدقنا على ما نقول من أن ابنك سرق، فاسأل القرية التي كنا فيها وهي مصر: يقول سل من فيها من أهلها، والعير التي أقبلنا فيها، وهي القافلة التي كنا فيها والتي أقبلنا منها معها»(68) يقول عبد العظيم المطعني :«أجمع الرواد ومن جاء بعدهم على أن المراد من القرية في هذه الآية هم أهلها وساكنوها، وهكذا صنع ابن جرير الطبري، وقد تقدم مرارا نوع المجاز في مثل هذا الاستعمال، لاستحالة أن يقع السؤال على القرية نفسها من حيث هي أبنية ومكان» (69) .

---

(66)جامع البيان جـ1 ص239

(67) يوسف 82

(68) جامع البيان جـ13 ص 45

(69) المجاز للمطعني جـ1 ص449

الصورة الثانية :

وهي قوله تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ»

وقد سلك الطبري في تأويل الآية نفس المسلك الذي سلكه في آية إخوة يوسف عليه السلام فقال:

قوله تعالى: «فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» يقول تعالى ذكره: أذاق الله أهل هذه القرية لباس الجوع، وذلك جوع خالط أذاه أجسامهم، فجعل الله تعالى ذكره ذلك لمخالطته أجسامهم بمنزلة اللباس لها، وقوله :«بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» بما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله ويجحدون آياته ويكذبون رسوله.

وقال في قوله: «بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ»

وقد جرى الكلام من ابتداء الآية إلى هذا الموضع على وجه الخبر عن القرية لأن الخبر، وإن كان جرى في الكلام عن القرية استغناء بذكرها عن أهلها فلذلك قيل «بما كانوا يصنعون» فرد الخبر إلى أهل القرية...

ونظير ذلك قوله تعالى:«فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ»(70) ولم يقل: قائلة(71)

المجاز المرسل:

وقد خرّج الإمام الطبري كثيرا من آيات القرآن الكريم التخريج الذي سماه البلاغيون فيما بعد المجاز المرسل.

والآيات التي خرّجها الطبري هذا التخريج كثيرة، نذكر منها:

1- قوله تعالى في شأن اليهود:«وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»(72) أي : لن يتمنوا الموت .

يقول الطبري: في هذه الآية، وأما قوله « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ »، فإنه يعني بما

---

(70) الأعراف 4

(71) جامع البيان جـ8 ص118- 119

(72) البقرة 95

أسلفته أيديهم، وإنما ذلك مثل على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها، فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرّها، أو جناية جناها فيعاقب عليها: نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدمت يداك، فتضيف ذلك إلى اليد، ولعل الجناية التي جناها فاستحق بها العقوبة كانت باللسان أو الفرج أو غير ذلك من أعضاء جسده سوى اليد...

«وإنما قيل بإضافته إلى اليد، لأن معظم جنايات الناس بأيديهم فجرى الكلام باستعمال الجنايات التي يجنيها الناس إلى أيديهم حتى أضيف كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده إلى أنها عقوبة على ما جنته يداه»(73)

فلذلك قال جل ثناؤه للعرب: «**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**» يعني به: ولن يتمنى اليهود الموت بما قدموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله في مخالفتهم أمره وطاعته في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوارة، ويعلمون أنه نبي مبعوث، فأضاف جلّ ثناؤه، ما انطوت عليه قلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم من حسد محمد صلى الله عليه وسلم: والبغي عليه وتكذيبه وجحود رسالته إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم لعلم العرب، معنى ذلك في منطقها وكلامها، وإذ كان جلّ ثناؤه إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها»(74) وبالتأمل في هذا التخريج، والوقوف عند هذا التوجيه نجده صالحا تمامًا للحمل على المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، كالرقبة في العنق، والعين في الترقب.

وقد تحققت في الجزء هنا الخصوصية التي يشترطها البلاغيون في التجوز بالجزء عن الكل، فمثلما كانت الرقبة ذات خصوصية في العنق، والعين ذات خصوصية في الترقب كانت اليد ذات خصوصية في الكسب لأن الأعمال غالبا ما تصدر عنها فصح أن يضاف إليها ما عمله صاحبها مهما كانت الأداة المستعملة في العمل والكسب، وكون هذا مما سلكته العرب في كلامها يؤكد إطلاق المجاز عليه، لأن استعمال العرب كان شاملا للحقائق والمجازات، وإن لم يسموا استعمالاتهم بشيء

(73) جامع البيان جـ1 ص427
(74) المصدر نفسه

من هذا(75)

2- ومن أوضح الأمثلة للمجاز المرسل في دائرة الدرس البلاغي عند الطبري تخريجه لقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»(76) يقول الإمام الطبري(77) في جامع البيان:

«يعني تعالى ذكره بقوله «أُولَئِكَ» هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب في شأن محمد صلى الله عليه وسلم: بالخسيس من الرشوة يعطونها، فيحرفون لذلك آيات الله، ويغيرون معانيها «مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ» بأكلهم ما أكلوا من الرشا على ذلك والجعالة، وما أخذوا عليه من الأجر «إِلَّا النَّارَ» يعني إلا ما يوردهم النار ويصليهموها كما قال تعالى ذكره :«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» معناه: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم، فاستغنى بذكر النار، وفهم السامعين معنى الكلام عن ذكر ما يوردهم أو يدخلهم، وهذا التخريج من الطبري صالح للحمل على المجاز المرسل، وعلاقته اعتبار ما سيكون...» وقريب من ذلك تأويله لقوله تعالى: «أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ» .

فقد وجهه بقوله: «يدعونكم إلى النار، يعني يدعونكم إلى العمل بما يدخلكم النار» وهذا مجاز مرسل علاقته -كسابقه -اعتبار ما يكون.

وعدل به عن الحقيقة التي هي يدعونكم إلى العمل السيّء للمسارعة بالإنذار والتهويل من عاقبة ما يدعونهم إليه، أو يدعونكم إلى الكفر (78)

وهذا أولى لتضمنه سوء العمل، وأيًا كان المعنى، فأبلغية المجاز فيه من حيث جعل الدعوة إلى السبب دعوة إلى المسبب لما فيه من ترهيب وتخويف.

---

(75) المجاز للمطعني جـ1 ص451

(76) البقرة 174

(77) جامع البيان جـ1 ص82 - 90

(78) الكشاف جـ1 ص361

3- وفي قوله تعالى: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ...»(79) يقول الطبرى في جامع البيان «....وقال من أفواههم، وإنما بدا ما بدا من البغضاء بألسنتهم، لأن المعنى به الكلام الذي ظهر للمؤمنين منهم من أفواههم... فقال بدت البغضاء من أفواههم بألسنتهم...» (80) .

وإجماع المتأخرين على أن هذا مجاز مرسل علاقته الآلية، لأن اللسان آلة الكلام...

4- ومن هذا تخريجه لقوله تعالى: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ»(81)

وقوله تعالى:« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»(82)

فقد أوّل الأول: بنكاح أمهاتكم.

وخرج الثاني: بأسباب الموت(83).

وهما على هذا صالحان للحمل على المجاز المرسل بعلاقتين مختلفتين فيهما فالأمهات في مكان «النكاح» عام أريد به خاص.

والموت في مكان الأسباب من استعمال المسبب في السبب وقد عدّ العز بن عبد السلام الموضع الأول من أمثلة المجاز الذي ترتب على حذف المضاف(84)

5- ومما أجمع البلاغيون على أنه مجاز مرسل، فسروه بما فسره به الطبري قول الحق سبحانه وتعالى:«....أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»(85) فإن الطبري حللها تحليلا رائعا وهذا نصه:

«يعني تعالى ذكره بذلك أو فك عبد من أسر العبودية وذلها، وأصل التحرير الفك من الأسر، ومنه قول الفرزدق:

---

(79) آل عمران 118

(80) جامع البيان جـ4 ص64 - 65

(81) النساء 23

(82) آل عمران 143

(83) جامع البيان جـ4 ص71 - 220

(84) الإشارة إلى الإيجاز ، للعز بن عبد السلام ص170

(85) المائدة 89

أَبَني عُدَانَةَ إنَّني حَرَّرْتكم فَوَهَبْتُكم لِعطيَّة بن جَعَّال(86)

يعني بقول حررتكم: فككتُ رقابكم من ذل الهجاء ولزومه العار، وقيل تحرير رقبة، والمحرر صاحب الرقبة، لأن العرب من شأنها إذا أسرت أسيراً أن تجمع إلى عنقه بقيد أو حبل أو غير ذلك.

وإذا أطلقته من الأسر أطلقت يديه وحللتهما مما كانتا فيه به مشدودتين إلى الرقبة فجرى الكلام عند إطلاقهم الأسير بالخبر عن فك يديه عن رقبته وهم يريدون الخبر عن إطلاقه من أسره، كما يقال قبض فلان يده عن فلان إذا أمسك يده عن نواله وبسط فيه لسانه إذا قال فيه سوءا فيضاف الفعل إلى الجارحة التي يكون ذلك الفعل دون فاعله لاستعمال الناس ذلك بينهم، وعلمهم بمعنى ذلك(87)

ثم يقول: فكذلك في قوله تعالى ذكره :«**أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**» أضيف التحرير إلى الرقبة، وإن لم يكن هناك غل رقبته، ولا شديد إليها وكان المراد بالتحرير نفس العبد بما وصفنا من جري استعمال الناس ذلك بينهم لمعرفتهم بمعناه(88)

والمعروف عند علماء البلاغة أن هذا التعبير «تحرير رقبة» مجاز مرسل في الرقبة ويراد بها الذات، حيث أطلق الجزء وأريد الكل. وكلام الطبري يفيد أن في التعبير نفسه موطنا آخر للمجاز المرسل وهو كلمة «التحرير» فقد بين أن المراد منها الفك، وبيّن ما كانت تصنعه العرب بأسراها فيكون -بناء على ماذكر- ذكر التحرير مراداً به الفك الحسي مجازا مرسلا علاقته اعتبار ما كان.

6- ومن المجاز المرسل تخريجه لقوله تعالى: «**فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**» حيث فسر الترك بالنسيان .

يقول: «ففي هذا اليوم وذلك يوم القيامة ننساهم: يقول: «نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا» يقول الدكتور المطعني: «إن احتمال هذا التوجيه للمجاز المرسل هو أقرب الوجوه المحتملة فيه، والعلاقة اللزومية، لأن من نسي شيئا

---

(86) البيت في ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي ص726) ، من قصيدة عنوانها: وقال لجرير وحررتكم: أي اعتقتكم . يريد: من هجائي - وعطية بن حصال كان صديقا له، ولعله من بني غدانة، وهم حي من بني يربوع .

(87) جامع البيان جـ7 ص26-27

(88) المصدر نفسه

ترتب على نسيانه إياه تركه.... وهذا واضح والأمثلة كثيرة جدا في تفسير الإمام الطبري.. فقد ذكر تخريجات لكثير من آي القرآن تشابهت مع علماء البيان في المجاز المرسل الذي هو أحد نوعي المجاز اللغوي» (89) .

ومن هذا يتبين لنا أن هذا الدرس البلاغي كان حاضرا في تفسيره وإن لم يُسمِّهِ مجازا ، فالمدار على الموضوع لا على التسميات...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(89) المجاز للمعطني جـ1 ص155

الاستعارة في تفسير الإمام الطبري

لقد خرج الإمام الطبري آيات كثيرة لا حصر لها وحلّلها تحليلا مجازيا، وهذه الآيات من مجاز التشبيه، والاستعارة كما هو معلوم أساسها التشبيه فهي تشبيه حذف أحد طرفيه وقد بيّن الطبري أصل الوضع وما خرج إليه الاستعمال... وقد صرح في موضع مبكر من تفسيره بسنة العرب في استعارتها الكلمات التي لها معان لم توضع لها.. وذلك أكثر ما يكون وضوحا في الاستعارة التصريحية بنوعيها: الأصلية، والتبعية.

ومن نماذج الاستعارة التصريحية الأصلية:

1- عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الفاتحة: «**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...**» فقد قال في هذا الشأن (90)

«وقد زعم بعضهم أن معنى قوله: «**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**» اسلكنا طريق الجنة في المعاد -أي قدمنا له- وامض بنا إليه، كما قال جل ثناؤه :«**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**» أي ادخلوهم النار كما تهدي النار تهدى المرأة إلى زوجها، يعني بذلك أنها تدخل إليه، وكما تهدي الهدية إلى الرجل، وكما تهدي الساق القدم » ، نظير قول طرفة بن العبد:

لَعِبَتْ بَعْدِي السُّيُولُ به ... وجَرى في رونْقِ رهَمُهْ

للفتى عَقْلٌ يَعِيشُ بـــه ... حيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُهْ

ولكن الطبري لا يرتضي أن يكون الصراط هو طريق المعاد، إنما هو طريق الثبات على الهدى فيما بقي من العمر...

يقول: «والعرب تقول: هديت فلانا الطريق، وهديته للطريق، وهديته إلى الطريق «إذا أرشدته إليه وسددته له... وبكل ذلك جاء القرآن...(91)

ثم يقول...«قال أبو جعفر: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى:

---

(90) جامع البيان ج1 ص73

(91) المصدر نفسه

أمير المؤمنين على صِرَاط إذا اعْوج المَوَارِدُ مستقيم

يريد على طريق الحق. ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي :

صَبحْنا أرْضَهُمْ بِالخَيْل حتّى تركْناها أدقّ من الصّراط

ومنه قول الراجز:

فَصَدّ عنْ نَهْجِ الصِّرَاطِ القَاصِدِ

«....والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا غنى عما تركنا»

«..ثم تستعير العرب الصراط، فتستعمله في كل قول وعمل، يوصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوجّ باعوجاجه» .

«....والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني «**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**» أن يكون معنيًا به: وفقْنا للثبات على ما ارتضيته، ووفقت له مَن أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق لما وفق له مَن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجره عنه واتباع منهج النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكل عبد لله صالح. وكل ذلك من الصراط المستقيم...»(92)

وبعد ذلك يسرد الإمام الطبري أقوالا للسلف الصالح على صحة ما ذهب إليه ومنها أقوال مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أنه فسر الصراط هنا بالقرآن، وقد روى ذلك عن الإمام علي كرم الله وجهه وروايات أخرى(93)

مغزى هذا الكلام في تفسير الطبري للآية الكريمة:

ولكلام الإمام ابن جرير الطبري هذا قيمة خاصة، ومغزى هام في تأكيد درس هام من أبرز دروس البلاغة . وذلك لعدة اعتبارات منها:

أ- أنه حكى إجماع الأمة من أهل التأويل جميعا على أن المراد بالصراط وضعا هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فيكون استعماله في غيره -مثلما في الآية الكريمة- خروجًا به غير معناه.... وهذا هو المجاز في أوضح صورة،

(92) جامع البيان جـ1 ص73-74

(93) المصدر نفسه جـ1 ص 75

والاستعارة في أكمل شروطها...

ب- أنه نقل عن السلف آثارا بعضها مرفوع إلى رسول صلى الله عليه وسلم(94)

وهذه الآثار تفيد في وضوح أن المراد بالصراط في هذه الآية الكريمة غير ما وضع له وهو كتاب الله ...

جـ- أن هذا الإجماع الذي حكاه الطبري يؤكد حضور الدرس البلاغي في القرآن وقد اختاره الطبري وقواه بالآثار التي استشهد بها.. وبخاصة عندما يقول: ....ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول أو عمل وصف باستقامة أو اعوجاج...الخ

2- ومن النماذج كذلك:

أنه عندما شرع في تأويل قوله تعالى: «**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**»(95) أبان تأويله من وجهين من وجوه الدرس البلاغي: المجاز العقلي الواقع في الإسناد، والمجاز اللغوي المتصرف في معنى الكلمة(96)

أما الأول فهو لازم قوله: «فأخبر الله أنّ في قلوبهم مرضا، وإنما عنى تبارك وتعالى بخبره عن مرض قلوبهم الخبر عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد، ولكن لما كان معلوما بالخبر عن مرض القلب أنه معني به مرض ما هم معتقدوه من الاعتقاد استغنى بالخبر من القلب والكناية عن تصريح الخبر ضمائرهم، واعتقادهم كما قال عمر بن لجأ:

وسبَحَت المدينة لاتَلُمْها رَأَتْ قَمَرًا بسوقهم نهارا

يريد وسبح أهل المدينة فاستغنى بمعرفة السامعين خبره، بالخبر عن المدينة عن الخبر عن أهلها.

ومثله قول عنترة العبسي:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك إنْ كنْتِ جَاهِلةً بما لَمْ تَعلَمي

(94)جامع البيان جـ1 ص74

(95) البقرة 10

(96) المجاز للمطعني جـ1 ص451

يريد هل سألت أصحاب الخيل؟ ومنه قولهم: ياخيل الله اركبي، يريد يا أصحاب خيل الله اركبوا.

والشواهد على ذلك أكثر من أن يحصيها كتاب»(97)

وهذا التأويل الذي خرجه الطبري عند علماء البلاغة من صور المجاز اللغوي الذي أسند فيه الفعل «سبح» إلى المكان «المدينة» أما الفعل: «سألت الخيل» في بيت عنترة العبسي: فهو واقع على غير ما حقه أن يقع عليه.... وكل ذلك يصح حمله على المجاز العقلي بخلاف: «ياخيل الله اركبي» حيث نودي غير العاقل، فحمله على الاستعارة المكنية أقرب...

وأمّا المجاز اللغوي التشبهي فيؤخذ من قول الطبري: «معنى قول الله في قلوبهم مرض: إنما يعني في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين... والمرض الذي ذكره الله جلّ ثناؤه أنه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفنا، هو شكهم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله، وتحيرهم فيه، فلا هم موقنون إيقان إيمان، ولاهم منكرون إنكار شرك»(98)

فقد فسر المرض بالشك...

وهذا معناه أن شكهم في كونه مفسدا لمعتقداتهم، شبيه بالمرض الذي يفسر ما حل به من الأجسام.... والطبري يقصد التشبيه وإن لم يصرح به هنا، لأنه سبق أن قال في أول كلامه:(99)

«وأصل المرض السقم، ثم يقال ذلك في الأجساد والأديان» فالمراد بالأصل: هو أصل الوضع، وليس في هذا نزاع،... واستدل الطبري على صحة تأويله هذا -كعادته- بأقوال السلف ومنها ما نقله بسنده عن عبد الرحمن بن زيد: «هذا مرض في الدين، وليس مرضا في الأجساد» وما نقله عن ابن عباس رضي الله عنه: المرض: «النفاق»(100) فهذا -إذن مجاز لغوي على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية وكذلك ذهب الطبري في تأويل قوله تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ

(97) جامع البيان جـ1 ص120-123
(98) المصدر نفسه
(99) المصدر نفسه جـ1 ص120
(100) المصدر نفسه جـ1 ص121

لِبَاسٌ لَهُنَّ»(101)

فقد خرّج الطبري الإخبار عن النساء بأنهن لباس لأزواجهن، وأزواجهن لباس لهن على وجهين كلاهما واضح فيه التخريج الاستعاري.

بيد أن أحدهما حسي، شبهت فيه حالة الزوجين من حيث التلاصق والالتفاف عند النوم باللباس الحسي في كونه ساترا لمن لبسه وملاصقا له.

والثاني معنوي حيث جعلت المرأة ثوبا للرجل من حيث أنها تعفه وتغنيه عمن سواها، فهو ساكن إليها، وهي سكن له، وكذلك الرجل... كما جوز فيه أن يكون كناية، وقد استشهد على ما قال من كلام العرب (102) والواقع أنّ الآية الكريمة من باب التشبيه البليغ.(103)

وقد أفاض الطبري في تأويل قوله تعالى: «**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**»(104) وكان حصيلة ما قاله: أن المراد من الخيط الأبيض هو النهار، والمراد بالخيط الأسود هو الليل... فهما إذن استعارتان أصليتان شبه فيهما كل من الليل والنهار بما يناسبه، وله في هذا الموضع نقول مأثورة لها قيمتها في هذا المجال، أولاها بالذكر، ومارواه عن عدي بن حاتم، وقد ذكره بسنده مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حاتم:

«أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلمني الإسلام، ونعت لي الصلوات كيف أصلي كل صلاة لوقتها، ثم قال: [أي رسول الله]- إذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتم الصيام إلى الليل، ولم أدر ماهو، فقتلت خيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما عند الفجر فرأيتهما سواء...

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يارسول الله، كل شيء أوصيتني به قد حفظت غير الخيط الأبيض والأسود، قال: وما منعك يا ابن حاتم وتبسم كأنه قد علم ما فعلت فقلت خيطين من أبيض وأسود فنظرت فيهما فوجدتهما سواء،

---

(101) البقرة 187

(102)جامع البيان جـ2 ص26

(103) المجاز للمطعني جـ1 ص409

(104) البقرة 187

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رؤي نواجذه ثم قال: «ألم أقل لك من الفجر، إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل»

فهذا خبر قاطع لكل شك، ودافع لكل نزاع، ومن أحق باعتبار كلامه في تأويل كتاب الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

وطبعا نحن لا نتوقع ولا ننتظر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يقول لنا: هذا مجاز، وهذا تشبيه، وهذه استعارة.... لأن مصطلحات الدرس البلاغي وضعت في فترة لاحقة... وهذا التأخير في ظهور هذه المصطلحات لا تأثير له في نفي الحقائق من العلوم والفنون وغيرها، ولو كان وجود هذه المصطلحات شرطا في التسليم بوجود المسميات للزم القول برفض أكثر العلوم والفنون الإسلامية(105) وكذلك الأمر في كثير من مصطلحات علوم اللغة. (106)

الاستعارة التبعية

الاستعارة التبعية وهي تلك التي أطلق عليها المتأخرون هذا المصطلح... والطبري في جامع البيان كانت له وقفات متعددة، وتخريجات شتى لآيات من القرآن الكريم... ومن ذلك على سبيل المثال:

1- في قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ...»(107)

وقد أورد الطبري سؤالا ثم أجاب عنه فقال: «فإن قال قائل: وكيف يختم على القلوب، وإنما الختم طبع على الأوعية والظروف، والغلف؟ قيل: فإن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم... فمعنى الختم عليها، وعلى الأسماع التي بها تدرك المسموعات، ومن قبلها يوصل إلى معرفة حقائق الأشياء من المغيبات، نظير معنى الختم على سائر الأوعية»(108)

فقد شبه منع الهداية إلى قلوب الذين كفروا بالختم والطبع على الأوعية الحسية: وهذا معناه صائر إلى الاستعارة التبعية لأن «ختم» بمعنى «منع» ويدل على لحظة

---

(105) جامع البيان جـ1 ص460

(106) وتوخيا للإيجاز اكتفينا بهذه الشواهد ، راجع شواهد أخرى في جامع البيان منها جـ1 ص32-104 و ص110-121 وجـ 8 ص 15 و جـ11 ص 22 - 40 .

(107) البقرة 7

(108) جامع البيان جـ1 ص112 -113

للتشبيه بينهما قول «نظير» أي شبيه ومثيل. كما أنه صرح بعد ذلك بقليل بأن هذا جعل مثلا لهذا.

هذا وكلام الطبري يحتمل وجوها أخرى من التخريج المجازي، اقتصرنا فيه على ما تقدم لأنه موطن الشاهد...(109)

2- ومما أوله الطبري، وخرجه على الاستعارة التبعية قوله تعالى: «**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**»(110)

والإحاطة لا تكون إلا بشيء مادي في الأصل، لذلك نقل الطبري عدة تخريجات، ومجموعة تأويلات منها «والله محيط بالكافرين: بمعنى جامعهم فمحل بهم عقوبته...»(111) وقد نسب هذا التأويل لمجاهد رضي الله عنه. شبه جمعه إياهم، وإحلال العقوبة بهم دون أن يخفي عليه منهم خافية بإحاطة المحيط بمن فيه، بجامع عدم الفوات، والفرار، والقبض الشديد في كل....

3- ومن هذا التخريج والتأويل في تفسير قوله تعالى: «**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...**»(112)

فقد فسر «النقض» بالترك

حيث قال: «...ونقضهم ذلك، تركهم العمل به...»(113) ومعلوم أن النقض لغة هو فك التركيب، وإنما عبر بالنقض بعد أن شبه العهد بالحبل... فينقضون بمعنى يتركون...وفي هذا تقع الاستعارة التبعية.

4- ومن هذا التخريج والتأويل تفسيره لقوله تعالى: «...**وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ..**»(114)

قال:«....وأما قوله: «**وَقَفَّيْنَا**» يعني وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض كما يقفو الرجل الرجل إذا سار في أثره، وأصله من القفا يقال منه: «قفوت فلانا إذا

---

(109) المجاز للمطعني جـ1 ص461
(110) البقرة 20
(111)جامع البيان جـ1 ص122
(112) البقرة 27
(113) جامع البيان جـ1 ص142
(114) البقرة 87

سرت خلف قفاه»(115)

ففي تشبيه مجيء الرسل وبعثهم واحداً إثر واحد في التعاقب الزمني بسير الرجل خلف الرجل في التعاقب المكاني استعارة تبعية لا ريب...

هذا وقد حرص الطبري على الإشارة إلى أصل المعنى اللغوي، وبيان السرف تشبيه المعنى المجازي به.

وللاستعارة التبعية في جامع البيان مواضع أخرى(116)

وإشارات الطبري وتخريجاته لجميع أنواع الاستعارة أكثر من أن تحصى. وترخيا للإيجاز وعدم التطويل فإننا نشير إلى مواقف ومواقع وقف أمامها الطبري وقد لحظ فيها الجانب الاستعاري ومن ذلك قوله تعالى:

1- «رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا»(117)

2- «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ...»(118)

3- «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» (119)

4- «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا»(120)

5- «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ»(121)

6- «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ»(122)

7- «قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن

---

(115) جامع البيان جـ1 ص319

(116) المصدر نفسه جـ1 ص 146 - 150 و ص202 وجـ2 ص299 وجـ7 ص 126 وجـ10 ص126 وجـ14 ص 77 وغيرها.

(117) مريم 4

(118) جامع البيان جـ30 ص42

(119) الأنبياء 18

(120) آل عمران 103

(121) الفجر 13

(122) الأعراف 154

تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ...»(123)

وهذا مثال من التفسير يصلح لملحظ الطبري للاستعارة التي عرفت عند المتأخرين بالاستعارة التهكمية.. فقد قال الطبري «وأما قولهم لشعيب: إنك لأنت الحليم الرشيد» فإنهم أعداء الله قالوا ذلك استهزاء به، وإنما سفهوه وجهلوه بهذا الكلام»(124)

8- ومن الاستعارة التهكمية التي لحظها الطبري قوله تعالى:«ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ....»(125)

(123) هود 81

(124) جامع البيان جـ12 ص102-103

(125) المصدر نفسه جـ25 ص134

الكناية والتعريض في تفسير الطبري

تقوم الكناية في القرآن الكريم بدور بلاغي وأسلوبي، وتؤدي دورها ونصيبها كاملا في آداء المعاني، وتصويرها، خير آداء....

وهي حينا راسمة مصورة موحية، وحينا مؤدّبة مهذبة، تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، وحينا موجزة تنقل المعنى وافيا في لفظ قليل ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية في المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية...

وفي كثير من آيات القرآن لحظ الطبري بحسه المرهف، وذكائه المثقف، هذا الدور البلاغي للكناية، وإن كان لم يسمها بما اصطلح عليه المتآخرون من أسماء ومصطلحات وأقسام وتفريعات بحسب أن يلحظ المسمى ودوره وقيمته وأهميته.

ومن هذه الأمثلة والشواهد:

1- قوله تعالى: «**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**»(126)

إنّ التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق...يوضح لنا الشكل المنفر والمبغوض للبخل في صورة قوية، فهذه اليد التي غلّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد، وهكذا يظهر لنا شكل البخيل الذي لا يستطيع أن يمد يده فيقوم بشيء من الحقوق...

والتعبير ببسطها كل البسط يعطينا شكل وصورة المبذر الذي لا يبقي من ماله شيئا كهذا الذي يبسط يده فلا يبقي بها شيئا..

وهذا ما لحظه الطبري: يقول: «وهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع عن الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال في جعله كالمشدودة يده إلى عنقه الذي لا يقدر على الأخذ...والإعطاء..(127)

«وإنما معنى الكلام: ولا تمسك يامحمد يدك بخلا عن النفقة في حقوق الله، فلا تنفق فيها شيئًا إمساك المغلولة يده إلى عنقه الذي لا يستطيع بسطها...

«**وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**» يقول: «ولا تبسطها بالعطية كل البسط فتبقى لا

---

(126) الإسراء 29

(127) جامع البيان جـ15 ص46

شيء عندك، ولا تجد إذا سئلت شيئا تعطيه لسائلك»(128)

2- ومن ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: «يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»(129)

والبلاغيون يقفون عند الكناية هنا، وما توحي به من أن أي لحم مستكره عند إنسان آخر مثله، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، وهذا القول مبالغة في الاستكراه.

وهذا ما يؤكده الطبري حيث يقول: «كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي»(130)

«وهذا القول مباغلة في الاستكراه، لا أمد فوقها..» وأما قوله :«مَيْتًا» فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته، ولا يحس بها»(131)

3- وقوله تعالى: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ»(132)

وجمال الكناية هنا في قصر الطرف تصويرا للمظهر المحسوس لخلة العفة، ولو أنه استخدم نساء عفيفات ما كان في الآية هذا التصوير المؤثر، ولا رسم أولئك السيدات في تلك الهيئة الراضية القانعة، التي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن ولا يفكرن في غيرهم (133)

وهذا الذي ذكره البلاغيون في باب الكناية وجمالها ونوعها وأنها كناية عن موصوف...

هو ما ذكره الطبري اكتفاء بالمسمى دون التسمية.. يقول الطبري في هذا الموضع: «في هذه الفرش التي بطانتها من استبرق قاصرات الطرف، وهي النساء اللاتي قد

---

(128) جامع البيان جـ 15 ص 46
(129) الحجرات 12
(130) جامع البيان جـ 26 ص 138
(131) كتاب الفوائد : ابن قيم الجوزية ص127
(132) الرحمن 56
(133) من بلاغة القرآن أحمد بدوي 227

قصرن طرفهن كله على أزواجهن...فلاينظرن إلى غيرهم من الرجال(134)

7- وقوله تعالى: «مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ»(135)

وهذه الكناية الموحية بالعجز، والمهذبة المغنية عن أن تسمع الأذن: كانا يتبرزان ويتبولان....وغير ذلك...

إن الإمام الطبري: يحمل كلّ ما ذكره البلاغيون

يقول :قوله: «كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ» خبر من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذيهما، وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم، فإن من كان كذلك فغير كائن إلها... لأن المحتاج إلى الغذاء قوامه بغيره، وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يقيمه، دليل واضح على عجزه والعاجز لا يكون إلا مربوبا لا ربًا »(136) .

وهناك مواضع أكثر من أن تحصى لحظ فيها الطبري هذا اللون من ألوان الدرس البلاغي...بل ولحظ الجانب الجمالي فيه ومن ذلك ما ذكره في هذه الآيات من تفسير وتأويل:

5- قوله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»(137)

6- وقوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّبًا »(138)

7- وقوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»(139)

---

(134) جامع البيان جـ27 ص150
(135) المائدة 75
(136) جامع البيان جـ6 ص315
(137) البقرة 223
(138) النساء 43
(139) يونس 38

التشبيه وخصائصه في تفسير الطبري:

أرى قبل الحديث عن التشبيه في تفسير الطبري وما لحظه من ملاحظ، وما أبدى من تصورات فيها الجديد على عصره، وفيها القديم، أن أذكر نبذة موجزة عن التشبيه عند البلاغيين القدامى... والكثير منها لا يتناسب مع أغراض القرآن وأهدافه من هذا الجانب البلاغي الهام..

فلقد اعتمد القدماء في عقد التشبيه على العقل، يجعلونه رابطا بين أمرين أو مفرقا بينهما، وأغفلوا في كثير من الأحيان وقع الشيء على النفس، وشعورها به سرورا أو ألما.

وليس التشبيه في واقع الأمر سوى إدارك ما بين أمرين من صلة في وقعها على النفس، أما تبطن الأمور، وإدراك الصلة التي يربطها العقل وحده فليس ذلك من التشبيه الفني البليغ...

وعلى الأساس الذي أقامه القدماء نجدهم قد استجادوا قول ابن الرومي:

بَذْلَ الوعد للأخلاء سمحا وأبى بعْدَ ذاكَ بذْلَ العطاءِ

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الإبـــاءِ

وجعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر، وهو جامع عقلي كما نرى لا يقوم عليه تشبيه صحيح.. ذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار، لا ينطبع في نفسه عند رؤيتها سوى جمالها، ونضرة ورقها، وحسن أزهارها، ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال ثمر يجنيه أو لا يكون، ولا يقلل من قيمتها لدى رائيها، ولا يحط من جمالها وجلالها، ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهي أم لا ؟.

فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذي المنظر الأنيق وتعكس صورته منتقصة في نفس رائيه، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها، وبهذا اختلف الواقع لدى النفس بين المشبه والمشبه به.... ولذلك لا يعد من التشبيه الفني المقبول... وقبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس الصلة بينهما، وإن لم تعقدها النفس، فاستجادوا مثل قول الشاعر يصف بنفسجا:

ولاَ زَوَرْدِيّة تزهو بزرقتـها بَيْنَ الرِّياض على حمر اليواقيت

كأنّها فوقَ قاماتٍ ضعفْنَ بها أوائل النّار في أطراف كبريت

فليس ثمة ما يجمع بين البنفسج، وعود الكبريت، وقد بدأت النار تشتعل فيه، سوى لون الزرقة التي لا تكاد تبدأ حتى تختفي في حمرة اللهب وفضلا عن التفاوت بين اللونين، فهو في البنفسج شديد الزرقة، وفي أوائل النار ضعيفها، فضلا عن هذا التفاوت، يجد الوقع النفسي للطرفين شديد التباين، فزهرة البنفسج توحي إلى النفس بالهدوء، والاستسلام، وفقدان المقاومة، وربما أخذت لذلك رمزا للحب، بينما أوائل النار في أطراف الكبريت تحمل إلى النفس معنى القوة، واليقظة، والمهاجمة، ولا تكاد النفس تجد بينها رابطا.

كما استجادوا قول ابن المعتز .

كأنّا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غرابٍ ذي قوادم جون

قال صاحب الإيضاح: شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان، ثم شرط قوادم ريشها بيضاء، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيها، من حيث يلي معظم الصبح وعموده، لمع نور، يتخيل منها في العين، كشكل قوادم بيض»(140) وهكذا لم ير ابن المعتز من الدجى وضوء الصبح سوى لونيهما.. أمّا هذا الجلال الذي يشعر به في الدجى، وتلك الحياة التي يوحي بها ضوء الصبح...فلم يحس بها ابن المعتز...ولم يقدره القدماء...

وقبل الأقدمون من التشبيه ما كان فيه المشبه به خاليا، توجد أجزاؤه في الخارج دون صورته المركبة... وهذا لا يحقق الهدف الفني للتشبيه كاملا، فكيف تلمح النفس صلة بين صورة ترى، وصورة يجمع العقل أجزاءها من هنا وهناك؟ وكيف يتخذ المتخيل مثالا لمحسوس مرئي؟ ونحن نلحظ في تخريجات الطبري قبول ذلك... حينا،...

ونحن نلحظ عدم عناية المتقدمين بوضع حد للتشبيه يضبطه كما فعل المتأخرون وإنما عرفوه صورة توضح الفكرة، وتحس المعنى - كما عرفه امرؤ القيس بقوله:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وعرفه النابغة فقال:

---

(140) من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص188

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهكذا عند طرفه وعنترة والأعشى وغيرهم

وعندما أشرقت شمس الإسلام، سار شعراؤنا سيرة من قبلهم مع تأثرهم بتصوير القرآن الكريم.

والحقيقة الواضحة في دراساتنا للتشبيه: أن التشبيه لم يبحث بحثا مستقلا في باب إلا عند المبرد (ت 285هـ)(141)

والتشبيه قبل المبرد كان مبثوثا في دراسات السابقين؛ فقد يأتي التّشبيه في خلال بحث أي موضوع بعيدا عن التشبيه، ولكن الحديث يتطرق إليه...

فبشار بن برد (ت167هـ) قد عرض له في قوله: «مازلت أروي في بيت امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسًا لدى وكرها العُنّاب والحشف البالي

إذ شبه شيئا بشيئين، حتى صنعت

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه(142)

والخليل بن أحمد مثلا (ت 175هـ) عرف التّشبيه تمثيلا وصوره، وعرف طرفيه في مثال أتى به لبيان جواز وصف النكرة في مثل «له صوت صوت الحمار»(143) وكذلك سيبويه (ت180هـ) تحدث عن التشبيه من خلال موضوع آخر.. ففي باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام، وللإيجاز، والاختصار، يذكر من جملة الاتساع والاختصار مثالا للتشبيه، فيقول: ومثله في الاتساع قوله عز وجل: «**وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً**»(144) «فلم يشبّهوا بما ينعق، وإنما شبّهوا المنعوق بالمنعوق به، وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام، والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى»(145)

(141) الكامل للمبرد جـ1 ص21
(142) الأغاني جـ3 ص196
(143) الكتاب جـ1 ص181
(144) البقرة 171
(145) الكتاب جـ1 ص108

ويفسر الزجاج (ت 316 هـ) كلام سيبويه، فيقول: «قال سيبويه: وهذا من أفصح الكلام إيجازا، واختصاراً، ويلتمس وجها آخر للإيجاز، فيقول: «ولأن الله تعالى أراد أن يشبه شيئين بشيئين الداعي والكفار بالراعي والغنم، فاختصر، ولكنه اكتفى بذكر الكفار من المشبه، والراعي من المشبه به، فدل ما أبقى على ما ألقى، وهذا معنى كلام سيبويه» (146)

وكذلك أبو عبيدة (ت 207هـ) ألف كتابه «مجاز القرآن» بسبب مسألتين مسألة تتعلق بالتشبيه: إذ سئل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى: «**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**»(147)، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقال أبو عبيدة: إنما كلمّ الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرقٌ كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمْر الغول يهولهم أو عيدوا به»(148) ولما جاء الجاحظ (ت 255هـ) تناول فيما تناول التشبيه، وألقى ضوءاً على جملة من قضايا فعقد موازنات بين بعض أحاديث الرسول وبعض أشعار العرب (149)

وتحدث عن وجه الشبه، وأنه يكتفى فيه أن يكون وصفا يجمع بين الطرفين فلا ينظر فيه على جهة الاستيعاب، وإنما يتجه فيه إلى الصفة البارزة في المشبه به (150) وأورد كثيرا من التشبيهات الواردة عن العرب كتشبيه الأبكار ببيض النعام والغيوم بصور النعام، كما أورد كثيرا من التشبيهات المبتكرة النادرة(151) وبين الجاحظ لأبناء عصره، الوصف الجامع بين طرفي التشبيه في قوله تعالى: «**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا**» (152).

---

(146) إعراب القرآن للزجاج جـ1 ص47

(147) الصافات 65

(148) نزهة الألباء ص70 . المشرفي قرى تصنع السيوف نسبة إلى مشارف الشام . البيان في ضوء أساليب القرآن دكتور عبد الفتاح لاشين ص25

(149) الحيوان جـ1 ص99

(150) المصدر نفسه جـ2 ص82

(151) المصدر نفسه جـ4 ص110

(152) المصدر نفسه جـ2 ص6

فالجاحظ، وإن لم يضع حدوداً للتشبيه واضحة، فقد أفاد إلى حد كبير، وألقى ضوءاً على جملة من قضاياه مما أعان المتأخرين على إتمام الصورة من بعده...

وجاء المبرد (ت 285هـ) الذي كان أول من أفاض في التشبيه، ويعتبر صاحب الفضل الأول في هذا الباب من أبواب البلاغة . فوثب بالتشبيه وثبة عالية ووسع مباحثه، وهيأ له فرصة الشيوع....

وقد اعتمد في بحثه للتشبيه على استقرائه للشعر العربي، وجمع الشواهد الشعرية، والقرآنية، وشرح ووازن وفصل، وقسّم .(153)

وإذا كان بعض الباحثين المعاصرين يرى أن تقسيمات المبرد ينقصها وضع الحدود التي تميز كل نوع ، كما أنه حكم على بعضها بالحسن والقبح دون أن يعلل فيكفي المبرد أنه جاء في عصر مبكر، ولا ينتظر منه أكثر من ذلك(154)

وجاء ثعلب (ت291 هـ) وتلميذه ابن المعتز (ت296 هـ) فتناول كل منهما التشبيه(155). وقد عرض كل منهما أبياتا وصورا من التشبيهات الرائعة واكتفى كل منهما بالسرد والإشارة المجملة إلى أنها حسنة أو عجيبة، متجنبا بيان مواطن الحسن والجمال فيها، وكان الحكم فيها حكما عاما من غير تعليل.

وجاء الرماني (ت 386 هـ) وتحدث عن التشبيه ضمن أجزاء البلاغة العشرة واختط لنفسه طريقا غير الذي سلكه من سبقه، حيث اتجه إلى القرآن الكريم يستمد منه استشهاده، ومثل لكل قسم من الأقسام بأكثر من آية ولم يدخل على بحثه بيتًا واحداً من الشعر، وكان بهذا المنهج متفقا مع عنوان بحثه، ملتزما بما أخذه على نفسه في ذكر النكت في إعجاز القرآن(156) . والرماني ببحثه هذا مهد السبيل، وأشار إلى طرق البحث، ويسّر المئونة على من جاء بعده من العلماء الذين أفادوا منه، واغترفوا من فضله، وكانوا عالةً عليه في كثير من أقواله وشواهده (157)

وجاء أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) فوجد طرق البحث ممهدة، وسبل الاستقراء

---

(153) الكامل جـ2 ص35 وما بعدها

(154) فن التشبيه لعلي الجندي جـ1 ص78

(155) قواعد الشعر لثعلب ص 31

(156) النكت في إعجاز القرآن للرماني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص81-82 إلى 85

(157) البيان في ضوء أساليب القرآن عبد الفتاح لاشين ص31

ميسورة، فعقد له بابا تناول فيه فنون التشبيه (158)

وقد استفاد أبو هلال من دراسات السابقين، وخاصة الرماني، وإذا كان الرماني قد اكتفى في بحثه بقصر الأمثلة على آيات القرآن الكريم، فإن أبا هلال نوّع بين الشعر والقرآن في عرض الأمثلة والشواهد، موازنا ومبينا جهة الحسن...

والجديد عن أبي هلال العسكري أنه في الفصل الثاني(159) . من هذا الباب، بين القبيح والحسن من التشبيه، والمعيب والخطأ، والرديء والبعيد في أمثلة عديدة . وبنى القبح و الحسن على أسس موضوعية . فهو يبني القبح مثلا في التشبيه على البعد في الصفة التي تجمع بين المشبه، والمشبه به، وأنه لا يخرج الأغمض إلى الأوضح....

فأبو هلال تقدم بالتشبيه، وطوره بكثرة شواهده، وتخريجها وبيان مواطن الحسن والقبح منها. وهو بذلك وضع بعض اللبنات الجديدة وهيأ الفرصة، ومهد الطريق لمن بعده .

هذه لمحة خاطفة لفن التشبيه عندما جاء الطبري وفسر القرآن الكريم .

فما موقف الطبري من هذه الدراسات؟ وكيف عالج فن التشبيه على ضوء تفسيره؟

رؤية الطبري لفن التشبيه :

لحظ الطبري في ثنايا تفسيره للآيات التي عبر عنها القرآن بأسلوب التشبيه كل حقائق التشبيه، وألوانه وصوره وشتى التقسيمات المتعددة،

ولحظ أيضا أغراض التشبيه وأهدافه، وأكد ذلك جيدا، وإن كانت التسمية الاصطلاحية التي سميت بها بعض صور التشبيه لم يهتم بها .

ونلاحظ من خلال تتبعنا لهذا الدرس البلاغي، والفن البياني، أن الطبري لا يفرق كثيرا بين التشبيه والتمثيل، لأنهما في اللغة لفظان مترادفان على معنى واحد، وإن كانا في اصطلاح البيانيين بينهما خلاف...

---

(158) الصناعتين ص180 وما بعدها

(159) المصدر نفسه ص196

فالتشبيه عند البلاغيين: عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى ما بأداة ملفوظة أو ملحوظة كالكاف ونحوها، لغرض مقصود »(160) والتشبيه التمثيلي: هو ما يكون وجه الشبه فيه وصفا مركبا منتزعا من متعدد -أمرين- أو أكثر.

والتركيب المراد عند البلاغيين: هو الصورة المتكاملة من مجموع الألفاظ المستخدمة للكشف عن الغرض المقصود، وهذا أعم من التركيب عند النحاة الذين يقسمون التركيب إلى إسنادي أو إضافي أو مزجي.

ولحظ الطبري أركان التشبيه الأربعة: المشبه، والمشبه به، والأداة، ووجه الشبه، والتي بها يتم التشبيه....

كما لحظ كثيراً من تقسيمات التشبيه باعتبار الطرفين:

تشبيه محسوس بمحسوس ، وتشبيه معقول بمعقول ، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول.

كما لحظ وجه الشبه وتقسيماته: وجه الشبه المفرد ، ووجه الشبه المركب ، ووجه الشبه المتعدد.

ولحظ في بعض الأحيان التشبيه التمثيلي -بالمفهوم البلاغي- السابق ذكره

- كما تحدث عن أدوات التشبيه وقيمتها البيانية في كثير من صور التشبيه، والأداة قد تكون اسما أو فعلا أو حرفا... وحكمة التكرار في الأداة أحيانا.

كما لحظ التشبيه المضمر الأداة، والذي تحذف الأداة منه عند قصد المبالغة في التشبيه، وعندئذ يصير المشبه عين المشبه به دون تفاوت. وهذا أدعى للمبالغة والتأكيد

---

(160) فالجمع بين الشيئين يدخل فيه التشبيه المفرد، والأشياء يدخل فيه المركب.. معنى ما، شامل لجميع الأوصاف كلها العقلية والحسية المفردة والمركبة، بأداة يتميز من الاستعارة، بواسطة الكاف، ونحوها، ليخرج العطف، لأنه جمع بين الشيئين والأشياء ، ملحوظة ليدخل التشبيه المضمر الأداة لغرض مقصور لئلا يكون عبثا ، وهناك تعريفات متعددة للتشبيه وللتمثيل عند البلاغيين ولكنها جميعا ذات مضمون واحد...

ولحظ مراتب التشبيه: المشبه، والمشبه به، والأداة، ووجه الشبه. وهو أضعف ألوان التشبيه وأقل مراتبه.

- وحذف أداة التشبيه فقط مع بقاء المشبه والمشبه به ووجه الشبه وفيه نوع من البلاغة والمبالغة- حيث أوهم أن المشبه هو عين المشبه به .

- وحذف وجه الشبه فقط، وفيه نوع من المبالغة والقوة أكثر من التشبيه المحذوف الأداة فقط.

وفي كلام صاحب المفتاح إشارة إلى أن ترك وجه الشبه أبلغ من ترك أداته، قال: «لعموم وجه الشبه»(161)

-وحذف الأداة والوجه : وهذا الضرب أقوى ألوان التشبيه لاجتماع مزايا الثاني والثالث فيه... فحذف الأداة ينبئ عن التطابق بين الطرفين، وحذف الوجه ينبئ عن الشمول في الصفات فقد اجتمع فيه القوتان، ويسمى هذا التشبيه البليغ، فأعلى مراتب الشبه في الأبلغية ترك وجه الشبه وأداته(162)

ولحظ الطبري أغراض التشبيه، وعمقها على كثير من الآيات القرآنية ومن هذه الأغراض، ما يعود إلى الشبه، ومنها ما يعود إلى المشبه به

فمما يعود إلى المشبه أنواع:

1- بيان حاله: إذا كان المشبه مبهمًا غير واضح، فنوضحه بالمشبه به.

2- بيان إمكان وجود المشبه: وذلك في أمر غريب لا يتصور ثبوته، ولا يعقل إمكانه، ويمكن أن يدعى استحالته، فنأتي بالتشبيه لبيان أنه أمر ممكن.

3- بيان مقدار حال المشبه: في القوة والضعف، والزيادة والنقصان.

4- تقرير حال المشبه في ذهن السامع: وهذا الغرض نسعى إليه حين يراد إبراز الأمور المعنوية الذهنية في صورة حسية مشاهدة حتى تستقر في نفس السامع وتتمكن في ذهن المخاطب.

وذلك لأن النفس بطبعها تميل إلى الأمور المحسوسة التي يقع عليها الحس، وتنبو

---

(161) البرهان في وجوه البيان لابن وهب جـ3 ص424

(162)المصدر نفسه

عن المعاني المجردة، فإذا برزت الأفكار المجردة المتخيلة: في صورة مشاهدة قوي الإيمان بها، والتأكيد على صحتها، بل إبرازها في هذه الصورة الحسية يصبح دليلا يدفع كل تردد في تصديق هذه الدعوى...

5- تزيين المشبه، وتجميله، وتحسين حاله

6- تقبيح المشبه، والتنفير منه، ووضعه في صورة، منفرة مزرية.

7- استطراف المشبه: أي عد التشبيه طريفا بديعا وذلك إذا كان المشبه به خياليا لا وجود له في الواقع(163)

بل لحظ الطبري، ما عرف عند البلاغيين بالتشبيه المقلوب أو المعكوس فيجعل المشبه، مشبها به، وبالعكس، فتعود فائدته إلى المشبه به، لادعاء أن المشبه أتم وأكمل، وأظهر، وأشهر من المشبه به في وجه الشبه، والمقصود من هذا القلب في التشبيه المبالغة، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ(164)

ولحظ الطبري، القيمة البلاغية للتشبيه؛ فالتشبيه يظفي على المعنى شرفا ووضوحا، ويزيده قوة وتأكيدا، ويرفع من قدر الكلام فتهفو النفس له، ويتحرك القلب إليه، لأنه ينتقل بنا من المعنى الأصلي إلى صورة تشبهه.. وكلما جلا التشبيه المعنى، وزاد قوة ووضوحًا كان أملك للنفس، وأبعد للتأثير(165)

كل هذه القضايا في فن التشبيه لحظها الطبري بصورة واضحة نستطيع من خلالها أن نستبين مدى عناية الطبري في تفسيره بهذا الدرس البلاغي الخطير .

وهذه بعض الشواهد من جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

تشبيه المحسوس بالمحسوس :

1- قال الله تعالى: «**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**»(166) أي قدرنا سير القمر منازل حتى إذا كان آخر منازله دقّ وتقوس حتى

---

(163) شروح التلخيص للقزويني جـ3 ص41، وشرح المختصر للتفتازاني جـ2 ص26

(164) البرهان في وجوه البيان جـ3 ص427

(165) المصدر نفسه ج3 ص 428

(166) يس 39

صار كأعواد النخيل العتيقة اليابسة، فقد شبه القمر بالعرجون في دقته، وتقويسه، واصفراره . والطرفان وهما القمر والعرجون حسبان يقول الطبري: «وآية لهم: تقديرنا القمر منازل للنقصان بعد تناهيه وتمامه، واستوائه، حتى عاد كالعرجون القديم؛ والعرجون: من العذق من الموضع النابت في النخلة إلى موضع الشماريخ...

«وإنما شبهه جل ثناؤه بالعرجون القديم والقديم هو اليابس »

« لأن ذلك من العذق، لايكاد يوجد إلا متقوسا منحنيا، إذا قدم ويبس، ولا يكاد أن يصاب مستويا معتدلا، كأغصان سائر الأشجار وفروعها فكذلك القمر إذا كان في آخر الشهر قبل استسراره، صار في انحنائه، وتقوسه نظير ذلك العرجون... »(167)

2- وقوله تعالى: «كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»(168) أي كأنهم حين تقلعهم الريح من الحفر، وترميهم صرعى، جذور نخل منقلع من مغارسه ساقط على الأرض، وشبهوا بها، لأن الريح كانت تقلع رءوسهم، فتبقيهم أجسادا بلا رءوس، وكانوا ذوي أجساد عظام طوال.

فالمشبه هنا عاد، وهم قوم هود، والمشبه به أعجاز النخل، وهما حسيان .

يقول الطبري : والجواري، السفن الجارية في البحر، كالأعلام، يعني واحده علم. ومنه قول الشاعرة [الخنساء]

كأنه علم في رأسه نار. يعني جبل(169)

3- ومنه قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ، وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ»(170)

---

(167) جامع البيان جـ23 ص6

(168) القمر 18-20

(169) جامع البيان جـ25 ص23

(170) النمل 87-88

يريد الحق سبحانه أن الجبال من هول ذلك اليوم تزول عن مواضعها، فلا يكون لها ثبات، وإنما تمر في الجو مر السحاب التي تسيرها الرياح سيرا حثيثا، وذلك تعبير عن شدة الأمر، وهول الموقف عند النفخ في الصور وبعث الأموات، ورغم سيرها إلا أنك تحسبها جامدة كأنها غير زائلة لتناسب سيرها، واستواء مدها: - فحركة الجبال والسحاب مما يقع تحت الحس.. (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) يقول قائمة وإنما قيل: «وهي تمر مرّ السحاب» لأنها تجمع ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثا كما قال الجعدي:

بأرْعن مثل الطود تحْسبُ أنّهم وقوف لحاج والركابُ تهملِج(171)

وقال تعالى: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ»(172) فقد كان المنافقون يعوقون المؤمنين يوم الأحزاب عن المقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصرفونه عن نصرته، فإذا أحاط بهم الخوف من العدو نظروا إلى الرسول مذعورين تدور أعينهم يمينًا وشمالا، دون أن تطرف، كما تدور عينا الذي تغشاه سكرات الموت لذهوله، وشدة خوفه، فشبه دوران عيني الخائف بدوران عيني الذي تغشاه سكرات الموت...

«أي إعظامًا وفرقًا منه....»(173)

وهذا التشبيه أبلغ في وصف الخائف من جميع الأوصاف، وأوقع التشبيهات لمثل هذه الحال.

5- وقال تعالى: «يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ»(174)

---

(171) تهملج : سير حسن ، الأرعن: الجيش العظيم. والحاج : جمع حاجة

(172) الأحزاب 18-19

(173) جامع البيان جـ21 ص141

(174) سبأ 13 .

فشبه القصاع الكبار بالحياض العظام في سعتها وضخامتها، وكلاهما محسوس

6- وقوله تعالى: «أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ»(175)

قال الطبري «كأنّ طلع هذه الشّجرة، يعني شجرة الزّقوم في قبحه وسماجته رءوس الشياطين في قبحها....

«فإن قال قائل: وما وجه تشبيهه، طلع هذه الشّجرة برءوس الشياطين في القبح، ولا علم عندنا ببلغ قبح رءوس الشياطين، وإنما يمثل الشيء بالشيء تعريفا من المثّل المثّل له، قرب اشتباه الممثّل أحدهما بصاحبه، مع معرفة الممثّل له الشيئين كليهما أو أحدهما، ومعلوم «.... أن الذين خوطبوا بهذه الآية من المشركين، لم يكونوا عارفين شجرة الزقوم، ولا برءوس الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحدا منهما؟

«قيل له: أمّا شجرة الزقوم، فقد وصفها اللّه تعالى ذكره لهم وبيّنها حتى عرفوها، ماهي؟ وما صفتها؟، فقال لهم: «شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ»...

«فلم يتركهم في عماء منها...وأما في تمثيله طلعها برءوس الشياطين، فأقول: لكل منها وجه مفهوم: أحدهما: أن يكون مثّل ذلك برءوس الشياطين على ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم، وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم، وإذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء قال: كأنه شيطان، فذلك أحد الأقوال .

«وثانيهما: أن يكون مثّل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطانا، وهي حية لها عرف فيما ذكر قبيح الوجه والمنظر....

= المحراب : المكان المرتفع ، وموضع وقوف الإمام في المسجد. والجفان : جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة المتسعة، والجواب : الحوض الكبير الضخم الذي يجبى أي يجمع الماء فيه . والقُدور: التي يطبخ فيها الطعام : انظر جامع البيان جـ27 ص70

(175) الصافات 62 - 65

وإياه عنى الراجز بقوله:

عنجردٌ تَحْلفُ حينَ أَحْلِفُ كَمثلِ شَيْطان الحماط أعْرَفُ (176)

ويروي: عجيّز: أي (بدل عنجرد)

وثالثها: أن يكون مثل نبت معروف برءوس الشياطين ذكر أنه قبيح الرأس فإنهم لاكلون منها فمالئون منها البطون» يقول تعالى ذكره: «فإن هؤلاء المشركين الذين جعل اللّه هذه الشجر لهم فتنة، لآكلون من هذه الشجرة التي هي شجرة الزقوم، فمالئون من زقومها بطونهم»(177)

والأمثلة كثيرة في هذا الباب منها:

قوله تعالى: «وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ»(178)

8- وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ

---

(176) هذا البيتان من مشطور الرجز، أنشده الفراء في معاني القرآن عند تفسير قوله تعالى: «كأنه رؤوس الشياطين» قال فيه : في العربية ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه شبّه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين، لأنها موصوفة بالقبح، وأنت قائل للرجل كأنه شيطان، إذا استقبحته

والآخر: أن العرب تسمي بعض الحيات شيطانا ، وهي حية ذو عرف، قال الشاعر وهو يذم امرأته:

«عنجرد تحلفُ...البيت»

والثالث: أنه نبت قبيح يسمى برؤوس الشياطين

والأوجه الثلاثة، تعود إلى وجه واحد في القبح

عنجرد : امرأة خبيثة سيئة الخلق، وقيل عنجرد: سليطة . الحماط: يبيس الأفاعي، تألفه الحيات، يقال شيطان حماط كما يقال: ذئب غضي، وتيس حلب، وقال الأزهري: العرب تقول لجنس من الحيات، شيطان الحماط، وقيل الحماطة بلغة هذيل: شجر عظام تنبت في بلادهم، تألفها الحيات وقيل: تبن الذرة.

(177) جامع البيان جـ23 ص63 - 64

(178) الصافات 48- 49 - 50

الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ»(179)

9- وقوله تعالى: «خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ»(180)

10- وقوله تعالى: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»(181)

11- وقوله تعالى: «خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»(182)

12- وقوله تعالى: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»(183)

13- «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»(184)

14- «وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ»(185)

وقوله تعالى: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ»(186)

15- «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ»(187)

---

(179) محمد 12

(180) القمر 7

(181) القارعة 4-5

(182) الرحمن 14

(183) الرحمن 37

(184) الرحمن 58

(185) الواقعة 22 - 23

(186) القلم 17

(187) المعارج 6-9

تشبيه معقول بمعقول :

يعني البلاغيون بذلك: المعاني الكلية التي تدرك بالعقل، كتشبيه العلم بالحياة والجهل بالموت، والمرض بالهلاك، والفقر بالكفر، والسفر بالعذاب، والسؤال للخلق بالموت، والضلال عن الحق بالعمى...الخ

وقد أدخل علماء البلاغة مع المشبه به العقلي، المشبه به الوهمي، وهو ما لا يمكن إدراك أجزائه بالحواس لعدم وجودهما، لكنها لو وجدت لم تدرك إلا بها كقول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟

والفرق بين الوهمي والخيالي: أن الوهمي لا وجود لهيئته ولا لجميع مادته، والخيالي: جميع مادته موجودة دون هيئته(188)

وتشبيه المعقول بالمعقول عند بعض البلاغين لم يقع في تشبيهات القرآن الكريم، وقد صوّب هذا الرأي السيوطي وبعض المعاصرين(189)

ومن ثم فإن ملحظ الطبري له كان قليلا....

قال الله تعالى: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ....»(190)

يصف قلوب بني إسرائيل بالغلظة والقسوة، وذهاب اللين منها والرقة، ثم بين الله سبحانه وتعالى، كيف كانت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، فبعض الحجارة يتفجر منه الأنهار، وبعضها تنبع منه العيون، وبعضها يخشع من مهابة الله، أمّا قلوبهم فلا تعرف الرحمة أو الخشوع، وشبه الله سبحانه قلوبهم في القسوة بالحجارة، لأنها غاية في المثل.

ويعترض السيوطي على وضع هذه الآية في تشبيه المعقول بالمعقول، فيقول:

---

(188) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص جـ2 ص318

(189) القرآن والصورة البيانية عبد القادر حسين ص51

(190) البقرة 74

«وكذا مثل به- الزركشي في البرهان، وكأنه ظن أن التشبيه واقع في القسوة، وهو غير ظاهر بل هو واقع بين القلوب والحجارة -وهذا أقرب إلى الصواب- ويميل الطبري إلى ذلك(191)

تشبيه المعقول بالمحسوس :

وهذا اللون من التشبيه كثر جدا في القرآن الكريم في مجال إيضاح الأمور المعنوية بالصور المحسوسة المرئية .

وقد أفاض الطبري وأبدع في هذا اللون من ألوان التشبيه...

وعلى سبيل المثال :

قوله تعالى: «**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ...**»(192)

فقد شبه ما يعمله الكافرون في الدنيا، من أعمال البر والخير مهما جلّ وعظم في إحباطه، وذهابه، لأنه قائم على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونه لغير الله، وعلى غير أمره، بهذا الرماد الهش الذي لا يصمد أمام قوى الرياح العاتية العارمة فيتلاشى في جوفها الهادر.. ووجه الشبه عدم ظهور أثر الشيء، ورجاء نفعه إذا بني، على أساس واه، وأقيم على ركن ضعيف..

2- ونظير هذه الآية قوله تعالى: «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ...**»(193)

حيث شبه أعمال البر والخير من الكافرين، وظنهم أنها نافعة لهم، ومنجية من

---

(191) جامع البيان جـ1 ص361-365

(192) ابراهيم 18

(193) النور 38 - 39

عقاب الآخرة، فتحبط أعمالهم، وتخيب ظنونهم، وتنقشع أمالهم، بسراب يراه الظمآن في الفلاة، وهو في شدة الحاجة إليه فيحسبه ماء فيعدو نحوه، فلا يجد شيئا، فتتحطم آماله، وتشتد حسراته، فأعمال الكافرين كهذا السراب، يظن أنه الماء وليس به.

وبعد أن شبه أعمال الكافرين الضائعة بالسراب الذي ليس بشيء، شبه مرة أخرى سوء أعمالهم، وحقد قلوبهم بهذه الظلمات في البحر الزاخر العميق تغطيه الظلمات: ظلمة السحاب، وظلمة الأمواج وظلمة البحر، ظلمات بعضها فوق بعض، ولشدة الظلمة لا يستطيع المرء أن يبصر يده بينها، فقلوبهم وأعمالهم بمنزلة هذه الظلمة الكثيفة، لا ينفذ منها شعاع من رحمة الله، ومن لم يرد الله أن يهديه لنوره، فماله من نور.....

يقول الطبري :

وهذا مثل ضربه الله لأعمال أهل الكفر به، فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم وكذبوا بهذا القرآن، وبمن جاء به، مثل أعمالهم التي عملوها (كسراب)..... يظن العطشان من الناس السراب ماء (وحتى إذا جاءه لم يجده شيئا).... فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، كما حسب الظمأن الذي رأى السحاب، فظنه ماء يرويه من ظمئه.(194)

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ »

«وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار يقول تعالى ذكره : ومثل أعمال هؤلاء الكفار، في أنها عملت على خطأ وفساد، وضلالة وحيرة من عمالها فيها، وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر لجي، ونسب البحر إلى اللجة، وصفا له بأنه عميق كثير الماء، ولجة البحر: معظمه .

«فجعل الظلمات مثلا لأعمالهم، والبحر اللّجّي مثلا لقلب الكافر»(195)

3- وقوله تعالى: **«مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا**

(194) جامع البيان جـ18 ص- 150

(195)المصدر نفسه جـ18 ص151

يَعْلَمُونَ» أي مثل هؤلاء الكفار في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها ويعتمدون عليها، ويرجون شفاعتها ونفعها، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتًا واهيا من نسجها لا يغنى عنها في حر ولا قر، ولا في مطر، ولا أذى، فشبه أعمال الكافرين الفاسدة ببيت العنكبوت الواهي الذي يقيمه من نسج مهلهل لا يثبت أمام هبة من ريح أو نسمة من هواء فهو تشبيه أمر معقول بأمر محسوس....

يقول الطبري في ذلك:

«مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، كمثل العنكبوت في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها اتخذت بيتًا لنفسها...كيما يكنّها، فلم يغن عنها شيئا عند حاجتها إليه فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله وحل بهم سخطه، أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا....»(196)

4 - ومن ذلك اللون من التشبيه :

قوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...»(197)

5- «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»(198)

6- «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً»(199)

---

(196) جامع البيان جـ20 ص 151 - 152

(197) الجمعة 5

(198) الرعد 4

(199) البقرة 117

7- وقوله تعالى: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ»(200)

تشبيه المحسوس بالمعقول :

عدّ بعض البلاغين من هذا التشبيه عدة آيات من القرآن الكريم، وقالوا بوجوده في القرآن الكريم...وممن أجاز وقوعه في القرآن الكريم: الرماني مع أنه استقبحه...وأيضا أجاز وقوعه في القرآن ابن رشيق.... وأيضا أجازه ابن سنان.....(201)

وبعض البلاغيين لم يجز وقوعه في القرآن الكريم أصلا وحجتهم أن الحس طريق إلى العقل، والمحسوس أصل المعقول، فلو شبهنا المحسوس بالمعقول لشبهنا الأصل بالفرع، وهذا يستلزم جعل الأصل فرعا والفرع أصلا وهو غير جائز(202)

وفي عدة آيات نرى أن الطبري في جامع البيان يميل إلى الرأي الثاني، وإن كان تفسيره في بعضها لايمنع...من ذلك قوله تعالى: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ....»(203)

وقوله تعالى: «وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ»(204)

وقوله تعالى: حكاية عن نسوة امرأة العزيز في يوسف عليه السلام : «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»(205)

وقوله تعالى: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ»(206)

---

(200) الحج 31

(201) شروح التلخيص جـ3 ص312 وخزانة الأدب ص228 ونهاية الايجاز ص 59

(202) البرهان في وجوه البيان جـ2 ص42 ، ومعترك الأقران للسيوطي جـ1 ص271

(203) الصافات 64-65

(204) النمل 10

(205) يوسف 31

(206) البقرة 275

لايقومون إذا بعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان، أي المصروع وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع.

تشبيه التمثيل :

يعرف البلاغيون هذا التشبيه بأنه ما كان وجه الشبه فيه مركبا أي وصفا منتزعا من أمرين أو عدة أمور امتزج أحدهما بالآخر حتى يستخرج من مجموعها صورة جديدة غير التي كانت عليه في حال الإفراد...

وتشبيه التمثيل كثير في القرآن الكريم...

والتركيب المراد عند البلاغيين: هو الصورة المتكاملة من مجموع الألفاظ المستخدمة للكشف عن الغرض المقصود، وهذا أعم من التركيب عند النحاة الذين يقسمون التركيب إلى «إسنادي أو إضافي، أو مزجي»(207)

ونحن نجد أن الطبري عرف هذا التشبيه بل وأشار إليه كثيرا مستعملا في كثير من الأحيان العبارات والمصطلحات التي استعملها علماء البلاغة من المتأخرين...

والأمثلة عنده في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى..ومن ذلك

1- قوله تعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**»(208)

أي حال هؤلاء في الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم، فالآية تتضمن التشبيه لحال المشركين، في اجتهادهم في كفرهم، وتظاهرهم على النبي عليه الصلاة والسلام، والتكذيب بآيات الله التي جاء بها....

فوجه الشبه مركب من أمور مجتمعة هي الانغماس في الكفر، وعداوتهم للنبي، والتكذيب بآيات الله، وليس من شيء واحد من هذه الأشياء ولذلك يسمى التشبيه تمثيليا.... وهذا مجمل ما قاله الطبري في جامع البيان(209)

---

(207) البيان في ضوء أساليب القرآن ص54

(208) آل عمران 10-11

(209) جامع البيان جـ3 ص190

2- ومن ذلك قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا»(210)

ففي الآية المشبه واحد، والمشبه به اثنان:

فالمشبه: هيئة أعمال الكفار التي تظهر في أعينهم جميلة، لكنها في الحقيقة لا خير فيها، ولا ثواب عليها:

والمشبه به: «كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ..»(211) هيئة السراب بصحراء واسعة يظنه الظمآن ماء، فيجهد نفسه في الذّهاب إليه، فلا يجد هناك شيئا...

وجه الشبه: الهيئة الحاصلة من الأمل المطمع، والنهاية المؤيسة...

والمشبه به (ب) صورة الظلمات الكثيفة في البحر المتلاطم الأمواج المتداخل بعضه في بعض، المظلل بالسحاب...

وهذا ما لمحه الطبري في تفسير الآية (212)

3- وقوله تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»(213)

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين، ولين

---

(210) النور 39- 40

(211) القاع والقيعة: المستوي من الأرض

(212) جامع البيان جـ18 ص149-150

(213) الفتح 29

ورحمة مع إخوانهم المؤمنين، فيهم خشوع وخضوع، وركوع وسجود، يبتهلون بالدعاء إلى الله ابتغاء فضله ورضوانه، وقد وصفهم الله بهذه الصفات في التوراة والإنجيل، فكانوا في بدء الإسلام قلة، ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يومًا بعد يوم حتّى أعجبوا الناس....

فصاروا مثل زرع أثمر وأينع، ثم اشتدّ، واستغلظ، ثم استوى واستقام فصار في أبهر صورة تعجب خاصة الزراع، وإذا أعجب أهل الزرع فهو أدعى بأن يعجب العامة من الناس.

وهذا مجمل ما ذكره الطبري(214)

4- وهكذا نجد أن الطبري قد أفاض في مثل هذه الآيات:

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (215)

ومعنى التشبيه في الآية

أنّ الكافر التارك لآيات الله، العادل عنها، وقد سيطرت عليه مظاهر الحياة فلا يصلحه شيء، كالكلب في لهثه، إن شددت عليه، وأجهدته لهث، وإن تركته على حال لهث، فهو دائم اللهث في كلتا الحالتين، لأن اللهث طبيعة فيه، ولو أغريته بكل شيء لم يتركه، ولم ينزع عنه، فكذلك حال الحريص على الدنّيا إن وعظته فهو لحرصه لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص لأن الحرص طبيعة فيه، كما أن اللهث طبيعة في الكلب....

وهذا من التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب -وهذا مالمحه الطبري(216) هذا وتطول الدراسة في التشبيه، لأن هذا الدرس البلاغي أفاض فيه الطبري كثيرا،

ومن ذلك قوله تعالى:

---

(214) جامع البيان جـ26 ص113 وما بعدها...

(215) الأعراف 175-176

(216) جامع البيان جـ9 ص128

5-«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»(217)

6- وقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»(218)

7- وقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ»(219)

8- وقوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ»(220)

9- وقوله تعالى : «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ»(221)

10- وقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»(222)

11- وقوله تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نَصْبٍ

---

(217) النور 36

(218) إبراهيم 24-25

(219) البقرة 14

(220) البقرة 18

(221) الرعد 14

(222) المنافقون 4

يُوفِضُونَ ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ»(223)

12- وقوله تعالى: «فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»(224)

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(223) المعارج 43-44

(224) المدثر 49-51

المبحث الأول :
علم المعاني

يعرف البلاغيون هذا الفن من فنون البلاغة بأنه ما يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال .

وقد جرت العادة في دراسات البلاغيين للمعاني أن يبدأوا بمقدمة تبحث في تعريف علم المعاني، وشرح هذا التعريف ، ثم يحصرون علم المعاني في أبواب الخبر والإنشاء وثمانية موضوعات :

1- دراسة أحوال الإسناد الخبري

2- أحوال المسند إليه

3- أحوال المسند

4-أحوال متعلقات الفعل

5- القصر

6- الإنشاء

7- الفصل والوصل

8- الإيجاز والإطناب والمساواة.

هذه دروس البلاغة في علم المعاني، التي تدور حولها أبحاث البلاغيين. وإذا كانت هذه التقسيمات والتفريعات من سنن المتأخرين، فلقد عرف المتقدمون جانبا كبيرا منها.

ونحن بصدد دراسة معالم الدرس البلاغي في القرآن الكريم، ومع أحد أئمة التفسير وهو ابن جرير الطبري، فلابد من معرفة ما لحظه منها، فقد وقف في دراساته لكثير من آيات القرآن الكريم موقفا رائعا وهو يبحث في أحوال اللفظ، القرآني وفي التراكيب العربية التي يتغلب فيها التركيب، ويبحث في الاعتبار المناسب لهذا اللفظ -كما سوف نتبينه بعد حين- وهذا أساس علم المعاني، ومنطلقه الأصلي . لقد لحظ الطبري وهو يفسر الكثير من أحوال الحروف القرآنية من حيث

الفصل الثالث

علم المعاني والبديع في تفسير الطبري

المبحث الأول:

علم المعاني

- علم المعاني عند البلاغيين
- رؤية الطبري لعلم المعاني
- حول الزائد في القرآن الكريم
- الذكر والحذف وأسرارهما البلاغية في تفسير الطبري
- أسلوب القصر وألوانه عند الطبري
- أسلوب الفصل والوصل في تفسير الطبري

المبحث الثاني :

علم البديع في تفسير الطبري

- الطباق
- الجناس
- المشاكلة
- الاستثناء
- العكس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أصالتها أو زيادتها .

ولحظ الكثير من أحوال الحذف والذكر في العبارة القرآنية . ومتعلقات الفعل ولحظ الكثير من أحوال التعريف والتنكير- وأحوال التذكير والتأنيث

ولحظ الكثير من أسرار الجمع والإفراد ، وأسرار القسم .

ولحظ الكثير من أسرار الفصل والوصل .

ولحظ الكثير من أسرار الإيجاز والإطناب والمساواة

ولحظ الكثير من أحوال القصر وأسراره في القرآن

ولحظ الكثير من أسرار الإنشاء والخبر

وغير ذلك .

وسوف نعطي بعض اللمحات عن جانب من تلك الدروس

حول الزائد في القرآن الكريم :

أعطى الطبري هذه القضية عناية فائقة، وناقش على ضوء الآيات القرآنية ما قاله النحاة وغيرهم في ذلك .

لقد أحصى بعض النحاة ماورد في القرآن من كلمات أو حروف زعموا فيها الزيادة وهي محصورة عندهم في خمسة عشر لفظا .(1)

والنحاة يعنون بزيادة تلك الحروف أو المفردات، أنهم لا يستطيعون لها توجيها إعرابيا، وإن كانوا يجدونها قد أدت معاني، لاتستفاد من الجملة إذا هي حذفت... ولكن الطبري لا يقر النحاة على ما ذهبوا إليه ويجد لتلك الزيادة المزعومة توجيها إعرابيا، ويجد لها سراً بلاغيا، ودورا أسلوبيا أدته كل عبارة وكل حرف في الجملة أو في الآية .

وهذه بعض الأمثلة :

1-زيادة « إذ » في قول الله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

(1) لم يوافق ابن هشام ما قاله النحاة . راجع مغني اللبيب جـ1 ص134- 533 و جـ2 ص 123 -179 والكشاف جـ2 ص338

فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(2)

رافضا قول النّحاة بزيادة (إذْ) في قوله تعالى «273يقول الطبري في ذلكوَإِذْ قَالَ رَبُّكَ...» موجها العبارة توجيها بلاغيا ونحويا : «قال أبو جعفر: زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويل قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ....» وقال ربك، وأنّ «إذ» من الحروف الزوائد، وأنّ معناها الحذف، واعتل لقوله الذي وصفنا عنه في ذلك ببيت الأسود بن يعفر:

فإذا وذلك لامهاة لذكره والدّهر يعقب صالحًا بفساد

ثم قال: ومعناها وذلك لامهاة لذكره .

وبيت عبد مناف بن ربع الهذلي (حتّى إذا سلكوهم في قتائدة...)

قال معناه : حتّى أسلكوهم

«قال أبو جعفر : والأمر في ذلك بخلاف ماقال؛ وذلك أن إذ حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدل على مجهول من الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى الكلام إذ سواء قال قائل هو بمعنى التطوّل، وهو في الكلام دليل على مفهوم، وقيل آخر في جميع الكلام الذي نطق به دليلا على ما أريد به هو بمعنى التطول، وليس المدّعي الذي وصفنا قوله في بيت الأسود بن يعفر، أن "إذ" بمعنى التطول وجه مفهوم، بل ذلك لو حذف من الكلام لبطل المعنى الذي أراده الأسود بن يعفر في قوله: فإذا وذلك لا مهاة لذكره... نظير ما ذكرنا من المعنى في بيت الأسود بن يعفر- وكذلك معنى قول الله جلّ ثناؤه «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ» لو أبطلت «إذ» وحذفت من الكلام، لاستحال عن معناه الذي هو به، وفيه إذ.»(3)

2 - زيادة « أم »

قال تعالى: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ، وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ»(4)

---

(2) البقرة 30

(3) جامع البيان جـ1 ص195-196

(4) الزخرف 51-52

وتفسير النحاة أفلا تبصرون؟! أنا خير.

ولكن الطبري لا يرى ما يراه هذا الفريق من النحاة -فيقول: «وقد اختلف في معنى «أم » في هذا الموضع، فقال بعضهم معناها، بل أنا خير، وقالوا ذلك خير لا استفهام.

حدثنا محمد، قال: حدثنا أحمد، قال حدثنا اسباط، عن السّدي:« قوله تعالى: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ » قال بل أنا خير من هذا »(5) وهذا ما يرضاه، ولكن لا يفوت الطبري أن يشير إلى الرأي الآخر، فيقول: وقال بعض نحويي الكوفة: هو من باب الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله، قال: وإن شئت رددته على قوله (أليس لي ملك مصر)؟ وإذا وجّه الكلام إلى أنه استفهام، وجب أن يكون في الكلام محذوف استغنى بذكر ماذكر مما ترك ذكره. ويكون معنى الكلام حينئذ، أنا خير أيُّها القوم من هذا الذي هو مهين أم هو »(6)

3- زيادة (أن) :

في قوله تعالى: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً، قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(7)

يقول الطبري في تفسير هذه الآية : (8)

«وكان بعض أهل العربية من أهل الكوفة يقول: «أنّ » في قوله:« فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ » وسقوطها بمعنى واحد، وكان يقول هذا في لمّا وحتى وخاصة، ويذكر أن العرب تدخلها فيهما أحيانا، وتسقطها أحيانا، كما قال جلّ ثناؤه «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا» وقال في موضع آخر « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا » وقال: هي صلة لا موضع لها في هذين الموضعين. يقال: حتى كان كذا وكذا، وحتى أن كان كذا وكذا...: «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ

---

(5) جامع البيان جـ25 ص81

(6)المصدر نفسه

(7) يوسف 96

(8) جامع البيان جـ13 ص63-64

دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا »(9)

فإن قال قائل: وما وجه دخول «أن» في قوله تعالى: «وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» وحذفها من قوله تعالى : «وَمَالَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ» قيل: هما لغتان فصيحتان للعرب، تحذف أنْ مرة مع قولنا: مالك، فنقول: مالك لا تفعل كذا ؟ بمعنى مالك غير فاعله كما قال الشاعر:

مالك ترغين ولا ترغو الخلفْ

وذلك هو الكلام الذي لا حاجة بالمتكلم به إلى الاستشهاد على صحته لفشوّ ذلك على ألسنة العرب، وثبت أن نية أخرى، توجيها لقولها: مالك معناه إذ كان معناه، مامنعك. كما قال تعالى ذكره «مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» ثم قال في سورة أخرى في نظيره «مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ» فوضع ما منعك موضع مالك، ومالك موضع ما منعك لاتفاق معنييهما ، وإن اختلفت ألفاظهما ، كما تفعل العرب ذلك في نظائره، مما تتفق معانيه، وتختلف ألفاظه، كما قال الشاعر:

يقولُ إذا اقلولَى عليْها وأقردتْ ألا هلْ أخو عيش لذيذ بدائم

فأدخل في دائم الباء مع هل، وهي استفهام، وإنما تدخل في خبرها ما التي في معنى الجحد لتقارب معنى الاستفهام والجحد...(10)

ويمضي الطبري فيقول:

وكان بعض أهل العربية يقول: أدخلت أنْ في (ألا تقاتلوا) لأنه بمعنى قول القائل: «مالك في ألا تقاتل؟ ولو كان ذلك جائزا لجاز أن يقال: مالك أنْ قمت، ومالك أنك قائم، وذلك غير جائز، لأن المنع إنما يكون للمستقبل من الأفعال، كما يقال منعتك أن تقوم، ولا يقال: منعتك أن قمت، فلذلك قيل في مالك: مالك ألاّ تقوم، ولم يقل: مالك أن قمت.

وقال آخرون منهم: أنْ ههنا زائدة بعدما فلّما ولما ولو، وهي تزاد في هذا المعنى كثيرا ، قال ومعناه ومالنا لا نقاتل في سبيل الله، فأعمل أن وهي زائدة » (11)

---

(9) البقرة 246

(10) جامع البيان ج13 ص65 .

(11) المصدر نفسه جـ2 ص599-600

4- زيادة «الباء»

وقوله تعالى: «...وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...»(12)

«... فإن قال قائل: فما وجه إدخال الباء في قوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ) وقد علمت أن المعروف من كلام العرب ألقيت إلى فلان درهما، دون القيت إلى فلان بدرهم؟ قيل: قد قيل إنها زيدت نحو زيادة القائل في الباء في قوله: جذبت بالثوب، وجذبت الثوب، وتعلقت به، وتعلقته، (وتنبتُ بالدهن) وإنما تنبت الدهن: وقال آخرون: الباء في قوله: « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ» أصل للكلمة، لأن كل فعل واقع كُنّي عنه فهو مضطر إليها، نحو قولك في رجل كلمته، فأردت الكناية عن فعله، فإذا أردت ذلك قلت: فعلت به، قالوا: فلما كانت الباء هي الأصل، جاز إدخال الباء واخراجها في كل فعل سبيله سبيل كلمته، وأمّا التهلكة، فإنها التفعلة من الهلاك»(13)

وكذلك أفاض الطبري في:

قوله تعالى: «وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا»(14)

وقوله تعالى: «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ»(15)

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا....»(16)

والكاف في قوله تعالى:« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»(17)

واللام في قوله تعالى:«قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ....»(18)

---

(12) البقرة 195

(13) جامع البيان جـ2 ص205

(14) مريم 25

(15) ن 65

(16) جامع البيان جـ11 ص109-110

(17) الشورى 11

(18) النمل 72

واللام في قوله تعالى: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ...»(19)

و«لا» في قوله تعالى: «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»(20)

وقوله تعالى: «لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...»(21)

وقوله تعالى: «لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ...»(22)

وقوله تعالى: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...»(23)

وقوله تعالى: «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ»(24)

و« ما» في قوله تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ انْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ»(25)

الذكر والحذف، وأسرارهما البلاغية في تفسير الطبري:

حذف المسند إليه أو المسند، أو ذكرهما، أو حذف المفعول أو غيره من مكملات الجملة، أو ذكره -أو غير ذلك من أبواب الحذف أو الذكر، وقف حيالها الطبري وتملى الجوانب البلاغية والأسلوبية فيها، وكان له حسه الفني وذوقه البلاغي العجيب .

فالقرآن يذكر ما يذكره ، مما يبدو أن السياق يجيز حذفه عندما يكون في هذا

---

(19) المؤمنون 36

(20) الأعراف 12

(21) الحديد 20

(22) القيامة 1

(23) الأنعام 151

(24) الأنبياء 95

(25) آل عمران 159

الذكر تثبيت للمعنى، وتوطيد له في النفس، ويكون في ذكره فضلا عن ذلك معان لاتستفاد إذا حذف .

1- فمما ذكر فيه المسند إليه قوله تعالى: «**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ**».

ذكر اسم الجلالة في الجملة الثانية ليستقر في النفس مرتبطا بخبر، وليفيد بتعريفه وتعريف الخبر أنه وحده السيد الذي يقصد إليه، عند اشتداد الخطوب، وفضلا عن ذلك نرى التناسق في الأسلوب، الذي يفقد إذا حذفنا لفظ الله، برغم ما في الكلام مما يدل عليه . (26)

ومن هذا الباب قوله تعالى: «**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**» ألا ترى في ذكر الروح، وارتباطها بخبرها ما يثبت معنى الجملة في نفسك، ولا يشتت أركانها في الفؤاد، فيذكر ما يتحدث عنه صراحة ولايدعك تلتمسه من الكلام، وإن شئت فاحذف كلمة الروح من الجملة، وانظر أتجد المعنى في الجلاء والاستقرار مثله عندما تذكر(27)

من هذا الباب:

قوله تعالى: «**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ**» وذكر البلاغيون أن ذكر المسند إليه هنا للرغبة في إطالة الكلام، وتلذذا بهذه الإطالة، هذا التلذذ الذي دفع موسى إلى أن يتحدث بما لم يسأل عنه فقال: «**أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي، وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**»(28)

2- وفي الحذف :

يذكر البلاغيون -مثلا- أن الفاعل قد يحذف من الجملة عندما تدل عليه قرينة واضحة، فيصبح كالمتعين الذي تنصرف إليه النفس أول وهلة، كما تجد ذلك في قوله تعالى: «**كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ**

---

(26) من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص118

(27) المرجع نفسه ص118

(28) طه 18

الْفِرَاقُ»(29) فالحديث في ذكر الموت، ولا يبلغ التراقي عند الموت إلاّ النفس .

وإذا نظرنا إلى الآيتين الكريمتين اللتين حذف الفاعل منهما، وهما قوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ...»(30)

وقوله تعالى: «ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ»(31) وجدنا ذكر الفاعل في الجملة الأولى مغنيا عن ذكر فاعله، فالمراد أن التقطع حلّ بينهم مكان التواصل، فكأنه قيل: لقد تمّ التقاطع بينكم،(32) وفي الجملة الثانية أغنى ذكر ليسجننه، بما فيه من أدوات التوكيد عن ذكره وكان مجيء تلك الجملة مصوراً لما حدث من هؤلاء القوم، ومعبراً عما كان من أمرهم، وهم يتشاورون في أمر يوسف، فقد قلّبوا وجوه الرأي بينهم، ثم بدا لهم في عقولهم أمر، عبروا عنه بقولهم: ليسجننه، فكانت الآية حاكية لما حدث مصورة له (33)

وهذه هي رؤية الطبري في هذا الحذف (34)

وقوله تعالى: «الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ....»(35)

فالمبتدأ يحذف عندما يكون ذكر الخبر المتصف بصفة كأنه يشير إلى هذا المبتدأ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغا يغني عن ذكره..

يقول الطبري: «يعني هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله

---

(29) القيامة 26-27

(30) الأنعام 94

(31) يوسف 35

(32) جامع البيان جـ7 ص279

(33)من بلاغة القرآن ص120

(34) جامع البيان جـ7 ص279

(35) هود 1

عليه وسلم وهو القرآن، ورفع قوله: كتاب بنيّة هذا كتاب....الخ (36)

والطبري يلحظ ما أكده البلاغيون بعد ذلك في كثير من مواطن الحذف:

فالحذف عندما يكون الذكر باعثا على السآمة في النفس لشدة الوضوح، وقرب الحديث عنه ذكره في قوله تعالى: «**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**»(37)

وفي قوله تعالى: «**وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَهْ**»(38)

«**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**»(39)

«**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**»(40)

ومن بلاغة حذف الخبر :

قوله في تفسير قول الله تعالى: «**وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**»(41)

يقول الطبري: «وكذلك عدد اللاتي يحضن من الجواري لصغر إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول»(42) فحذف الخبر هنا لأنه قام دليل في الكلام على ذكر، فيكون ذكره كاللغو.

فالصمت عن الخبر، وعطف اللاتي لم يحضن على اللاتي يئسن، مؤذنا باتحادهما في الخبر .

ومن بلاغة حذف الخبر، ماذكره في تأويل قوله تعالى: «**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ**

---

(36) جامع البيان جـ11 ص179

(37) البقرة 2

(38) القارعة 11

(39) الهمزة 5-6

(40) البقرة 18

(41) الطلاق 4

(42) جامع البيان جـ 28 ص142

صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَّبِّهِ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ»(43) ففي حذف الخبر ما يشير إلى عقد الموازنة بين من هو على نور من ربه ومن هو قاسي القلب مظلمه لا تستسيغه النفس، حتى في معرض الإنكار....» فهو على بصيرة مما هو عليه، ويقين بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعمّا نهاه عنه منتهه فيما يرضيه كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه من استماع الحق واتباع الهوى، والعمل بالصواب، وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه وجواب الاستفهام، اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام إذ ذكر أحد الصنفين وجعل مكان ذكر الآخر الخبر عنه بقوله «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»(44)

ومن بلاغة حذف الفعل:

فالبلاغيون يذكرون لحذف الفعل عدة غايات بلاغية منها: إذا وقعت جملته جواب سؤال، فيكون ذكر الفاعل إسراع بذكر المسئول عنه بعد أن فهمت النفس الفعل المسئول عنه، واستقر أمره في الفؤاد، ومن ذلك قوله تعالى: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ، وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا»(45) ومثله قوله تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ»(46)

ويذكر البلاغيون كذلك أن حذف الفعل قد يكون من باب التحذير، مثل ما جاء في قوله تعالى: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا»(47) وهذا يشير إلى أن الفعل المذكور منهيّ عن المساس به، بأيّ نوع من أنواع الأذى، ففي حذف

---

(43) الزمر 22

(44) جامع البيان جـ23 ص209

(45) الإسراء 50

(46) العنكبوت 61

(47) الشمس 13

الفعل تعميم، لا يتأتى إذا ذكر فعل بعينه.. يقول: وقوله: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا» يعني بذلك جلّ ثناؤه: صالحا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لثمود صالح «نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا» «واحذروا ناقة الله وسقياها، وإنما حذّرهم سقيا الناقة، لأنه كان تقدم إليهم عن أمر الله، أن للناقة شرب يوم، ولهم شرب يوم آخر غير يوم الناقة»(48)

ومن بلاغة حذف المفعول :

وقد ذكر البلاغيّون مواضع عديدة اختلفت فيها أسباب الحذف وأسراره البلاغية، ومن أبرزها، عندما يكون المراد الاقتصار على إثبات المعاني، التي اشتقت منها الأفعال لفاعليها، من غير تعرض لذكر المفعولين، فيصبح الفعل المتعدي كغير المتعدي. ومن أمثلة هذا الحذف قوله تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»(49)

فالمعنى: أيستوي من له علم، ومن لا علم عنده، من غير أن يقصد النص على معلوم فقل لهم يامحمد: هل يستوي الذين يعلمون مالهم في طاعتهم لربهم من الثواب وماعليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يتخبطون في عشواء.... »(50)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا..... وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى».(51)

فالمعنى: هو الذي منه الإضحاك والإبكاء، والإحياء والإغناء والإقناء فالغرض هنا إثبات الفعل للفاعل.(52)

ومن هذا الوجه الواضح قوله تعالى:« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً

---

(48) جامع البيان جـ30 ص214

(49) الزمر 9

(50) جامع البيان جـ23 ص203

(51) النجم 43 - 44 - 47

(52) جامع البيان جـ27 ص75

مِنَ الـــنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ»(53)

وهنا حذف أربع مفعولات ، إذا المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما.»(54)

«ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتي بالفعل مطلقا، وماذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا لا يكون منا سقي، حتى يصدر الرعاء وأنه كان من بعد ذلك سقي من موسى . فأمّا ما كان المسقي، أغنما أم إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض وموهم خلافه، وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود .

فاعرفه، تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ماوجدت، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه»(55)

ويحذف المفعول بعد فصل المشيئة، بعد لو، وبعد حروف الجزاء، حذرا من التكرير ومن ذلك كما في قوله سبحانه « **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى...**» ولا يكاد مفعول المشيئة يأتي -كما ذكر الطبري - إلا في الأمور الغريبة المتعجب منها كقوله تعالى:« **لَوْ أَرَادَ الـــلَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**»(56)، وقوله تعالى:« **لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ** »(57)

---

(53) القصص 23

(54) جامع البيان جـ20 ص57

(55) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص124

(56) الزمر 4

(57) الأنبياء 17

وقد تناول الطبري بلاغة الحذف وأفاض فيها في مجالات عديدة من آيات القرآن الكريم يطول القول في عرضها واحدة واحدة: ومن ذلك :

1- بلاغة حذف الصفة :

في قوله تعالى: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا»(58)

2- وبلاغة حذف جواب القسم:

في قوله تعالى: «وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ»(59)

وقوله تعالى: «قَ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»(60)

3- وبلاغة حذف جواب لو:

قوله تعالى: «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ»(61)

وقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا»(62)

4- وبلاغة حذف جواب لولا:

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، وَلَوْلَا فَضْلُ

---

(58) الكهف 79

(59) الفجر 1-2-3-4-5

(60) ق 1-2

(61) هود 79-80

(62) الرعد 31

اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»(63)

5- وبلاغة حذف جواب فلما :

قوله تعالى: «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ...»(64)

6- وبلاغة حذف جواب أمّا

قوله تعالى: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»(65)

7- وبلاغة حذف جواب إذا:

قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ»(66)

8- بلاغة حذف بعض الجمل:

كما في قوله تعالى:« قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ، فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ»(67)

9- وبلاغة التنكير:

في قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»(68)

10- وبلاغة التذكير والتأنيث:

في قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ،

---

(63) النور 19- 20

(64) الصافات 103- 104- 105

(65) آل عمران 106

(66) يس 45-46

(67) النمل 27-28

(68) البقرة 179

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَ كَثِيراً »(69)

« يعني أرضا قحطة، لا تنبت وقال «بَلْدَةً مَيْتًا» ولم يقل ميتة، لأنه أريد بذلك لنحيي به موضعًا ومكانا ميتا »(70)

وقال تعالى: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا »(71)

وقال تعالى: «السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً »(72)

يقول تعالى ذكره «السماء مثقلة بذلك اليوم متصدعة متشققة» وذكرت السماء في هذا الموضع لأن العرب تذكرها وتؤنثها، فمن ذكرها، وجهها إلى السقف كما يقال: هذا سماء البيت: لسقفه، وقد يجوز أن يكون تذكيرهم إيّاها لأنها من الأسماء التي لا فصل فيها بين مؤنثها ومذكرها..... »(73)

أسلوب القصر وألوانه عند الطبري

الملاحظ عند تأويل الطبري لجانب من آيات القرآن أنه يعطي لأسلوب القصر أهمية، ويستخدم في أسلوب القصر ألوانًا منه، وذلك عندما يراد إثبات الحكم المذكور ونفيه عما عداه، فقد يقصر صفة على موصوف قصراً حقيقيا، بحيث لا يتصف بهذه الصفة إلا ذلك الموصوف وحده، كما تجده في قوله سبحانه: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ»(74) وقوله سبحانه وتعالى : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ... »(75)

---

(69) الفرقان 48-49

(70) جامع البيان جـ19 ص21

(71) الزخرف 11

(72) المزمل 18

(73) جامع البيان جـ29 ص138- 139

(74) محمد 19

(75) الفاتحة 4-5

وقد لا يريد هذا الحصر الحقيقي بل يبغي إثباب الحكم لموصوفات يعتقد اتصافها بغير هذه الصفة، كما في قوله تعالى: «قُل لاَّ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ، فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»(76)

فليس الطعام المحرم هو ما ذكر في تلك الآيات فحسب بدليل آية المائدة (77)، وإنما ذكرت تلك المحرمات هنا في معرض الرد على من كان يعتقد حلالها.

وقد يقصر موصوفا على صفة، ولم يرد في القرآن هذا القصر حقيقيا(78) ومما ورد منه إضافيا قوله تعالى: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ...»(79)

فليس المراد هنا قصر محمد على الرسالة فحسب، بحيث لا يتعداها إلى غيرها، بل المراد أن محمداً مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى الخلوص من الموت الذي استعظموا أن يلم به

وقد تتجسم صفة من صفات الشيء، حتى تطغى على ما سواها، وحتى كأن الموصوف قد خلص لها فلم يعد متصفا بغيرها، فيصح قصره عليها، كما في قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ»(80) ويؤكد الطبري أن القرآن قد يخاطب بهذا الأسلوب، من يعتقد الشركة، فيثبت القرآن بهذا الأسلوب الحكم لواحد، وينفيه عن غيره، كما في قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ

---

(76) الأنعام 145

(77) المائدة (حرمتْ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وما أكل السبع إلا ماذكيتم، وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام» آية 3

(78) من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص156

(79) آل عمران 144

(80) الأنعام 32

أَلِيمٌ»(81)

وقد يقلب به ما يعتقده المخاطب.. كما ترى ذلك في قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ»(82)

فقد كان المنافقون -كما ترى- يعتقدون أن المؤمنين سفهاء دونهم..(83)

وإذا كانت «ما و إلاّ» أقوى أدوات القصر، لما فيها من وضوح معنى القصر فإن الطبري يشير إلى تلك الأهمية، ويبرزها في الأمور التي هي مجال الشك والإنكار...

نجد ذلك في قوله سبحانه:«نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً»(84)

«ألا ترى أنّ الظالمين يخاطبون بذلك قومًا آمنوا، وينكرون دعوى سحر الرسول..»(85)

وقوله سبحانه: «وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً»(86) فالتخويف يبعث في النفس الشك في أنهم ينصرفون عن كفرهم، فكان ثمة مدعاة لتأكيد زيادة طغيانهم وقوله تعالى: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً»(87)

فهذا القرآن هو شفاء ورحمة، لا مجال لشك في أنه خسارة للظالمين فكان المجال مجال تأكيد ذلك بما وإلاّ...

---

(81) المائدة 73

(82) البقرة 13

(83) من بلاغة القرآن أحمد بدوي ص157

(84) الإسراء 47

(85)من بلاغة القرآن ص 158

(86) الإسراء 60

(87) الإسراء 82

ويرى الطبري أنه -على طريقة العرب- إذا جاء أمر من الأمور المسلم بها بالنفي والإثبات فذلك لتقدير أمر صار به في حكم المشكوك!...كقوله سبحانه: «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ»(88)

فالمجيء هنا بالنفي والإثبات، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، قد خوطب خطاب من يظن أنه يستطيع أن يحول قلوب المشركين عما هي عليه من الإباء والعناد، ولا يعلم علم اليقين أن ليس في وسعه شيء أكثر من التحذير والإنذار، فجرى الأسلوب كما يجري في خطاب الشاك، فقيل: «إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ»(89)

وعلى هذا النمط الأسلوبي جاء قوله تعالى: «قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»(90)

وقوله تعالى: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»(91)

فإن هؤلاء المشركين جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشرا مثلهم، وادعوا أمراً لا يجوز أن يكون لمن هو بشر ولما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر، يدفعه المخاطب، ويدعي خلافه، ثم جاء الجواب من الرسل الذي هو قوله تعالى: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» كذلك بأن وإلاّ دون إنّما، لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه، أن يعيد كلام الخصم على وجهه ويجيء به على

---

(88) فاطر 22

(89) من بلاغة القرآن ص 158

(90) الأعراف 188

(91) إبراهيم 10-11

هيئته، ويحكيه كما هو»(92)

ويجيء النفي والاستثناء أيضا لبيان تأكيد الأمر في نفس قائله، كما في قوله سبحانه:« يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً»(93) فهذا - كما يفهم من تأويل الطبري- تعبير صادق لشعور المبعوثين يوم القيامة بأنه ما انقضى عليهم منذ وفاتهم سوى أمر يسير.

كما يجيء للإجابة عن سؤال محقق أو مقدر لتأكيد كهذا الجواب، كما في قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ... مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ»(94)

وتجيء إنما والأصل فيها أن تأتي في الأمور التي يدّعى أنها من الوضوح بمكان... وهذا ما يفهم من كلامه في قوله تعالى: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»(95)

فمن الوضوح بمكان مؤاخذة هؤلاء الأغنياء القادرين على المساهمة في الجهاد ثم يستأذنون راضين بأن يكونوا مع الخوالف (96)

وقوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(97)

---

(92) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص 256

(93) الإسراء 52

(94) المائدة 116- 117

(95) التوبة 92

(96) من بلاغة القرآن ص159

(97) الأنعام 2-3

ولأنها تستخدم في الأمور الواضحة، جاء قوله تعالى حكاية عن المنافقين :
«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ...»

فقد ادعوا أنّ إصلاحهم أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، ولذا احتوى الرد عليهم فنونًا من التوكيد، إذ قال سبحانه: «أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ، وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ» وكذلك حكى القرآن عنهم في موضع آخر فقال: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ، قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» فهم يدعون لشياطينهم أن استهزاءهم بالمؤمنين من الأمور التي لا مجال للريب فيها، ولا تكونوا مبعثا لسوء ظن شياطينهم فيهم (98)

وقد أفاض الطبري في هذا الأسلوب في معرض تفسيره للآيات: قوله تعالى:
«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»(99)

وقوله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا»

وقوله تعالى: «إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ»

(98)من بلاغة القرآن ص160

(99) التوبة 58 - 60

أسلوب الفصل والوصل في تفسير الطبري :

عني البلاغيون بالحديث عن الواو، التي تذكر فتصل الجملة بأختها، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين، وغالواً في تقدير معرفة الموضع الذي تصلح فيه الواو، والموضع الذي لا تصلح فيه، حتى حصر بعض البلاغيين البلاغة على معرفة الفصل والوصل، وقد قصروا حديثهم في ذلك الموضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

وهذا لأن الجمل التي لها موقع من الإعراب، يكون موضوع الواو فيها من الوضوح بمكان، لأنها تشرك الجملة الثانية في حكم الأولى، فتكون مثلها خبرا أو صفة، أو حالا، أو مفعولا، أو غير ذلك...

ودرس الفصل والوصل لقي عند الطبري أكبر عناية، وكان لهذا الدرس البلاغي عنده أكبر رصيد، ولعل السّر في ذلك يعود إلى نبوغه في علم القراءات. والذي صنف فيه أروع التصانيف، وعلم القراءت هو عماد «الفصل والوصل» وهو العلم الذي أعار المصطلح للبلاغة، لأن المجال متصل، ماكتب يحتاج إلى الفصل أو الوصل، ليقرأ بعيدا عن اللبس، وليفهم، ويتذوق بعيدا عن الغموض والجفاف...

ولقد أصبح من المؤكد عند دارسي البلاغة: أن مصطلح الفصل والوصل مصدره علم القراءات والدليل على ذلك سبق وجوده في علم القراءات، وتعريف علماء القراءات به وتشابه المدلول والغرض، فالقراءة أيًا كان نوعها تحويل للألفاظ المكتوبة إلى أصوات منطوقة تؤدي نفس الدلالات.(100)

ولم يكن الأمر مقصورا على مؤلفات القراءات، فقد وجدت مصطلحات «الوقف و الوصل» و «القطع والابتداء» و «الوقف والابتداء» و«القطع والوصل» في كتب النحو والتفسير.. فنجد سيبويه يتكلم عن الحروف التي يسمع معها الصوت والنفخة في الوقف لا يكونان في الوصل إذا سكّن لأنك لا تنظر أن ينبو لسانك، ولا يفتر الصوت حتى تبتدئ صوتًا »(101)

---

(100) الفصل والوصل في القرآن الكريم منير سلطان ص18 والبرهان للزركشي جـ1 ص342 وما بعدها.

(101) الكتاب جـ4 ص175

والفراء يستعمل كذلك مصطلح «القطع والابتداء» (102) و «الوقف والاستئناف» (103) و«الوقف والوصل»(104)

ثم يجيء الطبري ليعمق المصطلح، ويزيده وضوحا فنراه مثلا عند تأويل قوله تعالى: «فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ»(105) يتكلم عن الهاء الزائدة في «يَتَسَنَّهْ» فيقول: «...فإن العرب قد تصل الكلام بزائد فتنطق به على نحو منطقها به في حالة القطع فيكون وصلها إيّاه وقطعها سواء، وذلك من فعلها دلالة على صحة قراءة من قرأ جميع ذلك بإثبات الهاء في الوصل والوقف (106)

وإذا كان مصطلح الفصل والوصل قد نشأ في حضن علم القراءات، وكان الطبري ضليعا في هذا العلم، وله جهود كبيرة في هذا الميدان، فإنه من الطبيعي أن نقول -إنصافا للحقيقة- ألاّ تكون مادة الفصل والوصل من ابتكاراته إنما وجد الرجل تراثا مبعثرا فأضاف وجمع شتاته، وضمّ أوصاله، فقد كان كلام سيبويه في الكتاب(107)

وكان كلام الفراء (108) في حديثه عن «يذّبحون» «ويذبحون» يقول : فمعنى الواو أنه ...، ومعنى طرح الواو كأنه طرح لصفات العذاب، وإذا كان من الخبر من العذاب أو الثواب مجملا في كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو؛ وإذا كان أوله غير آخره فبالواو»(109)

والجاحظ ينفرد بذكر مصطلح «الفصل والوصل» وأن معرفتهما هي «البلاغة»(110) وابن وهب في كتابه البرهان يفرد بابا بعنوان:

---

(102) معاني القرآن للفراء جـ1 ص184

(103) المصدر نفسه جـ1 ص9

(104) المصدر نفسه جـ1 ص172

(105) البقرة 259

(106) جامع البيان جـ5 ص463 تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر

(107) الكتاب جـ1 ص399

(108) معاني القرآن للفراء جـ2 ص68

(109) المصدر نفسه جـ 2 ص 69

(110) البيان والتبيين جـ 1 ص 111 تحقيق السندوبي

"في القطع والعطف" ويقصد به الفصل بالجمل المعترضة (111)

والطبري وهو يتكلم عن الاستثناء المنقطع يقول: «إنما يكون ذلك كذلك في كل موضع حسن أن يوضع فيه مكان (إلا) «لكن» فيعلم حينئذ، انقطاع معنى الثاني عن معنى الأول.»(112)

ومن خلال معايشتي لتفسير الطبري «جامع البيان»: وجدت:

أولا : في الفصل

أ- يشير أن الفصل في موضع قد يكون أبلغ من الوصل.

ب- ويتحدث عن أدوات الفصل والتي منها :

1- ضمير الفصل: فمثلا في قوله تعالى في سورة الأنفال: «**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ...**»(113) وقوله تعالى: «**وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**»(114) ويسميه الطبري بالعماد .

2- الجملة المعترضة :

كما في قوله تعالى: «**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ**»(115)

فهذان اعتراضان: أحدهما قوله تعالى: «**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**»، والآخر «**لَوْ تَعْلَمُونَ**». فذانك اعتراضان كما ترى، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب أن يكون «فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم، وإنه لقسم لوتعلمون عظيم»(116)

---

(111) البرهان في وجوه البيان ص 124-125

(112) جامع البيان جـ2 ص264

(113) الأنفال 32

(114) البقرة 85

(115) الواقعة 75

(116) الخصائص لابن جني جـ1 ص335 ومابعدها

3- الاستثناء المنقطع :

ويذكره الطبري في تفسيره لقوله تعالى: «لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ»(117)

يقول : «ويخرج «بإلاّ» ما بعدها من معنى ما قبلها، ومن صفته، وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الآخر، ومن غير نوعه، ويسمي ذلك بعض أهل العربية «استثناء منقطعا» لانقطاع الكلام الذي يأتي بعد «إلا» عن معنى ما قبلها وإنما يكون ذلك في كل موضع حسن أن يوضع فيه مكان «إلا» «لكن» فيعلم حينئذ انقطاع معنى الثاني عن معنى الأول، ألا ترى أنك قلت «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني» ثم أردت وضع «لكن» مكان «إلا» وجدت الكلام صحيحا معناه صحته وفيه «إلا» وذلك إذا قلت: ومنهم أميّون لا يعلمون لكن أمانيّ، يعني لكنهم يتمنون، وكذلك يتبعون الظنّ وكذلك جميع هذا النوع من الكلام على ما وصفناه»(118)

4- طرح الواو : وهو المشهور

وأشار الطبري إلى كثير من أغراض الفصل ومنها:

1- الفصل للتفسير

وهذا ما يتضح من تفسيره لقوله تعالى:«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» (119)

وقد جاءت جملة «يُذَبِّحُونَ» مرة بالواو، متصلة بما قبلها(120) ومرة منفصلة عما قبلها .

والذي ذكره الطبري هو نفس ماذكره الفراء في ذلك(121)

---

(117) البقرة 78

(118) جامع البيان جـ2 ص264

(119) إبراهيم 6

(120) جامع البيان جـ13 ص 185

(121) معاني القرآن للفراء جـ2 ص68-69

2- الفصل للإيجاز

وذلك بإبدال ماهو أعرف بما هو أعرف منه وأول من نص على ذلك سيبويه في باب : بدل المعرفة من النكرة والمعرفة من المعرفة ، وقطع المعرفة من المعرفة المبتدأة (122)

وهذا ما يفهم من كلام الطبري في قوله تعالى: «**قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**»(123) فإسقاط الفاء من «**قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ**» وهو كثير في القرآن الكريم، بغير الفاء، وذلك لأنه جواب يستغنى أوله عن آخره، بالوقفة عليه.

ومن ذلك قوله تعالى: «**قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ**»(124)

وقوله تعالى: حكاية عن فرعون «**قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**»(125)

وغير ذلك مما لا يحصى

ثانيا : في الوصل :

وقد لحظ الطبري أن للواو موضعا لا تصلح فيه الفاء وهو في ذلك متّبع لما يراه سيبويه في وصل المفردات ويستدل على ذلك بما ذكره سيبويه لأمية بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نسوة عطل وشعث مراضيع مثل السّعالى (126)

---

(122) الكتاب جـ2 ص15

(123) البقرة 67

(124) الذاريات 31-32

(125) الشعراء 24-25

(126) ديوان الهذليين جـ2 ص184، والخزانة جـ1 ص417 وابن يعيش جـ2 ص10 ،و معاني القرآن للفراء جـ1 ص108 . والبيت يصف صائداً يسعى لعياله، فيعزب عن نسائه في طلب الوحش، ثم يأوي إليهن. والعطل جمع عاطل: وهي التي لاشيء لها، أو التي لا حليّ لها، والثاني أوفق. والشعث، جمع شعثاء، وهي التي تغير شعرها وتليد لبعد تعهده بالدهن . والمراضع: جمع مرضاع، وهي الكثيرة الإرضاع. والسعالى جمع سعلاة وهي الغول . =

ولو قلت فشعث، قبح (127)

وقد لحظ الطبري أن الجملة تأتي موصولة مرة ومفصولة أخرى لغرض التفسير:

وذلك ما ظهر من تفسيره لقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ»(128)

وقد أجاز الطبري وصل الجملة الخبرية بالجملة الإنشائية خلافا للمشهور وذلك على سنن ما كانت تفعله العرب. فقد ذكر السبكي أن الشيخ أبا حيان نقل عن سيبويه جواز عطف المختلفتين بالاستفهام والخبر مثل: هذا زيد ومن عمر؟

وقد تكلموا على ذلك في قوله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ»(129)

ويعقّب السبكي: « لا خلاف بين الفريقين لأنه عند من جوزه يجوز لغة، ولا يجوز بلاغة » (130)

ولكن الدكتور عبد القادر حسين يعلق على ذلك قائلا: «ولا ندري لماذا لم يأخذ البلاغيون بجواز عطف الإنشاء على الخبر أو العكس وإن وجدوا شيئا من ذلك أولوه، وقدروا عطف خبر على خبر أو إنشاء على إنشاء . ولماذا لم يكن شأن البلاغيين شأن النحاة في قبول هذا الرأي، ولو كان البلاغيون رفضوا هذا النوع لأنهم لم يجدوا إلا مثله من صنع النحاة لالتمسنا لهم العذر في هذا الرفض . ولكن القرآن شاهد بهذه الآية على وجود هذه الصورة، ولا نقنع بقول السبكي إنّ هذا يجوز لغة، ولا يجوز بلاغة.(131)

= والشاهد فيه عطف شعث على عطّل بالواو لا بالفاء لأنها تفيد التفرقة .

انظر الكتاب جـ1 ص399

(127) الكتاب جـ1 ص400

(128) إبراهيم 6

(129) الأنعام 121

(130) عروس الأفراح للسبكي جـ3 ص27

(131) أثر النحاة في البحث البلاغي عبد القادر حسين ص97 - 98

من أغراض الوصل :

كانت للطبري ملاحظات ذكية ودقيقة عندما يتحدث عن بعض أغراض الوصل «مثل» الوصل لأمن اللبس - أو الوصل للتميز تشريفا - أو الوصل لتوكيد تفرد العلم الإلهي بالتأويل ...

وهذا ما نجده عند تأويله لقوله تعالى: «**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ، وَمِيكَالَ**»(132)

وقوله تعالى: «**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**»(133)

هذا ولقد كانت دراسات الطبري في ثنايا تفسيره لكثير من قضايا الفصل والوصل واضحة وخاصة في هذه الجوانب:

أولا: تشكيل مادة الوصل:

1- منزلة الواو بين أدوات الوصل

2- الواو تصل بين الأشباه والنظائر، وتصل بين النقائض لعلاقة

3- الوصل ليس بحرف العطف فقط.

4- الوصل في المفردات مدخل لمعرفة الوصل في الجمل

5-الوصل في الجمل على ضربين : وصل مجموع جمل بمجموع جمل أخرى ، والعطف على جمل الحال ... ثم جمل الشرط المعطوفة على جمل الجزاء

6- ثم العطف على جواب الشرط بالواو

ثانيا: الفصل وتشكيل مادته :

درس الطبري على ضوء الآيات المبثوثة في الكتاب العزيز... جانبا كبيرا من

---

(132) البقرة 98

(133) آل عمران 7

بلاغة الفصل، وأنه :

1- قد يكون الفصل أبلغ من الوصل .

2- التناسق الداخلي للجمل أقوى من وصلها برابط

3- الفصل يزيد الأسلوب جزالة وفخامة في بعض الآيات

4- الفصل يضفي على الأسلوب حسنا وقوة تأثير .

ودرس أدوات الفصل على ضوء الآيات، وأنه يكون :

1- فصل بالواو

2- الفصل بضمير الفصل

3- الفصل بالجملة المعترضة

4- الفصل بالاستثناء المنقطع

5- الفصل بـ (بل)

6-الفصل بـ «أم» المتقطعة

وكان من أغراض الفصل الواضحة في دراسات الطبري :

1- الفصل لتثبيت المعنى وتوكيده وذلك : بعطف البيان أو بالبدل ، أو بالتوكيد

2- الفصل لإيضاح المعنى وبيانه

3- الفصل للتفصيل بعد الإجمال

4- الفصل للاستطراد

5- الفصل للإجابة على سؤال مقدر

6- الاستئناف :

- الاستئناف لتوضيح الغامض

- الاستئناف للتعليل

- الاستئناف للتوكيد

- الاستئناف لبيان السبب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه القضايا في هذا الدرس البلاغي وغيرها ظهرت واضحة في دراساته على ضوء الآيات التي نذكر منها على سبيل المثال:

فمن جمال الوصل: قوله تعالى: «أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»(134)

ومن جمال الفصل :

قوله تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»(135)

وقوله تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى»(136)

وقوله تعالى : «قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ»(137)

وقوله تعالى في آية الكرسي:«اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ... »(138)

وقوله تعالى: «الم ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»(139)

وقوله تعالى : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»(140)

وقوله تعالى: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ

---

(134) الغاشية 17-20

(135) يس 69

(136) النجم 3

(137) هود 93

(138) البقرة 255

(139) البقرة 1- 2

(140) الأعراف 42

أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»(141)

وقوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ»(142)

وقوله تعالى: «يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ»(143)

وقوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا»(144)

وقوله تعالى : «وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ»(145)

والأمثلة في هذا الشأن كثيرة جدا وقف عليها الطبري وبيّن سر الفصل والوصل فيها.

وقد كان للعلماء قبل الطبري جهود طيبة في هذا الدرس البلاغي: درس الفصل والوصل ولكنهم جنحوا إلى رصد القاعدة، والتعريف بأدواتها، ولم يتوقفوا أمام فن الفصل والوصل يستخرجون طاقاته وقدراته على التعبير، وأيضا لم يتلفتوا إليه من خلال القرآن الكريم كله، ولم يحاولوا أن يضموه في نسق ليخصوه بالدرس الوافي.

وقد عالج الطبري هذا النقص حيث أعطى هذا الدرس عمقا جديدا، وازدهرت

---

(141) الأنفال 26

(142) الحج 3

(143) لقمان 17- 18- 19

(144) البقرة 189

(145) آل عمران 110 - 111

معالمه، لأنها كانت تطبيقا على القرآن الكريم من خلال آياته .

وكان ذلك منه إضافة جديدة لهذا الدرس البلاغي الهام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : علم البديع في تفسير الطبري :

/ لم ينظر الطبري إلى البديع على أنه يجيء في المرتبة الثالثة بعد استيفاء علمي المعاني والبيان حقهما، وإنما نظر إليه في نظمه الخاص من الأسلوب القرآني دفعة واحدة، وأن المحسن يجيء في مكانه ليقوم بنصيبه من أداء المعنى أولا أمّا ما فيه من جمال لفظي، أو حلية شكلية فإن ذلك يجيء من أن تلك العبارة أو هذه اللفظة بالذات، يتطلبها المعنى، ويتحتم المجيء بها دون غيرها من العبارات والألفاظ.(146)

وهذا لم يمنع الطبري -أحيانا- أن يشير إلى روعة الأداء، وجمال الشكل في العبارة القرآنية، الذي جاء بسبب هذا الاختيار....

وهو لم يقف أمام كل ما ذكره علماء البديع من ألوان المحسنات اللفظية أو المعنوية، فكثير من هذه الألوان في حاجة إلى إعادة النظر، حتى نستبقي الجميل منها ونترك ما لا فائدة فيه .

فما ورد في القرآن مما نعده محسنات بديعية فقد جاءت الألفاظ التي بها المحسن البديعي في مكانها حيث يتطلبها المعنى، ولا يغني غيرها غناءها. فتركيز الطبري في كثير من آيات القرآن على المعنى أكثر من الوقوف طويلا أمام الناحية الجمالية أو البديعية للفظة .

فالطباق الوارد في قوله تعالى: « **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**»(147)

وقوله تعالى: «**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**»(148)

يقول مثلا: يقول تعالى ذكره: «... يدخل الليل في النهار، وذلك ما نقصى من الليل، أدخله في النهار، فزاده فيه، ويولج النهار في الليل، وذلك مانقص من

---

(146)من بلاغة القرآن ص 181

(147) فاطر 19- 22

(148) فاطر 13

أجزاء النهار زاد في أجزاء الليل، فأدخله فيها.... »(149)

وفي الجناس التام :

قوله تعالى : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ، يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ»(150)

نجد كلمة الأبصار الأولى مستقرة في مكانها فهي جمع بصر، ويراد به نور العين الذي تميز بين الأشياء.

وكلمة الأبصار الثانية جمع بصر بمعنى العين، ولكن كلمة الأبصار هنا أدل على المعنى المراد من كلمة العيون، لأنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الأبصار، وهي التي بها العظة والاعتبار.

«فأنت ذا ترى أن أداء المعنى كاملا، تطلب إيراد هذه الكلمة ، حتى إذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظي.. »(151)

وقوله تعالى في سورة الروم: «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالِبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ»

فكلمة «الساعة» الأولى جيء بها دالة على يوم القيامة، واختير لذلك اليوم هذا الإسم هنا، للدلالة على معنى المفاجأة والسرعة..

وكلمة «ساعة» الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين، فهم لا يحسون أنهم قضوا في حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جدا، حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا، ولا بفترة طويلة يعبرون عنها بيوم مثلا، فكانت كلمة «ساعة» خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز.(152)

وما ورد في القرآن من الجناس الناقص، فحديثه عنه حديث الجناس التام، وهذا ما يظهر في قوله تعالى: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ... »(153) ويطول القول

---

(149) جامع البيان جـ22 ص124

(150) النور 44

(151) من بلاغة القرآن ص 182

(152) المرجع نفسه ص 183

(153) الأنعام 26

إذا مضينا في الحديث عن بيان وتتبع كيف حلت كل كلمة في جملة الجناس محلها، بحيث لا تغني كلمة أخرى في هذا الموضع غناءها ، وحسبي أن أشير إلى تلك الآيات التي وقف عندها الطبري ومنها :

قوله تعالى: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ»(154)

وقوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»(155)

وقوله تعالى: «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ»(156)

وقوله تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ...»(157)

المشاكلة :

ويعني بها علماء البلاغة ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته

ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»(158)

« فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة، والأصل، وجزاء سيئة عقوبة مثلها...»

وقوله تعالى: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»

والأصل أخذهم بمكرهم .

وقوله تعالى: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»(159)

ودراسة الطبري في هذا اللون تضيف إليه بعداً أعمق. فالتعبير يحمل معنى أكبر

---

(154) الضحى 9-10

(155) القيامة 22-23

(156) القيامة 29 - 30

(157) الهمزة 1 - 2

(158) الشورى 40

(159) البقرة 194

جيء به ليؤكد ويعمق ما لا يمكن أن يوحي به غيره ولا يدل عليه سواه « فتسمية جزاء سيئة سيئة؛ لأن العمل في نفسه سوء، وهو يفيد بأن مقابلة الشر بالشر، وإن كانت مباحة سيّئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى، وعلى هذا النسق تماما ورد قوله تعالى: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ....»(160)

الإستثناء :

وقد عدّوه من ألوان البديع

ومثلوا له بقوله تعالى : «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا»(161) وقد كانت رؤية الطبري في ذلك كما يلي: أن في هذا التعبير فضلا عن إيجازه، إيحاء بطول المدة، وتهويلا للأمر على السامعين، وفي ذلك تمهيد العذر لنوح في الدعاء على قومه، وذلك لأن أول ما يطرق السمع ذكر الألف، فتشعر بطول مدته، وتتصور جهاد نوح في ذلك الزمن المديد. ولن يقلل الاستثناء من شأن هذا التصور، ولا يتحقق هذا الإحساس إذا بدأت بغير الألف . (162)

اللف والنشر :

وهو ذكر شيئين أو أكثر، ثم ذكر ما يقابلها، وفيه جمع للتناسبات من غير فاصل بينهما.

ومن ذلك قوله تعالى: «وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ...»

فبين الليل والنهار مناسبة، تجمع بينهما. ثم يشير هذا تطلعا إلى معرفة السبب في أنهما من رحمته. وفي ذلك عنصر التشويق . وفي تقديم السكون على ابتغاء الفضل تقديم الاستعداد للجهاد في الحياة على الجهاد...(163)

---

(160)من بلاغة القرآن ص 184

(161) العنكبوت 14

(162)من بلاغة القرآن ص 185

(163)المرجع نفسه ص 186

ومن ذلك قوله تعالى: « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»(164)

وعلى طريقة العرب في التعبير نرى الإجمال الأول، فيه إعطاء صورة سريعة لهذا اليوم، ثم يعود بعدئذ إلى إكمال الصورة في تفصيل وإيضاح، وربما يكون قد بدأ عندما فصل بذكر من اسودت وجوههم لكون الحديث منتهياً بذكر طريقة الخلاص في عذاب ذلك اليوم... ومن اللف والنشر قوله تعالى: «وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا... »(165)

والسر في الجمع أولا ذكر المنهي عنه جملة واحدة، ثم العود لبيان سر هذا النهي.

العكس :

وذلك بأن يقدّم في الكلام جزء، ويؤخر آخر، ثم يقدم المؤخر، ويؤخر المقدم .

وجمال العكس في أنه يربط بين أمرين، ويعقد بينهما أوثق الصلات أو أشد ألوان النفور .

وذلك مثل قوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ»

«يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ»

وقوله سبحانه: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ... »

«لاَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»

ومن أجمل أنواع ائتلاف المعنى مع المعنى بذكر الأمور المتناسبة بعضها إلى جانب بعض.. كقوله سبحانه: «قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»(166)

وقد يخفى في بعض الأحيان وجه الجمع بين المعنيين، كما في قوله سبحانه: «إِنَّ

---

(164) آل عمران 106

(165) الإسراء 29

(166) يوسف 86

لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى»(167).

فقد يبدو أن الوجه الجمع بين الجوع والظمأ، والعري والضحاء، ولكن التأمل الهادئ يدل على أن الجوع والعري يسبّبان الشعور بالبرد فجمعا معًا، والظمأ والضحاء يسببان الشعور بالحر، إذ الأول يبعث التهاب الجوف، والثاني يلهب الجلد، فناسب ذلك الجمع بينهما(168) .

ولست أرمي هنا إلى حصر لمحات الطبري في هذا الدرس وإنما ذكرت بعض الشواهد والأمثلة الدالة على حسه البلاغي وذوقه الفني .

فمن خلال ما تقدم يمكننا أن نعدّ عمل الإمام الطبري عمل تجديد وبناء وجمع دقيق واع لآراء المتقدمين عنه وغربلة لها . وهذا بخلاف من سيجيء بعده من المفسرين فالموضوع سيصبح سهلا لديهم لاعتبارات عديدة منها :

1 - التفسير قد وضحت معالمه واستقرت مفاهيمه بالتقاء التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي والتفسير اللغوي .

2 - المذاهب النحوية قد استقر أمرها وبرزت معالمها وضبطت مصطلحاتها ، وركدت عصبيتها وامتزجت الآراء فيها بغلبة المذهب البصري ، « واصطباغ كتب التفسير به مع انتشار آراء أئمة المذهب الكوفي فيها » (169) .

3 - بداية التأصيل للدرس البلاغي خاصة بعد مجيء الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي استفاد كثيرا من ملاحظات الطبري البيانية وتخريجاته اللغوية في أثناء تفسيره للقرآن الكريم .

4 - والقراءات أيضا استقر أمرها واتضح متواترها باشتهار القراءات السبع ، وسموّ منزلة قرائها ورواتهم ، وشذوذ ما عداها وإن اختلفت درجات الشوذوذ . ويعد الطبري أحد أعلام القراءات البارزين ومن ثم كان من أوائل من أصّلوا مبحث الفصل والوصل في البلاغة .

---

(167) طه 118 - 119

(168)من بلاغة القرآن ص 196

(169) النحو وكتب التفسير إبراهيم عبد الله رفيدة جـ 1 ص 640

وهذه الأمور كلها جعلتني أعدّ تفسير جامع البيان بداية مرحلة جديدة أرغمتني على الوقوف طويلا عنده ، على عكس التفاسير الأخرى خلال القرون الأربعة الأولى التي تتشابه مناهجها ولا تختلف إلا باختلاف صفات أصحابها العلمية وقدرتهم على الترجيح بين آراء السلف واختلاف تفكيرهم في التطبيق والبناء عليها .

وهذا ما جعل بعض الدارسين يذهب إلى أنه « لم يظهر قبل تفسير الطبري أكبر ولا أجمع ولا أوثق منه وقد وصفه العلماء بأنه لم يصنف أحد مثله » . (170)

وبهذا يكون الإمام الطبري صاحب مدرسة متميزة في التفسير ، تجمع ما بين الأثر والرأي المبني على الدقة في النقل والعلم الصحيح .

(170) أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي مساعد مسلم آل جعفر ص 86

الفصل الرابع
على درب الطبري (السمرقندي)

بحر العلوم للسمرقندي

التعريف بمؤلف هذا التفسير

منهج أبي الليث السمرقندي في تفسيره بحر العلوم

التفسير واجب عند أبي الليث

التفسير بالمأثور عند أبي الليث

تفسير القرآن بالقرآن

تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن

تفسير الصحابة للقرآن

تفسير التابعين للقرآن

الإسرائيليات في تفسير الطبري

أقسام الإسرائيليات

أبو الليث والإسرائيليات

المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث

الدرس البلاغي في تفسير أبي الليث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذكروا -على وجه التقريب- أن مولده كان بين 301 و 310 هـ .

وفاته :

وكذلك اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته .

- ذكر الداودي في «طبقات المفسرين» أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادي الأخيرة سنة 393 هـ .(4)

- وقال صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة 383هـ.

- وفي تاج التراجم أن وفاته كانت سنة 375هـ (5)

- وفي الجواهر المضيئة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة 373 هـ (6)

- وفي كشف الظنون ذكر حاجي خليفة أن أبا الليث توفي سنة 376 أو سنة 375.

- وفي تاريخ التراث العربي أن وفاته كانت من سنة 373 وقيل سنة 375 وقيل سنة 393 (7)

- وفي معجم المؤلفين أنه توفي سنة 393(8)

- وقال السيوطي: مات في أيام الطالع(9)

أما كتاب «النوازل» ففيه أن وفاته كانت من جمادي الأخيرة ليلة الحادي عشر في سنة 396 -عن خمسة وخمسين عاما- وهذا التحديد يدلنا أيضا على العام الذي ولد فيه.

---

(4) المصباح المضيء لابن جديدة جـ3 ص 360

(5) بحر العلوم جـ1 ص 51

(6)المصدر نفسه

(7) المصدرنفسه جـ3 ص196

(8) كشف الظنون جـ2 ص187

(9)المصدر نفسه

أسرته :

لم تذكر كتب التراجم شيئا عن أسرته، ولعله كان من أسرة عادية، لم يبرز منها سوى أبي الليث وأبيه، الذي يعد أول شيوخه ، فقد نقل عنه كثيرا سواء في التفسير وفي غيره.

بيئته :

سمرقند (10) : هي إحدى مدن خراسان، -كانت تتبع الإتحاد السوفيتي سابقا-، يقال لها بالعربية سمان، مبنية على جنوب وادي الصفد، ومرتفعة عليه وهي مدينة عظيمة بمناخها ، قال فيها الشاعر:

للناس من أخراهم جنة وجنة الدنيا سمرقند(11)

وكانت هذه المدينة قبلة طلاب العلم إذ رحل إليها العلماء والفقهاء والوعاظ والمتصوفة. وبذلك احتلت مكانة علمية مرموقة بين سائر البلدان الإسلامية وإلى سمرقند نسب أبو الليث، وشاركه في هذه النسبة كثير من العلماء منهم :

- الحكيم السمرقندي
- محمد بن أحمد السمرقندي
- إسحاق السمرقندي
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل السمرقندي
- أبو نصر العياض السمرقندي
- محمد بن عثمان السمرقندي
- محمد بن عبد الجليل السمرقندي

يقول ابن الأثير في اللباب : « بل إن الملوك أنفسهم كانوا يحبون العلم والتعلم، وكانو أحسن الملوك سيرة، يرجعون إلى عدل ودين وعلم، فمنهم أحمد بن ساسان وروي الحديث عن ابن عيينة، ويزيد بن هارون وغيرهما، وروي عنه ابنه الأمير

---

(10) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 411

(11) بفتح السين والميم . هكذا ضبطها ياقوت، أما البكري فقد فتح السين وسكن الميم

إسماعيل». وكانت بلاد ما وراء النهر وخراسان- في عهد الدولة السامانية- مركز إشعاع للثقافة الإسلامية، فقد اهتمت الأسرة المالكة بالعلم والعلماء، لهذا صارت تلك البلاد «من أجلّ الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء، معدن الخير، ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم... فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك»(12)

وكان التأليف ثمرة لهذا النشاط العلمي الواسع من بلاد ما وراء النهر وخراسان ولذا فلا غرو أن نجد هذا القرن زاخرا بعلماء من شتى المجالات العلمية أثروا المكتبة العربية بغزير المؤلفات، وكان من أبرز هؤلاء العلماء:-

في مجال الحديث :

1- الإمام الحافظ النسائي (ت 303هـ) صاحب «السنن الكبرى» و«السنن الصغرى»(13)

2- الإمام أبو داود (ت 275 هـ) صاحب «السنن» أحد الكتب الستة (14)

3- الإمام الترمذي (ت 279 هـ) صاحب «الجامع الصحيح» أحد الكتب الستة(15)

4- الإمام ابن ماجة (ت 273 هـ) صاحب «السنن» أحد الكتب الستة (16)

5- الإمام الدارمي، صاحب «المسند» و «التفسير»(17)

في مجال التفسير:

1- أبو زيد البلخي (ت 322هـ) له مؤلفات عديدة في علوم شتى منها غريب القرآن، ونظم القرآن.. وغيرهما(18)

---

(12) معجم البلدان جـ5 ص121

(13) أحسن التقاسيم للمقدسي ص260

(14) الأعلام للزركلي جـ1 ص164

(15) وفيات الأعيان جـ1 ص214

(16) المصدر نفسه ج1 ص484

(17)الأعلام جـ8 ص15

(18) طبقات المفسرين للحافظ الذهبي جـ1 ص235

2- ابن قتيبة الدينوري (ت 267 هـ) صاحب معاني القرآن، وإعراب القرآن وغيرهما .

3- أبو منصور الماتريدي (ت 333) من مؤلفاته تأويلات القرآن

في مجال الفقه :

برز علماء كثيرون في بلاد ما وراء النهر وخراسان كان منهم:

1- أبو الفضل البلخي (ت 344 هـ)

2- أبو عبد الله الفقيه البلخي (ت 305 هـ)

3- نصير بن يحيى البلخي (ت 267 هـ).

منهج السمرقندي في تفسيره بحر العلوم

جمع أبو الليث في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، فجاء كتابه «بحر العلوم» مزيجا من النوعين.

وقد عد بعض الباحثين (19) تفسيره هذا من التفسير الأثري معتمدين على فهم خاطئ لقول أورده في مقدمة تفسيره.

وذلك أن أبا الليث قدم لتفسيره بمقدمة جعل عنوانها «باب الحث على طلب التفسير» وقال فيها (20) : «... ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه...». ففهم «آدم ميتز» من ذلك أن السمرقندي يمنع كل تفسير بالرأي (21).. ولعل مما أكد هذا الفهم عنده أن أبا الليث ساق عدة أثار تمنع التفسير بالرأي.

فقد روى قول أبي بكر الصديق - حين سئل عن قول الله تعالى : «**وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا**»- قال :أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالم أعلم.

وكذلك روي أن رجلا قال لأبيّ: « هذا التفسير برأيك »، فبكى وقال: إني إذاً لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي -صلى الله

---

(19) الأعلام جـ1 ص131

(20)بحر العلوم جـ 1 ص 50

(21)المصدر نفسه جـ ص 72 - 73

عليه وسلم-. لكن ذلك لا يعفي «ميتز» من الخطأ في الفهم، أو التقول على أبي الليث.

فنص أبي الليث -كاملا- يناقض ماذهب إليه «آدم ميتز» إذ يقول: «... ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه مالم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل...» إذا هو يضع الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يقدم على هذا العمل، فإذا ما افتقدت هذه الشروط أو الأدوات فينبغي الابتعاد وإيثار السلامة... وهذا ما يفهم من الأثر الذي ساقه عن أبي بكر- رضي الله عنه... فالحظر إنما هو مقصور على من لم يتملك أدوات التفسير لأنه -حينئذ- سيقول دونما أساس من لغة، وفقه، وأسباب نزول-إلخ.

ويكون تفسيره حينئذ تابعا لهواه.

التفسير واجب عند ابي الليث :

بل إن أبا الليث يعد تفسير القرآن الكريم من قبيل الواجب على من تملك أدواته، وقد استدل لذلك بما ساقه بسنده عن ابن مسعود قال: «من أراد العلم فليثر القرآن» وفي رواية «فليثوّر القرآن فإن فيه علم الأولين والأخرين» ويورد أثارا أخرى عن الصحابة في ذلك ثم يعقب عليها قائلا: «... ولأن الله تعالى أنزل القرآن هدى للناس، وجعله حجة على جميع الخلق بقوله تعالى : «**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ..**»(22) فلما كان القرآن حجة على العرب والعجم، ثم لا يكون حجة عليهم إلا بعد ما يعلم تفسيره فدل ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب».

وفي «بستان العارفين» تفصيل لذلك إذ يقول: «لأن القرآن حجة على الخلق، فلو لم يجز التفسير لا يكون حجة بالغة، فإذا كان كذلك جاز لمن عرف لغات العرب وعرف شأن النزول أن يفسره. وأما من كان من المتكلفين ولم يعرف وجوه اللغة، فلا يجوز له أن يفسره إلا بمقدار ما سمع فيكون ذلك على وجه الحكاية، لا على سبيل التفسير فلا بأس به، ولو أنه تعلم تفسيره وأراد أن يستخرج من الآية حكما أو

---

(22) الأنعام 19

استدلالا بشيء من الأحكام فلا بأس به، ولو أنه قال: المراد من الآية كذا وكذا من غير أن يسمع فيه شيئا فلا يحل له هذا، وهذا الذي نهى عنه، ولو أنه سمع شيئا من بعض الأئمة فلا بأس بأن يحكي عنه»(23)

ثم لماذا نستدل بالنصوص ونترك تفسير أبي الليث وهو نفسه فيه تفسير برأي مؤلفه؟؟ أليس في ذلك ما يقطع كل سبيل أمام هؤلاء الذين يكذبون على الرجل!!.

التفسير بالمأثور عند أبي الليث :

قلنا -فيما مضى-إن التفسير بالمأثور: أي المنقول، سواء أكان متواترا أم غير متواتر. وعلى ذلك يشمل:

1- تفسير القرآن بالقرآن

2- تفسير الرسول للقرآن

3- تفسير الصحابة للقرآن

4- تفسير التابعين للقرآن

1 - تفسير القرآن بالقرآن:

يقول السيوطي(24): «قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن، فما أجمل منه في مكان فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر». وقد سار أبو الليث وفق هذا المنهج، فكان يبحث في القرآن عن تفصيل المجمل، وتوضيح المبهم، وتقييد المطلق... الخ.

فمثلا: يقول عند تفسير قوله تعالى «**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ...**»(25)، وهي البساتين التي تجري من تحتها الأنهار، وهي أربعة: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر، ونهر من عسل مصفى... وهو بذلك قد لجأ إلى القرآن الكريم في قوله سبحانه: «**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ**

---

(23) بستان العارفين ص 47

(24)الإتقان جـ 1 ص 175

(25) النساء 57

لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ...»(26) وفي تفسيره كثير من ذلك.

2- تفسير الرسول -صلى الله عليه وسلم- للقرآن:

وهو المصدر الثاني لتفسير القرآن الكريم، وذلك: «أن أحسن طريق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر... فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له»(27)

قال سبحانه: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»(28)

وعن المقداد بن معديكرب: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه»(29)

وقد التزم «أبو الليث» هذا المنهج القويم، فإذا لم يجد بغيته في القرآن لجأ إلى السنة يبحث فيها عن طلبه، وقد أورد أبو الليث كثيرا من أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- يبين بها معنى لفظ، أو يفسر بها حكما من الأحكام القرآنية.

أو يبين ما أشكل من القرآن. فالسنة زاخرة بالكثير من ذلك.

ففي قوله تعالى: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ....»(30) ساق أبوالليث ما روي عن الصديق أبي بكر أنه سئل عن هذه الآية فقال: «إذا رأيتم

---

(26) محمد 15

(27) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ2 ص175

(28) النحل 44

(29) رواه أبو داود في السنن

(30) المائدة 105

شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخويصة أنفسكم».

وروى عمرو بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال: سألت ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ياثعلبة، ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحا مطاعًا، وإعجاب كل ذى رأي برأيه فعليك بنفسك، فإن من بعدكم أيام الصبر، والمتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملا، فقالوا: يارسول الله، كأجر خمسين عاملا منهم؟

قال: بل كأجر خمسين عاملا منكم»(31)

وفي تفسير قوله تعالى: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ» قال أبو الليث: «غير المغضوب عليهم» غير طريق اليهود.. «ولا الضالين» قال: يعني ولا النصارى لم تحفظ قلوبهم. قال: وقد أجمع المفسرون أن «غير المغضوب عليهم» أراد به اليهود «ولا الضالين» : النصارى ، ثم يقول: فإن قيل أليس النصارى من المغضوب عليهم، واليهود أيضا من الضالين؟ فكيف صرف المغضوب عليهم إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى؟

قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر، واستدلالا بالآية، فأما الخبر: فما روي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن رجلا سأله وهو بوادي القرى من المغضوب عليهم؟

قال: اليهود. قال: ومن الضالين؟ فقال: النصارى (32)

ومن قوله تعالى: «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ...»(33) يقول: وروي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه سئل عن الكلالة فقال: ألم تر إلى الآية التي أنزلت في سورة النساء «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ...» يعني تفسير الكلالة(34)

---

(31) بحر العلوم جـ 1 ص 463

(32) المصدر نفسه جـ 1 ص 83

(33) النساء 176

(34) بحر العلوم جـ ص 408

وبذلك أفاد أبو الليث من السنة النبوية في تفسير القرآن الكريم إفادة عظيمة.

3- تفسير الصحابة للقرآن:

وهو المصدر الثالث من مصادر التفسير، وذلك «أننا إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى الناس بذلك، لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم- »(35)

وقد نقل «أبو الليث» في تفسيره كثيرا من أقوال الصحابة، وممن نقل عنهم: «علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، وجابر ابن عبد الله، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهم.

ويعد «عبد الله بن عباس» صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر فيمن نقل عنهم أبو الليث. وقد روى عنه من عدة طرق:-

طريق عكرمة عن ابن عباس.. أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد أثنى علماء الجرح والتعديل على هذه الطريق، وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير.(36)

طريق الضحاك عن ابن عباس.. وهي غير مرضية لأنها منقطعة، فالضحاك لم يلق ابن عباس (37)

طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.. وهي أوهى الطرق، فالكلبي متهم بالوضع.(38) وأحيانا يذكر «أبو الليث» الرواية عن ابن عباس مجردة من السند فيقول: «روي عن ابن عباس» أو «قال ابن عباس»(39)

---

(35)تفسير ابن كثيرج 1 ص 10 وما بعدها

(36) الاتقان ج2 ص188

(37) المصدر نفسه

(38) المصدر نفسه ج 1 ص 85

(39) بحر العلوم ج 1 ص 48

ابن مسعود :

ويأتي «ابن مسعود» في المرتبة الثانية -بعد ابن عباس- فيمن نقل عنهم أبو الليث.

وطرق روايته عنه متعددة، منها:

طريق مجاهد، وهي طريق صحيحة، اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

وأحيانا يذكر الرواية عن ابن مسعود مجردة عن السند فيقول: «وروي عن ابن مسعود...». وقد قصد أبو الليث إلى ترك السند قصدا، وكان يهدف من وراء ذلك التخفيف على الناس، حتى لا ينشغلوا بالسند عن التفسير نفسه(40)

4 - تفسير التابعين للقرآن:

وهؤلاء التابعون تلاميذ كبار الصحابة، وتخرجوا من مدارسهم -كما ذكرنا من قبل-... وكان أبو الليث إذا لم يجد تفسيرا للصحابة رجع إلى أقوال التابعين، فنقل عنهم . ومن هؤلاء التابعين:

الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ووهب بن منبه، والسدي، ومقاتل، والكلبي، إلا أنه أكثر من الرواية عن مجاهد...

الإسرائيليات في تفسير أبي الليث:

تنبه العلماء إلى ظاهرة: غلبة الضعف على الرواية بالمأثور.. ولم يكن أبو الليث بدعا من المفسرين، وإنما جاءت الإسرائيليات- في تفسير بحر العلوم- كثيرة.. فمن أين جاء بهذه الإسرائيليات؟... وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نسوق تمهيدا موجزا في هذه القضية فنقول: نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث.. وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسيا وتفرقوا شيعا وأحزابا.. ووجد من أهل البدع والأهواء من روجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم الخبيثة..

---

(40) بستان العارفين جـ 1 ص 3

وكان أهل الكتاب مصدرا من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلا إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام.. لكن الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء فلم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، إلا إذا كان على وجه الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن..

ولم يسألوهم عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف وما شابه ذلك..

«وكان الصحابة يعدون ذلك قبيحا من قبيل تضييع الأوقات وكانوا لا يصدقون اليهود فيما خالف الشريعة أو تنافى مع العقيدة(41)

أقسام الإسرائيليات:

وقد قسم العلماء الأخبار التي جاءت عن طريق أهل الكتاب إلى ثلاثة أقسام(42):

القسم الأول: ما علمنا صحته مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.. وهذا القسم صحيح، وفيما عندنا غنية عنه، ولكن يجوز ذكره وروايته للاستشهاد به، ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم، وذلك مثل: تعيين اسم صاحب موسى -عليه السلام- وأنه الخضر، فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري(43)

القسم الثاني: ما علمنا كذبه مما يناقض شرعنا، أو لا يتفق مع العقل، وذلك مثل ما ذكروه في قصص الأنبياء مما يطعن في عصمتهم، ومثل ماذكر في توراتهم أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني... وهذا القسم نتوقف فيه فلا نؤمن به ولا نكذبه لاحتمال أن يكون حقا

---

(41) التفسير والمفسرون للذهبي جـ 1 ص 169 وما بعدها

(42) الإسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة ص 150 وما بعدها

(43) فتح الباري جـ 8 ص 297

فنكذبه، أو باطلا فنصدقه ،وذلك لقول الرسول- صلى الله عليه وسلم-: «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»(44)

أبو الليث والإسرائيليات:

وهذه الأقسام الثلاثة دخلت التفسير الأثري بعامة، ولم يكن أبو الليث نسيجا وحده في ذلك، فساق في تفسيره من هذه الأقسام.

ولو أنه بعد ما ساق هذه الإسرائيليات عقب عليها لما كان عليه ضير، إلا أنه أوردها دونما تعقيب.

فهو ينقل عن ابن عباس حكاية عن أهل الكتاب -ومقال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: «**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**»... فذكر ما موجزه: أن إبليس حسد آدم على ما فيه من نعمة، فاحتال لإخراجه منها، حتى دخل في صورة الحية، ثم أتى باب الجنة ونادى آدم وحواء «**مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**» يعني هذه شجرة الخلد، فأكلا منها..

ويقال: إن حواء قالت لآدم : تعال حتى نأكل من هذه الشجرة ، وظلت به حتى أكل بعد أن سبقته بالأكل.(45)

وأحيانا يقول: قال بعضهم، ويذكر الرواية الإسرائيلية في ذلك -وخطورة هذا تكون بالغة إذا ما كانت من القسم الثاني، ففيه طعن في عصمة الأنبياء-.

وفي «بحر العلوم» طائفة من هذا القسم (46).

ومن مصادر الإسرائيليات في تفسير أبي الليث -إضافة إلى ما سبق- قراءته التوراة، وقد صرح بذلك في التفسير في عدة مواضع.

يقول في قوله تعالى: «**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ**» أي حاضت، يقال: ضحكت

---

(44) بحر العلوم جـ 1 ص 55

(45) المصدر نفسه

(46) المصدر نفسه ، مواضع كثيرة

الأرانب إذا حاضت، وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه، وكذلك هو في التوراة، فرأت فيها: أنها حين بشرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت: من بعد أن بليت أعود شابة!!

ومن مصادرها أيضا: سماعه أهل التوراة، ويصرح بذلك أيضا حين يسوق هذه العبارة «سمعت أهل التوراة يقولون... ».

ثم روايته عن المتهمين بالوضع والضعف كعكرمة، والضحاك، ومقاتل، ووهب ابن منبه وغيرهم.

وكان شأن أبي الليث في ذلك شأن سائر المفسرين، غير أن هذا لا يعفيهم من المسؤولية عن ذلك، وكان ينبغي عليهم - وأبو الليث أحدهم- أن يدققوا ويمحصوا.. وقد شاء الله عز وجل أن يدرك المسلمون أخيرا هذا الخطر، فتداعى علماؤهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات، وتطهيرها من كل دخيل(47)

المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث:

تتضح أهمية اللغة ومكانتها في تفسير القرآن الكريم في نظر أبي الليث من قوله: «ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه مالم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل...» إنها أداة أصيلة وركن ركين ينبغي توافره فيمن يتصدى للتفسير.

وبالتأمل في تفسير أبي الليث يلاحظ ما يلي:-

أولا: يبحث أبو الليث في معنى اللفظ في القرآن الكريم من خلال نظائره وسياقاته المختلفة. ففي تفسيره لقوله سبحانه : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» يقول: قال ابن عباس: سيد العالمين... والرب في اللغة: هو السيد، قال الله تعالى: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ...» يعني سيدك...

ثانيا: إذا لم يجد في القرآن معنى للفظ يرجع إلى استعمال العرب القدماء ويستشهد بالشعر على المعنى الذي يورده

ففي تفسير اسم الجلالة «الله» في البسملة يقول:

---

(47) التفسير والمفسرون ج1 ص199

وقيل: إنما سمي «الله» لأنه لا تدركه الأبصار، و لاه: معناه: احتجب ، كما قال القائل:

لاه ربي عن الخلائق طراً خالق الخلق لا يُرى ويرانا

ثالثا: أفاد أبو الليث كثيرا من علماء اللغة كابن قتيبة، والأصمعي، وقطرب، والزجاج، والفراء، والخليل بن أحمد وغيرهم فكان يذكر القول منسوبا إلى واحد منهم أو أكثر...

رابعا: قد يذكر القول دون ذكر قائله هكذا: «قال أهل اللغة...» أو «قال بعض اللغويين...» ولم يكتف «أبو الليث» بالنقل، وإنما كان -في بعض الأحيان- يرجح رأيا على رأي.

خامسا: أفاد أبو الليث من علم الأبنية المسمى بعلم «الصرف» فكان يذكر -وقت الحاجة- وزن الكلمة، أو اشتقاقها...الخ.

سادسا: أدرك أبو الليث ما للنحو من أهمية في فهم معاني القرآن إذ «أن الإعراب يميز المعاني»... فكان يورد بعض المسائل النحوية الخفيفة، ولا يتعمق فيها، ولا يورد اختلافات النحاة حتى لا يشغل القارئ في خضم النحو ويخرجه من حيز التفسير مثال ذلك:

ماجاء في تفسيره قول الحق سبحانه: «حَذَرَ الْمَوْتِ» إذ قال: يعني لحذر الموت، والكلام ينصب لنزع الخافض مثل قوله: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ...» أي من قومه فكذلك هاهنا.

المنهج البلاغي في تفسير أبي الليث:

ذكرنا فيما مضى أن المنهج البياني هو أحد المناهج الثلاثة في تفسير القرآن الكريم وأن جذور هذا المنهج قد وجدت منذ زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم تأصل عند ابن عباس وتلاميذه إلى أن جاء علماء كبار فقعدوا هذا المنهج.

وقد أفاد أبو الليث في تفسيره من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا بسهم وافر في هذا المنهج، ويأتي على رأس هؤلاء «أبو عبيدة» صاحب مجاز القرآن فقد نقل

أبوالليث كثيرا من أقواله(48)، وتأثر بمنهجه أيضا.

ففي تفسير قوله تعالى :« **وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ** ... »(49) وقف أبو الليث عند الآية وحللها تحليلا بيانيا يدل على ذوقه وحسه المتميز.

كما نقل عن الزجاج صاحب معاني القرآن كثيرا، وأفاد من ابن قتيبة إفادة عظيمة من خلال كتابه «تأويل مشكل القرآن» فيقول: قال القتبي(50).

ثم يمضي قائلا في تفسير الآية: «**وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً**».

«يعني لا تتزوجوا من قد تزوج آباؤكم من النساء. ويقال اسم النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه.

وقوله «**إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ**» يقول: لا تفعلوا ما قد فعلتم في الجاهلية، وكل الناس يتزوج الرجل منهم امرأة الأب برضاها، بعد نزول قوله :«**لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا**» حتى نزلت هذه الآية: «**وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم...**» فصار حراما في الأحوال كلها. ويقال: إلا ما قد سلف، يعني: ولا ما قد سلف، كقوله تعالى: «**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً**» ولا خطأ وقد قيل: إن في الآية تقديما وتأخيرا ومعناه : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء [فإنكم إن فعلتم تواخذون وتعاقبون إلا ما قد سلف] إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا، إلا ماقد سلف. وقد قيل: إن في الآية إضمارا تقول «**وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم**» من النساء فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف . ثم قال «**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً**» أي معصية «**وَمَقْتًا**» أي بغضا «**وَسَاءَ سَبِيلاً**» أي بئس المسلك(51)

---

(48) بحر العلوم - مواضع كثيرة

(49) النساء 22

(50) بحر العلوم - مواضع كثيرة

(51) المصدر نفسه جـ 1 ص 343

ومن الأمثلة أنه أحيانا يذكر الوجه البلاغي، ولا ينسبه إلى قائله، وإنما يقول: «قال بعضهم» أو يذكر الوجه البلاغي الذي يراه هو بداية دون الرجوع الى السابقين ففي قوله تعالى: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ»(52) يقول:« قال بعضهم: هذا على سبيل المثل. ثم يعقب بما يدل على ذوقه الخاص قائلا: والعرب إذا أرادت تعظيم ملك عظيم العطية تقول: كسف القمر لفقده، وبكت الريح والسماء والأرض وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، فأخبر تعالى أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع، ولم يوجد له فقد»(53).

يقول في تفسير قوله تعالى : «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ» قال بعضهم :«فما بكت عليهم السماء والأرض» يعني أهل السماء، وأهل الأرض فأقام السماء والأرض مقام أهلها كما قال «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» وقال بعضهم يعني بكت السماء بعينها، وبكت الأرض، وقال ابن عباس «لكل مؤمن باب في السماء يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه فإذا مات بكى عليه بابه في السماء وبكت عليه آثاره في الأرض» وذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل : أتبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله تعالى فيها، ويصلي، وبكى عليه بابه الذي كان يرفع فيه عمله، فأخبر الله تعالى أن قوم فرعون لم تبك عليهم السماء والأرض(54) «وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» يعني مؤجلين.

ويقول في تفسير قوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...»(55) والمطر: هو القرآن، لأن المطر حياة الخلق وإصلاح الأرض، وكذلك القرآن فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح للأرض، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات: هي المكائد والمحن التي تصيب المسلمين والشبهات التي في القرآن. والرعد هو الوعيد الذي ذكر للكفار والمنافقين في القرآن. والبرق:

---

(52) الدخان 26

(53) بحر العلوم ج1 ص218

(54) ذكره السيوطي في الدر المنثور جـ6 ص30 وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

(55) البقرة 19

ماظهر من علامات نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- وملائكته.

ومن إشاراته البلاغية اللطيفة تحليله لقوله تعالى : «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**» (56) .

يقول السمرقندي : وذلك أنه لما نزل قول الله تعالى : « **إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً**» وقال في آية أخرى : « **مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ** » . قالت اليهود والمشركون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت . فنزلت هذه الآية : « **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** » أي لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها . ويقال لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل ويبين ويصف للحق شبها .«**مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** »: يعني بالذباب والعنكبوت . وقال بعضهم : فما فوقها أي بما دونها في الصغر . وهذا من أسماء الأضداد يذكر الفوق ويراد به دونه كما يذكر الوراء ويراد به الأمام. مثل قوله :«**وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً**» أي أمامهم . فكذلك الفوق ويراد ما دونه أي يضرب المثل بالبعوضة وبما دونها بعد أن يكون فيه إظهار الحق وإرشاد إلى الهدى . فكيف يمتنع من ضرب المثل بالبعوضة ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه . ويقال إنما ذكر المثل بالبعوضة ، لأن خلقة البعوضة أعجب، لأن خلقتها خلقة الفيل . ويقال : لأن البعوضة ما دامت جائعة عاشت فإذا شبعت ماتت . فكذلك الآدمي إذا استغنى فإنه يطغى فضرب الله المثل للآدمي » (57) .

ونلاحظ كيف استطاع السمرقندي بقدرة فائقة وحس بلاغي مرهف أن يسقط هذا التمثيل الذي ضربه الله عز وجل للجاحدين على الآدمي . وفيه إشارة واضحة لمطابقة التشبيه لمقتضى الحال . وبهذا التحليل الشيق يضع يده على خصائص التمثيل القرآني الذي يصيب الغرض المطلوب على عكس كثير من تشبيهات العرب التي لا تراعي مقتضى الضروف الفعلية للمشبه والمشبه به .

وبمنهج السمرقندي الموازن بين الآيات التي تتضمن مثل هذا النوع من التمثيل

---

(56) البقرة 26

(57) بحر العلوم جـ 1 ص 104

يكون قد وضع اللبنة الأولى لهذه الدراسة البلاغية التي أحكم قواعدها فيما بعد ابن ناقيا البغدادي (ت 485 هـ) إذ طبق دراسته في فن التشبيه على ست وثلاثين سورة من القرآن الكريم . (58)

كما يشير السمرقندي إلى المجاز لكن دون أن يسميه وذلك عند تحليله لعدة آيات ومنها قوله عز وجل : « **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** » (59)

يقول أبو الليث في تفسير هذه الآية : « يعني بغير حق أي حراما لأن الحرام يوجب النار فسماه الله باسمها » (60) وهذا ما أطلق عليه البلاغيون بعد ذلك المجاز المرسل وعلاقته المسببية بأن نطلق لفظ المسبب ونريد به السبب . فالنار هنا مسببة عن أكل السحت من مال اليتامى ظلما . (61)

ونجده في موضع آخر يصرح بالمجاز لفظا في تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف : « **فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا** » (62)

يقول أبو الليث : « وهذا كلام مجاز لأن الجدار لا يكون له إرادة ، ومعناه : كاد أن يسقط » (63) فهو بهذا التحليل يتبع ما قاله ابن قتيبة وأبو عبيدة من قبله بل يرتكز على هذه العبارة ليؤكد أن القرآن الكريم لا يخلو من المجاز كما زعم بعض منكريه .

لكن كثيرا ما يفوت السمرقندي ما في الآيات الكريمات من مجاز فلا يشير إلى ذلك أبدا(64) خاصة عند تفسيره لقوله تعالى :« **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ**

---

(58) الجمان في تشبيهات القرآن ابن ناقية البغدادي

(59) النساء 10

(60) بحر العلوم جـ 1 ص 335

(61) علوم البلاغة أحمد المراغي ص 237

(62) الكهف 77

(63) بحر العلوم جـ2 ص 308

(64) المصدر نفسه جـ 2 ص 173 وغيرها

الـــــــدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»(65)

ففي الآية الكريمة - كما مر بنا عند الطبري - خروج الاستفهام في قوله تعالى «أَتَجْعَلُ فِيهَا» إلى معنى مجازي وهو استخبار من الملائكة لربها بمعنى أعلمنا يا ربنا(66)

لكن السمرقندي يمر على هذه الآية دون أن يشير إلى هذا الاستفهام إطلاقا ، بل يقول في تفسير قوله تعالى : «أَتَجْعَلُ فِيهَا» يعني أتخلق فيها (67)

وقد يمر السمرقندي على العديد من الصور البيانية دون أن يقف عندها ويحللها مثل تفسيره لقوله عز وجل : «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» (68)

يقول : « والصبح إذا تنفس يعني إذا استضاء وارتفع ويقال إذا امتد حتى يصير النهار بيّنا » (69)

وقد فات السمرقندي أن في هذه الآية الكريمة استعارة مكنية على الرغم من أنها مشهورة جدا . فقد أشار إليها من قبل معاوية بن أبي سفيان عندما سئل عن الشيء الذي يتنفس من غير روح فأجاب : « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » (70)

وكذلك عدم إشارته للكناية المشهورة في قوله عز وجل : « وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (71)

يقول أبو الليث : « يعني ندموا على ما صنعوا يقال سقط في يده إذا ندم وأصله أن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسه » (72)

---

(65) البقرة 30

(66) راجع الفصل الثاني ص 214

(67) بحر العلوم جـ 1 ص 108

(68) التكوير 17 - 18

(69) بحر العلوم جـ 3 ص 453

(70) جامع البيان جـ 30 ص 79

(71) الأعراف 149

(72) بحر العلوم جـ 1 ص 571

وفي تفسيره هذا إشارة خفيفة إلى الكناية لكن دون أن يسميها باسمها . كما أن من عادة العرب أن تقول للندمان (سقط في يده) أي جعل فمه في يده تعبيرا عن شدة الندم . أما قول السمرقندي بأن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسه ، لا يطابق معنى الآية هنا لأن من عادة الإنسان إذا ندم يضع يده في فمه كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : « **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** » (73) ، وهذا كناية عن شدة ندم الكافر يوم القيامة .

هذا كل ما يمكن أن نلاحظه من معالم الدرس البلاغي في تفسير السمرقندي ، الذي يعد بمثابة اختصار لتفسير الطبري . فعلى الرغم من تأخره بأكثر من ستين سنة(74) فإن إشارات الدرس البلاغي في تفسيره قليلة جدا إذا ما قارناها بتفسير الطبري .

وهذا راجع إلى أن السمرقندي يعتمد على المأثور من الكلام أكثر من اعتماده على الاجتهاد برأيه مثلما فعل الطبري .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(73) الفرقان 27

(74) توفي الطبري سنة 310 والسمرقندي سنة 375 هـ

تمهيد

قضايا الإعجاز القرآني كانت من أبرز قضايا البلاغة التي انصب عليها اهتمام الدارسين..

وذلك يرجع سببه إلى وقوف خصوم الإسلام ومعارضيه إبان فترة المد الهائل الذي أفزع هؤلاء الخصوم. وقد كان ذلك باعثا لوقوف علماء الإسلام يدحضون الشبهات ويزيلون من طريقه كل المعوقات ، ويقومون بمهمة الدفاع عن الإسلام ، والرد على جميع المناوئين ، فقد وقفوا يجادلون أعداءه من أصحاب الملل، والعقائد الأخرى، ويناظرون المخالفين لهم في الرأي .

وكانت هذه المهمة الخطيرة تحتم عليهم أن يعرفوا كتاب الله الذي هو مادة هذه العقيدة معرفة عميقة، ليردوا عنه شبه الخصوم من ناحية وليظهروا ما فيه من وجوه التفوق والرفعة التي جعلته معجزا يتحدى الجميع أن يعارضوه، أو يأتوا بسورة من مثله من ناحية ثانية . أضف إلى ذلك أنه «بتمادي الزمن، ودخول غير العرب في الإسلام، احتاج المسلمون إلى أن يتعرفوا إعجاز القرآن، واضطروا إلى بحث ودراسة ذلك، فصارت معرفة البلاغية أمراً دينيا كلاميا يقرر حجة الله في عقول المتكلمين، كما يقول عمرو بن عبيد.. ومن هنا كان اشتغال كثير من علماء الكلام والعقيدة بأبحاث بلاغية. »(1)

وهكذا دفعت مجموعة هائلة من علماء الإسلام عوامل متعددة لكي يشتغلوا بالدراسات القرآنية، وكانت بيئتهم من أنشط البيئات الأدبية والبلاغية التي اهتمت بهذا اللون من المباحث، وخاصة بيئة المعتزلة التي بادرت إلى تأليف الكتب، وجمع المصنفات في ذلك منذ فترة مبكرة... وقد أحصت المصادر التاريخية عددا كبيراً من المؤلفات في ألوان متعددة من الدراسات القرآنية.

أهم مؤلفات الإعجاز القرآني

فقد وضع واصل بن عطاء (ت 131هـ) ، كتابا في معاني القرآن.

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية أمين الخولي جـ4 ص66

الباب الثالث

الدرس البلاغي وقضايا الإعجاز القرآني في القرون الأربعة الأولى

الفصل الأول

الإعجاز القرآني وقضاياه

الفصل الثاني

الجاحظ ورؤيته في الدرس البلاغي على ضوء أساليب القرآن وإعجازه

الفصل الثالث

الباقلاني وجهوده في الإعجاز البلاغي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ووضع عمرو بن عبيد (ت 148هـ) كتابا في التفسير نقله عن الحسن البصري(2) ووضع محمد بن المستنير بن أحمد أبي علي المعروف بقطرب (ت 206هـ) عددا من المصنفات، منها: كتاب معاني القرآن، وإعراب القرآن، والرد على الملحدين في متشابه القرآن، ومجاز القرآن.

ووضع بشر بن المعتمر (ت 210 هـ) كتابه متشابه القرآن، ولسعيد بن مسعدة الأخفش المتوفي سنة 211هـ كتاب في المعاني.

ولأبي الهذيل العلاف (ت 235 هـ) مؤلف في متشابه القرآن ولجعفر بن حرب (ت236هـ) مؤلف في متشابه القرآن .

ووضع الجاحظ عددا من المؤلفات منها كتاب في : نظم القرآن وكتاب في آي القرآن، وكتاب في خلق القرآن، وكتاب المسائل في القرآن.

ولأبي علي الجبائي (ت 303هـ) كتاب في تفسير القرآن، ومتشابه القرآن.

ونقل آدم متز (3) أن الجبائي قد ألف تفسيراً للقرآن الكريم باللغة الفارسية، ويذكر القاضي عبد الجبار أن أصحابه من المعتزلة كانوا يقولون: إنهم أحرزوا ما أملاه أبو علي فوجدوه نحو مائة ألف وخمسين ألف ورقة (4) .

ووضع أبو علي محمد بن يزيد الواسطي (ت 306هـ) كتابا في إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، وهو كتاب قد اهتم به عبد القاهر الجرجاني، وشرحه شرحًا كبيراً سماه «المعتضد» وشرحًا آخر أصغر منه (5)

ووضع عمر بن فايد كتابا في التفسير، وكذلك وضع موسى الإسواري (6)

ويذكر القاضي أبو الحسن عبد الجبار: «أنه قرأ ثلاثين سنة ولم يتم تفسيره، وأنه كان يجعل في مجلسه العرب والموالي، فيجعل العرب في ناحية، والموالي في

---

(2) وفيات الأعيان جـ3 ص132

(3) الحضارة العربية جـ1 ص372

(4) طبقات المعتزلة ص 371

(5) التراث النقدي والبلاغي لوليد قصاب ص298

(6) المرجع نفسه

الفصل الأول

الإعجاز القرآني وقضاياه

- تمهيد
- أهم مؤلفات الإعجاز القرآني
- خصائص الدرس البلاغي في هذه الآثار
- المسألة الأولى : المحكم والمتشابه في القرآن الكريم
- المسألة الثانية : رد الشبه والمطاعن عن القرآن الكريم

أ - جانب الشكل والأسلوب

ب - ظاهرة التكرار

- المسألة الثالثة : قضية الإعجاز بين المتكلمين واللغويين

أولا : المجاز اللغوي

ثانيا : التأثير النفسي

ثالثا : دراسة الجمال والذوق الأدبي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ناحية ويفسر لكل بلغته، فلم يكن بإحدى اللغتين دون الأخرى(7) ونحن نقرأ في كتاب «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة»(8) كثيرا من هذه المصنفات فنجد مثلا لأبي يعقوب بن عبد الله بن إسحاق الشحام -وهو من الطبقة السابعة من المعتزلة كتابا في التفسير، ولأبي القاسم البلخي الكعبي (ت 319هـ) كتابا في التفسير في اثني عشر مجلدا ولأبي القاسم الإسفنديالي -من الطبقة التاسعة من المعتزلة مؤلفات في التفسير.

ولأبي عبد السلام بن محمد بن أبي هاشم الجبائي (ت321هـ) كتاب في التفسير.

ولأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (ت 322هـ) كتاب جامع التأويل لمحكم التأويل في أربعة عشر مجلداً .

ولأبي بكر أحمد بن علي بن منجور المعروف بأبي الأخشيد (ت326هـ) كتاب في اختصار كتاب التفسير لأبي جعفر الطبري، وله أيضا كتاب «نظم القرآن»

ولأبي الخلال القاضي كتاب متشابه القرآن -ولأبي بكر الشاشي المعروف بالقفال (ت 365هـ) كتاب في التفسير

ولأبي بكر الحنفي (ت380هـ) كتاب في التفسير لم يتمه

وللصاحب ابن عباد (ت 385هـ) أيضا

ولأبي الحسن الرماني (ت 386هـ) عدة مؤلفات منها: تفسير القرآن المعروف باسم «الجامع في علم القرآن» وكتاب «في إعجاز القرآن» وكتاب «الألفات في القرآن».

ولعبد الله بن محمد بن جرو الأسد(ت 387هـ) كتاب في التفسير لم يتمه، وذكر في «بسم الله الرحمن الرحيم »مائة وعشرين وجها.

ولأبي أحمد بن أبي علان (ت 415هـ) تفسير للقرآن

وللقاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسد أبادى (ت 415هـ) مصنفات كثيرة في الدراسات القرآنية منها كتاب المغني في أبواب العدل والتوحيد وهو في أجزاء

---

(7) التراث النقدي والبلاغي لوليد قصاب ص298

(8) لأبي القاسم البلخي، والقاضي عبد الجبار، والحاكم الجشمي تحقيق فؤاد سيد نشر الدار التونسية.

كثيرة خصص الجزء السادس عشر لأعجاز القرآن وكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن، وكتاب متشابه القرآن وكتاب شرح الأصول الخمسة.

ولمحمد بن عبد الله الإسكافي «المعروف بالخطيب الإسكافي (ت 420هـ) كتاب اسمه «درة التنزيل وغرة التأويل» يبحث في المكرر والمتشابه في الآيات القرآنية.

وللشريف المرتضى (ت 436هـ) كتاب الأمالي المعروف باسم غرر الفوائد ودرر القلائد- وله أيضا رسالة في المحكم والمتشابه وكتاب الموضح عن إعجاز القرآن، ذكره الطوسي والنحاس ، وسماه كتاب الصرفة (9)

خصائص الدرس البلاغي في هذه الآثار

من الواضح في هذا الاستعراض لهذه الكتب أنها تتسم بعدة خصائص -وإن كانت هذه المصنفات قد ضاع معظمها- ولو وصلتنا لأعطتنا رؤية أعمق وأكثر وضوحًا، وكنا دون شك أمام ثروة غنية، وتراث ثمين، ولا اكتملت أمامنا الصورة والجهود في هذا المجال. ولكن ماوصلنا يضع أمامنا هذا التصور في عدة مسائل هامة.

المسألة الأولى:

المحكم والمتشابه في القرآن الكريم

فلقد كان لموضوع المحكم والمتشابه، وتفسير أهل السنة والمعتزلة أهمية كبرى انصبت جهودهم عليه، وكثرت المصنفات فيه .

وقد حظيت المصنفات في هذا الموضوع وبخاصة عند المعتزلة لأنها عماد مذهبهم، والأصل الذي تقوم عليه عقائدهم.

فإذا أحسنوا الدفاع عن هذا الأصل، واستطاعوا عرضه في صورة واضحة مقنعة، كانت عقيدتهم مقبولة لدى الناس وقادرة على الوصول إليهم وإقناعهم.

ويتفق المعتزلة مع أهل السنة في أن الآيات المحكمات من القرآن هي التي لا تحتمل إلا معنى واحدا.

---

(9) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه لمصطفى الصاوي الجويني ص73 -75

وأن الآيات المتشابهات هي التي تحتمل معاني كثيرة وأنه لهذا يجب رد هذه إلى تلك، بمعنى تفسيرها أو تأويلها بها على هذا الوجه..

ولكن يبقى المحكم عند أهل السنة ما اتفق مع عقائدهم، وأيّد مذهبهم، والمتشابه ما تعارض معه، أو أشار إلى خلافه، بينما هو على العكس عند المعتزلة: فالمحكم عندهم ما أيد أصولهم، وعضّد آراءهم.. والمتشابه ما خالف ذلك وخرج عليه.

وعلى أي حال فإن الدراسات القرآنية في تلك الكتب التي عالجت هذه المسألة قد أظهرت مجهوداً جبارا، وكان الدارسون لها على جانب كبير من المهارة والبراعة، مما يشهد لأصحابها، بالثقافة العربية الغزيرة، وتضلعهم الواسع في أفانين القول وأساليب العرب في كلامهم، وطرائقهم في التعبير، والأداء فلم يكن هذا اللون من التفسير تفسيراً لغويا عاديا، يكفي فيه استبدال اللفظ باللفظ، أو العبارة بالعبارة المرادفة لها(10)

ولكنه كان ضربا من التفسير احتاج إلى مهارة ذكية في لَيِّ العبارة وحملها على وجه بلاغي يصرفها عن ظاهرها الذي تدل عليه مع المحافظة على الأسلوب العربي الصحيح في تركيب الكلام وتأليف العبارة .(11)

ونجد كتب التفسير الاعتزالي في تلك المرحلة قد استخدمت أسلحة فنية متعددة، لونت أسلوبهم في دراسة المحكم والمتشابه تلوينا خاصا، وأعطت ذلك الأسلوب الطابع المميز الذي أصبح منهجا خاصًا لهم في البحث.(12)

ونستطيع أن نحصر هذه الأسلحة في ثلاثة هي: العقل ، واللغة ، والمجاز. وعلى الرغم من أننا سوف نتوقف عند هذه المسائل المهمة وقفة طويلة -بعد قليل- فإننا نشير هنا إشارة عابرة حتى تكتمل الصورة لدينا على طريقة معالجة هذه الكتب الاعتزالية خاصة في موضوع المحكم والمتشابه:

أما العقل: فهو في تصورهم الحكم الفيصل بين الأمور، وحكمه لا يخطئ ومن

---

(10) كتاب الانتصار ص10

(11) أعلام الموقعين للإمام ابن قيم الجوزية جـ2 ص375

(12) البرهان للزركشي جـ2 ص79-81

هنا كان في التصور الاعتزالي تقديمه على النقل والرواية، وما قد يدل عليه ظاهر اللفظ، وصريح العبارة...

وأما اللغة: فقد توسعوا في استعمالها توسعًا لا حدّ له -في هذه المسألة خاصة- وتحولت اللغة بين أيديهم إلى أداة طيعة لينة، يشكلونها كما يريدون، واتسعت عندهم دلالات الألفاظ فأصبحوا يستنبطون للفظ الواحد أكثر من معنى، ويقلبونه على وجوه المدلولات اللغوية المختلفة التي يمكن أن يشير إليها، ثم ينتقون من هذه المعاني ما يشاءون .

وأما المجاز: فهو سلاح ثالث كانوا يلجأون إليه حينما تستعصى عليهم اللغة، ولا تسعفهم العبارة، أو مدلولات اللفظ، وعندئذ يحملون العبارة على المجاز، ويستنبطون منها لونا من ألوانه الكثيرة المتعددة، فيصبح لونا من الخيال والصورة الفنية التي يراد بها معنى أبعد مما يدل عليه الظاهر أو يشير إليه الشكل الخارجي.

تلك هي الأسلحة الثلاثة التي استعملت في مسألة المتشابه والمحكم . وينبغي أن نلاحظ أن هذه الأسلحة الثلاثة كانت في يد الجميع . ولم تكن تأتي منفصلة أو متباعدة ؛ بل كانت تأتي دائما متمازجة يشد بعضها أزر بعض، ويقوي أحدها الآخر.

ونلاحظ كذلك أن هؤلاء الدارسين، ومن خلال تلك الممارسة الطويلة لتأويل المتشابه وتضلعهم في دراسته والحديث عنه إلى وضع بعض المبادئ العامة لتأويل ألوان من هذه الآيات ، مما كاد يشبه النظريات العامة المقررة عندهم .(13)

من ذلك مثلا مبدأ «اللطف» الذي تحدث عنه كثير من دارسي الإعجاز القرآني ومنهم القاضي أبو الحسن عبد الجبار، والشريف المرتضى وغيرهم من الدارسين والباحثين الذين أولوا مسألة المتشابه الكثير من الأهمية- فقد فسروا آيات كثيرة من المتشابه تتعلق بأصل العدل .

هذه الآيات التي يشعر ظاهرها أن الله قد شاء الهداية لبعض الناس ولم يشأها للآخرين، ذلك بمانع لهم من الإيمان. وقال قائلون: الختم والطبع هو السواد في

---

(13) التراث النقدي والبلاغي وليد قصاب ص309

القلب، كما يقال: طبع السيف: إذا صدئ...إلى آخر ماقالوا من آراء..(14)

المسألة الثانية :

رد الشبه والمطاعن عن القرآن

اهتم الباحثون في دراستهم للقرآن، ومعالجتهم لأبحاثه المختلفة بقضية رد الشبه والمطاعن عن القرآن.. وكان هذا جزءا من مهمتهم في الدفاع عن الإسلام ورد الخصوم عنه.

فقد رأينا كثيرا من الملحدين المتشككين، وأعداء الإسلام بصفة عامة يثيرون حول القرآن عددا من الشبه والمطاعن بغية الحط من قدره والنيل من درجته الرفيعة ومكانته السامية في الإعجاز.

وهنا كان تصدى الباحثين والعلماء على اختلاف الملل والنحل وخاصة في القرن الثاني والثالث والرابع من الهجرة..لتلك المحاولات المغرضة.. يدافعون عن القرآن، ويبعدون عنه هذه المكائد، وكان هذا وجها آخر للحديث عن إعجاز القرآن، وإظهار علوّ درجته في النظم والتأليف .

وكانت طبيعة هذه الشبه والمطاعن التي أوردوها تنحصر في جانبين : جانب يتعلق بالمضمون ، وجانب آخر يتعلق بالشكل والأسلوب :

فأما ما يتعلق بالمضمون، فقد رددوا مزاعم بعض المتشككين أن في القرآن تناقضا، أو اختلافا بين بعض معانيه وأفكاره، وساقوا مجموعة من الآيات توهم النظرة السطحية إليها ذلك الإدعاء وهنا تصدى علماؤنا -في تلك المرحلة- حيث كشفوا هذا الزيف وبينوا أنه لا تناقض ولا اختلاف، وكيف يقع ذلك وقد مدح الله القرآن بنفي أي اختلاف أو تناقض فيه، بل إن ذلك وجه من جوه الإعجاز...

وكان من أفضل من تصدّوا لتلك الشبهة القاضي أبو الحسن حيث يقول (15):

«وأما كونه معجزا بزوال الاختلاف عنه، والتناقض على ما يقتضيه قوله تعالى:

---

(14) مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد جـ1 ص297

(15) المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار جـ16 ص328 ومابعدها

«أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً»(16) فقد قال: «بعض مشايخنا المتقدمين» وذكرشيخنا أبو علي أنه يبعد على من يعلم الأشياء بعلمه، ويحتاج فيما يأتيه من تأليف كتاب وغيره إلى استحضار العلوم أن ينتفي عن كلامه الطويل، وتأليفه الكثير، المناقضة حتى يستمر على طريقة الصحة. وذكر شيخنا أبو هاشم أن زوال الاختلاف والتناقض عن القرآن لو كان -فعل غير الله تعالى- بعيد، لأن العادة لم تجر بمثل ذلك في كلام العباد»(17)

ويمضي القاضي عبد الجبار في إعطاء نماذج أوردها ابن الراوندى الملحد، فيبطلها، ويرد عليها(18)

بل إن القاضي عبد الجبار ألف كتابا خاصا في هذا الموضوع سماه «تنزيه القرآن عن المطاعن»(19)

رد فيه التهم التي كان يوجهها أعداء الإسلام إلى القرآن كما تعرض في كتبه الأخرى لكثير من هذه الشبه وفنّدها وبيّن بطلانها، وكان في مجالس الشريف المرتضي عدّة وقفات، وفّق فيها بين بعض الآيات، وبيّن انسجامها وترابطها، وبعدها عن أيّ اختلاف أو تناقض، كما يزعم بعض المتشككين..(20)

وفي الجانب الذي يتعلق بالشكل والأسلوب:

فقد راح علماؤنا، يردون تلك الشبه التي وجهت إلى أسلوب القرآن، وشكله في التعبير.

وهذا الجانب الإعجازي هو جانب البلاغة الذي يعتبر الحديث فيه على غاية من الأهمية في تناول آيات القرآن الكريم هذا الجانب الذي دفع الجاحظ أن يطيل القول في تشبيهات القرآن، وأن يرد التهمة التي وجهت إليها عن خفاء العلاقة بين المشبه

---

(16) النساء 82

(17) المغني في أبواب العدل والتوحيد جـ16 ص 329

(18) المصدر نفسه جـ16 ص 390 ومابعدها

(19) طبع الكتاب بالمطبعة الجمالية بمصر: 1329هـ

(20) أمالي المرتضى «غرر الفوائد ودرر القلائد» تحقيق محمد أبو الفضل جـ 1 ص 229

والمشبه به، في تشبيه شجرة الزقوم مثلا برؤوس الشياطين، ففسر القول في ذلك... وبيّن أن وجه الشبه منتزع هاهنا من غير ماهو مدرك بالحس اعتمادا على ثبوته في الإدراك عن طريقة العادة والعرف، وتناقل الناس له.

ودافع كذلك عن تشبيه الذين أعطوا الآيات فلم يستفيدوا منها، ولم يعملوا بها؛ بالكلب إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث . ومضى يفصل القول في فائدة هذا التشبيه، فبين غايته، وسر جماله.. كما دافع عن بعض مجازات القرآن، وبين الوجه فيها.

ظاهرة التكرار :

ومن الظواهر الغنية التي اتسم بها أسلوب القرآن؛ والتي رأى فيها الأعادي، والمتشككون والسطحيون مجالا للطعن في أسلوب القرآن ظاهرة التكرار والتطويل في بعض الأحيان؛.. وتكرار القصة القرآنية -مثلا- في مواطن متفرقة عمل يحسب لصالح الأسلوب القرآني، وظاهرة بلاغية وإعجازية لو عقل هؤلاء...

فالقرآن يورد القصة الواحدة بأساليب متعددة مختلفة وبألفاظ متباينة، لتظهر مزيته في الفصاحة، ومزيتها في القصة الواحدة إذا أعيدت أبلغ منها في القصة المتغايرة . (21)

وأما التطويل، فإن القرآن يلجأ إليه أحيانا، وإلى الإيجاز أحيانا أخرى، وذلك على حسب المقامات، والظروف، ومراعاة مقتضى الحال .

وقد توقف القاضي أبو الحسن عبد الجبار(22) عند بعض النماذج التي وقع فيها تكرار، فبين الفائدة منه ومايقتظيه سياق الكلام، كأن يؤكد المعنى، أو يختلف الغرض بين العبارتين المتكررتين، أو يكون فيه إضافة لمعنى جديد لم يكن في العبارة الأولى، وغير ذلك من الأغراض.

وتوقف المرتضى في الأمالي عند بعض مما ورد فيه الكلام على سبيل الإطناب، والإطالة بزيادة عبارة أو لفظة يظن المتشككون الذين ينظرون إلى الأمور والأساليب

---

(21) المغني في أبواب العدل والتوحيد جـ16 ص390

(22) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، ص 75

القرآنية نظرة سطحية؛ أنه يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها لم تضف إلى المعنى فائدة تذكر، فيكون -في نظرهم- أسلوب القرآن عندئذ معيبا بالحشو، والكلام الزائد، الذي لا طائل تحته..كقوله تعالى:

«فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ»(23)

«لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ»

«وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ»(24)

«وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ»(25)

«اللَّهُ الذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...»

«وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً»(26)

«لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا»(27)

فقد يبدو للمتوهم أو السطحي، أن «مِنْ فَوْقِهِمْ» و «فِي الأَرْضِ» عبارتان زائدتان في الكلام .

ولكن المرتضى: بين فائدة هذه الزيادة، وما استطاعت أن تضيف إلى المعنى وعبارة «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قد توهم أن قتل الأنبياء، قد يكون بحق، وكذلك فإن بقية الآيات قد يوهم مافيها من زيادة بعض الألفاظ ماليس مقصودا، أو ما لا يتفق مع طبيعة الأمور.

ولكن المرتضى يطيل الوقفة عند هذه الأمثلة جميعا، ويردها إلى المألوف المستعمل في كلام العرب، فإن للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة، ومذهبا مشهورا عند من تصفح كلامهم، وفهم عنهم، ومرادهم بذلك المبالغة بالنفي وتوكيده، فمن ذلك قولهم: فلان لا يرجى خيره، ليس يريدون أن فيه

---

(23) النحل 26

(24)البقرة 61

(25) المؤمنون 117

(26) البقرة 41

(27) البقرة 273

خيراً لا يرجى، وإنما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه، ومثله: ما رأيت مثل هذا الرجل.

وإنما يريدون أن مثله لم ير لا قليلا ولا كثيرا».

ثم يمضي المرتضى يفصل القول في كل آية من هذه الآيات، مبيّنًا كيف أفادت هذه الزيادة تأكيداً في النفي ومبالغة فيه.»(28)

المسئلة الثالثة :

قضية الإعجاز القرآني بين المتكلمين واللغويين :

عالج اللغويون مسائل البيان، ونظرية الأدب والبلاغة في القرآن، وعالجها أيضا المتكلمون الذين لم يرتضوا أسلوب اللغويين، واعتبروهم قد ضيقوا مجالات الفن، ولم يتعمقوا، ولم يكتشفوا ما وراء الألفاظ من معان بعيدة، ولم يجنحوا إلى إدراك الصور الفنية، ولم يسبروا أغواره، ليخرجوا عجائبه، ويذوقوا الأدب ذوقا أدبيا، يملأ النفس روعة، والحس جلالا، ويتدرج من القدرة البشرية إلى الإعجاز الإلهي. وحين استعرضنا جهودهم في الميدان الفني لنظرية الإعجاز، لمسنا أثر تعمق المتكلمين في دراستهم، ومدى سداد منهجهم الذي أدى إلى إضافات في فنون البيان، أضيفت إلى جهود الذين سبقوهم من الرواة والشعراء والنقاد، وما كان غيرهم بمستطيع ذلك، لولا المتكلمون...

ونريد هنا أن نشير إلى فضلهم على الدور الرائع الذي حققوه في البلاغة عامة وفي نظرية الإعجاز بخاصة، في جانبها الفني..

ونلخص ذلك في:

أولا: المجاز اللغوي

ثانيا: التأثير النفسي

ثالثا: دراسة الجمال والذوق الأدبي

---

(28) أمالى المرتضى جـ1 ص229

أولا: المجاز اللغوي

سبق أن عرضنا كيف لجأ المعتزلة إلى هذا الباب، وذلك حتى يتسع أمامهم القول، وحتى يفلتوا من تلك القيود التي ألزمهم بها المجسمة وغيرهم من الطوائف، وبخاصة حين عالجوا التشبيه في القرآن الكريم.

ولقد هاجموا اللغويين، والمفسرين البسطاء -في نظرهم -الذين يلتزمون ظاهر اللفظ، وراحوا ينزهون الذات الإلهية عن كل ما ينالها من حسية، وجنحوا إلى الصور الذهنية، والخيالات الضمنية، ليبرزوا معانيها التبعية في نفوس الناس، وكان عدتهم في ذلك المجاز اللغوي.(29) وقد وضح معالم ذلك الجاحظ حيث يقول: «فللعرب أمثال واشتقاقات، وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل.فإذا نظر في الكلام، وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك . »(30)

ويقول المرتضى في أماليه، «وكلام العرب، وحي وإشارات وإشعارات ومجازات، ولهذا الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة، فإن الكلام متى خلا من الاستعارات، وجرى كله على الحقيقة كان بعيداً عن الفصاحة بريًا من البلاغة؛ وكلام الله تعالى أفصح الكلام (31). »

بل إن أساس البلاغة للزمخشري بني لتطبيق هذا الرأي على اللغة (32)

ثانيا: التأثير النفسي

ولقد كان للمعتزلة الباع الطويل في هذه المجالات فهذه صحيفة بشر بن المعتمر والتي رواها الجاحظ في البيان والتبيين. وفيها ينصح بشر بن المعتمر كل أديب سواء أكان خطيبا أم كاتبا أم شاعراً بأشياء هامة من ناحية الألفاظ والمعاني وكيفية التهيُّئ لها حتى تصدر منه كما يصدر الماء من ينبوعه، ويشرح أيضا جانب تأثير

---

(29) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة منير سلطان ص 223.

(30) الحيوان جـ1 ص70

(31) أمالي المرتضى 48

(32) إعجاز القرآن منير سلطان ص224

الخطيب أو الأديب في نفوس المستمعين أو القراء قائلا: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهما، وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم الكلام على أقدار المعاني، ويقسم المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»(33) وارتبط التأثير في النفس بجانب الإيجاز والإطناب في البلاغة لأنهما يتصلان مباشرة بنفس المستمع أو القارئ. وقد توسع الجاحظ في الحديث عن الإطناب والإيجاز، ومواضعها من ذلك حديثه عن الترداد والتكرار في القصص القرآني يقول: «وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثيرة لأنه خاطب جميع الأمم من العرب بجميع أصناف العجم، وأكثرهم عيّ غافل، ومعاند مشغول الفكر ساهي القلب...»(34)

ويكرر الجاحظ مع بشر بن المعتمر فكرة مطابقة الكلام لمعانيه وللأحوال المختلفة، وطبقات المستمعين حتى لا ينفذ الكلام إلى السمع إلاّ وتنفذ معه المعاني إلى القلب...يقول: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه... وإذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة»(35)

وعند الرماني أن البلاغة: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.»(36)

ويرجع القاضي أبو الحسن عبد الجبار تفاضل ناظم عن ناظم في اختيار الألفاظ والتأثير على المستمع ويسمى ذلك «قوة المحاضرة»(37) والباقلاني يعتبر الوجه

---

(33) البيان والتبيين جـ1 ص135

(34) المصدر نفسه جـ1 ص105

(35) المصدر نفسه جـ1 ص83

(36) النكت في إعجاز القرآن للرماني ص69

(37) المغني في أبواب العدل والتوحيد جـ16 ص 208 - 209

العاشر من وجوه القرآن أثره في النفوس فهو يقول:

«ومعنى عاشر، وهو: أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريب من الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المغزى من عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دونه في موقعه أن يقدر عليه، أو يظفر به.»(38)

ولا نقول إن إبراز هذا الأثر النفسي في الإعجاز القرآني كان من صنع المتكلمين أو ابتكاراتهم، ولكنهم اهتموا به وأعطوه منزلة سامية وأبرزوه ومنحوه ما يستحق من التقدير والاهتمام.(39)

ثالثا: دراسة الجمال البلاغي والذوق الأدبي

ومن الإنصاف للحقيقة أن نذكر أن المتكلمين بدون استثناء قد أولوا ظاهرة الجمال البلاغي والذوق الأدبي في القرآن عناية خاصة وعنوا بدراستها..

ولا نريد هنا أن نفصل القول في هذا المبحث، ولكنها إشارة لجهد المتكلمين فيها، أو بمعنى أدق لفضلهم في هذا المبحث والمادة قد تكون واحدة، ولكن اختلاف الصور التي تتعرض فيها تعطيها قيمًا جمالية مختلفة.»(40)

وبشر بن المعتمر وهو يتكلم عن التوعر في صحيفته: يقول:

«فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك.»(41)

والجاحظ يكرر دائما القول في أنه لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا.(42)

---

(38) إعجاز القرآن للباقلاني ص46

(39) إعجاز القرآن منير سلطان ص226

(40) الأسس الجمالية في النقد الأدبي عز الدين إسماعيل ص214

(41) البيان والتبيين جـ1 ص135

(42) المصدر نفسه جـ1 ص170

وأن المعاني: «إذا أكسبت الألفاظ الكريمة و ألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر مازينت، وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي.»(43)

والقاضي أبو الحسن عبد الجبار يعنى كثيرا بالذوق الأدبي والحس البلاغي في حديثه عن الإعجاز القرآني ... ويسمي ذلك بالقدر الضروري أو الآلة أو الألطاف، أو التأييد الإلهي، وكيف أنه شيء يختلف حسب نصيب كل مجتهد، وهذه الأنصبة تتفاوت صعدا إلى أن تقف عند نهاية.(44)

والباقلاني يتحدث عن تفضيل الله سبحانه وتعالى اللغة العربية على غيرها، وقد جعلت لذلك حلية لنظم القرآن، وعلق بها الإعجاز فصار دلالة على النبوة، لما بها من خصائص ذاتية متميزة»(45). الوجه العاشر عنده في إعجاز القرآن يرجع إلى سهولة سبيله وخروجه عن الوحشي المستكره»(46)

ونراه يقرر أيضا «أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس وإذا كان كذلك، وجب أن يتخير من اللفظ، ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستكره المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الأفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة، ويجب أن يتنكب ماكان عامّي اللفظ، مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سنْسافيّ الوضع، مجتلب التأسيس، لا على أصل ممهّد، ولا طريق موطّد.»(47)

ومن المؤكد أن الدارسين للإعجاز القرآني وتفسيره تركوا أثرا لا حدود له في مجال الدراسات البلاغية، وفي ميدان الدراسات الأدبية بوجه عام وبخاصة في تلك

---

(43) الحيوان جـ1 ص88

(44) إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار ص208 -213

(45) إعجاز القرآن للباقلاني ص118

(46) المصدر نفسه ص46

(47) المصدر نفسه ص117- 118

المرحلة التي هي موضوع دراستنا «والجاحظ يفرد لأول مرة كتابا في «البيان والتبيين» سجل فيه ملاحظته، وملاحظات معاصريه العرب والسابقين، وكذا الأجانب في البلاغة ، وهو يعدّ -بغير منازع - مؤسس البلاغة العربية(48) والرماني يصور الإيجاز تصويراً نهائيا بحيث لم يضف إليه البلاغيون القالون شيئا. »(49)

والمدرسة الجبائية صاحبة فكرة الأسلوب البليغ القائم على ضم الكلمات مع اعتبار إعراب كل كلمة، وحركاتها، وموقعها، وكذا في اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، وسموا هذا الوجه بالفصاحة . »(50)

والباقلاني صاحب المنهج المقارن، بين القرآن، وبين روائع الأدب العربي جاهليا وعباسيا، ليثبت بالدليل أن القرآن مما لا يقدر عليه العباد، وأن هذه الروائع في الأدب العربي على قيمتها تحتوي على الغث والركيك والسفساف الشيء الذي تبرأ منه القرآن.

ومن هنا فإن علينا أن نقدم بعض هذه النماذج التي عنيت بأثر الدرس البلاغي في قضايا الإعجاز القرآني .

والنماذج أكثر من أن تحصى -في هذه المرحلة-، ولكننا نكتفي باثنين يمثل أحدهما المدرسة الاعتزالية ويمثل الآخر المدرسة السنية .

فالجاحظ يمثل مدرسة التأسيس والتأصيل

والباقلاني يمثل مدرسة الموازنة والمقارنة والتمهيد .

---

(48) البلاغة تطور وتاريخ شوقي ضيف ص57-58

(49)المرجع نفسه ص104

(50) إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار ص199

تمهيد

عاش الجاحظ قرابة قرن من الزمان من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث من الهجرة.

وهذه الحياة الطويلة كانت حافلة بالنتاج الأدبي والعلمي والبلاغي .

فهو إمام من أئمة البيان، وعلم من أعلام البلاغة، وفارس من فرسان التذوق للجمال، وباحث قدير في أسرار القرآن الكريم و إعجازه .

درس الجاحظ اللغة والأدب والبلاغة على أئمة علمائها، وأخذ أصول الاعتزال عن رؤسائه، وامتاز عنهم بذوقه الأدبي الرفيع، وطبيعته النّفاذه المبتكرة.

ـ ولقد عاش الجاحظ في مرحلة شهدت تيارات متعددة من تفسير القرآن الكريم .

وعندما نريد أن نتبين هذه التيارات التي كانت تتعاطى التفسير في عصره فإننا نجدها متباينة متعددة، فهناك المفسرون والقصاصون، وهناك الطاعنون، والعوام والجهال، والمتكلمون . فضلا عما انتهى إليه التفسير من تراث منقول . وما شاب بعضا منه من وجوه لا يرتضيها التفسير السليم... وقد تصدى الجاحظ لهؤلاء جميعا، ونال كل منهم نصيبا من نقده بعد أن درس مقولاتهم وآراءهم.. فكان بحق أول وأقدم ناقد تفسيري على أساس الدرس البلاغي...

وكان أول مفسر على هذا النمط البلاغي تصل إلينا آراؤه شاملة واضحة ومكتوبة، وبذلك جلّى الجاحظ نفسه ناقدا تفسيريا ممتازا فوق كونه ناقداً أديبا بارعا .

وليس ذلك بكثير على الجاحظ الذي غربل التراث الأدبي والديني في عصره. وانتهى إلى آراء، وأفكار كانت مثار الإعجاب في كل عصر. لما تمتاز به من الدقة والشمول، وسعة الأفق، وكثرة الاطلاع، في اللغة والنحو والشعر، وأخبار العرب، والفلسفة، والأديان المختلفة، وثقافات العصر المتعددة، وإحاطته بالتوارة والإنجيل وكتب اليهود والنصارى والفرس والهنود وتتبعه لشوارد الأحاديث والنوادر، ومحاجته لأصحاب البدع والشعوبية وإلى جانب ذلك رأي حر وبديهة تكشف أمامه الحقائق، وتفتق أكمام المعاني.

الفصل الثاني

الجاحظ ورؤيته في الدرس البلاغي على ضوء أساليب القرآن وإعجازه

- الجاحظ واتجاهات التفسير في عصره
- موقفه من مفسري عصره
- الدرس البلاغي ورؤية الجاحظ في إعجاز القرآن
- من معالم الإعجاز البلاغي في دراسات الجاحظ
  1 - المفردة القرآنية
  2 - المجاز والإستعارة والتشبيه
  3 - الإيجاز
  4 - الكناية
  5 - البديع أو النظم الموسيقي والوزن في القرآن (السجع والفاصلة)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

موقفه من مفسري عصره

لاحظ الجاحظ أن من المفسرين من يخطئ ويصيب في فهم القرآن الكريم، ومعرفة معانيه وتبيانها.. على حين يتعسف آخرون ويضلون الطريق فيحملون النص القرآني الكريم ما لا يتحمله ومن ثم ينحرفون عن جادة المعنى من دون أن يكون مبرر لذلك، مع أنه يتحدد المراد في النحو والفقه، وتفسير النص القرآني على حين تكون في النقد الأدبي معان مبهمة .(1)

فالمعنى يتحدد في النص القرآني، وإن كان اللفظ والتركيب أو الآية محتملة لعدة وجوه إذ أن هذه الوجوه محددة بدلالات معينة، على وفق أسس، وطرائق معينة...ولكن المبالغة في الأخذ بالرأي، أخضع القرآن ليميل شخصية، ومذاهب عقدية وغير عقدية، وهذا فتح على المسلمين باب شر خطير(2) ومن صور هذا النقد الذي وجهه الجاحظ لطوائف المفسرين:

1- لقد تنبه الجاحظ إلى ظاهرة «الإغراب» في التفسير منذ أيامه الأولى التي كان يحصل فيها العلم عن شيوخه، وما يصحبها من شغف العامة من الناس، بها، لمكانة الغرابة فيها، فسمع ذلك منهم ووعاه، وتمثله بعد ذلك في نفسه وفكره، ومنهجه في التفسير.(3)

وكان أبو إسحاق النظام (ت231هـ) ممن تتلمذ عليهم الجاحظ وأخذ عنهم . وكان الجاحظ يروي عنه من جملة ما يرويه نقداً لعدد من المفسرين ممن لهم «إغراب» في التفسير في رأيه، فيقول: «كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسيرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسدي والضحاك، وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا: في قوله تعالى: «**أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**» إنه ليس يعني الجمال والنوق،

---

(1) نظرية المعنى في النقد العربي مصطفى ناصف ص8

(2) الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم دوافعها ودفعها محمد حسين الذهبي ص7

(3) مجلة المورد 3 البغدادية المجلد السابع عشر العدد الرابع ص 153

وإنما يعني السحاب»(4) والجاحظ إذ يروي هذا عن شيخه النظام؛ فإنما يبدو عليه أنه يرتضيه؛ بدليل سكوته عليه، وعدم تعرضه بالرد أو النقد.

وانتقد الجاحظ رأي عكرمة والضحاك في تفسيرهما «ق» في سورة «ق» أنه اسم للجبل المحيط بالأرض، وأنه من زمردة خضراء لون السماء منها (5)

وهذا لاشك مخالف للعقل والعلم....

ممّا حمل ابن كثير على أن يعده «من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم، مما لا يصدق ولا يكذب»(6) ومن ذلك تفسيرهم «الإبل» في قوله تعالى «**إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**»(7)

بأنها «السحاب»

وهذا يعد مجافيا لسياق النص الذي وردت فيه اللفظة؛ إذ وردت في إطار تصويري منسجم مع السماء والأرض والجبال، التي هي أظهر ما يتراءى للبدوي في الصحراء(8)

وتنبه الجاحظ على غريبة أخرى من غرائب التفسير تتعلق بدلالة لفظة «المحروم» في قوله تعالى: «**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**»(9)

إذ ذهب أحد المفسرين إلى أن المحروم هو الكلب (10)

وواضح مدى الاعتساف، ومبلغ الانحراف في هذا التأويل ، وبعده عن الوجه المقبول.

2- والجاحظ من أقدم من عني بتفسير القرآن بالقرآن؛ فالقرآن مرتبط بعضه

---

(4) البيان والتبيين ج1 ص 194

(5) الإتقان للسيوطي جـ2 ص143

(6) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ8 ص37

(7) الغاشية 18

(8) الكشاف جـ3 ص333

(9) المعارج 24-25

(10) الحيوان جـ1 ص193

الدواب، ولم ينفقوا منها درهما واحد في سبيل الأكل.

وقد قال الله عز وجل: «إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً»(51) وهذا مجاز آخر...

وقد قال الله عز وجل: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»(52)

فهذا كله مختلف، وهذا كله مجاز»

ثم يأتي بشواهد من الشعر على الاستعمال المجازي لكلمة أكل (53)

ولا يغفل المجاز من الناحية اللغوية المحدودة، ولكن الجاحظ في تعريفه للمجاز وكلامه عنه لا يفرق بين أنواعه المختلفة، فكلّه قد عدل به عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فيه تحوير ومجاز، ومثال ذلك كلامه عن الخضرة في اللغة واستعمال العرب للفظ السواد دالا عليها، والعكس؛ ويعلل هذا الاستعمال بقرب أحد اللونين من الآخر، فيعدل العرب عن الخضرة إلى السواد، وعن السواد إلى الخضرة.

يقول: «أصل الخضرة هو لون الريحان والبقول، وجعلوا بعض الحديد أخضر والسماء خضراء حتى سموا بذلك الكحل والليل.

قال الشماخ:

وَرُحْنا رَوَاحًا مِنْ زَرُودٍ فَنَازَعَتْ زُبَالةُ جِلْبابًا مِنَ الليلِ أَخْضَرا

وقال الراجز:

حتّى انْتَضَاهُ الصُّبْحُ مِنْ ليلٍ خَضِرْ مِثْلَ انْتِضَاءِ البطلِ السيفَ الذَّكَرْ

نِضْوَ هَوًى بَلٍ عَلَى نِضْوِ سَفَرْ

وقال الله عز وجل: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُدْهَامَّتَانِ»

قال: «خضراوان»، من الري سوداوان»(54)

---

(51) النساء 10

(52) الحجرات 12

(53) الحيوان جـ5 ص28-34

(54) المصدر نفسه جـ3 ص 245-246

واختلف: الجاحظ مع أهل الظاهر -من اللغويين وأصحاب الحديث- في المجاز، وخاض معهم فيه على مذهب المعتزلة، ويفسره في القرآن برأيه، ويرد على المعترضين منهم متهما إياهم بنقص الإدراك، وقصر الفهم، وعدم الإلمام بدقائق الأسلوب القرآني، فضلا عن أساليب العرب في الكلام، وتعرض -أثناء تفسيره لأيات سورة النحل -لقوله تعالى: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ»

يقال: «فالعسل ليس شرابا، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شرابا؛ إذ كان يجيء منه الشراب،

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا جاء السماء اليوم بأمر عظيم، وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه، وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء، وأن السماء تسقط، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها؛ فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا، وهذا الباب مفخرة العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطب بهذا أهل تهامة وهذيلا، وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب، أو طعن عليه من هذه الحجة..؟»(55)

والمجاز عند الجاحظ استعمال اللفظ في غير حقيقته توسعا، من أهل اللغة.

ويتكلم عن المجاز في قوله تعالى: «الذينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ...»(56)

ثم يقول: «قد علمنا أن الله عز وجل إنّما كلمهم بلغتهم»

أي أنه استعمل في القرآن اللغة التي كانت جارية على ألسنتهم بما فيها من فنون القول المختلفة.(57)

---

(55) الحيوان جـ5 ص426

(56) آل عمران 183

(57) الحيوان جـ4 ص278

وقد يجمع الجاحظ بين التشبيه والاستعارة والبدل والمجاز في فن واحد من فنون القول في القرآن الكريم.

وقد يطلق اسم المجاز على الاستعارة والمثل، وهكذا نجد فنون الدرس البلاغي هنا غير متميزة، والذي سماه الجاحظ بدلا إنما هو استعارة وسبب التسمية في قوله تعالى: «حَيَّةٌ تَسْعَى» مثلا هو أنه أبدل السعي بالأنسياب، والانسياح وهو مشي الحية المعروف -كما أبدل النزل بالعذاب .

والبدل عند الجاحظ- أيضا- يدل على التشبيه؛ لأنه لون منه كما كان الحال في الاستعارة وفي باب التشبيه والبدل يتناول الجاحظ بعض أحوال اليوم الآخر وصوره، ومشاهد الجنة والنار والنعيم والعذاب، يورد قوله تعالى: «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ»(58)

وأصحاب الجنة لايوصفون بشغل، إنما ذلك جواب لقول القائل:

أخبرني عن أهل الجنة بأيّ شيء يتشاغلون؟ أم لهم فراغ أبداً ؟

فيقول المجيب: لا ماشغلهم إلا افتضاض الأبكار، وأكل فواكه الجنة، وزيارة الإخوان على نجائب الياقوت، وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس حين قيل له وقد أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام -من سبق؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل: فمن صلى؟ قال: أبو بكر، قال: إنما أسألك عن الخيل، قال: وأنا أجيبك عن الخير، وهو كقول أحد المفسرين، حين سئل عن قوله تعالى: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» ليس فيها بكرة وعشيا وقد صدق القرآن وصدق المفسر، ولم يتناكرا، ولم يتنافيا، لأن القرآن ذهب إلى المقادير والمفسر إلى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها، وعلى تأويل قوله تعالى: «هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ» قال: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْمِهَادُ» قال تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ»(59)

---

(58) يس 55

(59) الزمر 71

فجعل للنار خزائن، وجعل لها خزنة، كما جعل في الجنة خزائن، وجعل لها خزنة، ولو أن جهنم فتحت أبوابها، ونحّي عنها الخزنة ثم قيل لكل لص في الأرض، ولكل خائن في الأرض: دونك فقد أبيحت لك ما دنا منها، وقد جعل لها خزائن وخزنة، وإنما هذا على مثال ما ذكرنا، وهذا كثير في كلام العرب...»(60)

التشبيه:

وفي تفسيره لكثير من آيات القرآن كان الجاحظ يرى في التشبيه وفي الاستعارة -كما مر آنفا- مجرد صور ذهنية للتعبير عن المعنى المراد، وتوضيحه في الأذهان، في قالب يمكن إدراكه بالحس، وذلك بتشكيله في صور المدركات الحسية، وهذا كله منطبق على صفات الله تعالى واليوم الآخر، ومشاهد القيامة والجنة والنار، وصفات العذاب والنعيم المختلفة.

وقد عرضت لنا في تفسير الفراء وأبي عبيدة بعض هذه الصور... مثل قوله تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ...» وعرفنا كيف خرجها الفراء تخريجا لغويا، لم يوضح الصورة البلاغية، لكي لا يقع في محظور التشبيه..

وكان الجاحظ أميل إلى التجريد في أمثال هذه المواقف؛ فيبتعد بالصورة عن الشكل الظاهري، وما له من دلالات مادية إلى المعنى العام المقصود وراء الشكل أو الصورة.

وينطوي تحت هذا -عنده- ما جاء في القرآن الكريم من أعداد. فالعدد عنده في القرآن لا يحمل معنى التحديد «الكمي» بالسبع أو العشر أو التسعة عشر. وإنما المقصود التعدد والكثرة .

ومن أمثلة التشبيه ما قاله: وقد اعترض معترضون على قوله عز وجل: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ...»(61)

---

(60) الحيوان جـ4 ص278 - 279

(61) الأعراف 175-177

فزعموا أن هذا المثال لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لأنه قال: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا» فما يشبه حال من أعطى شيئا فلم يقبله، -ولم يذكر غير ذلك- بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهبا، وإن تركته شدّ عليك ونبح، مع أن قوله يلهث لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد ومن تعب -وأمّا النباح والصياح فمن شيء آخر. قلنا له: إن قال: «ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمّى مكذّباً، ولا يقال لهم كذبوا إلاّ وقد كان ذلك منهم مراراً. فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليه وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه، فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليه، وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا عليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش...(62)

ولقد بذل الجاحظ جهداً في استخراج وجه الشبه في التشبيه السابق، وبين الغرض منه ليجعله سهلا في متناول العقول، فلا تكون لهم حجة على بلاغة القرآن، وما ادعي عليه من اضطراب في الصورة البيانية -كما ادعى من تولى الجاحظ الرد عليه-.

وقد تنبه الجاحظ إلى دقة القرآن في التشبيه بالخصائص المشهورة للمشبه به، وحاول -موفقا- أن يكشف عن بعض ماوقع فيه الناس من غموض دعا إلى التساؤل عن وجه الشبه.

وهذا المثال من الشواهد الكثيرة على ما كان للقرآن من أثر في التنبيه على فنون القول في القرآن وروعة البيان بوجه عام...

وقد لاحظ بعض الباحثين في هذا المثال دلالة على معرفة العلماء في عصر

---

(62) الحيوان جـ2 ص16- 17

الجاحظ للتشبيه ووجوهه، ووجه الشبه، وصورة تحققه في الشبه(63)

وتعرض الجاحظ للتشبيه في قوله تعالى: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» وهذا المثال الذي كثر الكلام حوله وفيه، وكان أحد الأسباب الأساسية في تأليف كتاب "مجاز القرآن لأبي عبيدة" -كما مرت الإشارة إليه- وأطال الجاحظ الوقوف أمام هذا المثال، وتعرض له أكثر من مرة:

يقول في ذلك: «وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة، ولكن لما كان الله تعالى، قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، واستسماجه وكراهيته، وقد أجرى على ألسنتهم جميعا ضرب المثل في ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم على طبائعهم، وهذا التأويل أشبه بقول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن.»(64)

وتعرض الجاحظ لهذا المثال مرة أخرى فقال: «فزعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الإسم من فسقة الجن ومردتهم، فقال أهل الطعن والخلاف ليس يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق. ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ من الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون الشأن كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه، أو صورّه لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينها، ولاصورها لنا صادق؛ على أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعاين أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاما؟ قلنا: وإن كنّا نحن لم نر شيطانا قط ولا صور رؤوسها ، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا

---

(63) البلاغة العربية في دور نشأتها وتطورها سيد نوفل ص138

(64) الحيوان جـ4 ص39

يضعون ذلك في مكانين: أحدهما: أن يقولوا لهو أقبح من الشيطان، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير له كما تسمّى الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صمّاء وقرناء وخنساء وجرباء، وأشباه ذلك على جهة التطير له، ففي إجماع المسلمين والعرب، وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح.»(65)

وهكذا كان لهذه الأية، ومثلها أثر في تنبيه الناس إلى التشبيه، فبحثه فيها أبو عبيدة، وجدد الجاحظ البحث وتوسع فيه.

وظلت الآية على رأس الشواهد في التشبية المعنوي في كتب البلاغة...

وفيما يروي الجاحظ بيان لمدى إدراك الناس -في عهده- للتشبيه وهو يلقي ضوءا على مدى فهمهم لأمثال تلك الصور البيانية، وعلى أثر أسلوب القرآن في توجيه الأذهان إلى فنون القول وضروب الأساليب لبحثها ودراستها...

ولم يكن الجاحظ في تفسيره للآية السابقة ظاهريا، وإنما تمشى مع فهم للدور الذي يقوم به التشبيه في الآية، وهو القصد إلى إثارة الوجدان عن طريق استدعاء الخيال لصورة قبيحة مفزعة، وما ينتهي إليه من إقرار الخوف، وبثّه الفزع في قرارة النفس(66)

يقول الأستاذ شفيق جبري: «والجاحظ مرة يحمل اللفظ على ظاهره؛ فالشيطان في اللغة معروف أمره، ولكن من المفسرين من فسر رءوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عدّه الجاحظ غريبا.»(67)

والجاحظ -الحر في تفسيره وبحثه- يرفض تفسير اللغويين- الحسي- وهو يتفق ووجهة نظر أهل الظاهر في التفسير، ويعارض وجهة نظر أهل النظر المتكلمين والمعتزلة؛ حيث فسر هؤلاء رءوس الشياطين برءوس نبات ينبت باليمن، أو شجر كريه المنظر، أو حيّات قبيحة الشكل، وكلها مدلولات مادية لكلمة شيطان قد يكون

---

(65) الحيوان جـ6 ص212

(66) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص91

(67) الجاحظ معلم العقل شفيق جبري ص187

لها أصل من الواقع، وقد تكون من ابتكار هؤلاء، وهي على الحالين لا تبلغ في أثرها في النفس مبلغ صورة الشيطان التي تثب إلى الخيال تجمع كل سمات الفزع والقبح، وإن تكن غير واضحة وضوح النبات والشجر والحيات وهذا الغموض يضفي عليها مزيداً من التخويف.

ونحن نرى في تفسير الجاحظ -هنا- أنه كان أكثر إدراكا لمرمى التعبير القرآني في النفوس، وأثره في الوجدان.

وهو إدراك له قيمته من الوجهة البلاغية. وتلك لفتات عابرة جاءت في دراسات الأقدمين، وأولاها النقد البلاغي الحدث كل عناية... وفي تفسير الجاحظ نجد أن الصورة البلاغية تختلف أسماؤها.. فهي مرة باسم المثل كما سماها أبو عبيدة والفراء، وهو إسم مشتق من القرآن في مثل قوله تعالى:«**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**»(68)

أو قوله تعالى: «**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ**»(69) ويسميها أحيانًا البدل، والاستعارة والمجاز، ويدرج هذه الأسماء مرة فيقول: «ويقولون أيضا على المثل وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه...»(70) ويذكر أمثلة من التّشبيه بالحيوان في القرآن، وذلك لغلبة صفة ما في كل نوع منها أراد السياق إبرازها، فيضرب الله مثلا بالعنكبوت في وهن البيت وضعفه والحمار في الجهلة والغفلة وفي قلة المعرفة وغلظ الطبيعة، والقرد في القبح والتشويه ونذالة النفس(71)

وخلاصة القول في التشبيه في أسلوب القرآن في رؤية الجاحظ وتفسيره نستطيع أن نجمله في النقاط الآتية:

1- أن التشبيه في القرآن -فيما يتصل بالذات الإلهية وأحوال الملائكة، واليوم

---

(68) الكهف 45

(69) الفتح 39

(70) الحيوان جـ5 ص23

(71) المصدر نفسه

الآخر وما فيه من الجنة والنار ومشاهدهما -صور ذهنية في قوالب وأشكال مادية محسوسة لإبراز المعنى وتثبيته في النفوس.

2- والتشبيه فيما عدا ذلك يجري حسبما يقتضيه التعبير الأدبي عند البلاغيين والنقاد وقد بدأ مدلوله هذا يتضح عند الجاحظ.

3- لم يكن لفظ التشبيه قد استقر بعد على الصورة التي عرفت بعد في البلاغة بل تنازع مدلولها ثلاثة ألفاظ (البدل، والمثل، والتشبيه)

4- تعمق الجاحظ في بيان أوجه الشبه وتفصيل أجزائه مع شرح واف في كثير من الأحيان ليوضح الغرض القرآني في التعبير.

5- كان الحجاج الديني ومحاولة تسفيه آراء أصحاب الظاهر من المفسرين واللغويين من أهم الدواعي إلى التعمق في بحث التشبيه عند الجاحظ، ليفلت من القيود الحسية ومن التجسيم.

ويلحق بالتشبيه الاستعارة -وهي وجه من وجوه الصورة البيانية- وهي عنده تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه(72) ويعرض لتفسير قوله تعالى: «**وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ**»(73)

فيقول: «والخزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ، ولا يختار دخولها فيمنع عنها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به». وعلق على قول الشاعر:

طَفِقَتْ سَحَابَةُ بعدها تَغْشَاهَا تَبْكي على إعْراضِهَا عَيْنَاهَا

بقوله: «وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه(74)

والاستعارة بهذا التعريف قد تختلط عنده بالبدل والتشبيه البليغ الذي حذفت فيه

---

(72) البيان والتبيين جـ1 ص116

(73) غافر 49

(74) البيان والتبيين جـ1 ص117

الأداة وبألوان أخرى من فنون القول أوردها على أنها استعارة، كتأكيد الذم بما يشبه المدح، وتأكيد المدح بما يشبه الذم... وذكر في ذلك أمثلة من القرآن الكريم والشعر العربي... منها قول النابغة:

ولا عيب فيهم غيرَ أن سُيُوفَهم بِهنّ فلُول مِنْ قراع الكَتَائبِ

ثم يأتي بأمثلة من القرآن الكريم(75)

ويتحدث الجاحظ في تفسيره لكثيرمن آيات القرآن عن القالب اللفظي في النظم القرآني، فيتكلم عن الإيجاز والحذف.

الإيجاز:

ويعرفه بقوله: «ولو أن قائلا قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه يقول الاختصار والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ.

ورأي الجاحظ في الإيجاز جزء من رأيه في البيان عامة، فالبيان التام عنده أن تكون الألفاظ والعبارات على قدر المعاني، وبناء عليه يمكن القول: «بأن العبارة الموجزة التي تعطي معان أكثر من ألفاظها بلاغة، وبقدر ما قل اللفظ وزاد المعنى، بقدر ما ارتفعت نسبة القول في مراتب البلاغة حتى تصل إلى درجة الإعجاز ممثلة في عبارات القول الموجزة.

ويمكن القياس على ذلك في الإطناب، فهو زيادة في اللفظ لإيضاح المعنى وتوكيده في النفس، وبقدر ما تؤدي إليه الإطالة من الإيضاح والتوكيد ترتفع درجة البلاغة في العبارة حتى تصل إلى الإعجاز، وهو نهاية إفهام المعنى المراد بالألفاظ التي يمكن أن تأتي للدلالة عليه دون حشو أو خلل، وكثيراً ما تناول الجاحظ الإيجاز في بيان القرآن الكريم على ضوء هذا الفهم .

فهو يقول: «إنه -أي القرآن- قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن الكريم لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول وأقل دلالة وهو يتعرض لبعض الآيات التي جاءت مثلا للإيجاز المعجز، وقد لا ينص على ما فيها من

---

(75) البيان والتبيين جـ4 ص272 - 278

إيجاز ولكن شرحه لمعانيها، وبيانه لما تحتويه من معان، وتفصيله دال على اعتقاده في إيجازها المعجز، ومثال ذلك قوله- في كتاب العصا-(76) وقال الله تعالى: «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا»(77).

قالت الحكماء: [إنما تبني المدائن على الماء والكلأ والمحتطبة فجمع بقوله: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا» النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب، فذكر ما يقوم على ساق، وما يتفنن وما يتسطح وكل ذلك مرْعى، ثم قال على النسق: «مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ» فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله لأن الملح لا يكون إلا بالماء»(78) ولا تكون النار إلا من الشجر وقال تبارك وتعالى: «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ»(79)

وهكذا كانت دقة الجاحظ الذي تفتحت أمامه المعاني عند وقوفه على كلمتين من القرآن «مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا»

وأبو عبيدة والفراء وأمثالهما -لم يلتفتوا إلا إلى كلمة «بَعْدَ» في الآية ومجيئها مجازا في معنى (مع).

ويظهر من ذلك مدى قبول ذوق الجاحظ وحسّه البلاغي لبيان القرآن، وتفتح أسلوبه أمامه، وخروجه من دراسته له بنكت وطرائف...، ومن ثم أمكنه أن يطلع على الناس برأي في بيان القرآن يتفق وطبيعته، وهو محاولة إبراز معالم الإعجاز والفهم البلاغي الأدبي الذي يستجيب فيه للنص، ولا يقصر بحوثه في الشكل اللغوي والغريب، كما فعل اللغويون، والفارق بين النظرتين واضح وليس في انقلاب معنى «بعد» إلى معنى «مع» أو «مع» إلى «بعد» أثر كبير، فسواء خلق الله الأرض بعد السماء أو قبلها، فالقوة الإلهية وروعة الخلق لا تظهران إلا فيما رددته الآيات من الآيات، وما أبرزته من قصة الخليقة والنعم الكثيرة، وهي ما تولى

---

(76) البيان والتبيين جـ2 ص1

(77) النازعات 10

(78) هذا نص عبارة الجاحظ، ويستخرج الملح من الجبال أحيانا

(79) يس 80

الجاحظ الكشف عنه.

وبعد أن يذكر الجاحظ أمثلة الإيجاز في الشعر. ينتهي إلى إشارته السابقة في كتاب نظم القرآن -وهي قوله: «ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع بين المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة بالألفاظ القليلة، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة «لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا، وَلاَ يُنْزِفُونَ» وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: «لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ» جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني، وهذا كثير قد دللتك عليه، فإن أردته فهو مشهور(80)

الكناية في القرآن ورؤية الجاحظ

جاءت الكناية عند الجاحظ بمفهومها العام، وهو ترك التصريح بالشيء والتعبير عنه تلميحا وإشارة.. يقول: «رُبَّ كناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير»(81)

والكناية ككل لون من ألوان البيان مرتبطة بالحال، ومسترعاة عنها، وهي تحسن حين يراعي فيها المقام.

يقول الجاحظ: «ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ... فالإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال...»(82)

وتحدث الجاحظ عن الكناية في ثنايا تفسيره لبعض ألفاظ القرآن الكريم وبعض الكلمات الإسلامية المحدثة التي أصبحت تستعمل كناية عن بعض المعاني، من

---

(80) الحيوان جـ3 ص87 ومابعدها

وجدير بالذكر محاولة الجاحظ الفصل بين نوعي الإيجاز بالقصر ويسميه الإيجاز -إطلاقا- والحذف : وهو ماظل بهذا الإسم عند علماء الإعجاز وعلماء البلاغة-... راجع أثر القرآن في تطور النقد العربي ص95

(81) البيان والتبيين جـ2 ص7

(82) الحيوان جـ3 ص39

ذلك مثلا: «اسم المنافق لمن رآى بالإسلام واستسر بالكفر.. أخذ ذلك من الناقفقاء والقصعاء والدماء.. وكما سموا رجيع الإنسان الغائط، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء حاجة للستر، ومنه العذرة، وإنما العذرة الفناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النجو والزبل في أفنيتهم سميت تلك الأشياء التي رموا باسم المكان الذي رميت به، ثم يقول: «وكذلك كانت كنايتهم في انكشاف عورة الرجل، يقال: كشف علينا متاعه وعورته وشواره، والشوار: المتاع، وكذلك الفرج وإنما يعنون به الإير والحر والأست.»(83)

البديع أو النظم الموسيقي والوزن في القرآن «السجع والفاصلة»

لعل الجاحظ أول من دوّن هذه الكلمة، وأرّخ لها مصطلحا بلاغيا متداولا وقد ذكر ذلك ممثلا له بأمثلة كثيرة وشواهد من الشعر والقرآن(84)

وتعرض الجاحظ -كغيره من المفسرين منذ نزل القرآن- لما جرى عليه نظمه من نغم موسيقي ووزن خاص رتيب مكون من وحدات مترابطة منسجمة، فظنوه من وهمهم شعراً، ورأى آخرون التزامه الفاصلة على روي أحيانا، فظنها بعضهم على مثال القصيدة حين تلتزم قافية بعينها، وحاول آخرون من ناحية أخرى أن يوجدوا تشابها بين نظم القرآن، وما كان يجرى على ألسنة بعض كهان العرب من كلام مسجوع، فظنوه من ذلك، الوادي سجعا.

وجاء علماء القرآن، ودققوا النظر، وقارنوا بين وزن القرآن ووزن الشعر بعد أن أمكن ضبطه بالعروض والقوافي والتفعيلات، ووزنوا عليه آيات القرآن، كما وزنوا أبيات الشعر، فلم يستقم لهم، وتأكدوا حينذاك من أنه ليس على وزن الشعر، وتبين لهم أيضا أنه ليس من نوع السجع ولا من وزنه، وأول من برزت عنده هذه الناحية من دراسات أسلوب القرآن الكريم هو الفراء. وجاء الجاحظ فتصدى لوزن القرآن، وتكلم كثيرا فيه لينفي عنه وزن الشعر. يقول: «... ويدخل على من طعن في قوله: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» وزعم أنه شعر لأنه في تقديره "مستفعلن

---

(83) الحيوان جـ1 ص334

(84) البيان والتبيين جـ4 ص55

مفاعلن" ، فيقال له: اعلم أنّك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم، لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومستفعلن فاعلن، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا، ولو أن رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا، وهذا قريب، والجواب فيه سهل والحمد لله...»(85)

وينتهي الجاحظ إلى حقيقة مؤكدة حيث يرى أنه لا تكفي بضع أبيات تأتي عرضا في وزن الشعر ليسمى هذا شعراً، ومنه لا يصح تسمية ماجاء من هذا القبيل من آيات القرآن، فتحكم بأن في القرآن شعراً أو هو من قبيل الشعر، لأن هذا مثله كمثل الذي يجري عفواً على ألسنة الباعة والعامة، ولا يأتي الشعر بهذه السهولة دون أن يقصد إليه، فللشعر حدوده ومعاييره كما أن لقائله شروطا.

وبعد: فهذا التوجيه إلى عرض نظرية الشعر على بساط البحث يرجع -في كثير أو قليل- إلى ما ادعي على القرآن من وجود الشعرية أو قربه منه مما دفع كبار العقول من علماء الأدب والبيان والقرآن كالفراء والجاحظ والباقلاني وغيرهما إلى بحثها مما كان له أثره البعيد في توجيه دراسات الشعر التي تتعلق بتلك النواحي «الوزن ووحدة القصيدة والقافية، ثم عمود الشعر بوجه عام».

بقيت كلمة قصيرة تتعلق بمذهب الجاحظ العام في تفسير القرآن الكريم ودراساته البلاغية وجوانب الإعجاز فيه...

وقد ذهب الأستاذ شفيق جبرى إلى أن الجاحظ كان متناقضا مختلفا بين أهل الباطن وأهل الظاهر، فيرى أنه كان ظاهريا في تفسير قوله تعالى: «**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**» وأثبت في موضع آخر أنه كان يقول بالمذهب الباطني في تفسيره(86)

والأمر فيما يبدو ليس تناقضا، فالمذهب الذي سار عليه الجاحظ في تفسيره لم

---

(85) البيان والتبيين جـ1 ص228 - 289

(86) الجاحظ معلم العقل لشفيق جبري ص187- 185

يكن ظاهريا، ولا كان باطنيا، إنما سار على هدى من ذوقه ومذهبه الأدبي -إذا صحت التسمية- وهو يقوم على دراسة الأسلوب بشيء من التفهم والاستجابة لتأثير النص، ثم محاولة معرفة جوانبه المختلفة عن طريق المقارنة وتحكيم الذوق العربي ووزن التعبير بموازين توارثها الأدباء، وزادوها على الأيام كلما اقتضت الضرورة(87)

وقد آمن الجاحظ -على غير ما رأى النظام- بأن حجة القرآن في روعة نظمه، واعترف بأنه في الذروة العليا من البلاغة، ولهذا يصح أن يقاس على منهجه في البيان والأسلوب الأدبي العربي، وأن توازن فنونه في التعبير بفنونه، لذلك نراه يقدم الشاهد القرآني في صدر كلامه عن تلك الفنون، ثم يأتي بأمثلة من الشعر والنثر، ويضع هذا المنهج أمام الباحثين فيقول:

«ومن خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ويخرج من الخبر إلى الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمة عقلية، ومقاييس سداد»(88)

فلا شك أن جهود الجاحظ في الإعجاز القرآني وتفسيره وإبراز جوانب الدرس البلاغي، قد أفادت كثيراً، وأضافت إلى الدراسات القرآنية كشوفا جديدة في البيان والأسلوب، وقد اهتدى بها الأعلام بعد ذلك واستفادوا منها في الأزمنة التالية....

وإذا كان هناك من بعض المآخذ يحاول بها بعض الدارسين أن يقلل من تلك الجهود، وهي عدم التنسيق والتبويب في التأليف، وعدم الوضوح أحيانا ومجيء بعض الأحكام منثوره ضالة في ثنايا كتبه...

فإننا نقول إن عصر الجاحظ عموما كان ينقصه ذلك، وكان يقتصر على التقعيد والتعريف والتناول المنظم . فلم يكن ذلك من عادة العصر بوجه عام...

وجل هذه المآخذ يرجع إلى الشكل لا إلى المضمون؛ لأن تلك الدراسات الأدبية

---

(87) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص98

(88) الحيوان جـ3 ص78

والبلاغية التي تدور حول القرآن وأسلوبه كانت ناشئة، وكان كل عالم يجتهد ويحاول أن يهتدي إلى فن يضع له الاسم الاصطلاحي الذي يروق له وقد يهتدي بسابقيه، وكانت أن ظلت الاصطلاحات البيانية في عصر الجاحظ (القرن الثالث) والعصر الذي يليه (القرن الرابع) تتنازع الفنون القولية والأسلوبية، فيستقر بعضها، ويظل بعضها الآخر قلقا إلى حين.

فالجاحظ بدون منازع كان صاحب الباع الأكبر واليد الطولى على البيان العربي، وقد أثمرت جهوده في دراسة أسلوب القرآن ثمرات طيبة، وفتحت أبواب المعاني والمجاز وسائر أبواب البلاغة . بعد أن كانت الدراسات مقصورة على جوانب لغوية ودراسات حول ألفاظ الغريب .

وبالجاحظ بدأت مرحلة جديدة في الإعجاز القرآني وتفسيرة.. بدأت تلك المرحلة تشق طريقها في فهم النص القرآني، وإظهار سموه وجماله...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعريف بالباقلاني :

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر القاسم (1)

القاضي أبو بكر الباقلاني البصري الملقب بسيف السنة ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث، وطريق أبي الحسن الأشعري، وإليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته.

لم يعين أحد من المؤرخين عام ولادته. ولكن الجميع عيّن عام وفاته حيث توفي يوم السبت لسبع بقين من ذي الحجة 403م.

وقد أتيح للباقلاني أن يتتلمذ على طائفة من العلماء كالأبهري، والقطيعي والشيرازي وابن مجاهد والباهلي وكان الباهلي وابن مجاهد أعرف العلماء بمذهب الأشعري، وأكثرهم فقها له.

وأتاحت سرعة بديهة الباقلاني، وطلاقة لسانه وغزارة بيانه أن يطير صيته في الآفاق حتى وصل إلى أعلام شيراز، وكانت شيراز في ذلك الوقت حاضرة ملك أبي شجاع وهو عضد الدولة البويهي وظل الباقلاني معه حتى مات عضد الدولة في شوال سنة 372هـ وتولى بعده ابنه صمصام الدولة تلميذ الباقلاني.

الباقلاني ونظرية إعجاز القرآن:

كانت حياة الباقلاني تدور في فلكين هما: التدريس والتأليف وكلاهما شغل عليه وقته وملك كيانه.

وقد دافع الباقلاني كثيرا عن القرآن، وعن الإسلام، ووقف أمام المهاجمين وقوفا صارما -ويدل على ذلك ما تركه من آثار مدونة مثل كتاب «التمهيد»(2)

---

(1) رجعنا إلى ترجمة الباقلاني في: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ 5 ص 379، وشذرات الذهب لابن العماد جـ3 ص168، وتبين كذب المقري لابن عساكر ص 53، وسير أعلام النبلاء للذهبي جـ1 ص 115، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ1 ص686 - والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، والفصل في الملل والنحل لابن حزم جـ2 ص 137- ومقدمة تحقيق كتاب إعجاز القرآن التي كتبها الأستاذ السيد أحمد صقر.

(2) تحقيق عماد الدين أحمد حيدر طبعة بيروت سنة 1987م

الفصل الثالث

الباقلاني وجهوده في الإعجاز البلاغي

- تعريف بالباقلاني
- الباقلاني ونظرية إعجاز القرآن
- الباقلاني والقول بالصرفة
- دراسات الباقلاني في الإعجاز
- تطبيق منهج الباقلاني على نظم القرآن وأسلوبه
- تحليل سورة النمل
- تعادل البلاغة والنظم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكتاب آخر هو «الإنتصار لصحة نقل القرآن، والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان»(3)

وقد قال في مقدمته (أما بعد، فقد وقفت تولى الله عصمتكم، وأحسن هدايتكم وتوفيقكم على ما ذكرتموه من شدة حاجتكم إلى الكلام في نقل القرآن، وإقامة البرهان على استفاضة أمره، وإحاطة السلف بعلمه، وانقطاع العذر في نقله، وقيام الحجة على الخلق به، وإبطال ما يدعيه أهل الضلال من تحريفه وتغييره ودخول الخلل فيه، وذهاب شيء كثير منه، وزيادة أمور فيه، ومايدعيه أهل الإلحاد وشيعتهم من متنحلي الإسلام، من تناقض كثير منه، وخلو بعضه من الفائدة وكونه غير مناسب، وماذكروه من فساد النظم، ودخول اللحن فيه، وركاكة التكرار وقلة البيان، وتأخير المقدم وتقديم المؤخر، إلى غير ذلك من وجوه مطاعنهم والإبانة عن وهاء نقل ذلك وضعته. ونحن بحول الله وعونه نأتي في ذلك بجمل تزيل الريب والشبهة»(4)

وقد ذكر له ابن كثير كتابا بعنوان (كشف الأسرار، وهتك الأستار) في الرد على الباطنية(5)

وقد ذكروا له خمسة وخمسين كتابا في مختلف فنون الكلام والفقه والرد على المخالفين(6) ولو أضفنا إلى هذا الجهد كتابه «إعجاز القرآن» تبين لنا كيف دافع هذا الرجل عن القرآن وأبلى بلاء حسنا في الذود عن حياض الإسلام .

وما كتبه الباقلاني في «إعجاز القرآن» وفي «الانتصار لصحة نقل القرآن» وماكتبه في «التمهيد» يشكل دراسة تامة لبيان القرآن، وأثره وصلته بالبيان العربي إلى جانب النواحي الأخرى الكلامية في الإعجاز.

وتوضح هذه الدراسة موقف الباقلاني من الدرس البلاغي، ومن النظم وصور التعبير المختلفة، في دراسة ضافية يتضح منها منهج جديد في معالجة النص

---

(3) مقدمة تحقيق إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر

(4) مقدمة تحقيق إعجاز القرآن للباقلاني السيد أحمد صقر ص39

(5) البداية والنهاية لابن كثير جـ11 ص346

(6) إعجاز القرآن للباقلاني ص 40 وما بعدها

القرآني، والكشف عن أسرار الجمال فيه، وتعليلها.

وبعض الدارسين يتناول موضوع تلك الدراسة في الكتب الثلاثة بالترتيب الآتي(7)

أولا: كتاب التمهيد

ثانيا: كتاب الانتصار

ثالثا: كتاب الإعجاز

وقد يكون هذا الترتيب غير دقيق من وجهة النظر التاريخية، ولكن الذين أخذوا بهذا الترتيب -وقد أعوزتهم الأدلة- أخذوا به لغرضين:

أولهما: احتمال قرب الترتيب السابق من الترتيب الزمني

ثانيهما: التسلسل في قيمة الموضوع الذي نحن بصدده «إعجاز القرآن» تسلسلا تصاعديا في الترتيب السابق؛ فالتمهيد كتاب في العقيدة بوجه عام يدخل إعجاز القرآن فصلا فيه، والانتصار خاص بعلوم القرآن يبحث تاريخه ونقله، وسوره، ولغاته، ومن بينها إعجاز القرآن، ويستغرق جزءاً هامًا فيه.

أما «إعجاز القرآن» فهو دراسة تامة وشاملة لموضوع الإعجاز.

وهناك سمتان واضحتان في نظرية إعجاز القرآن عند الباقلاني:

السمة الأولى: المنهج الكلامي المنظم، فقد اهتم بوضع المقدمات التي تنبئ عن الفكرة، ثم شرح ما جاء فيها من مسائل، ومناقشتها من وجوهها المختلفة.

وينتهي إلى تلخيص النتائج التي توصل إليها من مناقشاته.

وهذا المنهج متبع بوضوح في «إعجاز القرآن» ويدل ترتيبه، وتناوله للموضوع على امتلاكه ناصية الجدل(8)

ويصطنع في كلامه أسلوب الحوار ليتدرج بالسامع في فهم ما يريد، متابعا ما قد يوجه إلى الرأي من حجج معارضة فيفندها واحدة واحدة في ترتيب ووضوح.

---

(7) أثر القرآن في تطور النقد العربي محمد زغلول سلام ص268

(8) التمهيد للباقلاني ص15

السمة الثانية: المنهج الأسلوبي والمعاني العامة التي تصورها الألفاظ والعبارات، وما فيها من جانب بلاغي، مستفيدا مما كتبه السابقون...

ويمكن تلخيص نظرية الإعجاز عند الباقلاني في خطوات:

1- يبدأ بعرض الفكرة في كتاب التمهيد عرضا بسيطا، فيثبت صحة ما بين أيدينا من نص القرآن، وأنه هو حقا كتاب الله المنزل على نبيه، وأنه آية محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزته الخالدة(9)

2- يثبت عجز العرب عن الإتيان بمثله على الرغم من تحديه لهم مرارا(10)

3- ينتهي من المقدمات السابقة إلى نتيجة عامة هي خلاصة نظريته في الإعجاز التي عرضها في كتبه في صور مختلفة وهي «خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب ونظومهم»(11)

ومما يحتج به على ذلك قوله: «إن قدما يقضيه التقدم والحذق في الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله، ولا يعجز أصل الصناعة، ولا المتقدمون فيها عنه، مع التحدي والتقريع بالعجز والقصور؛ لأن العادة جارية بجمع الدواعي والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم في الصناعة وما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن قد خرج عن حد ما يكتب بالحذق»(12)

ويقول: «إن عجز القوم عن معارضته دليل خروجه على نمط كلامهم»(13)

الباقلاني والقول بالصرفة

لم ير الباقلاني في القول بالصرفة وجها من وجوه الإعجاز، يقول:

«فإن قيل، فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم عن أجناس الفصاحات؟ وهلاّ قلتم أن من قدر على جميع

---

(9) التمهيد للباقلاني ص 114

(10) المصدر نفسه ص119

(11) المصدر نفسه ص 120

(12) المصدر نفسه ص 20

(13) المصدر نفسه ص44

هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق العربية، كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربا من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه، ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة، لأن من قدر نظم كلمتين بديعتين لم يعجز على نظم مثلهما، وإذا قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية، أو السورة .

فالجواب: أنه لو صح ذلك لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن، على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه المتع، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عمّا كان يعدل به عن الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجته.

فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أنّ ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان(14).

«ولو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»(15)

فحقيقة إعجاز القرآن عند الباقلاني، أنه لا يقدر عليه العباد؛ لأنهم لو قدروا عليه لبطل الإعجاز، وقد أجرى الله أن يتعذر فعل ذلك منهم، بينما وجدنا القاضي عبد الجبار في رفضه للصرفه يقول: «إنا نقول إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة، لعلمهم بأنها غير ممكنة، على ما دلنا عليه، ولولا علمهم بذلك لم تكن لتصرف

(14) إعجاز القرآن للباقلاني ص29

(15) المصدر نفسه ص 30

دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعًا لمعرفتهم بأنها متعذرة (16)

دراسات الباقلاني في الإعجاز :

ودراسات الباقلاني في الإعجاز تكاد تنحصر في ثلاث دوائر تكررت كثيرا في كتبه

- وهي الإخبار عن الغيوب.

- وأمية الرسول صلى الله عليه وسلم، والمعلوم من حاله أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ.

- وأن القرآن بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وقد أنفق الباقلاني جهداً في سبيل إظهار الجانب الفني في القرآن؛ فبعد أن تكلم عن جانب تضمن القرآن للإخبار عن الغيوب، وأنه كان معلومًا من حال النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، أخذ يعالج الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وبديع النظم المتضمن لإعجازه ينقسم عند الباقلاني إلى وجوه عشرة، نذكرها كما وردت في كتابه إعجاز القرآن .

أولا: أن القرآن في جملته خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، وترتيبه يختلف عن ترتيبهم، فليس هو شعراً على اختلاف أنواعه ولاموزونا غير مقفى ولا معدلا مسجوعا ولا معدلا موزونا غير مسجوع ولا مرسلا إرسالا، ولا هو من باب السجع ولا فيه شيء منه، وليس كذلك من قبيل الشعر ولا مرتبا ترتيبهم خطابهم، ولا متبعًا أسلوبهم، ولكنه قرآن خارج عن العادة معجز.

ثانيا: أن الشاعر قد يجود في المدح دون الهجاء ، ومنهم من سبق في طوله جعلته ينفرد بهذا ويتميز على قول الحكيم وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، فليس عندهم القدرة على الإتقان بهذه الدرجة ثم القدرة على الإستمرار في هذا الإتقان.

---

(16) إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار ص324

ثالثا: أن من الشعراء من يسبق في التقريظ دون التأبين، أو في الوصف غير النسيب، وكذا الكتاب البلغاء منهم عاجزون في ميدان الشعر، ونرى الخطباء الأبيناء قد لا يتمكنون من نظم بيت من الشعر، وغير ذلك فلكل قدرته، أمّا القرآن فقد تصرف في مختلف الوجوه: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار، ووعيد وتبشير وتخويف بدرجة لا تتفاوت في الدقة، ولا تقل في الإبداع.

رابعا: أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بينا في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد، وغير ذلك ممّا ينقسم إليه الخطاب عند النظم، بينما نجد القرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب.

خامسا: نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس؛ فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ثم يتصور الباقلاني، أن أحدهم يعترض على إدخال الجن في دائرة المحاولة والخطأ، فيورد بعض الأبيات التي تثبت المحاورات التي قامت بين الشعراء والغيلان؟

سادسا: أن الذي ينقسم إليه الخطاب من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه في كلامهم موجود في القرآن.

سابعا: أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ، وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة ممّا يتعذر على البشر ويمتنع.

ثامنا: إن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتشوق إليها النفوس ويرى وجه رونقها باديًا غامراً سائر ما تفرق به كالدرة التي ترى سلك من خرز، وكالياقوت في وسط العقد.

تاسعا: أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا وعدد السور

التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة وجملة وماذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام متنظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

عاشرا: أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصفة المتكلفة، وجعله قريبا إلى الأفهام وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دونه في موقعه، أن يقدر عليه أو يظفر به (17)

وهذه الوجوه البلاغية بالإضافة إلى أنها من الممكن أن يتدرج الفرع منها تحت الأصل، فينكمش عددها ، نجد أنها تخدم فكرة كبيرة واضحة هي: أن نظم القرآن، وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس كما يخرج عن عادة كلام الجن، وذلك هو الوجه المذكور في «خامسا» والذي قد ورد بصور مختلفة في كل وجه من الوجوه العشرة التي عدد فيها الباقلاني الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

وإعجاز القرآن في نظمه وبيانه منصب عنده على القرآن كله كوحدة وجملة لا تفصيلا، كنص كامل له ميزاته وصفاته التي تميزه عن أقوال العرب وفنون كلامهم.

لهذا نراه يعارض فكرة الإعجاز البلاغي الجزئي، بل يدرس الإعجاز البلاغي في إطار النظم وفي إطار الصورة الكلية الكاملة فهو يدرس ضروب البيان والبديع ومجاز القول في إطارها العام ولكنه يرفض القول بفصاحة الألفاظ وحدها: فهو يقول: «وليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها، وليس رصفها أكثر من وجودها متقدمة أو متأخرة، ومترتبة في الوجود، وليس لها نظم سواها، وهو كتتابع الحركات ووجود بعضها قبل بعض ، ووجود بعضها بعد بعض»(18)

وهو بهذا يأخذ بفكرة النظم التي نادى بها الخطابي، وقال: إن ترتيب الألفاظ في

---

(17) إعجاز القرآن للباقلاني ص 35-47

(18) التمهيد للباقلاني ص44

العبارة خاضع لترتيب معانيها في النفس (19)

والباقلاني يرى أن القرآن يختلف في هذا عن سائر الكتب السماوية كالإنجيل والتوراة.

وتمتاز دراسة الباقلاني للإعجاز في كتاب «الإنتصار» بأنها جاءت ضمن دراسته العامة للقرآن في تاريخه وقراءته، ويبدأ الكتاب ببحث كلمة «قرآن» ثم ينتقل إلى أقسام القرآن فيبحث في معنى كلمة سورة، وآية، ويتعرض فيما يتعرض له لمقارنة الناس بين الآية وبيت الشعر، ومقابلتهم القصيدة بالسورة(20)

ويرفض هذه المقابلة، لأنه يرى أن لا صلة بين الآية وبيت الشعر أو بين القصيدة والسورة.

وهذا الرأي جزء من نظريته العامة التي لا يرى فيها ثمة تشابها بين القرآن وسائر كلام العرب، ونظوم كلامهم.

ويتدرج في أبواب الكتاب بابا بابا حتى يصل إلى باب «ذكر مطاعنهم على القرآن»، ويتولى فيه الرد بالتفصيل على الآيات التي طعن فيها من الناحية اللغوية معتمداً فيما أورده على إثبات صحة الأسلوب القرآني بمقابلته بأساليب العرب الصحيحة البليغة في الشعر والنثر.

وتكلم في هذا الباب أيضا عن الحذف والتكرار والزيادة، والمشكل من لغات القرآن...

وفي الحذف مثلا يجمع ما قال الأولون بين منكر ومجيز، ولا تفوته الإشارة إلى حكمة أسلوب القرآن في الحذف والزيادة، والتكرار وغيرها من طرق التعبير(21)

وكاختلاف صيغ المعاني، وخروج الاستفهام إلى القلب، والإنكار، والتوكيد، ثم ينفي التعارض المزعوم في معاني بعض الآيات مبينا الوجه الصحيح في تلك المعاني...(22)

---

(19) إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في البلاغة ص 24

(20) كتاب الإنتصار ص1 - 3

(21) المصدر نفسه ص61-64

(22) المصدر نفسه ص 68 -78

ويتكلم في ابتداء السور، فيناقش ما جاء فيها من الآراء، ويرفض القول بأنها غير مفهومة، وأنها رموز، أو أصوات، وهو رأي لا يتمشى مع الإعجاز البياني، ولا مع وصفه تعالى للقرآن بأنه بلسان عربي مبين(23)

ويفرد الباقلاني مكانا طيبا للكلام عن نظم القرآن المعجز، فيؤكد الإعجاز بنصه الكامل، ويفند آراء من قالوا بإمكان معرفة الإعجاز عن طريق تحليل آيات القرآن على ضوء علوم البلاغة فقط، أو بذكر فصاحة اللفظ وحده .

ويعقد الباقلاني بابا مستقلا في «الدلالة على صحة مفارقة القرآن لكلام العرب» وهو لب نظريته في الإعجاز.

ولكي يصل إلى تحقيق هذه النظرية يبحث في كِلا جانبيها، فيتكلم عن كلام العرب «الفني» أو البيان عامة، ثم عن القرآن، وينتهي إلى الخواص التي في البيان العربي في نظمه وتأليفه، ولا تتمثل في القرآن، ولهذا فإن القرآن خارج عنها.(24) ويعقد بابا في «البيان» (25) يبدؤه بالكلام عن طرقه، ووسائله عن البيان بالقلم واللسان، وأنه أشرف البيان.

ثم يتعرض لتعريفات البلاغة التقليدية بصورة تذكرنا بكلام «الجاحظ» (26)

والرماني(27) والعسكري في الصناعتين(28) وينقض بعضها على مثال ما فعل الرماني.

إذ يرى -مثلا- أنه لا يجوز أن تحد البلاغة بأنها كلام مفيد؛ لأن ذلك يساوي بين باقل وسحبان وائل، ولايجوز أن تحد بأنها تحقيق اللفظ على المعنى لأن ذلك يصح في الطويل من الكلام المستهجن الغث(29)

---

(23) كتاب الإنتصار ص 92

(24) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص272

(25) كتاب الإنتصار ص139

(26) الجاحظ نظم القرآن والحيوان

(27) الرماني في إعجازه

(28) أبو هلال العسكري في الصناعتين

(29) كتاب الإنتصار ص142

ويتناول أبواب البلاغة؛ فيتكلم عن الإيجاز، والإطالة، ويضع شرطا في المقارنة بين فنون التعبير في هذين اللونين، فيرى وجوب وحدة الموضوع حتى يمكن الحكم على أي الأسلوبين: الإطناب أم الإيجاز أوفى بالغرض، وينتهي إلى أن لكل من الأسلوبين فوائده ومناسباته(30)

ويعقد فصلا في فن من تلك الفنون لم نسمع به عند من تعرضنا لهم من قبل وهو:

البراعة:

ويحده بقوله: «فأما وصف الكلام بأنه براعة معناه أنه حذقت طريقته وأجيد نظمه، وقد يوصف بذلك كل مجيد قول أو صناعة، فيجوز أن يوصف القرآن بالبراعة على هذا المعنى، والمراد أنه نظم يخرج عن إمكان كل الناطقين لا على معنى أنه تجويد كلام هو على معنى كلام العرب»(31)

ويعقد الباقلاني مقارنة بين فنون البيان في القرآن، وفي كلام العرب، وينتهي إلى نتيجة يقصدها، وهي أن فنون البيان في القرآن الكريم أبلغ منها في كلام العرب أجمع... فالاستعارة في القرآن أبلغ، والتشبيهات في القرآن أبلغ، والتجانس في القرآن أبلغ...الخ ، ونحن نلاحظ تأثره هنا بما سبق أن قاله الرماني في هذا الموضوع بل إن تعريفه للاستعارة هو عين تعريف الرماني، وكلامه في التجانس لايكاد يخرج عن نص عبارته(32)

وكلامه في المبالغة كذلك لا يخرج عن الأقسام الستة التي عرفناها في كتاب النكت، وكذلك محاولاته في التفضيل بين فنون البلاغة في القرآن وفي كلام العرب هي موضوع كتاب الرماني .

ويأخذ بما جاء في النكت عن التلاؤم والتصريف، والفواصل، ويرى أيضا أن الفواصل في القرآن الكريم أفضل من السجع ثم يذكر قسميها اللذين ذكرهما

---

(30) كتاب الإنتصار ص 155- 160

(31) المصدر نفسه ص 162

(32) المصدر نفسه ص 142، 143

الرماني (أعني الفواصل المتجانسة الحروف، والمتقاربة الحروف(33) ويتعرض لما جاء عن مسيلمة من كلام يقلد به القرآن على مثال ما فعل الخطابي في إعجازه ثم يتكلم عن موسيقى الوزن في نظم القرآن، وهو متابعة لرأيه في الفواصل (34) والمقارنة بينها وبين السجع، فيرى أن لاشبهة بين أوزان القرآن وفواصله وبين أوزان العرب، وأسجاعهم وفواصلهم، ثم يعرض على بساط البحث أوزان الكلام (35) فيقسم الكلام من حيث الوزن إلى أربعة أقسام.

1- النثر وهو«المرسل»

2- مقفى غير موزون

3- موزون غير مقفى، ومنه السجع والخطب

4- والنظم المقفى الموزون وهو الشعر»

ثم يتعرض الباقلاني لنشأة تلك الفنون وتطورها عند العرب. وإذا كان كتاب الباقلاني بعد ذلك «إعجاز القرآن» هو الدراسة الناضجة لآرائه مجتمعة في نظم القرآن، فإن آراءه في «إعجاز القرآن» هي آراؤه في «التمهيد ونكت الإنتصار».

ونظريته في الإعجاز وجهوده فيه التي جاهد طويلا في تعميقها تأتي بينة ناضجة في كتابه «إعجاز القرآن».

فقد كانت الدراسة فيه مرتبة ترتيبا منطقيا علميا؛ حيث بدأ بتلخيص مجمل لنظريته في الإعجاز -كما يراها- ثم تناولها بالشرح والتفصيل أثناء الكتاب، ورد على الاعتراضات، وفند حجج المعارضين والمخالفين في فصول الكتاب...

ثم انتهى في آخر الكتاب - ككل بحث علمي- إلى تلخيص جامع للنتائج التي توصل إليها وقد كانت دراسات الباقلاني -بحق- مثمرة لنظرية تكاد تكون متكاملة المعالم يتضح من خلالها الاستقلالية والرؤية الخاصة ، والنمط المتميز،

---

(33) كتاب الإنتصار ص 143 - 145

(34) إعجاز القرآن للخطابي ص257

(35) كتاب الانتصار ص 148، 149

وهي تتلخص في الوجوه الثلاثة التي سبق ذكرها(36) وتنتهي بالنظم فيقول: «والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص ويتميز في فصوله عن أساليب الكلام المعتاد.(37)

ويرى الباقلاني: أنه ينبغي للإنسان كي يدرك أسرار الإعجاز أن يكون بصيراً باللغة خبيراً بفنون القول متمكنا، نقادة يجيد التمييز بين الأساليب، ولتلك الخبرة أصولها من الإلمام الواسع بالعربية، والشعر مع الموهبة الخاصة الفطنة...

تطبيق منهج الباقلاني على نظم القرآن وأسلوبه

يحلل الباقلاني سورة من القرآن كما حلل قصيدة لا مرئ القيس وأخرى للبحتري..

واهتمام الباقلاني بمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري.ومطلعهما على التوالي :

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبِيب ومَنْزِلِ بِسِقْط اللِّوَى بَيْن الدَخُول فَحَوْمَل

أهلاً بِذلكمُ الخيالِ المُقبلِ فَعَلَ الذي نهواهُ أم لم يَفْعَلِ

لأن الشعر أبلغ ما قال العرب ، إذا صادف شرط الفصاحة، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة»(38)

تحليل سورة النمل

يتناول الباقلاني تحليل سورة النمل تحليلا طريفا -لعله لم يسبق إليه- باعتبار السورة وحدة فنية موضوعية.

فنراه يحللها من ناحية النظم، متعرضا لألفاظها ومعانيها، وتآلف ألفاظها ومعانيها، في نظم رائع، وصلة الفاصلة بالنظم، ويقوم بتقريب معاني السورة، وشرح مواطن الجمال فيها، ويكشف عما قد يخفى على القارئ العادي؛ وبذلك يقوم

---

(36) إعجاز القرآن للباقلاني ص 35 -38

(37) المصدر نفسه ص 138

(38) المصدر نفسه ص 275 ومابعدها

بدور الوسيط وقارئه متمشيا مع السورة من مطلعها، متقلبا مع معانيها، دائرا بين فنون التعبير فيها، ثم يأبى أن يصدر أحكاما، أو أن يلقي بمقاييس جافة، وهياكل لا حياة فيها، ولا رواء.

وقد تناول الباقلاني سورة النمل جملة وقد اعتاد غيره الوقوف عند الآيات المفردة، يفسر غريبها، ويبين ما فيها من جمال اللفظ والمعنى في حدود البديع والبلاغة، ويرسم المنهج قبل بدء رحلته فيقول: «ثم أقصد إلى سورة تامة فقصد في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها، تأمل السورة التي يذكر فيها النمل، وانظر في كلمة كلمة وفصل فصل»(39)

ويأخذ في تحليل السورة من أولها فيقول: «بدأ يذكر السورة إلى أن بيّن أن القرآن من عنده إلى أن قال: «**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**» ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام، وأنه رأى ناراً فقال لأهله: «**إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**»، وقال في سورة طه في هذه القصة: «**لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى**» ثم قال: «**فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**».

فانظر إلى ما أجرى له الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية، ومادل به عليها من قلب الفصحاة، وجعله دليلا يدل عليه، ومعجزة تهديه إليه، وانظر الكلمات المفردة القائمة بنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية، وقرب به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء، ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم، وبديع الرصف، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها وذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذها في معناها، ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع

---

(39) إعجاز القرآن للباقلاني ص 152

التأليف، وبليغ التنزيل»(40).

وبين فضل نظم القرآن على الكلام العادي فيدعو واحدا إلى التقليد فلا يصل إلى شيء، ويقر بالعجز أمام لفظ القرآن ونظمه. ويستطرد في تحليل السورة. فيقول: «متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان -عليه السلام- بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمات الشريفة العالية «**أَلاَّ تَعْلُو عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**» والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير، واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمرا لمستشار، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها «**يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ**» وذكر قولهم «**قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**» لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به، وقوله: «**وَالأَمْرُ إِلَيْكِ**» تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه وموضع إتقانه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة، وملاءمتها لما قبلها، وذلك قوله: «**فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**» ثم إلى هذا الاختصار، وإلى البيان مع الإعجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار، ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه...

ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة من قوله تعالى: «**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**» هذه الكلمات الثلاث، كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره، ثم تأمل تمكن الفاصلة، وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها، وبارع معناها.. وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بينت بما فسرت، وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت والنحو الذي قصدت، والغرض الذي رميت والسمت الذي إليه دعوت، ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه، وهو تناول هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة»(41) وعلى هذا المثال يجري تحليله لسورة «حم غافر»،

---

(40) إعجاز القرآن للباقلاني ص 153

(41) المصدر نفسه ص 109 - 202

ونحس فيه نفس البراعة والروعة في التناول والجدة في التحليل، ومحاولة إبراز المحاسن قبل الحكم، والتدرج من أغراضها، والتنقل من معنى إلى معنى، ومن فصل إلى فصل، مع بيان دقة الربط بين الشكل والمضمون أو بين المعاني والألفاظ...

ثم نراه: يجهد نفسه لكشف ما يربط بين مايبدو منفصلا في ظاهره من الآيات عن سمت السورة، ولا يزال يكشف عن أسرار نظم القرآن حتى تحس وكأنك أشربت السورة ومحاسنها في قلبك...

ونخرج من تحليل السورة بنتيجتين: أولاهما أنه لا يصح الاعتماد على مجرد النظرة الفردية في آية آية أو كلمة كلمة دون معرفة الموقع لتلك الآيات والكلمات في السورة وفي المعنى العام الذي يسلكها.

وثانيهما رسم منهج رائع في النقد البلاغي يعتمد على التحليل الفني في فهم النصوص مع تطبيق ما سبق أن ساقه الباقلاني من آراء في نقد البيان.(42) ويعتمد ذلك المنهج في تحليل السورتين على المرتكزات العشرة الآتية:

1- تماسك السورة في المعنى والموضوع وفي اللفظ والنظم...

2- سهولة الانتقال من معنى إلى معنى، ومن قصة إلى أخرى وروعة الخروج مع دقة الفصل والوصل.

3- تساوي السور على اختلاف موضوعاتها في النظم والروعة الفنية.. ولكنه مع ذلك يعترف بتفاوت بعضها عن بعض في ظهور الإعجاز ووضوحه؛ يقول: «وإن كنا نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعض أدق»(43)

4- الدقة في التعبير عن المعاني والملاءمة بينها وبين فنون القول أو فنون التعبير الأخرى كالاستعارة والتشبيه والإيجاز وغيرها.

5- التآلف بين الألفاظ وانسجامها بحيث لا تحس نشوزا ولا إخلالاً، وأنه إذا تغير وضع لفظ منها بالتقديم أو التأخير، أو بتغييره بآخر، لم يتم التوافق، وظهر

---

(42) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص292 -294

(43) إعجاز القرآن للباقلاني ص202

النقص والتغيير واضحين ، وهذا راجع كله إلى النظم.

6- دقة الاختيار للألفاظ المعبرة في مواضعها بحيث تحمل «شحنة» كاملة من المعاني تنطلق بمجرد نطقها، وتكون هذه الخاصية أوفى بالغرض دون غيرها من الألفاظ ومثال ذلك كلمة «ليأخذوه» في قوله تعالى: «**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ**»(44)

7- جلال الربوبية وتجليها في بيان القرآن في لفظ رائع، وعبارات رصينة، تحس إزاءها بالهيبة مثل ما في قوله تعالى «**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ، لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**»(45)

يقول الباقلاني: قف على هذه الدلالة وفكر فيها وراجع نفسك في مرعاة معاني هذه الصفة العالية والكلمات السامية، والحكم البالغة، والمعاني الشريفة، تعلم ورودها عن الأولوهية، ودلالتها على الربوبية .

8- التصرف في القول في المناسبة الواحدة مع التساوي في الروعة وفي التعبير في كل كما جاء بقصة موسى بألفاظ متغيرة، ومتساوية في سور كثيرة.

9- التصرف في الموضوعات العقلية كالتشريع والأحكام والحجاج وأصول العقيدة بأسلوب سهل ونظم بديع، مع اختراع بعض الألفاظ، وورودها لأول مرة فيه.

10- وقوع الفاصلة دائما في موقعها المناسب، وتمكنها منه فتتم المعنى وتكسبه روعة(46)

هذه الأصول العشرة تؤكد لنا أن الباقلاني يسلك في إثبات إعجاز القرآن أحد طريقين:

1- أن يختار من الآيات المتفرقة في السور شواهده على القضية

---

(44) غافر 5

(45) غافر 14-16

(46)إعجاز القرآن للباقلاني ص 202

2- أن يختار سورا متكاملة

وفي كلا الحالين ، فإنه يأخذ نفسه ببيان علو موقع ذلك، وسمو بلاغته ونظمه.

وهو بذكره سوراً متكاملة يفتح بابا جديداً في تناول إعجاز القرآن البلاغي والفني.

وكنا نود لو أن الدارسين من النقاد والبلاغيين اتبعوه فيها فنظروا في القرآن سورة سورة، ولكن أكثرهم على النظر فيه آية آية، وحين يقارنون بينه وبين كلام العرب فإنهم يقيمون الموازنة، ويديرونها على آية وجملة من كلامهم، أو على آية وبيت من الشعر.(47) لقد اختار الباقلاني قوله تعالى: «**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَاكُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»

ثم يعقب عليها فيقول: «انظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع..

ثم يقول : «قوله: «**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**» يدل على صدوره عن الربوبية، وبيّن عن وروده عن ألوهية، وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها، كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه، وكان واسطة عقده، وغرة شهره، وعين دهره»

وكذلك قوله: «**وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**» فجعله روحًا لأنه يحي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجسام، وجعله نوراً لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق، ثم أضاف وقوع الهداية إلى مشيئته، ووقف وقوع الاسترشاد على إرادته، وبين أنه لم يكن ليهتدي إليه لولا توفيقه ولم يكن يعلم ما في الكتاب لو لا تعلمه، وأنه لم يكن ليهتدي، فكيف كان يهدي لولاه، فقد صار يهدي، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدي، فقال: «**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**» يقول الباقلاني: «فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث، فالكلمتان

(47) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن عبد الرؤوف مخلوف ص 433

الأولى -وَإِنَّكَ لَتَهْدِي... صِرَاطِ اللَّهِ- مؤتلفتان، وقوله «أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ» كلمة منفصلة مباينة للأولى قد صيرها شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤتلف، وألطف انتظاما من الحديث الملائم»(48)

إن الذي يدقق النظر في تعليق الباقلاني على الآية يلمح فيه بذور البلاغة المقننة التي انقسمت على أيدي المتأخرين إلى معان وبيان وبديع . إنه يتحدث عن قوله تعالى: «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا، وَجَعَلْنَاهُ نُوراً» لأنه يحيي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد ولأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق»(49)

وهذا الحديث من حديث التشبيه والاستعارة ووجه الشبه... عند الاصطلاحيين

وكذلك يتحدث عن قوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ ... إلى قوله: أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ» فيذكر الائتلاف بين الكلمتين الأولين والانفصال، والمباينة في الثالثة، ثم يذكر أن قد صيرهما شريف النظم « أشد ائتلافا من الكلام المؤالف»... وهذا بعينه ما عقد له علماء المعاني باب الفصل والوصل، وما يتبع ذلك من كمال الاتصال وكمال الانفصال وشبيههما.

وعلى هذا النسق من سوق الآيات : «فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا» ، «وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

فإنه يعقب عليهما بما يمكن أن نجد فيه إشارات للخصائص البلاغية التي عرفت بعده ، وذلك على إجمال وتعميم (50)

تعادل البلاغة والنظم

وهذه فكرة يوليها الباقلاني عناية، وهي فكرة تعادل نظم القرآن في إعجازه في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة؛ وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك...

ويعرض الباقلاني كمًا هائلا من الأمثلة من آيات القرآن ليبين فيها الإعجاز

---

(48) إعجاز القرآن للباقلاني ص 284

(49) المصدر نفسه ص 284

(50) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن عبد الرؤوف مخلوف ص435

بالنظم والبلاغة، من حيث الانتقال من غرض إلى غرض، ومن موضوع إلى موضوع، ومن حيث الخلوص من شيء إلى شيء، فمن احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تختلف بشريف النظم ومتباعدة بعليّ الضّم»(51).

حتى يصل إلى قوله تعالى : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » (52)

ويبدأ الباقلاني في التحليل بعد شدة إعجابه بالآية الكريمة وخاصة «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » ، ويذكر أن أية كلمة مهما كانت لا تحل محل «لِيَأْخُذُوهُ» فيقول: « وهل تقع في الحسن موقع قوله « لِيَأْخُذُوهُ » كلمة ؟ وهل تقوم مقامها في الجزالة لفظة ، وهل يسد مسدها في الأصالة نكتة » (53)

ثم يقدم الكلمات التي قد يتبادر إلى الذهن أنها قد تحل محل « لِيَأْخُذُوهُ » فيقول: « لو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجفوه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو ليذلوه ونحو هذا ما كان ذلك بديعا ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا » (54)

وقد أصاب الباقلاني فعلا ، لأنه لا يمكن أبدا أن نستبدل كلمة بكلمة أخرى في القرآن الكريم . فكلمة « لِيَأْخُذُوهُ » لا يمكن لكلمة أخرى أن تسد مسدها .يقول الزمخشري في تفسيرها : « معناها ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل » (55)

وبالفعل ندرك ما تتضمنه الكلمة مما عسى أن يخطر على بال المشركين في أمر

---

(51) المرجع نفسه ص 440

(52) غافر 5 - 6

(53) إعجاز القرآن للباقلاني ص 300

(54) المصدر نفسه

(55) الكشاف جـ 2 ص 309

الرسول صلى الله عليه وسلم وكيفية الخلاص منه «مما لا تؤديه واحدة مما ذكر»(65)

ومن عجيب تعادل البلاغة والنظم في القرآن كله ما أشار إليه الباقلاني بقوله : «ولست أقول لك هذا في آية دون آية ، وسورة دون سورة ، وفصل دون فصل ومعنى دون معنى ، لأني شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والأخبار وفي الشرائع والأحكام وفي الديانة والتوحيد ، وفي الحجج والتشبيت هو خلاف الكلام في ما عداه من الأمور ... ونذكر في الأحكاميات آيات أخر » (57)

وبعد هذا يورد قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»(58)

يقول معلقا على هذه الآية : « إن في الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع الغريب ما يدلك إن شئت على الإعجاز ، مع هذا الاختيار والإيجاز فكيف إذا بلغ ذلك آيات أو كانت سورة » (59)

ويمضي الباقلاني في تحليل مجموعة من آيات الأحكام والآيات المتعلقة بالعقيدة ليبرهن على فكرته الأساسية وهي تعادل البلاغة والنظم . وبذلك يستبعد فكرة التفاوت الفني في القرآن الكريم .

وبهذا التحليل يساهم مساهمة فعالة في تأصيل الدرس البلاغي خاصة عند حديثه عن البديع في قوله : « لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع ، الذي ادعوه في الشعر وذلك لأن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف »(60)

---

(56) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ص 441

(57) إعجاز القرآن للباقلاني ص 305

(58) المائدة 4

(59) إعجاز القرآن للباقلاني ص 306

(60) المصدر نفسه ص 168

ولعله من الواضح أن الباقلاني يستعمل مصطلح البديع ويعني به البلاغة بصفة عامة. وندرك هذا من خلال الآيات القرآنية التي يحللها ويبين ما فيها من روعة البديع مثل التشبيه والاستعارة والكناية والحذف والالتفات والمطابقة ...

بقي أن نشير في الأخير إلى أن الباقلاني بكتابه إعجاز القرآن قد ساهم في بناء صرح البلاغة العربية ، ولا تنقس من قيمته الملاحظات التي أبديناها خاصة من ناحية الخلط في المصطلح . ومع هذا فقد أصبح كتابه من أهم المراجع البلاغية بالإضافة إلى أنه أهم المراجع الكلامية . فكان الكتاب بذلك نموذجا لاختلاط العلوم الأدبية ، نقد وبلاغة وأدب بالعلوم القرآنية وبعلم الكلام . (61)

كما أنه نموذج لتمرس علماء الكلام بالفنون البلاغية والأدبية ورهافة حاستهم الأدبية ودربة ذوقهم الفني (62)

وبهذا يكون الباقلاني قد ساهم مع غيره من دارسي القرآن الكريم في تأصيل الدرس البلاغي الذي خرج من التحسس الانطباعي إلى التذوق الرفيع المؤسس على نظريات واضحة ، تؤيد مذهب أهل السنة والجماعة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم .

(61) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : أحمد جمال العمري ص 227

(62) البلاغة العربية : علي عشري ص 62

الخلاصة :

والخلاصة التي يمكن أن نصل إليها هو أن المتكلمين بصفة عامة وخاصة المعتزلة قد ساهموا مساهمة كبيرة في تأصيل الدرس البلاغي . وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى أن الجدل الذي كان قائما بينهم وبين أعداء الإسلام يتطلب منهم الافتنان في أساليب القول ، ويتطلب منهم امتلاك قدرة بلاغية عالية تمكنهم من إبطال وردّ كل الشبهات التي أوردها المتشككون والطاعنون في القرآن الكريم . خاصة فيما يتعلق بإعجازه البياني ، وكذلك في الآيات المتشابهات التي قد يوهم ظاهرها أن فيها تناقضا .

ومن ثم كان دور أصحاب الدراسات القرآنية عامة والإعجاز البياني خاصة فعالا في بناء صرح علوم البلاغة عاليا . فوجد المتأخرون السبيل ممهدا أمامهم فكان عملهم عبارة عن جمع وتنسيق وترتيب لفصولها المبثوثة في ثنايا كتب المتقدمين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد كان هذا البحث شيقا وشاقا في الوقت نفسه . حاولت قدر المستطاع أن أبين إسهامات المفسرين في تأصيل الدرس البلاغي . ذلك أن منطلق علم البلاغة الأساسي هو فهم وتذوق آيات الله البينات ، باعتبار أن المعجزة البيانية في القرآن الكريم هي محور المعجزات .

وقد اتضح لنا من خلال معايشتنا لمراحل هذا البحث ، أن المفسرين وأصحاب الدراسات القرآنية هم أول من تعامل مع القرآن الكريم ، فقد تناولوا آيات كريمات وأبرزوا ما فيها من جمال فني وروعة بيانية فريدة من نوعها لا تدانيها أية بلاغة في الوجود . فقد مهدوا الطريق أمام الطوائف المتعددة من نحاة وأصوليين وأدباء ونقاد وبلاغيين ، هؤلاء الذين استشهدوا في قواعدهم بأمثلة من القرآن الكريم كان المفسرون قد سبقوهم إليها وبينوا ما فيها من روعة فنية مرتكزين في ذلك على معرفة عميقة ودقيقة بألفاظ اللغة العربية وإدراك سليم لطرائق العرب في التعبير والتركيب والمعاني .

ولعل أهم ما يمكن أن نستخلصه من موضوع الدرس البلاغي عند المفسرين في القرون الأربعة الأولى ما يلي :

1 - إن الدرس البلاغي حاضر حيثما وجد النص الأدبي .

2 - إن أول مفسر للقرآن الكريم هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد وردت على لسانه كثير من الإشارات البلاغية خاصة ما يتعلق بالمجاز والكناية . وقد تبعه على هذا المنهج في التفسير الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

3 - لقد بدأت المرحلة التمهيدية في التفسير على يد الصحابي الجليل عبد الله ابن عباس الذي كانت له رؤية بلاغية متميزة ومتقدمة كثيرا على عصره . فقد رأيناه في كثير من المواضع عند تفسيره لبعض الآيات الكريمات يشير صراحة إلى معنى المجاز والكناية والاستعارة لكن دون أن يستعمل المصطلح البلاغي .

4 - لقد كانت المرحلة الأولى في التفسير المدوّن تجمع أبا عبيدة والفراء وابن قتيبة والجاحظ ومن عاصرهم . وقد اتسمت المباحث البلاغية عند هؤلاء الرواد بمجموعة من الخصائص يمكن أن نسميها (غياب المنهج الواضح في التصنيف) على غرار بقية العلوم الأخرى في تلك الفترة المتقدمة من الزمن . ويمكن أن نجمل السمات التي تمثل افتقار المؤلفات البلاغية عندهم في أربعة نقاط هي :

أ - عدم التبويب العلمي .

ب - اضطراب مدلولات المصطلحات

ج - اختلاط القضايا البلاغية بالعلوم الأخرى

الخاتمـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

د - عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة عن بعضها

5 - أما المرحلة الثانية في التفسير فهي مرحلة النضج وتبدأ على يد المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة الذين حملوا لواء الدفاع عن القرآن الكريم ضد خصومهم من المتشككين والطاعنين في أسلوب القرآن الكريم . وقد أداروا جدلا كبيرا حول قضايا بلاغية وأسلوبية كبرى أثرت في البحث البلاغي تأثيرا كبيرا وفتحت أمام الدارسين من بعدهم مجالات واسعة في البلاغة القرآنية .

6 - لقد كان الإمام الطبري علما شاهقا من أعلام القرون الأربعة الأولى . فقد كان تفسيره جامع البيان المحطة الرئيسية في بحثنا ، فهو موسوعة علمية وخظم زاخر بالعلم والمعرفة أمد اللاحقين بفيض غزير من المعارف اللغوية والنحوية والبلاغية . فقد كان حجة في التفسير وفي العلوم الأخرى من قراءات وفقه وتاريخ وحديث وعلوم القرآن . وقد عرفنا له آراء صريحة وواضحة في مسائل لغوية عديدة كان الخلاف قائما على أشده حولها ، فعلى الرغم من مذهبه الكوفي فإنه لم يتعصب له بل كان كثيرا ما يرجح آراء المذهب البصري عندما يدرك حجية براهينه.

وبهذا ساهم في تلطيف جو الصراع الحاد بين المذهبين وسبيله في هذا الحجة المقنعة وصحة المنقول .

ومن خلال تتبعنا لتفسير الطبري رأيت من الضروري أن أشير في الأخير إلى مواضيع عديدة بإمكان الباحثين تناولها بالدراسة العلمية الأكاديمية وهي لعمري في حاجة ماسة إلى دراسة وافية لاستخراج الكنوز من تراثنا الزاخر .

ونذكر منها على الخصوص :

أ - دراسة الشاهد الشعري عند الطبري

ب - دراسة قضايا نحوية وصرفية

ج - دراسة مظاهر الخلاف بين المذهب الكوفي والمذهب البصري وموقف الطبري منه .

د - دراسة الآراء النقدية حول الشعر

هـ - دراسة الآراء الفقهية وترجيحات الطبري

و - دراسة القراءات القرآنية

ز - دراسة الحديث النبوي الشريف

ح - دراسة أسباب النزول

ط - دراسة أصول العقيدة الإسلامية .

CONCLUSION

La recherche sur l'étude rhétorique chez les éxégetes, jusqu'à la fin du quatrième siècle de l'hégire a été passionnante et extrêmement difficile en même temps; j'ai essayé dans la mesure du possible d'exposer les contributions des éxégétes à fonder l'étude rhétorique.

Vu que le debut primordial de la Rhétorique est la compréhension et l'appréciation des versets explicites du Quran; considérant que le miracle Rhétorique dans le saint Quran est l'axe des miracles.

Et il nous a apparu, à travers les différentes parties de cette recherche, que les éxégetes et les chercheurs en études coraniques sont les premiers à avoir traîter du saint Quran.

Ils ont pris les versets saints du Quran et ont en fait ressortir ce qu'ils avaient de beauté artistique et d'expressions rhétoriques en son genre. Ils ont de ce fait ouvert la voie au devant d'autres composantes de grammairiens, fondamentalistes et rhétoriciens. Ces derniers se sont appuyés dans leurs règles rhétoriques d'exemples du saint Quran. D'ailleurs les éxégetes les ont en devancé et ont éxposé ce qu'ils contenaient de beauté artistique tout en s'appuyant sur la connaissance approfondie des expressions de la langue arabe et sur la parfaite maîtrise des modes d'expressions des arabes.

Sur ce, nous pouvons ressortir de notre thème " L'étude rhétorique chez les éxégetes pendant les quatre siècles premiers de l'hégire " ce qui suit :

1) L'omniprésence de l'étude rhétorique, là ou existe le texte litteraire.

2) Le premier éxégete du saint Quran est le prophète Mohamed (صلى الله عليه وسلم) ; il a été le précurseur de beaucoup de signes rhétoriques; relevant notamment de la métaphore et du figuré. ses prédécesseures Sahaba (Que la bénidiction de Dieu soit sur eux) l'ont suivi sur cette voie.

3) La premiere étape de l'éxégese a été initié par Abdullah Ibn Abbas qui avait une vision rhétorique exeptionnelle anticipant ses contemporains; il citait expressement l'idée de métaphore sans qu'il eut employé d'expression .

4) La deuxième partie de l'éxegèse englobait Abou Ubaida, El Farae, Ibn Quteiba et leurs contemporains.

Les exposés rhétoriques ont été empreints d'une multitude de particularités; que l'ont pourait qualifier d'absence de méthodologie claire dans l'ordonnancement, à l'instar des autres sciences et l'ont pourrait regrouper les qualités ayant trait à l'apauvrissement des recueils rhétoriques en quatre points suivants :

A) Absence de partition scientifique.

B) Désequilibre de la signification des expressions

C) Interdependance des thèmes rhétoriques avec les autres sciences.

D) Absence de discernement entre les trois sciences rhétoriques elles mêmes.

5) La troisième étape de l'éxégèse a été celle de la maturation, elle débute par le biais de philosophes Mu'tazila et Acha'ira qui ont pris la bannière de defendre le saint Quran; ils ont soulevé une grande polemique sur des thèmes multiples soulevés dans la recherche rhétorique, et ils ont ainsi ouvert, au devant des chercheurs des perspectives très larges dans la rhétorique coranique.

6) L'Imam Al Tabari a été au SUMMUM des sciences dans les quatre premiers sciècles de l'hegire ; son éxégèse "jami'ul-bayane" a été le centre principal de notre recherche; c'est une encyclopédie scientifique débordant de connaissances.

Il a laissé à ses successeurs un flot considérable de connaissances en littérature, grammaire et rhétorique; il a été une lumière et une preuve dans l'éxégèse et dans bien d'autres sciences à travers ce qu'on a vu des lectures,du Hadith, du Fik'h et d'autres sciences du Quran .

Nous avons connu en lui des opinions correctes et claires dans de multiples cas litteraires qui soulevaient une extrême controverse.

Et malgré sa doctrine "Koufi" il n'en tenait pas à celle ci , mais optait très souvent aux opinions de la doctrine "Basri" .

Ceci a contribuer à adoucir le climat de lutte extrême qui y règnait en ces temps.

Et suite à notre étude de l'éxégèse de "Tabari" j'ai vu qu'il est nécéssaire de souligner beaucoup de thèmes à traiter par les chercheurs, du fait qu'ils nécéssitent un besoin pressant à une étude scientifique globale.

Ces thèmes sont particulièrement :

A) L'étude de l'exemple poétique chez 'Tabari'

B) Etude des lectures

C) Etude des thèmes grammaticaux

D) Etude des opinions critiques de la poésie

E) Etude des opinions du Fik'h

F) Etude du Hadith

G) Etude des causes de la révélation du Quran .

فهرس الآيات الكريمة

1- الفاتحة

- «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ...»4-5 ص 287

2- البقرة

- «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»1-2 ص 281 ، ص 301 .
- «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»6 ص 74.
- «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» 7 ص 46 ، ص 241 .
- «في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا» 10 ص 82 ، ص 238 .
- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ» 13 ص 289 .
- «أُولَئِكَ الذينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»16 ص 227 ، ص 62 ، ص 135 ، ص 227 .
- «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ» 17 ص 135 ، ص 270 .
- «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ»18 ص 281 .
- «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» 19 ص 48 ، ص 135 ، ص 169، ص 224، ص 270، 327 .
- «يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» 21 ص 188 .
-«وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ» 25 ص 35 ، ص 47 .
- «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ » 26 ص 328 .
- «الذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ»27 ص 242 .
- «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ» 28 ص 57 ، ص 212 .
- «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» 30 ص 75 ، ص 214 ، ص 275 ، ص 329 ، ص 330 .

الفهارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ »36 ص 228.
- «وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً»41 ص 341 .
- «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ» 44 ص 216 .
- «وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ» 48 ص 189 .
- «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ... وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ»61 ص 84 ، ص 341
- «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» 65 ص 207 .
- «قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»67 ص 297 .
- «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا» 68 ص 212 .
- «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ....» 74 ص 262 .
- « أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ» 75 ص 58 .
- «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ» 78 ص 190، ص 296 .
- «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» 85 ص 295 .
- «وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ» 87 ص 242 .
- «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» 93 ص 90 .
- «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» 95 ص 230 .
- «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ» 98 ص 299 .
- «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» 115 ص 119، ص 153، ص 190 .
- «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» 133 ص 217 .
- «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» 138 ص 105 .
- «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً» 171 ص 80، ص 112، ص 250، ص 265 .
- «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» 174 ص 232 .
- «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» 179 ص 286 .
- «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ»184 ص 126 .
- «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ،

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» 185 ص 126، ص 203، ص 223 .
-«وكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » 187 ص 240 .

- «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا» 189 ص 302 .

- «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» 194 ص 306 .

- «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» 195 ص 277 .

- « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُه فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » 204 ص 25 .
- «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ» 205 ص 47 .
- «وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» 208 ص 68 .
- «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» 223 ص 103 .
- «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى» 238 ص 118 .
- «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا »246 ص 275-276 .
- «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » 250 ص 78 .
- «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » 255 ص 301 .
- «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» 256 ص 82 .
- «فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ» 259 ص 294 .
- «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ » 266 ص 43.
- «لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » 273 ص 341 .
- «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» 275 ص 266 .
- « رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» 286 ص 220 .

3- آل عمران

- «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا »7 ص 68، ص 299 .

- «رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » 8 ص 220 .

- «إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» 10-11 ص 267 .

- «وَقُلْ لِلذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا» 20 ص 58 .

- «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»21 ص 68، ص 126 .

- «تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» 27 ص 83 .

- «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ، وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»51 ص 125 .

- «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» 54 ص 91 .

- «وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالذِي أُنْزِلَ عَلَى الذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»72 ص 83 .

- «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا »100 ص 195.

- «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»101 ص 104.

- «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا » 103 ص 194، ص 243 .

- «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»106 ص 286، ص 308 .

- «وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ» 110-111 ص 302 .

- «يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ»113 ص 65 .

- «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» 118 ص 233 .

- « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ»143 ص 233

- « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ» 144 ص 288 .

- «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ» 153 ص 68 .

- «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ انْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ» 159 ص 278.

- «الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ»183 ص 363 .

- «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ»199 ص 190.

4- النساء

- « إِنَّ الذينَ يَأكُلونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأكُلونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا »10 ص 329، ص 361، ص 362 .
- « وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ من نِّسَائكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ »15 ص 36 .
- «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»19 ص 36 .
- «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا »21 ص 215 .
- «وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً» 22 ص 326 .
- «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ»23 ص 233 .
- «لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ »29 ص 36 .
- «وَإِنْ كُنْتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا »43 ص 73، ص 87، ص 247 .
- « وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً»49 ص 103 .
- وَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ...»57 ص 317 .
- «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا»63 ص 1 .
- «أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا» 82 ص 393 .
- «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا »157 ص 202 .
- «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» 164 ص 144 .
- «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ» 176 ص 319 .

5- المائدة

- «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ»3 ص 288 .
- « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»4 ص 360، ص 288 .
- « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ» 6 ص 169 .
- «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ» 6 ص 123 .
- «أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ» 6 ص 88 .

- «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» 18 ص 205 .
- «اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» 24 ص 208 .
- «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» 35 ص 40 .
- «فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» 38 ص 35، ص 169 .
- «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ...» 42 ص 361 .
- «شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» 48 ص 40 .
- «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »73 ص 288، ص 289 .
- «مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ» 75 ص 123 .
- «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» 116 ص 76 .
- «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»89 ص 233 .
- «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»91 ص 58 .
- «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ»105 ص 318 .
- «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» 112 ص 212، ص 224 .
- «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ... مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» 116 - 117 ص 291 .
- «رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا، وَآيَةً مِنْكَ»114 ص 192 .

6- الأنعام

- «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» 2 - 3 ص 291
- «وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً » 6 ص 77
- « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » 19 - 316
- «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ» 32 ص 288
- «قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» 40 ص 217

- «الذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئِكَ لهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» 82 ص 33 ، ص 190 ، ص 191

- «ولَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ، وتَرَكْتُم مَّاخَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الذينَ زَعَمْتُمْ أنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُم مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ...» 94 ص 280

- «إذَا أثْمَرَ وَيَنْعِه» 99 ص 40

- «وَلاَ تَأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإنَّهُ لَفِسْقٌ» 121 ص 298 - «أوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأحْيَيْنَاهُ» 122 ص 105

- «قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» 125 ص 220 .

- «وَهُوَ الذي أنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أكُلُهُ، والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أثْمَرَ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» 141 ص 136 .

- «قُل لاَّ أجِدُ فِيمَا أوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أنْ يَكُونَ مَيْتَةً أوْ دَمًا مَسْفُوحًا أوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإنَّهُ رِجْسٌ أوْ فِسْقًا أهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ، فَإنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» 145 ص 288

-«قُلْ تَعَالَوا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...» 151- ص278

7 - الأعراف

-«وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأسُنَا بَيَاتًا أوْ هُمْ قَائِلُونَ» 4 ص218 ،ص 230 .

- «قَالَ مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ، قَالَ أنَا خَيْرٌ مِنْهُ»12 ص 278.

- «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» 32 ص 115 .

- «قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَأنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» 33 ص 185 .

- «والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا، أولَئِكَ أصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» 42 ص 301 .

- «فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ، كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا..» 50 ص 92 .

- «ولَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أخَذَ الألْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» 154 ص 104 ، ص 243 .

- « ولَمَّا سُقِطَ فِي أيْدِيهِمْ وَرَأوْا أنَّهُمْ قَد ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » 149 ص 330 .

- «...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأغْلاَلَ التِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»157 ص 104.

- «وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ»161 ص 36

- «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» 175 - 176 ص 269 ، ص 365 .

- «قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» 188 ص 290 .

8 - الأنفال

- «وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» 25 ص 84 .

- «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» 26 ص 301 ، ص 302

- «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ...أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » 32 ص 81 ، ص 295

9 - التوبة

-«وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» 9 ص 125

- «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» 58-60 ص292

-«وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» 67 ص78

-«مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»92 ص291

-« وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»99-100 ص198

-«أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» 109 ص199

- «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ، الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» 111-112 ص137

-«أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ»122 ص68،69

10- يونس

-«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ»21-ص92

-«حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا.... » 22 ص121

-«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»34 - ص247

- «إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ»50 ص59

- «.... وَالنَّهَارَ مُبْصِراً» 67 ص79

- «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً»93 ص126

11 - هود

-«الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ....»1 ص 280

- «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ »17 ص193

- «هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً» 24 ص62

-« قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» 28 ص200

- «لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ» 42 ص62

- « قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ»43 ص 201

- «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» 79-80 ص285

-«قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ...»87 ص109، ص244

-«قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» 93 -301

12- يوسف

- «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» 2 ص46
- «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»4 ص 71، ص87
-«مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ» 31 ص266
-«ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» 35 ص280
- «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا»82 ص55، ص79، ص122، ص229
-«تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ» 85 ص115
- «قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ» 86 ص308
- «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»96 ص 275

13 - الرعد

-«لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...»11 ص124
- «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»13 ص48
- «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ»14 ص 265، ص270
- «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا»31 ص 41 ، ص114، ص285

14- إبراهيم

- «...فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ» 9 ص85
- «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ»6 ص 296-298
- «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيـــدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»10-11 ص290
- «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا

كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ... »18 ص63، ص263

- «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»24- 25 ص4، ص270

-«أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ.. »28 ص222

15- الحجر

- «إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» 52 ص223

16-النحل

- «لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ» 5 ص66، ص78
- «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا» 18 ص 206
- «فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ»26 ص85 ، ص 341
-«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» 44 ص 318 ص 34-33
- «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »44 ص33، ص35
-أَفَأَمِنَ الذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»45-47 ص37 .
- «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ..فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» 112 ص104، ص110.

17 - الإسراء

- «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»17 ص88
- «فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا» 23 ص106،107.
-«وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا... »29 ص86، ص205، ص245، ص308
-«وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ» 33 ص220.

-«نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً»47 ص289.

-« وقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا ورُفَاتًا ، أَإِنَّا لَمَبْعُوثُون خَلْقًا جَدِيداً ، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُم، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ »49-51 ص25.

-«قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ، وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا »50 ص282.

- « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً»52 ص291.

- «ونُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً » 60 ص289.

-«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ» 78 ص66.

-«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً » 82 ص 289.

18 - الكهف

- «وكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» 21 ص104.

- «واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » 45 ص369.

-«فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا »42 ص89.

- « فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا »77 ص329.

-«أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا، وكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » 79 ص285.

19 - مريم

- «رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا » 4 ص243.

- «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ»23 ص41

-«وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا »25 ص277.

-«وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًا »50 ص66.

20- طه

-«وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ» 17-18 ص279.

- «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي» 28 ص352.

- «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» 39 ص153.

-«قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ....» 71 ص124.

- «له خوار» 88 ص42.

-«لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ...» 71 ص86.

-«فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» 106 ص 41.

-«إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى»118-119 ص42، ص309.

-«وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى»125 ص69.

21- الأنبياء

- « لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ » 17 ص 284 .

- «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» 18 ص 243

- «أَوَلَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » 30 ص 43 .

- «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ» 65 ص 87 .

- «وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا» 75 ص 168 .

- «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ» 95 ص 278 .

22 - الحج

- «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ»3 ص 302 .

- «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» 31 ص 266 .

- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً» 63 ص 59 .

23 - المؤمنون

- «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» 20 ص 47 .

- «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ...» 36 ص 278 .

- «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» 117 - ص 341 .

24 - النور

- « وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ »2 ص 48 .

- «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» 19 - 20 ص 285 - 286 .

- «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الـــزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» 36 ص 270

- «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»38 - 39 ص 263 - 268

- «مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ» 43 ص 70

- « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ، يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ» 44 ص 41 - 305 .

- «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» 45 ص 357 - 358 .

25 - الفرقان

- «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » 23 ص 86 - 104 - 171 .

- « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً » 27 ص 331 .

- «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» 31 ص 144

- «وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» 32 ص 117 .

- «وَهُوَ الذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَ كَثِيراً» 49 ص 286 - 287 .

- «تَبَارَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا» 61 ص 188 .

- «وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» 74 ص 112 .

26 - الشعراء

- «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ....»23 ص 212 .

- «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ» 24- 25 ص 297 .

- «فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» 64 ص 66 .

- «وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ» 84 ص 105

- « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » 195 ص 42 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

27-النمل

- «وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ» 10 ص266.

- « يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ» 18 ص71،ص88.

-«وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ» 23 ص110.

-« قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ، فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» 27-28 ص286.

-«قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الذِي تَسْتَعْجِلُونَ....» 72 ص277.

-«وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ، وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» 87 -88 ص257،258.

- «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» 89-90 ص48.

28 - القصص

-«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»3 ص222

-« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ» 23 ص284

-«مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ» 76 ص112

-«كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ» 88 ص119

29- العنكبوت

-«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» 61 ص282

- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا» 161 ص307

30 - الروم

- «فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ» 17 ص67.

-«وَهُوَ الذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» 7 ص195

31- لقمان

-«إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » 13 ص191.

- «يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ»17-19 ص302.

-«وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ» 27 ص156.

32- السجدة

-«الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» 1-3 ص217.

33- الأحزاب

-«فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ» 19 ص26.

34- سبأ

-«يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ» 13 ص196. ص258.

-«بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» 33 ص53، ص63.

35 - فاطر

- «أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ» 9 ص 86 .

- «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» 13 ص 304 .

- «مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» 13 ص 89

- « وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» 19 - 22 ص 69 - 304 - 290 .

36 - يس

- «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» 39 ص 256 .

- «لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» 40 ص 72 - 88

- «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ» 55 ص 358 - 364 .

- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» 45 - 46 ص 286

- «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ» 65 - 301

- «الذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ»80 ص 372 .

37 - الصافات

- «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ» 11 ص 197 .

- «وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» 48 - ص 260

- «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ...» 62 - 65 ص 251 - 259 - 266 .

-«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى...» 102 ص 200 .

- «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ...» 103 - 105 ص 286 .

- «أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ» 153 ص 59 .

38 - ص

- «ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ» 17 ص 67 .

- «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي»45 ص 206.

39 - الزمر

- «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي» 4 ص 283.

- «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَّبِّهِ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» 22 ص 282

- «يَاحَسْرَتَا عَلَى مَافَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» 56 ص 152 .

- «وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» 67 ص 153 .

-«حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» 71 ص 364 .

40 - غافر

- « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » 5 ص 394 - 397 .

- « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ، فَاجْعَل لِّي صَرْحًا » 36 ص 222 .

- «وَقَالَ الذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ» 49 ص 370 .

41 - فصلت

- «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً» 3 - 4 ص 223 .

- «ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» 11 ص 87 - 98 .

- «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ» 20 ص 73 .

- «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا...» 21 ص 71 .

- «إِنَّ الذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» 40 ص 70 - 220 .

42 - الشورى

- « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» 11 ص 277 .

- «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » 40 ص 306 .

43 - الزخرف

- «وَالذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا » 11 ص 287 .

- «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ، وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ» 51 - 52 ص ص 274 .

-«مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» 58 ص 26 .

- «وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» 63 ص 109 - 110 .

44 - الدخان

- «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ» 26 ص 327 .

45 - الجاثية

-«وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» 34 ص92

47 - محمد

- «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» 12 ص 260 - 261 .

- «...أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ التِي أَخْرَجَتْكَ...» 13 ص 64 .

- «مَثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ...» 15 ص 318 .

- «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ» 19 ص 287 .

- «فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» 21 - ص 62 .

48 - الفتح

- «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» 29 ص 268 - 369 .

49 الحجرات

- «يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» 12 - ص 246 - 362 .

50 - ق

- «قَ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»1 - 2 - 3 ص 114 - 285 .

51 - الذاريات

- «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» 31 - 32 ص 297 .

-«إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ»41 ص63

-«وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ» 47 ص77.

52- الطور

-«أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ» 15 ص76.

-«أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ» 38 ص124.

53 - النجم

- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» 3 ص301.

- «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» 8-9 ص110.

- «وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى» 51 ص351.

54 -القمر

-«خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الـــــدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» 7 ص261.

- «كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيـــــحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» 18-20 ص257.

55 - الرحمن

-«خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» 14 ص261.

- «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»27 ص153.

-«سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ» 31 ص99.

-«فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ» 37 ص72،ص261

-«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ»41 ص85.

-«فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ»56 ص246.

- «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» 58 ص261.

56-الواقعة

-«فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ...» 8 ص60.

-«وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيـــقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» 20-22 ص114، 261.

-«فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ الـــنُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيـــمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» 75 ص295.

57- الحديد

-«لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...» 20 ص278.

58- المجادلة

-«فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً» 12 ص206.

62 - الجمعة

-«مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...» 5 ص73، 265.

63- المنافقون

-«وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» 4 ص223، ص270.

65- الطلاق

-«وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ، وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» 4 ص281.

68 - القلم

- «وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ...»9 ص70.

-«إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» 17 ص261.

-«فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» 20 ص109.

- «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» 42 ص101.

- «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ» 65 ص277.

-«يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ» 92 ص72.

69- الحاقة

-«فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» 8 ص351.

- «لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» 45-46 ص107.

70- المعارج

-«إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ» 6-9 ص261.

-«وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ»24-25 ص350.

-«عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ» 37 ص40.

-«يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نَصْبٍ يُوفِضُونَ ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» 43-44 ص270، ص271.

73- المزمل

- «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » 17 ص222.

-«السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً» 18 ص287.

74- المدثر

-«فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» 49-51 ص271.

75- القيامة

-«لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ...» 1 ص278.

-«بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» 14 ص110.

- «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» 22 - 23 ص 143 - 306 .

- «كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ» 26 - 27 ص 279 - 280

- «وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ» 29 - 30 ص 306 .

- «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» 34 - 35 ص 118

- «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا» 10 ص 105 .

79 - النازعات

- «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا» 10 ص 372 .
- «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا» 42 ص 211 .

81 - التكوير

- «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» 17 - 18 ص 330

83 - المطففين

- «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» 3 ص 115 .
- «عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ» 23 ص 143 .

86 - الطارق

- «مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ» 6 ص 63 - 202 .

88 - الغاشية

-«أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ» 17 - 20 ص 61 - 301 - 350

89 - الفجر

- «وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ» 1 - 5 ص 285 .
- «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» 13 ص 243 .

90 - البلد

- «لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» 4 ص 41

91 - الشمس

- «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا» 13 ص 282 .

93 - الضحى

- «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» 9 - ص 306 .

94 - الإنشراح

- «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ» 2 ص 104 .
- «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» 5 - 6 ص 118

96 - العلق

- «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ» 16 ص 107 .
- «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ» 17 ص 79 - 90 .
- «وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ» 19 ص 65 .

100 - العاديات

- «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» 8 ص 112 .

101 - القارعة

- «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» 4 - 5 ص 261

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ..» 7 ص 63 - 202 - 223

- «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ...» 9 ص 99 .

- «وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَهْ» 11 ص 281 .

102 - التكاثر

- «كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ» 3 - 4 ص 73 ص 117

104 - الهمزة

- «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ...» 1 - 2 ص 306 .

-«وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ» 5 - 6 ص 281

111 - المسد

- «فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» 5 ص 197 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث الشريفة

حرف « أ »

- أخبروني بشجرة تشبه ، أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا ولا ولا تؤتي أكلها كل حين . ص 43 .
- أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ص 65 .
- ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه. ص 318.
- ألا ترون إلى قول لقمان إن الشرك لظلم عظيم . ص 191 .
- أنزل القرآن على سبعة أحرف فالمراء في القرآن كفر ثلاث مرات ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه . ص 189 .
- إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه ص 190 .
- إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ص 190 .
- إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال لا بل هما سواد الليل وبياض النهار ص33
- إن الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها ص 2
- إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين هم النصارى ص 34 .
- إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة . إقرأوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ص 34
- إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه : إن الشرك لظلم عظيم ص 33 - 34 .

حرف « ب »

- البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ص 36 .

حرف « ت »

- اتقوا الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ص 36 .

حرف « ق »

- قضى الله خيرا لكل مسلم إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر ص 137

حرف « ل »

- لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ص323 .
- اللهم صيبا هيّنا ص 135 .
- لا وصية لوارث ص 36 .
- لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ص 36 .
- لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي ص 26 .

حرف « م »

- ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جبينه وجبهته وظهره ص 191 .
- من نوقش الحساب عذب . قلت أليس يقول الله : فسوف يحاسب حسابا يسيرا . قال: ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض ص 34 .

حرف « و »

- وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ، ألا وإن القوة الرمي ص 34 .

حرف « ي »

- يا ثعلبة ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة وشحا مطاعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك . فإن من بعدكم أيام الصبر ، والمتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملا . فقالوا يا رسول الله كأجر خمسين عامل منهم ؟ قال: بل كأجر خمسين عاملا منكم ص 319 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهس الأبيات الشعرية

حرف « أ »

- بذل الوعد للأخلاء سمحا وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغذا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الإباءِ

الخفيف ص 248

حرف « ب »

- ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائبِ

الطويل ص 371

- صداع وتوصيم العظام وفترة وغثيٌ مع الإشراق في الجوف لاتبِ

الكامل ص 197

- رلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازبِ

الطويل ص 197 .

- إن الرجال لهم إليكِ وسيلة إن يأخذوكِ تكحلي وتخضبي

الكامل ص 40 .

- فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ

الطويل ص 250 .

- ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذبُ

الطويل ص 192 .

- كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبُهْ

الطويل ص 29 .

- أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنبُ

البسيط ص 28

-لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثاث وفي أسنانها شنبُ

البسيط ص 28

- يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسي بالأحداث حين تنوبُ

الطويل ص 193

- إذا [illegible] السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً

الوافر ص 101 - 363 .

- أما ابن العاصمين بني تميم إذا ما أعظم الحدثان نابا

الوافر ص 194

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حرف « ت »

- إذا البيضة الصماء عضت صحيفةً بحربائها صاحت صياحا وصلت

الطويل ص 158 .

- ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

البسيط ص 248 - 249 .

- وعظتك أحداث صُمُتْ ونعتك ألسنة خُفُتْ
وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور سبتْ
وأرتك قبرك في القبور وأنت حي لم تمتْ

مجزوء الكامل ص 156 .

حرف « ج »

- بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملجُ

الطويل ص 258 .

- فصبّحت جابية صهارجا كأنها جلدة خارجاً

الرجز ص 197 .

- لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبيّن للإسلام دينا ومنهاجاً

الطويل ص 40 .

حرف « ح »

- ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ

الوافر ص 75 .

- إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب ميّة يبرحُ

الطويل ص 28 .

حرف « د »

- نمشي فنضرب بابها من دوننا علقا صريف محالة الأمسادِ

الكامل ص 198 .

- فإذا وذلك لا مهاة لذكره والدهر يعقب صالحا بفسادِ

الكامل ص 274 .

- يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبدِ

المنسرح ص 41 .

- تمنى امرؤ القيس موتي وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ

الطويل ص 196 .

- كميش الإزار خارجٌ نصف ساقه صبور على الجلاد طلاع أنجدِ
الطويل ص 102 .

- أريني جوادا مات هزلا لأنني أرى ما تر ين أو بخيلا مخلّدا
الطويل ص 77 .

حرف « ر »

- وتركب خيلا لا هوادة بينها وتعطي الرماح بالدياطرة الحُمْرِ
الطويل ص 110 .

- كأنها برج رومي يشيده بان بجص وآجر وأحجارِ
البسيط ص 188 .

- كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت عليّ عشارِي
الكامل ص 219 .

- وكنت إذا جاري دعا لمصفّة أشمر حتى ينصف الساق مئزرِي
الطويل ص 102

- رأيت فتى أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيحضرُ
الطويل ص 42 .

- كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام صائحة تخورُ
الوافر ص 42 .

كدمى العاج في المحاريب أو كـ بيض في الروض زهره مستنيرُ
الخفيف ص 196 .

- وأعور من نبهان أما نهاره فأعمى وأما ليله فبصيرُ
الطويل ص 227 .

- تغلغل حب عتمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسيرُ
الوافر ص 169 .

- وشر المنايا ميت وسط أهله كهلك الفتاة أسلم الحي حاضره
الطويل 227 .

- وسبحت المدينة لا تلمها رأت قمرا بسوقهم نهارا
الوافر 238 .

- ورحنا رواحا من زرود فنازعت زبالة جلبابا من الليل أخضرا
الطويل ص 362 .

- أخاف زيادا أن يكون عطاؤه أداهم سودا أو مدحرجة سمرا
الطويل ص 68 .

- فبانت وقد أسأرت في الفؤاد صداعا على نأيها مستطيرا
المتقارب ص 192 .

- إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذرْ

الطويل ص 119 .

- بل لو رأتني أخت جيراننا إذ أنا في الدار كأني حمارْ

السريع ص 159 .

- حتى انتضاه الصبح من ليل خضر مثل انتضاء البطل السيف الذكرْ
نضو هوى بل على نضو سفرْ

الرجز ص 362 .

حرف « س »

- دعني وشرب الهوى يا شارب الكاس فإنني للذي حسيته حاسي
لا يوحشنك ماستعجمت من سقم فإن منزله من أحسن الناسِ
من قطع ألفاظه توصيل مهلكتي ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسِ
متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ما كان قطع رجائي في يديَ ياسي

البسيط ص 30 .

- دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

البسيط ص 63 - 202 .

- قد علم القدوس مولى القدس أن أبا العباس أولى نفس
بمعدن الملك الكريم الكرسي

الرجز ص 194 .

- وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيسُ

الرجز ص 202 .

حرف « ض »

- طول الليالي أسرعت في نقضي طوين طولي وطوين عرضي

الرجز ص 195 .

حرف « ط »

- صبحنا أرضهم بالخيل حتى تركناها أدق من الصراطِ

الوافر ص 237 .

حرف « ع »

- أخي قفرات دببت في عظامه شفافات أعجاز الكرس فهو أخضعُ

الطويل ص 195 .

- إذا ما مشت وسط السماء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانعُ

الطويل ص 41

- همُ صلبوا العبدي في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا
الطويل ص 86 - ص 124 .
- وأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً
الطويل ص 193 .
- بانت وقد أسأرت في النفس حاجتها بعد ائتلاف وخير الود ما نفعاً
البسيط ص 192 .

حرف « ف »

- تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدنانير تنقاد الصياريفِ
البسيط ص 20
- عنجرد تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرفُ
الرجز ص 260 .
- بملمومة شهباءَ لو قذفوا بها شماريخ من رضوى إذن عاد صفصفاً
الطويل ص 41 .

حرف « ق »

- وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كلمح سراب في الفلاَ متألقِ
الطويل ص 189 .
- ومسد أمر من أيانق صهب عتاق ذات مخ زاهقِ
الرجز ص 198
- تروح على نادي المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهقُ
الطويل ص 197 .
- يداه يدا مجد فكف مفيدة وكف إذا ما ضن بالزاد تنفقُ
الطويل ص 205 .
- ألم تسأل الربع القديم فينطق فهل تخبرن اليوم بيدا سملّق
الطويل ص 59 .
- أسلمته في دمشق كما أسلمت وحشية وهقا
المديد ص 111 .

حرف « ل »

- أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ
الطويلَ ص 11 - 251 - 262 .

- لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حَالِ

السريع ص 22 .

- أبني غدانة إنني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعالِ

الكامل ص 234 .

- باكرتها الأعراب في سنة النو م فتجري خلال شوك السيالِ

الخفيف ص 183 .

- كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدا وكرها العناب والحشف البالي

الطويل ص 30 - 250 .

- رأت مر السنين أخذنا مني كما أخذ السرار من الهلالِ

الوافر ص 195 .

- دعت فيه الأعداء واستبدلت خناطيل آجال من العين حذلِ

الطويل ص 99 .

- أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذي تهواه أم لم يفعلِ

الكامل ص 390 .

- مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

الطويل ص 249 .

- فعيناك عيناها ولونك لونها وجيدك إلا أنها غير عاطلِ

الطويل ص 198 .

- برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضللِ

الكامل ص 30

- قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

الطويل ص 390 .

- لعمرك إن الزبرقان لبادل لمعروفه عند السنين وأفضلُ
كريم له عن كل ذم تأخر وفي أسباب المكارم أول

الطويل ص 196 .

- لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أولُ

الطويل ص 196 .

- إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطولُ

الكامل ص 196 .

- شكوت إليها حبها المتغلغلا فما زادها شكواي إلا تذللا

الطويل ص 169 .

- ويأوي إلى نسوة عطل وشعث مراضيع مثل السعالى

المتقارب ص 297 .

- نحن حفرنا للحجيج سجله نابتة فوق شفاه بقلَهْ

الرجز ص 195 .

- إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبلْ

الرمل ص 41 .

حرف « م »

- إني وجدت بيان المرء نافلة يهدى له ووجدت العيّ كالصمِ
المرء يبلى ويبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوما ولو لم يلمِ

البسيط ص 44

- يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو بضوء سناه داجي الظلمِ

البسيط ص 41 .

- لم تخلق السماء والنجوم والشمس معها قمر يقومُ
قدره المهيمن القيوم والحشر والجنة والنعيمُ
إلا لأمر شأنه عظيمُ

الرجز ص 182 .

- حارث قد فرجت عن همي فنام ليلي وتجلى غمي

الخفيف ص 227 .

- هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

الكامل ص 238 .

- أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيمُ

الوافر ص 237 .

- جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا على ثبت من أمرهم حين يمموا

الطويل ص 144 .

- لعبت بعدي السيول به وجرى في رونق رَهَمُهْ
للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمُهْ

المديد ص 236 .

- وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما

الكامل ص 144 .

- يقول إذا اقلولى عليها وأقردت ألا هل أخو عيش لذيذ بدائمِ

الطويل ص 276 .

- لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائمِ

الطويل ص 80 - 122 .

- وسنان أقصده النعاس فرشقت في عينه سنة وليس بنائمِ

الكامل ص 183 .

- مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدمِ
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
الكامل ص 99

- عشية سال المربدان كلاهما سحابة موت بالسيوف الصوارم
الكامل ص 152 - 157 .

- - كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم
الكامل ص 112

- بنى اللؤم بيتا فاستقر عماده عليكم بني النجار ضربة لازمِ
الطويل ص 197 .

- ألا أبلغا هذا المعرض آية أيقضان قال القوم إذ قال أم حلمُ
الطويل ص 193 .

- إلى المرء قيس أطيل السرى وآخذ من كل حي عصمْ
المتقارب ص 194 .

- كم نعمة كانت لكم كم نعمة وكم وكمْ
مجزوء الكامل ص 118 .

حرف « ن »

- إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمينِ
الوافر ص 154 .

- كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غراب ذي قوادم جونِ
الطويل ص 249 .

- تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا ودِيني
أكل الدهر حلّ وارتحال أما يبقي عليّ ولا يقيني
الوافر ص 98 - 155 .

- أتوعدني وراء بني رياح كذبت لتقصرن يداك دوني
الوافر ص 80

- أالخير الذي أبتغيه أم الشر هو الذي يبتغيني
الوافر ص 115

- تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفنُ
البسيط ص 37 .

- إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا مني وما يسمعوا من صالح دفنوا
البسيط ص 86 .

- لاه ربي عن الخلائق طرا خالق الخلق لا يُرى ويراناً
الخفيف ص 325 .

- فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا
الوافر ص 40 .

- هل سألت جمع كنده يوم ولوا أين أينَ

مجزوء الرمل ص 118 .

- تعاطى الضجيج إذا أقبلت بُعيْد النعاس وقبل الوسنْ

المتقارب ص 183

حرف « هـ »

- طفقت سحابة بعدها تغشاها تبكي على اعراضها عيناها

الكامل ص 370 .

- وإذا تجوزها حبال القبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالها

الكامل ص 84 .

حرف « ي »

- لقد يأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

الطويل ص 41 .

- ألكني إليها عمرك الله يا فتى بآية ما جاءت إلينا تهاديا

الطويل ص 192 .

- إذا أنت جازت الإخاء بمثله وآسيتني ثم اعتصمت حباليا

الطويل ص 195 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم (برواية حفص عن قراءة عاصم)

1 - أبو بكر الصولي ناقدا : صبحي ناصر حسين ط1 دار الجاحظ للطباعة والنشر بغداد 1975

2 - الإتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم دوافعها ودفعها محمد حسين الذهبي مكتبة وهبة القاهرة

3 - الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي المكتبة الثقافية بيروت 1973

4 - أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي مساعد مسلم آل جعفر ط1 مؤسسة الرسالة بيروت 1984

5 - أثر النحاة في البحث البلاغي حتى القرن الخامس الهجري عبد القادر حسين مطبعة نهضة مصر 1975

6 - أثر القرآن في تطور النقد العربي محمد زغلول سلام دار المعارف مصر

7 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم شمس الدين المقدسي ط2 ليدن 1967

8 - أخبار النحويين البصريين أبو سعيد السيرافي تحقيق طه الزين وعبد المنعم خفاجي طبعة مكتبة نهضة مصر

9 - الأدب وفنونه محمد منذور ط 2 دار نهضة مصر 1974

10 - آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها في البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجري أحمد أحمد فشل الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية 1979

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

11 – أساس البلاغة	جار الله الزمخشري منشورات دار الفكر 1979
12 – الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير	محمد محمد أبو شهبة مجمع البحوث الإسلامية مصر 1973
13 – أسرار البلاغة	عبد القاهر الجرجاني تصحيح محمد رشيد رضا ط6 مكتبة محمد علي صبيح القاهرة 1959
14 – الأسس الجمالية في النقد الأدبي	عز الدين اسماعيل ط3 دار الفكر العربي القاهرة 1974
15 – الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز	العز بن عبد السلام دار الطباعة المعاصرة إستنبول 1312 هـ
16 – الإصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلاني ط1 دار العلوم الحديثة 1328 هـ
17 – أصول البيان العربي	محمد حسين الصغير دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1986
18 – الأضداد	أبو بكر الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية صيدا لبنان 1987
19 – إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق .	حفني ناصف . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة
20 – إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة	منير سلطان . طبعة منشأة المعارف الإسكندرية .
21 – إعجاز القرآن	أبو بكر الباقلاني تحقيق السيد صقر دار المعارف مصر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

22 - إعجاز القرآن	أبو سليمان الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ط2 دار المعارف 1968
23 - إعجاز القرآن (الجزء السادس من المغني في أبواب العدل والتوحيد)	القاضي عبد الجبار طبعة دار الكتب مصر 1960
24 - إعلام الموقعين عن رب العالمين	ابن قيم الجوزية مطبوعات شقرون القاهرة
25 - الأعلام	خير الدين الزركلي ط3 بيروت 1969
26 - الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت
27 - الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد)	الشريف المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة السعادة القاهرة
28 - الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدي تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين منشورات دار مكتبة الحياة بيروت
29 - الأمثال في القرآن الكريم	ابن قيم الجوزية تحقيق سعيد محمد الخطيب ط2 دار المعرفة بيروت 1983
30 - أمراء البيان	محمد كرد علي طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة
31 - الإيضاح في علوم البلاغة	الخطيب القزويني دار الكتب العلمية بيروت 1985
32 - انباه الرواة على أنباه النحاة	جمال الدين القفطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي القاهرة 1986

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

33 - الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن — عبد الرؤوف مخلوف مشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1978

34 - بحر العلوم — أبو الليث السمرقندي تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبد المجيد النوني دار الكتب العلمية بيروت 1993

35 - البحر المحيط — أبو حيان منشورات دار الفكر 1983

36 - البحث البلاغي — محمد عبد الرحمن الشحات الهيئة المصرية العامة للكتاب

37 - البخلاء — أبو عثمان الجاحظ طبعة دار صادر بيروت

38 - البداية والنهاية — ابن كثير طبعة بيروت 1966

39 -البديع — عبد الله بن المعتز منشورات دار الحكمة دمشق

40 - البرهان في علوم القرآن — بدر الدين الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم منشورات دار الفكر بيروت

41 - البرهان في وجوه البيان — ابن وهب الكاتب تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ط1 بغداد 1967

42 - بستان العارفين — أبو يحيى النووي تحقيق محمد الحجار مكتبة دار العودة بيروت 43

43 - البلاغة تطور وتاريخ — شوقي ضيف ط6 دار المعارف القاهرة 1983

44 - البلاغة العربية تاريخها ومصادرها — علي عشري مكتبة الشباب مصر 1979

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

45 - البلاغة العربية في دور نشأتها	سيد نوفل دار النهضة المصرية 1948
46 - البلاغة عند الجاحظ	أحمد مطلوب دار الشؤون الثقافية والنشر بغداد 1983 .
47 - بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ	فتحي عامر دار النهضة العربية القاهرة 1974
48 - البيان في ضوء أساليب القرآن	عبد الفتاح لاشين ط1 دار المعارف القاهرة 1977
49 - البيان القرآني	محمد رجب البيومي دار النصر للطباعة القاهرة 1971
50 - البيان والتبيين	أبو عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة 1975 وتحقيق حسن السندوبي المطبعة الرحمانية القاهرة .
51 - تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي مكتبة الخانجي القاهرة
52 - تاريخ الخلفاء	جلال الدين السيوطي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة القاهرة
53 - تاريخ الفرق	محمد أبو زهرة دار الفكر العربي القاهرة
54 - تاريخ النقد الأدبي عند العرب	إحسان عباس ط2 دار الثقافة بيروت 1978
55 - تأويل مختلف الحديث	عبد الله بن مسلم بن قتيبة مكتبة الكليات الأزهرية 1966 .
56 - تأويل مشكل القرآن	عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق ونشر سيد أحمد صقر ط2 دار التراث 1973

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

57 - تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري	ابن عساكر طبعة دار التوفيق سوريا
58 - التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس	وليد قصاب دار الثقافة الدوحة 1985
59 - ترتيب المدارك	القاضي عياض تحقيق أحمد بكير محمود دار مكتبة الحياة بيروت 1965
60 - التصاريف	يحيى بن سلام تحقيق هند شلبي الشركة الوطنية للتوزيع تونس 1979
61 - تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة	عبد العزيز عبد الله الحميدي مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة مكة المكرمة
62 - تفسير القرآن العظيم	أبو الفداء بن كثير المكتبة التجارية القاهرة
63 - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)	الفخر الرازي دار الطباعة العامرة مصر
64 - تفسير كتاب الله العزيز	هود بن محكم الهواري تحقيق الحاج بن سعيد شريفي ط1 دار الغرب الإسلامي بيروت 1990
65 - التفسير معالم حياته . منهجه اليوم	أمين الخولي دار المعلمين للطبع والنشر القاهرة
66 - التفسير ورجاله	الفاضل بن عاشور تونس 1966
67 - التفسير والمفسرون	محمد حسين الذهبي ط4 مكتبة وهبة القاهرة 1989
68 - تفسير يحيى بن سلام (مخطوط)	بحوزت هند شلبي تونس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

69 - التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره حتى القرن السادس — حمادي صمود منشورات الجامعة التونسية 1981

70 - تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل — أبو بكر الباقلاني تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ط1 مؤسسة الكتب الثقافية بيروت 1987

71 - تنزيه القرآن عن المطاعن — القاضي عبد الجبار طبعة دار النهضة الحديثة بيروت

72 - الجاحظ معلم العقل — شفيق جبري مطبعة الجامعة السورية

73 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن — ابن جرير الطبري . تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر دار المعارف القاهرة. وطبعة دار الفكر بيروت 1984

74 - الجامع لأحكام القرآن — القرطبي ط3 القاهرة 1967

75 - الجمان في تشبيهات القرآن — ابن ناقيا البغدادي تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي دار الجمهورية بغداد 1968

76 - جمهرة أنساب العرب — ابن حزم الأندلسي تحقيق عبد السلام هارون دار المعارف القاهرة

77 - حبر الأمة ومدرسته في التفسير — عبد الله محمد سلفي . طبعة الشؤون الإسلامية السعودية .

78 - حلية الأولياء — أحمد بن عبد الله الأصفهاني طبعة الخانجي القاهرة

79 - الحماسة — ضياء الدين بن الشجري منشورات وزارة الثقافة دمشق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

80 - الحيوان — أبو عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط3 مكتبة الخانجي القاهرة 1969 وتحقيق حسن السندوبي المطبعة الرحمانية القاهرة .

81 - خزانة الأدب — عبد القادر البغدادي تحقيق عبد السلام هارون دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة 1968

82 - الخصائص — ابن جني دار الهدى بيروت

83 - خطوات التفسير البياني — محمد رجب البيومي دار النصر للطباعة القاهرة

84 - دائرة المعارف الإسلامية — أمين الخولي . القاهرة 1933

85 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور — جلال الدين السيوطي المطبعة الإسلامية طهران

86 - دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني تصحيح السيد محمد رضا ط6 مكتبة علي صبيح القاهرة 1959

87 - الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب — برهان الدين بن فرحون ط1 تونس 1351هـ

88 - ديوان أبي تمام — طبعة صادر بيروت

89 - ديوان إمرئ القيس — طبعة دار صادر بيروت

90 - ديوان رؤبة بن العجاج — طبعة دار صادر بيروت

91 - ديوان الفرزدق — طبعة دار صادر بيروت

92 - ديوان الهذليين — طبعة دار صادر بيروت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

93 - رسائل الجاحظ	تحقيق عبد السلام هارون مؤسسة الخانجي القاهرة 1975
94 - رغبة الآمل من كتاب الكامل	سيد بن علي المرصفي ط1 القاهرة 1927
95 - الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة (ضمن رسائل البلغاء)	أبو اليسير بن المدبر طبعة محمد كرد علي القاهرة 1954
96 - رسالة في البلاغة	أبو العباس المبرد تحقيق رمضان عبد التواب مطبعة جامعة عين شمس القاهرة 1965
97 - الرفع في الجرح والتعديل	محمد عبد الحميد الهندي . دار احياء التراث الإسلامي السعودية
98 - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني	الألوسي القاهرة 1964
99 - رياض النفوس	أبو بكر عبد الله المالكي ط1 القاهرة 1951
100 - زاد المسير في علم التفسير	أبو الفرج بن الجوزي القرشي المكتب الإسلامي للطباعة والنشر سوريا 1964
101 - زهر الآداب وثمر الألباب	أبو إسحاق الحصري القيرواني تحقيق زكي مبارك ط3 القاهرة 1953
102 - سلسلة أعلام العرب (الطبري)	أحمد الحوفي وزارة الثقافة والإرشاد القاهرة
103 - سنن الترمذي	طبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

104 - سير أعلام النبلاء	الحافظ الذهبي تحقيق شعيب الأرنؤوط ط3 مؤسسة الرسالة بيروت 1985
105 - شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي المكتبة التجارية بيروت
106 - شروح التلخيص	سعد الدين التفتازاني القاهرة 1937
107 - صحيح البخاري	شرح ابن حجر طبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة
108 - الصناعتين	أبو هلال العسكري تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية صيدا بيروت 1986
109 - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز	ابن حمزة العلوي مطبعة المقتطف القاهرة
110 - الطبقات الكبير	محمد بن سعد طبعة ليدن
111 - طبقات الحنابلة	أبو الحسن بن يعلى دار الكتب المصرية
112 - طبقات علماء إفريقيا	أبو العرب بن تميم تحقيق محمد بن أبي شنب الجزائر 1914
113 - طبقات فحول الشعراء	ابن سلام الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر القاهرة 1952
114 - طبقات المعتزلة	القاضي عبد الجبار تحقيق سامي النشار وعصام الدين محمد علي دار المطبوعات الجامعية القاهرة 1972
115 - طبقات المفسرين	جلال الدين السيوطي ط1 دار الكتب العلمية بيروت 1983

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

116 - طبقات المفسرين	الداودي تحقيق إبراهيم محمد عمر القاهرة 1972
117 - طبقات النحويين واللغويين	أبو بكر الزبيدي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة الخانجي القاهرة
118 - عروس الأفراح (مطبوع في شروح التلخيص)	بهاء الدين السبكي القاهرة 1937
119 - العقد الفريد	ابن عبد ربه تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري القاهرة 1965
120 - علم البيان	عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية بيروت 1974 .
121 - علوم البلاغة	أحمد مصطفى المراغي دار القلم بيروت
122 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده	ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط5 دار الجيل بيروت 1981
123 - عيون الأخبار	عبد الله بن قتيبة دار الكتب المصرية
124 - غاية النهاية في طبقات القراء	ابن الأثير الجزري نشر برجستراسر مطبعة السعادة القاهرة
125 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني أخرجه محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب المطبعة السلفية
126 - الفرق بين الفرق	عبد القاهر البغدادي منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت
127 - الفصل في الملل والنحل	ابن حزم الأندلسي مطبعة محمد علي صبيح القاهرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

128 - الفصل والوصل في القرآن الكريم	منير سلطان . دار النهضة العربية القاهرة .
129 - فن التشبيه	علي الجندي مطبعة نهضة مصر 1952
130 - الفهرست	ابن النديم تحقيق مصطفى الشويمي الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985
131 - الفوائد المشوق	ابن قيم الجوزية طبعة دار الكتب العلمية بيروت
132 - القراءات بإفريقيا إلى منتصف القرن الخامس	هند شلبي . الدار العربية للكتاب تونس 1983
133 - القرآن والصورة البيانية	عبد القادر حسين . دار نهضة مصر
134 - قضايا النقد الأدبي	بدوي طبانا . دار المريخ للنشر الرياض 1984 .
135 - قواعد الشعر	أبو العباس ثعلب . تحقيق رمضان عبد التواب ط1 دار المعرفة القاهرة 1966
136 - الكامل	أبو العباس المبرد . طبعة دار نهضة مصر القاهرة
137 - الكتاب	سيبويه . المطبعة الأميرية القاهرة
138 - كتاب التاريخ	ابن جرير الطبري . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط4 دار المعارف مصر 1979 .
139 - الكشاف عن حقائق التنزيل	جار الله الزمخشري دار المعرفة بيروت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

140 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون	حاجي خليفة تصحيح وطبع محمد شرف الدين وكالة المعارف إستانبول
141 - الكشف عن مساوئ شعر المتنبي	الصاحب بن عباد . تحقيق محمد حسن الياسين ط1 مكتبة النهضة بغداد 1965
142 - لسان العرب	ابن منظور دار المعارف القاهرة
143 - لسان الميزان	ابن حجر العسقلاني . دار الفكر بيروت 1971 .
144 - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني (نشأتها وتطورها حتى القرن السابع)	أحمد جمال العمري مكتبة الخانجي القاهرة 1990 .
145 - متشابه القرآن	القاضي عبد الجبار . تحقيق عدنان زرزور دار التراث مصر
146 - المثل السائر	ابن الأثير . تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة دار نهضة مصر
147 - المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع	عبد العظيم المطعني . ط1 مطبعة حسان القاهرة 1985
148 - مجاز القرآن	أبو عبيدة عمرو بن المثنى . تحقيق فؤاد سزكين ط2 مكتبة الخانجي القاهرة 1970
149 - مجموع الفتاوي	ابن تيمية . جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد السعودية 1399 هـ
150 - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء	الراغب الأصفهاني منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1961 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

151 - المزهر في علوم اللغة
جلال الدين السيوطي . تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ط3 القاهرة

152 - المطول على التلخيص
سعد الدين التفتازاني . طبعة الأستانة تركية 1330 هـ .

153 - معاني القرآن
سعيد بن مسعدة الأخفش . تحقيق عبد الأمير الورد عالم الكتب بيروت 1985

154 - معاني القرآن
أبو زكريا الفراء . تحقيق ومراجعة محمد علي النجار الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب القاهرة .

155 - معاني القرآن وإعرابه
الزجاج . شرح وتحقيق عبد الجليل عبدو شلبي منشورات المكتبة العصرية بيروت - صيدا

156 - معترك الأقران في إعجاز القرآن
جلال الدين السيوطي . دار الفكر العربي القاهرة

157 - المعتزلة
زهدي جار الله دار الأهلية للنشر والتوزيع بيروت 1974

158 - معجم الأدباء
ياقوت الحموي . دار الفكر بيروت

159 - معجم متن اللغة
أحمد رضا . مكتبة الحياة بيروت 1960

160 - المغني في أبواب العدل والتوحيد
القاضي عبد الجبار . دار النهضة الحديثة بيروت .

161 - مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب
ابن هشام الأنصاري . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية لبنان 1991 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

162 - مفتاح العلوم (الجزء الثالث)	أبو يعقوب السكاكي . ضبط وتعليق نعيم زرزور ط2 دار الكتب العلمية بيروت 1987 .
163 - المفردات في غريب القرآن	الراغب الأصفهاني . تحقيق محمد سيد كيلاني القاهرة 1961 .
164 - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين	أبو الحسن الأشعري . تحقيق محي الدين بن عبد الحميد ط2 مكتبة النهضة المصرية 1969
165 - المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين	فوزي السيد عبد ربه عيد . دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1983
166 - المقدمة	عبد الرحمن بن خلدون . دار الكشاف بيروت
167 - مقدمة في النقد الأدبي	محمد حسن عبد الله . ط1 دار البحوث العلمية الكويت 1975
168 - من بلاغة القرآن	أحمد أحمد بدوي . ط3 دار نهضة مصر
169 - منهج البحث في اللغة والأدب	لانسون . ترجمة محمد مندور دار العلم للملايين بيروت
170 - منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه	مصطفى الصاوي الجويني . دار المعارف القاهرة
171 - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري	أبو القاسم الآمدي . تحقيق السيد أحمد صقر . ط4 دار المعارف 1982
172 - الموافقات	الشاطبي . طبعة محمد علي صبيح القاهرة
173 - ميزان الإعتدال في نقد الرجال	الحافظ الذهبي . ط1 القاهرة 1963

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

174 - النحو وكتب التفسير — إبراهيم عبد الله رفيدة . المنشأة العامة للنشر والتوزيع ليبيا 1984

175 - نزهة الألباء في طبقات الأدباء — أبو البركات بن الأنباري . تحقيق إبراهيم السامرائي بغداد 1959

176 - نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين — ألفت كمال الروبي . عالم الكتب القاهرة

177 - نظرية المعنى في النقد العربي — مصطفى ناصف . دار القلم القاهرة 1965

178 - النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري — هند حسين طه . دار الرشيد للنشر بغداد 1981 .

179 - النقد الأدبي الحديث — محمد النويهي . دار الفكر العربي القاهرة

180 - نكت الإنتصار في نظم القرآن — أبو بكر الباقلاني تحقيق محمد زغلول سلام . طبعة منشأة المعارف الاسكندرية .

181 - النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) — أبو الحسن الرماني . تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام دار المعارف 1968 .

182 - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز — الفخر الرازي . تحقيق محمد زغلول سلام ومصطفى هدارة الاسكندرية 1974

183 - الوساطة بين المتنبي وخصومه — عبد العزيز الجرجاني . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي منشورات المكتبة العصرية بيروت .

184 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — أبو العباس بن خلّكان . تحقيق محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية .

الدوريات

- مجلة المورد المجلد السابع عشر العدد الرابع بغداد 1988 .
- مجلة الأزهر المجلد العاشر القاهرة 1939 .
- مجلة لواء الإسلام المجلد السابع العدد الأول القاهرة 1953 .

فهرس الموضوعات

المقدمة ..... أ - ر

التمهيد : مفهوم البلاغة والنقد الأدبي في القرون الأربعة الأولى ..... 1 - 32
أولا : مفهوم البلاغة ..... 1 - 19
ثانيا : مفهوم النقد الأدبي ..... 20 - 24
ثالثا : بين البلاغة والنقد الأدبي ..... 25 - 32

الباب الأول : الدرس البلاغي من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
إلى نهاية القرن الثالث ..... 33 - 173
الفصل الأول : الدرس البلاغي وإشاراته في تفسير
الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ..... 33 - 49
المبحث الأول : الدرس البلاغي في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم .. 33 - 36
المبحث الثاني : الدرس البلاغي في تفسير الصحابة ..... 37 - 49
الفصل الثاني : الدرس البلاغي عند الدارسين للقرآن خلال القرن الثاني .... 50 - 93
المبحث الأول : الدرس البلاغي وإشاراته عند سيبويه ..... 50 - 55
المبحث الثاني : الدرس البلاغي وإشاراته عند الفراء ..... 56 - 73
المبحث الثالث : الإشارات البلاغية عند أبي عبيدة ..... 74 - 93
الفصل الثالث : الدرس البلاغي عند المفسرين ودارسي القرآن
في القرن الثالث ..... 94 - 139
المبحث الأول : الرؤية البلاغية لابن قتيبة في كتاب تأويل
مشكل القرآن ..... 94 - 119
المبحث الثاني : أبو العباس المبرد ورؤيته البلاغية ..... 120 - 127
المبحث الثالث : تفسير كتاب الله العزيز بين هود بن محكم الهواري
ويحيى بن سلام البصري ..... 128 - 139
الفصل الرابع : الدرس البلاغي في تفاسير المعتزلة ..... 140 - 173

الباب الثاني : الإمام الطبري وتفسيره ..... 174 - 331
الفصل الأول : جامع البيان للإمام الطبري ..... 174 - 209
الفصل الثاني : الدرس البلاغي في تفسير الطبري ..... 210 - 271
المبحث الأول : الاستفهام والأمر والنهي ..... 210 - 221
المبحث الثاني : علم البيان في تفسير الطبري ..... 222 - 271

الفصل الثالث : علم المعاني والبديع في تفسير الطبري ..... 272 - 310
المبحث الأول : علم المعاني ..... 272 - 303
المبحث الثاني : علم البديع في تفسير الطبري ..... 304 - 310
الفصل الرابع : على درب الطبري (السمرقندي) ..... 311 - 331

الباب الثالث : الدرس البلاغي وقضايا الإعجاز القرآني
في القرون الأربعة الأولى ..... 332 - 400
الفصل الأول : الإعجاز القرآني وقضاياه ..... 332 - 347
الفصل الثاني : الجاحظ ورؤيته في الدرس البلاغي على ضوء
أساليب القرآن وإعجازه ..... 348 - 377
الفصل الثالث : الباقلاني وجهوده في الإعجاز القرآني ..... 378 - 400

الخاتمة ..... 401 - 402
ملخص باللغة الفرنسية ..... 403 - 404

الفهارس العامة ..... 405 - 461
فهرس الآيات الكريمة ..... 405 - 432
فهرس الأحاديث الشريفة ..... 433 - 434
فهر الأبيات الشعرية ..... 435 - 443
فهرس المصادر والمراجع ..... 444 - 459
فهرس الموضوعات ..... 460 - 461

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية